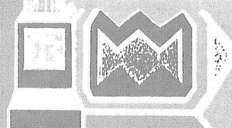
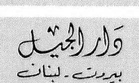
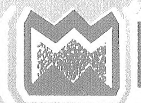
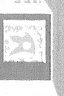
محمود شلبي

حياة عائشة
"أم المؤمنين"
رضي الله عنها

دار الجيل
بيروت - لبنان

حياة عائشة

محمود شلبي

حياة عائشة

"أم المؤمنين"

رضي الله عنها

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

الاهداء

اللهم... منك.. وإليك

محمود شلبي

بسم اللّه الرحمٰن الرحيم

مقدمة

أحمد اللّه... الذي لا إلٰه إلا هو... وأصلّي... وأسلِّم... على البشير النذير... الذي لا نبيّ بعده...

وبعد...

هذه «حياة عائشة»... رضي اللّه تعالى عنها...

أفضل نساء النبيّ... ﷺ... بعد وفاة خديجة... رضي اللّه عنها... وأحبهنّ إليه.. ﷺ... اجتمع لها الشرَف من أطرافه... فهي أفضل من قال اللّه فيهنّ... ﴿يا نِسَاءَ النَّبِيِّ... لَسْتُنَّ كأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ...﴾...

وهي أحبّ نسائه إليه... وهذا شرَف عظيم...

«يا رسولَ اللّهِ... مَن أحبُّ الناسِ إليكَ؟...

«قال: عائشةُ...»!!!

وهي أعظم نسائه نفعًا للأمة كلها... في أمور دينها... وهذا شرَف كبير... «وإنَّ فَضْلَ عائشةَ على النساءِ... كفَضْل الثَرِيدِ على سائرِ الطعامِ».!!!

وَالمراد نفعه للجميع... وتيسر تناوله...

«ما أشْكَلَ علينا أصحابَ رسول اللّه... صلّى اللّه عليه وسلم... حديثٌ قَطُّ... فسَألْنا عائشةَ إلا وَجَدْنا عِندَها منهُ عِلْمًا.»!!!

ولو لم يكن لها من الشرَف إلا أن قال لها رسول اللّه... ﷺ:

«يا عائِشُ...

«هذا جبريلُ...

«يقرأُ عليكِ السلامَ»...
لكان حسبها... فكيف وفضائلها لا يعلمها إلا اللّه؟!!

محمود شلبي

القاهرة ١٤١١هـ - ١٩٩١م

هذه...

أمّ المؤمنين...

عائشة...

رضي اللّه عنها...؟!

رَحِمَ اللّهُ أبا بَكْرٍ... زَوَّجَني ابْنَتَهُ؟!

«عَنْ عَلِيٍّ قالَ:

«قالَ رسولُ اللّهِ... صلى اللّه عليه وسلم:

«رَحِمَ اللّهُ أبَا بَكْرٍ... زَوَّجَني ابْنَتَهُ... وَحَمَلني إلى دَار الهِجْرَةِ... وأَعْتَقَ بِلَالًا مِنْ مَالِهِ...

«رَحِمَ اللّهُ عُمَرَ... يَقُولُ الحقَّ وَإن كانَ مُرّاً... تَرَكَهُ الْحَقُّ ومَا لهُ صَدِيقٌ...

«رحِمَ اللّهُ عُثمانَ... تَسْتَحْيِيهِ الملائكةُ...

«رحِمَ اللّهُ عَليًا... اللّهُمَّ أَدِرِ الحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دارَ».

[أخرجه الترمذي]

فضل أبيها... رضي الله عنهما؟!

«عَنْ عَائِشَةَ...

«عَنْ عُمَرَ بْنِ الخطَّابِ... قالَ:

«أبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا...

وخَيْرُنا...

«وأَحَبُّنَا إِلَى رسولِ اللّهِ... ﷺ».

[أخرجه الترمذي]

وَيَتَبَسَّمَانِ إِلَيْهِ... وَيَتَبَسَّمُ إِلَيْهِمَا؟!

«عَنْ أَنسٍ...

«أَنَّ رسولَ اللّه... ﷺ... كانَ يَخْرُجُ علىَ أَصحابِهِ مِنَ المهَاجرينَ والأنصارِ... وهُمْ جُلُوسٌ...

«فيهِمْ أبو بَكْرٍ وعُمَرُ...

«فَلَا يَرْفَعُ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُم بَصَرَهُ...

«إلَّا أبُو بَكْرٍ وعُمَرُ...

«فإِنَّهُمَا كانَا يَنظُرَانِ إِلَيْهِ... وَينظُرُ إِلَيْهِما...

«وَيَتَبَسَّمَانِ إِلَيْهِ...

«وَيَتَبَسَّمُ إِلَيْهِمَا».

[أخرجه الترمذي]

أي سعادة... كان فيها الشيخان ... أبو بكر وعمر... رضي اللّه تعالى عنهما ؟!!

ها هو المشهد المقدس:

كانا ينظران إليه... وينظر إليهما!!!

ويَتبسَّمان إليهِ... ويَتبسَّم إليهما!!!

ابتسامة مَن؟!!

ابتسامة... خير خلْق اللّه كلهم... صلى اللّه تعالى عليه وآله وصحبه وسلم!!!

يتبسَّم لمَن؟!!

لصاحبيه... للشيخين الجليلين... رضي اللّه تعالى عنهما!!!

ثم ماذا؟!

ويتبسَّمانِ إليه؟!!!
مشهد؟!!!
اللحظة فيه... خيرٌ من الدنيا وما فيها!!!
إنَّه رسول اللّه... يتبسَّم إلَيهما!!!
وإنهما صاحباه... يتبسَّمان إليه!!!

عائشة... بنت... هذا العظيم؟!

«سَمِعْتُ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ يقولُ:
«أَمَرَنا رسولُ اللّهِ... ﷺ... أن نَتَصَدَّقَ...
«فوافَقَ ذلِكَ مَالًا...
«فقلتُ: اليَوْمَ أَسْبِقُ أبا بَكْرٍ... إِن سَبَقْتُهُ يَوْمًا...
«قالَ: فجِئْتُ بِنِصْفِ مالِي...
«فقالَ رسولُ اللّه... ﷺ: ما أبقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟...
«قُلْتُ: مثْله...
«وأتَى أبو بَكْرٍ بكُلِّ ما عِندَهُ...
«فقالَ: يا أبا بَكْرٍ... ما أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟...
«قالَ: أبْقَيْتُ لَهُمُ اللّهَ ورسولَهُ...
«قلتُ: واللّهِ.. لَا أَسْبِقُهُ إلى شَيْءٍ أبَدًا».

[أخرجه الترمذي]

يا عائِشَةُ... تَعالَيْ... فَانظُري؟!

«عَنْ عَائشَة... قالَتْ:
«كانَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... جالِسًا...
«فَسَمِعْنا لَغَطًا وصَوْتَ صِبْيَانٍ...
«فقامَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... فإذا حَبَشِيَّةٌ تُزَفِّنُ والصِّبْيَانُ حَوْلَهَا...

«فقالَ: يا عائِشَةُ... تعالَيْ... فَانظُري...
«فَجِئْتُ فَوَضَعْتُ لَحْيَيَّ عَلَى مَنْكِبِ رسول اللّهِ... ﷺ...
«فَجَعَلْتُ أنْظُرُ إلَيْها.. ما بَيْنَ المَنْكِبِ إلى رَأْسِهِ...
«فقالَ لِي: أمَا شَبِعْتِ... أما شَبِعْتِ؟...
«قَالَتْ: فَجَعَلْتُ أقُولُ: لَا... لِأَنْظُرَ مَنزِلَتِي عَنْدَهُ...
«إذْ طَلَعَ عُمَرُ...
«قَالَ: فَارْفَضَّ الناسُ عَنْهَا...
«قالَتْ: فقالَ رسولُ اللّهِ: إنِّي لَأَنْظُر إلَى شياطينِ الانْسِ والجِنِّ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ...
قالَتْ: فَرَجَعْتُ.».

[أخرجه الترمذي]

هذه لحظة من حياة عائشة!!!
يا عائشةُ... تَعَالَيْ... فانظُري!!!
كيف كان شعورها... ورسول اللّه... ﷺ يقول لها:
أمَا شَبِعْتِ؟
أمَا شَبِعتِ؟

* * *

يا أُمَّ سَلَمَةَ... لا تُؤْذِيني في عائِشَةَ؟!

«عَنْ عائِشَةَ... قالَتْ:
«كانَ الناسُ يَتَحَرَّوْنَ بهَداياهُمْ يَوْم عائِشَةَ...
«قالَتْ: فاجتَمَعَ صَواحِباتِي إلى أُمِّ سَلَمَةَ... فقُلْنَ: يا أُمَّ سَلَمَةَ إنَّ الناسَ يَتَحَرَّوْنَ بهداياهُمْ يوْمَ عائشةَ... وإنَّا نُرِيدُ الخَيْرَ كما تُرِيدُ عائشةُ... فقولي لرسولِ اللّهِ... ﷺ... يأْمُرِ الناسَ يُهْدُونَ إليْهِ أيْنَما كانَ...
«فَذَكَرَت ذلكَ أمَّ سَلَمَةَ...

«فأعْرَضَ عَنْهَا...
«ثمَّ عادَ إليَهْا...
«فأعَادَتِ الكلامَ...
«فقالَتْ: يا رسولَ اللّهِ... إنَّ صَوَاحباتِي قَدْ ذَكَرْنَ أنَّ الناسَ يَتَحَرَّوْنَ بهداياهُمْ يَوْمَ عائشة... فأمُرِ الناسَ يُهْدُونَ أيْنَما كُنْتَ...
«فلمَّا كانَتِ الثالِثةُ... قالَتْ ذلِكَ...
«قالَ: يَا أُمَّ سَلَمَةَ...
«لا تُؤْذِينِي في عائِشةَ...
«فإنَّهُ ما أُنْزِلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وأنا في لِحَافِ امرَأَةٍ مِنكُنَّ غَيْرَها.».

[أخرجه الترمذي]

جبريلُ جاء بصُورتها؟!

«عَنْ عائشةَ...
«أنَّ جِبْرِيلَ جاءَ بصُورَتِها... في خِرْقَةِ حريرٍ خَضْراء...
«إلى النبيِّ... ﷺ...
«فقالَ: إنَّ هذهِ زَوْجتك في الدُّنيا والآخِرَةِ.».

[أخرجه الترمذي]

يا عائِشةُ... هذا جبريلُ... وهو يَقْرَأُ عَلَيْكِ السلامَ؟!

«عَنْ عائشةَ... رضي اللّهُ عَنها... قالَتْ:
«قالَ رسولُ اللّهِ... ﷺ:
«يا عائِشَةُ... هذا جِبْرِيلُ... وهُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلَامَ...
«قالَتْ: قُلْتُ: وعَلَيْهِ السَّلامُ ورَحْمَةُ اللّه وبَرَكاتُهُ... تَرَى مَا لَا نَرَى».

[أخرجه الترمذي]

يرجعون إليها؟!

«عَنِ أَبِي مُوسَى... قالَ:
«مَا أَشْكَلَ عَلَيْنا... أصْحَابَ رسولِ اللّهِ... ﷺ... حَدِيثٌ قَطُّ...
«فَسَأَلْنَا عائِشَةَ...
«إِلَّا وَجَدْنا عِنْدَها مِنْهُ عِلْمًا».

[أخرجه الترمذي]

ما رَأَيْتُ أحَدًا... أفْصَحَ مِنْ عَائِشَةَ؟!

«عن مُوسَى بنِ طَلْحَةَ... قالَ:
«ما رَأَيْتُ أحدًا...
«أفْصَحَ مِنْ عَائِشَةَ».

[أخرجه الترمذي]

أيُّ الناسِ أحَبُّ إليْكَ؟!

«عَنْ عَمْرِو بنِ العاصِ...
«أنَّ رسولَ اللّهِ... ﷺ... اسْتَعْمَلَهُ عَلَى جَيْشِ ذاتِ السَّلاسِلِ...
«قالَ: فأتَيْتُهُ... فقُلْتُ:
«يا رسولَ اللّهِ... أيُّ النَّاسِ أحَبُّ إلَيْكَ؟...
«قالَ: عَائِشَةُ...
«قالَ: مِنَ الرِّجالِ؟...
«قالَ: أبُوهَا.».

[أخرجه الترمذي]

فَضْلُ عائِشةَ على النساءِ؟!

«عَنْ أَنَسٍ...
«أنَّ رسولَ اللّه... ﷺ... قالَ:
«فَضْلُ عائِشَةَ على النِّساءِ... كفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلى سائِرِ الطَّعَامِ.».

[أخرجه الترمذي]

أتُؤْذِي حَبِيبَةَ رسولِ اللّه؟!

«عن عَمْرِو بنِ غالِب...
«أنَّ رَجُلاً نَالَ مِنْ عائِشَةَ... عِندَ عمَّارِ بنِ ياسِر...
«فقالَ: اغْرُبْ... مَقْبُوحًا... مَنْبُوحًا...
«أتُؤْذِي حَبِيبَةَ رسُول اللّهِ... ﷺ.»؟!

[أخرجه الترمذي]

هيَ زَوْجَتُهُ في الدُّنيا والآخِرةِ؟!

«عَنْ عَبْدِ اللّهِ بنِ زِيادٍ الأَسَدِيِّ... قالَ:
«سَمِعْتُ عمّارَ بنَ ياسِرٍ يقولُ:
«هِيَ زَوْجَتُهُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ...
«يَعْني عائِشَةَ... رضِيَ اللّهُ عَنْها.».

[أخرجه الترمذي]

قالَ: عَائِشَةُ؟!

«عَنْ أَنَسٍ... رضِيَ اللّهُ عَنْهُ... قالَ:
«قِيلَ: يا رَسُولَ اللّهِ... مَنْ أحَبُّ النَّاسِ إليْكَ؟...
«قالَ: عائِشَةُ...

«قِيلَ: مِنَ الرِّجالِ؟...
«قالَ: أبُوهَا.».

[أخرجه الترمذي]

* * *

فضائل أم المؤمنين...
عائشة رضي اللّه تعالى عنها...
مِن صحيح الإمام مسلم...؟!

كَفَضْلِ الثَّرِيدِ؟!

«عَنْ أَبِي مُوسَى... قالَ:

«قالَ رسولُ اللّهِ... ﷺ: كمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كثِيرٌ... ولَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّساءِ... غيْرُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ... وآسِيَةَ امرأة فِرْعَوْنَ...

«وإنّ فَضْلَ عائِشَةَ على النِّساءِ... كفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلى سائِرِ الطَّعَامِ.».

[أخرجه مسلم]

«كفضل الثريد على سائر الطعام» قال العلماء:

معناه أن الثريد من كل طعام أفضل من المرق... فثريد اللحم أفضل من مرقه بلا ثريد... وثريد ما لا لحم فيه أفضل من مرقه...

والمراد بالفضيلة نفعه والشبع منه... وسهولة مساغه... والالتذاذ به... وتيسر تناوله... وتمكن الإنسان من أخذ كفايته منه بسرعة وغير ذلك... فهو أفضل من المرق كله ومن سائر الأطعمة.

وفضل عائشة على النساء زائد كزيادة فضل الثريد على غيره من الأطعمة...

وليس في هذا تصريح بتفضيلها على مريم وآسية...

لاحتمال أن المراد تفضيلها على نساء هذه الأمة.

مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ... مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ؟!

«عَنْ عائِشَةَ... قالَتْ:

«مَا غِرْتُ عَلى امْرأَةٍ... مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ...

«ولَقَد هَلَكَتْ قَبْلَ أَن يَتَزَوَّجَني بثَلاثِ سِنِينَ...

«لِمَا كُنتُ أسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا...

«ولَقَدْ أمَرَهُ ربُّهُ عزَّ وجَلَّ أَن يُبَشِّرَهَا ببَيْتٍ مِن قَصَبٍ في الجَنَّةِ...

«وإن كانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ ثُمَّ يُهْدِيهَا إلى خَلَائِلِهَا.».

[أخرجه مسلم]

«يهديها إلى خلائلها» أي صدائقها... جمع خليلة وهي الصديقة.

وَمَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ... مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ؟!

«عَنْ عائِشَةَ... قَالَتْ:

«اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ... أُخْتُ خَدِيجَة... عَلَى رسُولِ اللّهِ... ﷺ...

«فعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ...

فارْتَاحَ لِذَلِكَ... فقالَ: اللهُمَّ هالَةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ...

«فَغِرْتُ...

«فقُلْتُ: وَمَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ... حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ... هَلَكَتْ في الدَّهْرِ... فأَبْدَلَكَ اللّهُ خَيْرًا مِنْها.».

[أخرجه مسلم]

«فارتاح لذلك» أي هشَّ لمجيئها وسرّ بها... لتذكره بها خديجة وأيامها...

وفي هذا كله دليل لحسن العهد وحفظ الود ورعاية حرمة الصاحب والعشير في حياته ووفاته... وإكرام أهل ذلك الصاحب...

«عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين» معناه عجوز كبيرة جدًا... حتى سقطت أسنانها من الكبر... ولَم يبق لشدقها بياض شيء من الأسنان... إنما بقي

فيه حمرة لثاتها...

قال القاضي: قال المصري وغيره من العلماء:

الغيرة مسامح للنساء فيها... لا عقوبة عليهن فيها... لما جبلن عليه من ذلك... ولهذا لم تزجر عائشة عنها...

قال القاضي: وعندي أن ذلك جرى من عائشة لصغر سنها... وأول شبيبتها...

أُرِيتُكِ في المَنَامِ... ثَلاثَ لَيَالٍ؟!

«عَنْ عائِشَةَ... أنَّها قالَتْ:

«قالَ رسولُ اللّهِ... ﷺ: أُرِيتُكِ في المَنَامِ... ثَلَاثَ لَيَالٍ...

«جاءَنِي بِكِ المَلَكُ في سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ...

«فيقولُ: هَذِهِ امْرَأَتُكَ...

«فَأَكْشِفُ عَنْ وَجْهِكِ... فإِذَا أَنْتِ هِيَ...

«فَأَقُولُ: إِنْ يكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللّهِ يُمْضِهِ.».

[أخرجه مسلم]

«في سَرَقَةٍ من حرير» هي الشقق البيض من الحرير.

حُبُّ عائشة... لرسول اللّه... ﷺ؟!

«عَنْ عائشَةَ... قالَتْ:

«قالَ لِي رسولُ اللّهِ... ﷺ:

«إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي راضِيَةً... وإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى...

«قالَتْ: فقُلْتُ: ومِنْ أيْن تَعْرِفُ ذَلِكَ؟...

«قالَ: أَمَّا إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً فإِنَّكِ تَقُولِينَ لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ... وإِذَا كُنْتِ غَضْبى قُلْتِ لَا وَرَبِّ إبرَاهِيمَ...

«قَالَتْ: قُلْتُ: أَجَلْ واللّهِ يا رسولَ اللّهِ... مَا أَهجُرُ إِلَّا اسْمَكَ.».

[أخرجه مسلم]

قال القاضي: مغاضبة عائشة للنبي... ﷺ... هي مما سبق من الغيرة... التي عفي عنها للنساء في كثير من الأحكام... لعدم انفكاكهن منها...

حتى قال مالك... وغيره من علماء المدينة: يسقط عنها الحد إذا قذفت زوجها بالفاحشة على جهة الغيرة... قال: واحتج بما روى عن النبي... ﷺ... أنه قال:

ما تدري الغيراء أعلى الوادي من أسفله...

ولولا ذلك لكان على عائشة في ذلك من الحرج ما فيه...

لأن الغضب على النبي... ﷺ... وهجره... كبيرة عظيمة...

ولهذا قالت: لا أهجر إلا اسمك... فدلّ على أن قلبها... وحبّها... كما كان... وإنما الغيرة في النساء لفرط المحبّة...

عائشة حديثة السِّنّ؟!

«عَنْ عائشةَ أنَّها كانَتْ تلْعَبُ بالبناتِ...

«عِندَ رسول اللّهِ... ﷺ...

«قالَتْ: وكانَتْ تأْتِيني صَواحِبي فكُنَّ يَنْقَمِعْنَ مِنْ رسول اللّهِ ﷺ

«قالت: فكان رسولُ اللّه... ﷺ... يُسَرِّبُهُنَ إليَّ.».

[أخرجه مسلم]

... وفي حديثِ جَرير:

«كُنْتُ أَلْعَبُ بالبَنَاتِ في بَيْتِهِ وهُنَّ اللُّعَبُ.».

«فيه جواز اللعب بهن[1]... ولما فيه من تدريب النساء في صغرهن لأمر أنفسهن وبيوتهن وأولادهن...

«ومذهب جمهور العلماء جواز اللعب بهن...

«فكُنَّ ينقمعن من رسول اللّه... ﷺ... فكان يُسَرِّبهن إليَّ» معنى ينقمعن يتغيبن حياء منه وهيبة... وقد يدخلن في بيت ونحوه وهو قريب من الأول... ويُسَرِّبُهُنَّ أي

---

(١) أي العرائس التي يلعب بها الأطفال.

يرسلهن وهذا من لطفه... ﷺ... وحسن معاشرته.».

إنَّ أَزْوَاجَكَ... يَسْأَلْنَكَ العَدْلَ... في ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ؟!

«أنَّ عائشةَ... زَوْجَ النبيِّ... ﷺ... قالَتْ:

«أرْسَلَ أزواجُ النبيِّ... ﷺ... فاطمة... بنت رسولِ اللّهِ... ﷺ... إلى رسولِ اللّهِ... ﷺ...

«فاستأذَنَتْ عليْهِ... وهو مُضْطَجِعٌ مَعي في مِرْطي... فأذِنَ لَهَا...

«فقالَتْ: يا رسولَ اللّهِ... إِنَّ أَزْوَاجَكَ أَرْسَلْنَنِي إِلَيْكَ... يَسْأَلْنَكَ العَدْلَ في ابْنَةِ أَبِي قُحَافَة...

«وأنَا سَاكِتَةٌ...

«قالَتْ: فقالَ لَهَا رسولُ اللّهِ... ﷺ: أَيْ بُنَيَّةُ... أَلَسْتِ تُحِبِّينَ ما أُحِبُّ؟...

«فقالَتْ: بَلَى...

«قالَ: فَأَحِبِّي هٰذِهِ...

«قالَتْ: فقامَتْ فَاطمةُ حينَ سَمِعَتْ ذلِكَ مِن رسولِ اللّهِ... ﷺ...

«فرَجَعَتْ إلى أزواجِ النبيِّ... ﷺ... فأَخْبَرَتْهُنَّ بالذي قالَتْ... وبالذي قالَ لَها رسولُ اللّهِ... ﷺ...

«فقُلْنَ لَهَا: ما نُرَاكِ أَغْنَيْتِ عَنَّا مِنْ شَيْءٍ... فارْجِعِي إلى رسولِ اللّهِ... ﷺ... فقولِي لَهُ... إِنَّ أَزْوَاجَكَ يَنشُدْنَكَ العَدْلَ في ابْنَةِ أبي قُحَافَة...

«فقالَتْ فاطمةُ: واللّهِ لا أُكَلِّمُهُ فيهَا أبَدًا...

«قالَتْ عائشةُ: فأرْسَلَ أَزْوَاجُ النبيِّ... ﷺ... زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ... زَوْجَ النبيِّ... ﷺ...

«وَهِيَ التي كانَتْ تُسَامِيني مِنْهُنَّ في المنزلَةِ عِنْدَ رسولِ اللّه... ﷺ...

«ولَمْ أرَ امْرَأَةً قَطُّ خَيْرًا في الدِّينِ مِنْ زَيْنَبَ...

«وأتْقَى للّهِ...

«وأصْدَقَ حدِيثًا...

«وأوْصَلَ للرَّحِمِ...
«وأعْظَمَ صَدَقَةً...
«وأشَدَّ ابْتذَالًا لِنَفْسِها في العَمَلِ الذي تَصَدَّقُ بهِ وتَقَرَّبُ بهِ إلى اللّهِ تعالى...
«ما عَدَا سَوْرَةً مِنْ حِدَّةٍ كانَتْ فيهَا... تُسْرِعُ مِنْها الفَيْئَةَ...
«قالَتْ: فاسْتَأْذَنَتْ عَلَى رسولِ اللّهِ... ﷺ...
«ورسولُ اللّهِ... ﷺ... مَعَ عائِشَةَ في مِرْطِها... عَلَى الحالَةِ التي دَخَلَتْ فاطِمةُ عَلَيْها... وهُوَ بِهَا...
«فأذِنَ لَهَا رسولُ اللّهِ... ﷺ...
«فقالَتْ: يا رسُولَ اللّه... إنَّ أَزْوَاجَكَ أرْسَلْنَني إليْكَ... يَسْأَلْنَكَ العَدْلَ في ابْنَةِ أبِي قُحَافَةَ...
«قالَتْ: ثمَّ وَقَعَتْ بِي... فاسْتَطَالَتْ عَلَيَّ...
«وأنَا أَرْقُبُ رسُولَ اللّهِ... ﷺ... وأرْقُبُ طَرْفَهُ... هَلْ يَأْذَنُ لي فيهَا؟...
«قالَتْ: فَلَمْ تَبْرَحْ زَيْنَبُ... حتَّى عَرَفْتُ أنَّ رسولَ اللّهِ... ﷺ... لا يَكْرَهُ أنَ أنْتَصِرَ...
«قالَتْ: فلَمَّا وَقَعْتُ بهَا... لَمْ أَنْشَبْهَا حتَّى أنْحَيْتُ عَلَيهَا...
«قالَتْ: فقالَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... وَتَبَسَّمَ...
«إنَّهَا ابْنَةُ أبِي بَكْرٍ».

[أخرجه مسلم]

«يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة» معناه يسألنك التسوية بينهن في محبة القلب...

وكان ﷺ يسوي بينهن في الأفعال والمبيت ونحوه...
وأما محبة القلب فكان يحب عائشة أكثر منهن...
وأجمع المسلمون على أن محبتهن لا تكليف فيها...
ولا يلزمه التسوية فيها...

«لأنه لا قدرة لأحد عليها الا الله سبحانه وتعالى...

وإنما يؤمر بالعدل في الأفعال...

وقد اختلف أصحابنا وغيرهم من العلماء في أنه ﷺ... هل كان يلزمه القسم بينهن في الدوام والمساواة في ذلك كما يلزم غيره أم لا يلزمه... بل يفعل ما يشاء من إيثار وحرمان؟...

فالمراد بالحديث طلب المساواة في محبة القلب لا العدل في الأفعال... فإنه كان حاصلًا قطعًا...

ولهذا كان يطاف به ﷺ في مرضه عليهن حتى ضعف... فاستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة... فأذنَّ له...

«يناشدنك» أي يسألنك...

«هي التي تساميني» أي تعادلني وتضاهيني في الحظوة والمنزلة الرفيعة... مأخوذ من السموّ وهو الارتفاع...

«ما عدا سَوْرَةً من حِدَّةٍ كانت فيها... تسرع منها الفيئة» السورة: «الثوران وعجلة الغضب... وأما الحِدَّة فهي شدة الخُلُق وثورانه... ومعنى الكلام أنها كاملة الأوصاف إلا أن فيها شدة خلق وسرعة غضب... تسرع منها الفيئة... وهي الرجوع... أي إذا وقع ذلك منها رجعت عنه سريعًا ولا تصر عليه...

«فلمَّا وَقعْتُ بها لم أنشَبْها حين أنحيْتُ عليْها» أنحيتُ: قصدتها واعتمدتها بالمعارضة... ومعنى لم أنشبها لم أمهلها... وقولها أولًا ثم وَقَعَتْ بي أي استطالت عليّ ونالت مني بالوقيعة فيّ...

اعلم أنه ليس فيه دليل على أن النبي... ﷺ... أذن لعائشة... ولا أشار بعينه ولا غيرها... بل لا يحل اعتقاد ذلك... فإنه ﷺ... تحرم عليه خائنة الأعين...

وإنما فيه أنها انتصرت لنفسها... فلم ينهها...

وأما قوله... ﷺ... إنها ابنة أبي بكر...

فمعناه الإشارة إلى كمال فهمها... وحسن نظرها... والله أعلم...

كانوا.. يَتَحَرَّوْنَ بهداياهُمْ يَوْمَ عائِشةَ؟!

«عَنْ عائِشَةَ...
«أنَّ الناسَ كانُوا يَتَحَرَّوْنَ بهَدَايَاهُمْ يوْمَ عائشةَ...
«يبْتغُونَ بذلِكَ مَرْضَاةَ رسول اللّهِ... ﷺ...».

[أخرجه مسلم]

قَبَضَهُ اللّهُ... بيْنَ سَحْرِي ونَحْري؟!

«عَنْ عائِشَةَ... قالَتْ:
«إنْ كانَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... لَيَتَفَقَّدُ...
«يَقُولُ أيْنَ أنَا الْيَوْمَ... أيْنَ أَنَا غَدًا...
«اسْتِبْطاءً لِيَوْمِ عَائِشَةَ...
«قالَتْ: فلمَّا كانَ يَوْمِي... قَبَضَهُ اللّهُ بَيْنَ سَحْرِي ونَحْرِي.».

[أخرجه مسلم]

«قبضه اللّه بين سَحْري ونَحْري» السَحْر... هي الرئة وما تعلق بها...
«فلما كان يومي قبضه اللّه» أي يومها الأصيل بحساب الدور والقسم... وإلّا فقد كان صار جميع الأيام في بيتها.

أصْغَتْ إلَيْهِ وهُوَ يَقُولُ...؟!

«عَنْ عَبَّادِ بنِ عَبْدِ اللّهِ بنِ الزُّبَيْرِ...
«عَنْ عائشةَ... أنَّها أخبَرَتْهُ...
«أنَّها سَمِعَتْ رسولَ اللّهِ... ﷺ... يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَمُوت...
«وهُوَ مُسْنِدٌ إلَى صَدْرِهَا...
«وَأَصْغَتْ إلَيْهِ وهُوَ يَقُولُ:

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وارْحَمْنِي وأَلْحِقْنِي بالرَّفِيق.».

[أخرجه مسلم]

وفي رواية «الرفيق الأعلى»

الصحيح الذي عليه الجمهور أن المراد بالرفيق الأعلى الأنبياء... الساكنون أعلى عليّين...

ولفظة رفيق تطلق على الواحد وعلى الجمع...

قال اللّه تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رفيقًا﴾...

وقيل هو اللّه تعالى... يقال اللّه رفيق بعباده من الرفق والرأفة...

مَعَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ؟!

«عَنْ عائِشَةَ... قَالَتْ:

«كُنتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ نَبِيٌّ حتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ...

«قالَتْ: فَسَمِعْتُ النَّبيَّ... ﷺ... في مَرَضِهِ الذي ماتَ فيه...

«وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ...

«يقُولُ: مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقًا...

«قالَتْ: فَظَنَنْتُهُ خُيِّرَ حِينَئِذٍ.».

[أخرجه مسلم]

«وأخذته بُحَّة» هي غلظ في الصوت...

اللهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى؟!

«أنَّ عائِشَةَ... زَوْجَ النبيِّ... ﷺ... قالَتْ:

«كانَ رسولُ اللّه... ﷺ... يَقولُ... وهُوَ صَحِيحٌ...

«إنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ... حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ في الجَنَّةِ... ثُمَّ يُخَيَّرَ...

«قالَتْ عائِشَةُ: فلمَّا نَزَل برَسُولِ اللّهِ... ﷺ...

«وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي...
«غُشِيَ عَلَيْهِ سَاعَةً...
«ثُمَّ أفَاقَ...
«فأشْخَصَ بَصَرَهُ إلى السَّقْفِ...
«ثُمَّ قالَ: اللهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى...
«قالَتْ عائِشَةُ: قُلْتُ:
إذًا لَا يَخْتَارُنا...
«قالَتْ عائِشَةُ: وَعَرفْتُ الحَدِيثَ الذي كانَ يُحَدِّثُنَا بِهِ وهُوَ صَحِيحٌ... في قوْلِهِ إنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نبيٌّ قَطُّ حتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ ثُمَّ يُخَيَّرَ...
«قالَتْ عائِشَةُ: فكانَتْ تِلْكَ آخِرُ كلِمَةٍ تَكَلَّمَ بهَا رَسُولُ اللّه... ﷺ... قوْلَهُ اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى.».

[أخرجه مسلم]

«فأشخص بصره إلى السقف» أي رفعه إلى السماء ولم يطرف.

غيرة عائِشة؟!

«عَنْ عَائِشَةَ... قالَتْ:
«كانَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... إذا خَرَجَ أقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ...
«فطارَتِ القُرعَةُ عَلَى عائِشَةَ وَحَفْصَةَ...
«فخَرَجَتا مَعَهُ جَمِيعًا...
«وكانَ رسولُ اللّه... ﷺ... إذا كانَ باللَّيْلِ سارَ مَعَ عائِشَةَ... يَتَحَدَّثُ مَعَهَا...
«فقالَتْ حَفْصَةُ لِعَائِشَةَ: أَلَا تَرْكَبِينَ الليلَةَ بَعِيري... وأَرْكَبُ بَعِيرَكِ... فتَنظُرِينَ وأَنْظُرُ...
«قالَتْ: بَلى...
«فَرَكِبَتْ عائِشَةُ على بَعير حَفْصَةَ... ورَكِبَتْ حَفْصَةُ علَى بَعِير عائِشَةَ...

«فَجاءَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... إلى جَمَلِ عائِشَةَ وَعَلَيْهِ حَفْصَةُ... فسَلَّمَ ثمَّ سَار مَعَها... حتَّى نَزَلُوا...
«فافْتَقَدَتْهُ عائِشةُ...
«فَغَارَتْ...
«فلمَّا نَزَلُوا... جَعَلَتْ تَجْعَلُ رِجْلَهَا بَيْنَ الإذخِرِ وتقولُ: يا رَبِّ سَلِّطْ عليَّ عَقْرَبًا أَوْ حَيَّةً تَلْدَغُني... رَسُولُكَ ولا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لَهُ شيئًا.»!

[أخرجه مسلم]

«فطارت القرعة على عائشة وحَفْصَة» أي خرجت القرعة لهما...

ففيه صحة الاقراع في القسم بين الزوجات... وفي الأموال... وفي العتق... ونحو ذلك... مما هو مقرر في كتب الفقه مما في معنى هذا...

وبإثبات القرعة في هذه الأشياء قال الشافعي وجماهير العلماء...

وفيه أن من أراد سفرًا ببعض نسائه أقرع بينهن كذلك...

وهذا الاقراع عندنا - أي الشافعية - واجب في حق غير النبي ﷺ...

وأما النبي ﷺ... ففي وجوب القسم في حقه خلاف...

فمن قال بوجوب القسم يجعل إقراعه واجبًا...

ومن لم يوجبه يقول إقراعه ﷺ... من حسن عشرته ومكارم أخلاقه...

إن حفصة قالت لعائشة ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك... قال القاضي: قال المهلب: هذا دليل على أن القسم لم يكن واجبًا عليه ﷺ...

فلهذا تحيّلت حفصة على عائشة بما فعلت...

ولو كان واجبًا لحرم ذلك على حفصة...

وهذا الذي ادعاه ليس بلازم... فإن القائل بأن القسم واجب عليه لا يمنع حديث الأخرى في غير وقت عماد القسم...

قال أصحابنا (أي الشافعية): يجوز أن يدخل في غير وقت عماد القسم إلى غير صاحبة النوبة فيأخذ المتاع أو يضعه أو نحوه من الحاجات... وله أن يُقَبِّلها ويلمسها من غير إطالة...

وعماد القسم في حق المسافر هو وقت النزول...
فحالة السير ليست منه سواء كان ليلًا أو نهارًا...
جعلت رجلها بين الإذْخِر وتقول... إلى آخره... **هذا الذي فعلته وقالته... حملها عليه فرط الغيرة... على رسول اللّه... ﷺ... وقد سبق أنّ أمر الغيرة معفو عنه.**

يَا عَائِشُ... هذَا جِبْرِيلُ... يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلَامَ؟!

«عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ... قالَ:
«سَمِعْتُ رسُولَ اللّهِ... ﷺ... يقولُ:
«فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ...
«كفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ.».

[أخرجه مسلم]

«عَنِ الشَّعْبِيِّ...
«عَنْ أَبِي سَلَمَةَ...
«عَنْ عَائِشَةَ... أنَّهَا حَدَّثَتْهُ...
«أنَّ النبيَّ... ﷺ... قالَ لَهَا:
«إنَّ جِبْرِيلَ يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلَامَ...
«قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ ورَحْمَةُ اللّهِ.».

[أخرجه مسلم]

«حَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ بنُ عَبْدِ الرحمنِ...
«أنَّ عَائِشَةَ... زَوْجِ النبيِّ... ﷺ... قالَتْ:
«قالَ رسولُ اللّهِ... ﷺ:
«يَا عَائِشُ...
«هَذَا جِبْرِيلُ...
«يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلَامَ...

«قَالَتْ: فقُلْتُ: وعَلَيْهِ السَّلَامُ ورَحْمَةُ اللّه.
«قالَتْ: وَهُوَ يَرَى مَا لَا أَرَى».

[أخرجه مسلم]

«إن جبريل يقرأ عليك السلام» فيه فضيلة ظاهرة لعائشة... رضي اللّه عنها...
وفيه استحباب بعث السلام...
ويجب على الرسول تبليغه...
وفيه بعث الأجنبي السلام إلى الأُجنبية الصالحة... إذا لم يخف ترتب مفسدة...
وأن الذي يبلغه السلام يرد عليه...
قال أصحابنا (أي الشافعية): وهذا الرد واجب على الفور...
وكذا لو بلغه سلام في ورقة من غائب لزمه أن يرد السلام عليه باللفظ على الفور إذا قرأه...
وفيه أنه يستحب في الرد أن يقول وعليك أو وعليكم السلام... بالواو...
فلو قال عليكم السلام... أو عليكم...
أجزأه على الصحيح... وكانَ تاركًا للأفضل...
ومعنى يقرأ عليكِ السلام... يسلم عليكِ...
«يا عائِشُ» دليل لجواز الترخيم.

فضل عائشة...
رضي اللّه تعالى عنها...
من صحيح...
الإمام البخاريّ...؟!

بابُ... فَضْل عائشةَ... رضي الله عنْهَا

أي هذا باب في بيان فضل عائشة... رضي اللّه تعالى عنها...

هي الصدِّيقة... بنت الصدِّيق... رضي اللّه تعالى عنهما...

وأمها أم رومان... بنت عامر... بن عويمر... بن عبد شمس...

تزوجها رسول اللّه... ﷺ... بمكة... قبل الهجرة بسنتين... وبنى بها بالمدينة... بعد منصرفه من وقعة بدر... في شوال سنة اثنتين من الهجرة...

ثم مات النبي... ﷺ... وعاشت بعده قريبًا من خمسين سنة...

رُبع الأحكام منقولة عنها؟!

وأَكْثَرَ الناس الأخذ عنها...

ونقلوا عنها من الأحكام والآداب... شيئًا كثيرًا...

حتى قيل إن رُبْع الأحكام الشرعية منقولة عنها...

رُوِيَ لها... ألف حديث وعشرة أحاديث؟!

رُوِيَ لها... عن رسول اللّه... ﷺ... ألف حديث وعشرة

أَحاديث[1]...

ولم تلد للنبي... ﷺ...

وسألته أن تكتني...

فقال: اكتني بابن أختك...

قالت: أم عبد اللّه.

تَرَى ما لا أَرَى؟!

«قالَ أبُو سَلَمَةَ...

«إنَّ عائشةَ... رضي اللّهُ عنها... قالَتْ:

«قالَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... يَوْمًا:

«يا عائِشُ... هَذَا جِبْرِيلُ... يُقْرِئُكِ السَّلامَ...

«فقُلْتُ: وعليْهِ السَّلاَمُ ورَحْمَةُ اللّهِ وبركاتُهُ... تَرَى ما لَا أَرَى...

«تُرِيدُ رسولَ للّهِ... ﷺ.».

[أخرجه البخاري]

سلام جبريل عليها... يدل على أنّ لها فضلًا عظيمًا...

واستدل به بعضهم... لفضل خديجة على عائشة... لأن الذي ورد في حق خديجة... أن النبي ﷺ قال لها: «**إن جبريل يقرئك السلام من ربك**»... وهنا السلام من جبريل خاصة...

«يا عائشُ» يجوز في الشين الضم والفتح...

«تَرَى» خطاب لرسول اللّه... ﷺ... وأوضحه بقوله... تريد رسول اللّه ﷺ.

فَضْلُ عائِشَةَ على النساءِ؟!

«عَنْ أبي مُوسَى الأشعرِيِّ... رضي اللّه عنه... قالَ:

---

(١) جاء في كتاب «الصدّيقة بنت الصدّيق» للأستاذ عباس العقاد «روت للنبي عليه السلام أكثر من ألفي حديث في مختلف المسائل...».

«قال رسولُ اللّهِ... ﷺ:
«كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كثيرٌ...
«ولمْ يَكْمُلْ مِنَ النِساءِ... إلّا مَرْيَمُ بِنتُ عِمْرانَ... وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ...
«وفَضْلُ عائِشة على النِّسَاءِ... كَفَضْلِ الثَّرِيدِ على سائِرِ الطَّعَامِ.».
[أخرجه البخاري]

* * *

«عَنْ عبدِ اللّهِ بنِ عبدِ الرحمنِ...
«أنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بنَ مالِكٍ... رضي اللّه عنه... يقولُ:
«سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ... ﷺ... يقولُ:
«فَضْلُ عائِشةَ على النِّساءِ... كَفَضْلِ الثَّرِيدِ على الطَّعَامِ.».
[أخرجه البخاري]

«الثريد» في الأصل: الخبز المكسور... يقال ثردت الخبز ثردًا... أي: كسرته: فهو ثريد ومثرود، والاسم الثُردة...

قال ابن الأثير: لم يرد عين الثريد... وإنما أراد الطعام المتخذ من اللحم والثريد معًا... لأن الثريد غالبًا لا يكون الّا من لحم... والعرب قلما تجد طبيخًا ولا سيما بلحم...

قلت: علم من هذا أن الثريد طعام متخذ من اللحم يكون فيه خبز مكسور... فلا يسمى اللحم المطبوخ وحده بدون الخبز المكسور ثريدًا... ولا الخبز المكسور وحده بدون اللحم ثريدًا...

والظاهر أن فضل الثريد على سائر الطعام... إنما كان في زمانهم... لأنهم قلّما كانوا يجدون الطبيخ... ولا سيما إذا كان باللحم...

وأما في هذا الزمان فأطعمة معمولة من أشياء كثيرة متنوعة... فيها من أنواع اللحوم... ومعها أنواع الخبز الحواري... فلا يقال إن مجرد اللحم مع الخبز المكسور أفضل من هذه الأطعمة المختلفة الأجناس والأنواع... وهذا ظاهر لا يخفى.

أقول... هذا الذي ذهب إليه الشارح[1] من تفضيل الأطعمة المكونة من أصناف شتى على الثريد... ليس صحيحًا على إطلاقه...

بل يبقى الثريد دائمًا أفضل من سائر أنواع الأطعمة... لأنه سهل الهضم... بينما هذه الأطعمة التي تبهر الشارح قد تؤدي إلى عُسر الهضم!!!

ابن عباس... يُبَشِّر... عائشة؟!

«عنِ القاسِم بنِ محمدٍ...

«أنَّ عائشةَ اشْتَكتْ...

«فجاءَ ابنُ عبَّاسٍ فقال:

«يا أُمَّ المؤمنينَ... تَقْدَمِينَ عَلَى فَرَطِ صِدْقٍ... علَى رسولِ اللّه... ﷺ... وعلى أبي بَكْرٍ.».

[أخرجه البخاري]

مطابقته للترجمة... من حيث أن ابن عباس قطع لعائشة بدخول الجنة... إذ لا يقال ذلك الا بتوقيف...

وهذه فضيلة عظيمة...

«اشتكت» أي ضعفت...

«على فَرَط» وهو المتقدم من كل شيء...

ويقال: الفَرَط الفارط: أي السابق الى الماء والمنزل...

«صِدْق» أي صادق... وهو عبارة عن الحُسْن... قال تعالى: ﴿في مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾...

«على رسولِ اللّهِ ﷺ» حاصل المعنى...

أنَّ النبي... ﷺ... وأبا بكر... قد سبقاك... وأنت تلحقينهما... وهما قد هيئا لك المنزل في الجنة... فلا تحملي الهَمَّ... وافرحي بذلك...

(١) هو الإمام العيني - شارح صحيح البخاري.

إني لأَعْلَمُ أنَّها زوجَتُهُ في الدنيا والآخرةِ؟!

«... لمَّا بَعَثَ عَلِيٌّ... عَمَّارًا والحَسَنَ... إلى الكُوفَةِ لِيَسْتَنْفِرَهُمْ... خَطَبَ عَمَّارٌ فقال:

«إِنِّي لَأَعْلَمُ أنَّها زَوْجَتُهُ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ...

«ولكِنَّ اللّهَ ابْتَلَاكُمْ... تَتَّبِعُونَهُ أَوْ إِيَّاهَا.»»؟

[أخرجه البخاري]

مطابقته للترجمة تؤخذ من قوله... أنها أي أن عائشة زوجته... أي زوجة النبي صلى اللّه تعالى عليه وسلم في الدنيا والآخرة...

وفي هذا فضل عظيم لها...

«بعث عليٌّ» أي علي بن أبي طالب... وكان علي رضي اللّه تعالى عنه... بعث عمّار بن ياسر والحَسَن ابنه إلى الكوفة لأجل نصرته في مقاتلة كانت بينه وبين عائشة بالبصرة... ويسمى بيوم الجَمَل... «ليستنفرهم» أي ليستنجدهم ويستنصرهم... من الاستنفار وهو الاستنجاد والاستنصار...

«أنها» أي أن عائشة... زوج النبي صلى اللّه تعالى عليه وسلم... في الدنيا والآخرة.

وروى ابن حبان... من طريق سعيد بن كثير...

«عن عائشة...

«أن النبي... ﷺ... قال لها:

«أما ترضين أن تكوني زوجتي في الدنيا والآخرة.».

«تتبعونه» أي تتبعون عليًا... أو تتبعون إياها... أي عائشة...

فإن قُلْتَ: خاطب اللّه تعالى أزواج النبي... ﷺ بقوله: **﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾** ولهذا قالت أم سلمة:

لا يحركني ظهر بعير حتى ألقى اللّه تعالى...

قُلْتُ: كانت عائشة رضي اللّه تعالى عنها متأولة هي وطلحة والزبير... وكان

مرادهم إيقاع الصلح بين الناس... وأخذ القصاص من قتلة عثمان... رضي اللّه تعالى عنه...

عندما ضاعت القلادة من عائشة؟!

«عَنْ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها...
«أنّها اسْتَعَارَت مِنْ أَسْمَاءَ... قِلَادَةً فَهَلَكَتْ...
«فأَرْسَلَ رَسولُ اللّهِ... ﷺ... ناسًا مِنْ أصْحابِهِ في طَلَبِها...
«فأَدْرَكَتْهُمُ الصلاةُ... فَصَلَّوْا بغيْرِ وُضُوءٍ...
«فَلمّا أتَوْا النبيَّ... ﷺ... شَكَوْا ذلِكَ إليْهِ...
«فَنَزَلَتْ آيَةُ التَّيَمُّمِ...
«فقالَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْر:
جَزَاك اللّهُ خيْرًا... فواللّهِ ما نَزَلَ بلكِ أمْرٌ قَطُّ... إلَّا جَعَلَ اللّهُ لكِ مِنْهُ مَخْرَجًا... وجَعَلَ للمسلمينَ فيهِ بَرَكَةً.».

[أخرجه البخاري]

«من أسماء» هي أخت عائشة.. والقلادة والعِقد واحد وهو كل ما يعلق ويعقد في العنق...
«فهلكت» أي ضاعت...
«أُسَيْد» الأنصاري الصحابي...
«فَصلَّوْا بغير وُضوء» قال النووي: فيه دليل على أن من عدم الماء والتراب يصلي على حاله...

فلمّا كانَ يَوْمِي... سَكَنَ؟!

«عَنْ هِشامٍ .. عنْ أبيهِ...
«أنَّ رسولَ اللّهِ... ﷺ... لمّا كانَ في مَرَضِهِ...
«جَعَلَ يَدُورُ في نسائِهِ... ويقُولُ:

أيْنَ أنَا غَدًا... أيْنَ أنَا غَدًا...
«حِرْصًا علَى بَيْتِ عائشةَ...
«قالَتْ عائِشَةُ: فلمّا كانَ يَوْمِي سَكَنَ.».

[أخرجه البخاري]

«في مرضه» أي مرضه الذي مات فيه...
«فلما كان يومي سَكَنَ» أي مات... أو سكت عن هذا القول...

ما نَزَل عليَّ الْوَحْيُ وأنا في لحافِ امرأةٍ مِنْكُنَّ... غَيْرَها؟!

«حدثنا هِشامٌ... عنْ أبيهِ... قالَ:
«كانَ الناسُ يَتَحَرَّوْنَ بهداياهُمْ يوْمَ عائشةَ...
«قالَتْ عائشةُ: فاجْتَمَعَ صَواحِبِي إلى أُمِّ سَلَمَةَ...
«فقُلْنَ: يا أُمَّ سَلَمةَ... واللّه إنَّ الناسَ يتَحَرَّوْنَ بِهدَايَاهُمْ يوْمَ عائشةَ... وإنَّا نُريدُ الخَيْرَ كما تُرِيدُهُ عائشةُ... فَمُرِي رسولَ اللّهِ... ﷺ... أنْ يَأْمُرَ الناسَ أن يُهْدُوا إليْهِ حيْثُ ما كانَ... أو حيْثُ ما دَارَ...
«قالَتْ: فذَكَرَتْ ذلِكَ أُمُّ سَلَمَةَ للنبيِّ... ﷺ...
«قالَتْ: فأعْرَضَ عَنِّي...
«فلمَّا عادَ إليَّ ذَكَرَتْ لهُ ذَاكَ...
«فأعْرَضَ عنِّي...
«فلما كانَ في الثالِثَةِ ذَكَرَتْ لَهُ...
«فقال: يا أُمَّ سَلَمَةَ... لا تُؤْذِينِي في عائِشةَ... فإنَّهُ واللّهِ ما نَزَلَ عليَّ الوَحْيُ وأنا في لحافِ امرأةٍ مِنْكُنَّ غَيْرَها.».

[أخرجه البخاري]

«يتحرّون» أي يقصدون ويجتهدون...

«وإنا نريد الخير» بنون المتكلم مع الغير...
«فمُري» أي قولي... وبه يستدل على أن العلو والاستعلاء لا يشترط في الأمر...
«في لحاف» اسم لما يتغطى به...

الخطوط العريضة...

من حياة أم المؤمنين...

عائشة...؟!

باختصار شديد...
من كتاب «أسْد الغابة... في معرفة الصحابة»...

عائشة... بنت أبي بكر الصدِّيق؟!

«عائشةُ... بنتُ أبي بكر الصدِّيق...
«الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق...
«أم المؤمنين...
«زوج النبي... ﷺ...
«وأشهر نسائه...
«وأمها أُم رُومَان... ابنة عامر... بن عُوَيْمر... بن عبد شمس.. بن عتّاب... بن أذينة... بن سُبَيع... بن دُهْمان... بن الحارث... بن غَنم... بن مالك... بن كنانة الكنانية...

تزوجها وهي بِكْر؟!

«تزوجها رسول اللّه... ﷺ... قبل الهجرة بسنتين...
«وهي بكْر...
«وكان جبريلُ قد عَرَض على رسول اللّه... ﷺ... صُورتها في سَرَقَةِ (قطعة من جيد الحرير) حرير في المنام... لما توفيت خديجة...
«وكنّاها رسول اللّه... ﷺ... أُمَّ عبد اللّه... بابن أختها عبد اللّه بن

الزبير...».

هذه زوجتك؟!

«عن عائشة:

«أن جبريلَ جاء بصورتها في خِرْقَةِ حرير خضراء إلى النبي... ﷺ... فقال:

«هذه زوجتك في الدنيا والآخرة.».

الصِّدِّيقة بنت الصدِّيق؟!

«وكان مسروق إذا رَوَى عنها يقول: حدّثتني الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق... البريئة المبرَّأة...».

كانت من أفقه الناس؟!

«وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض...

«وقال عطاءُ بن أبي رباح: كانت عائشة... من أفقه الناس... وأحسن الناس رأيًا في العامة...».

نزل فيها من القرآن... ما يُتلى إلى يوم القيامة؟!

«وقال عُرْوة:

«ما رأيت أحدًا أعلم بفقه... ولا بطبّ... ولا بشِعْر... من عائشة...

«ولم لم يكن لعائشة من الفضائل إلّا قصة الإِفْك... لكفى بها فضلًا... وعُلُوّ مجد...

«فإنها نزل فيها من القرآن ما يُتلى إلى يوم القيامة...

«ولولا خوف التطويل لذكرنا قصة الإفك بتمامها... وهي أشهر من أن تخفى...

روت عن النبي... ﷺ... كثيرًا؟!

«وروت عن النبي... ﷺ... كثيرًا...
«روى عنها عمر بن الخطاب... وكثير من الصحابة...
«ومن التابعين ما لا يحصى...».

توفيت سنة سبع وخمسين؟!

«وتوفيت عائشة سنة سبع وخمسين...
«وقيل: سنة ثمان وخمسين...
«ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان...».

ودُفنت بالبقيع؟!

«وأمرت أن تدفن بالبقيع ليلًا...
«فدفنت وصلّى عليها أبو هريرة...
«ونزل في قبرها خمسة:
«عبدالله وعروة... ابنا الزبير...
«والقاسم بن محمد بن أبي بكر...
«وعبدالله بن محمد بن أبي بكر...
«وعبدالله بن عبد الرحمن بن أبي بكر...».

تَزَوَّج النبيّ...
صلى اللّه عليه وسلم...
عائشة...
رضي الله عنها...؟!

كيف تمَّ الاختيار؟!

«عن عائشة قالت[١]:

«لما توفيت خديجة... قالت خولة بنت حكيم بن الأوقص – امرأة عثمان ابن مظعون – وذلك بمكة:

«أيْ رسولَ اللّه... ألَا تَزَوَّج؟...

«قال: ومَن؟

«قلتُ: إن شئتَ بِكْرًا... وإن شئتَ ثيبًا...

«قال: فمن البكر؟...

«قلت: ابنة أحب خَلْق اللّه إليك... عائشة بنت أبي بكر...

«قال: ومَن الثيب؟...

«قلتُ: سَوْدة بنتُ زَمَعَة بن قيس... آمنت بك واتبعتك على ما أنت عليه...

«قال: فاذهبي... فاذكريهما عَلَيَّ...

«فجاءَت فدخلت بيتَ أبي بكر...

«فوَجَدَت أم رومان... أمَّ عائشة... فقالت:

---

(١) الرواية التي وردت بأُسْد الغابة في معرفة الصحابة.

«أيْ... أُمَّ رومان... ما أدخل اللّه عليكم من الخير والبركة!...
«قالت: وما ذاك؟...
«قالت: أرسلني رسول اللّه... ﷺ... أخطب عليه عائشة...
«قالت: وَدَدتُ... انتظري أبا بكر... فإنه آت...
«فجاء أبو بكر فقالت: يا أبا بكر...
ماذا أدخل اللّه عليكم من الخير والبركة!...
«قال: وما ذاك؟...
«قالت: أرسلني رسول اللّه... ﷺ... أخطب عليه عائشة...
«قال: وهل تصلح له؟... إنما هي بنت أخيه...
«فرجعتُ إلى رسول اللّه... ﷺ... فذكرت ذلك له...
«فقال: ارجعي وقول له: أنت أخي في الإسلام... وابنتك تصلح لي...
«فأتت أبا بكر...
«فقال: ادعي لي رسولَ اللّه... ﷺ...
«فجاءَ... فَأنكَحه[1]...
«وقال رسول اللّه... ﷺ: ومن الثيب؟...
«قالت: سَوْدة بنت زَمَعَة... قد آمنت بك واتبعتك...
«قال: اذهبي... فاذكريها عَليّ...
«قالت: فخرجتُ... فدخلتُ على سَوْدة فقلت: يا سودة... ما أدخل اللّه عليكم من الخير والبركة!...
«قالت: وما ذاك؟...
«قالت: أرسلني رسول اللّه... ﷺ... أخطبكِ عليه...
«قالت: وَدَدتُ... ادخلي على أبي فاذكري ذلك له...
«قالت: وهو شيخ كبير قد تخلف عن الحج...
«فدخلتُ عليه فقلت: إن محمد بن عبداللّه أرسلني أخطب عليه سَودَةَ..

---

(١) أي فزوَّجه.

«قال: كُفْءٌ كريم... فماذا تقول صاحبتكِ؟...

«قالت: تحب ذلك...

«قال: ادعيها...

«فدعتها...

«فقال: إنِ محمد بن عبدالله أرسل يخطبكِ وهو كُفْءٌ كريم... أفتحبين أن أُزوجك؟...

«قالت: نعم...

«قال: فادعيه لي...

«فدعته...

«فجاءَ... فزوّجها...

«وجاءَ أخوها... عبد بن زمعة... من الحج... فجعل يحثو التراب على رأسه...

«وقال بعد أن أسلم: إني لسفيه يوم أحثو التراب على رأسي أن تَزَوَّج رسول اللّه... ﷺ... سَوْدَة.».

وجاء في روايات أخرى... مختصرًا:

خطبة عائشة

توفيت خديجة رضي اللّه عنها قبل مخرج النبي ﷺ بثلاث سنين... فلبث سنتين، وتزوج عائشة.

وكان دخوله بها في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة.

وقصة ذلك: لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت: يا رسول اللّه ألا تزوج؟

قال: من؟.

قالت: إن شئت بكرًا. وإن شئت ثيبًا.

قال: فمن البكر؟.

قالت: ابنة أحب خلق اللّه إليك، عائشة ابنة أبي بكر.

قال: ومن الثيب؟

قالت: سَوْدة بنت زَمَعَةَ، قد آمنت بك واتبعتك.

قال: فاذهبي... فاذكريهما عليَّ.

فدخلت بيت أبي بكر فقالت: يا أم رومان، ماذا أدخل اللّه عليك من الخير والبركة؟.

قالت: وما ذاك؟

قالت: أرسلني رسول اللّه ﷺ أخطب عليه عائشة.

قالت: أنظري أبا بكر حتى يأتي.

فجاء أبو بكر، فقالت: يا أبا بكر، ماذا أدخل اللّه عليكم من الخير والبركة؟.

قال: وما ذاك؟.

قالت: أرسلني رسول اللّه ﷺ أخطب عليه عائشة.

قال: وهل تصلح له؟ إنما هي ابنة أخيه؟

فرجعت إلى رسول اللّه ﷺ فذكرت ذلك له قال: «ارجعي إليه فقولي له أنا أخوك، وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي».

فرجعت فذكرت ذلك له، قال: انتظري... وخرج.

قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد ذكرها على ابنه، وواللّه ما وعد أبو بكر وعدًا قط فأخلفه.

فدخل أبو بكر على مطعم بن عدي، وعنده امرأته أم الصبي، فقالت يابن أبي قحافة، لعلك مصبي صاحبنا تدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك؟.

فقال أبو بكر لمطعم بن عدي: إنها تقول ذلك؟!.

فخرج من عنده، وقد أذهب اللّه ما كان في نفسه من عدته التي وعده.

فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول اللّه ﷺ.

فدعته... فزوجها إياه...

زواج سَوْدَة

ثم خرجت فدخلت على سودة بنت زمعة فقالت: ما أدخل اللّه عليك من الخير والبركة؟.

قالت: وما ذاك؟.

قالت: أرسلني رسول اللّه ﷺ أخطبك إليه.

قالت: وددت، أدخلي إلى أبي فاذكري ذلك له.

فدخلت عليه، فحييته بتحية الجاهلية، فقال: من هذه؟.

قالت: خولة بنت حكيم.

قال: فما شأنك؟.

قالت: أرسلني محمد بن عبد اللّه أخطب عليه سودة.

فقال: كُفْءٌ كريم.

قالت: ماذا تقول صاحبتك؟

قال: تحب ذلك... ادعيها إلي.

فدعتها، قال: أي بنية: إن هذه تزعم أن محمد بن عبداللّه بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك، وهو كُفْءٌ كريم؛ أتحبين أن أزوجك به؟.

قالت: نعم.

قال: ادعيه لي.

فجاء رسول اللّه ﷺ فزوجها إياه.

زفاف عائشة

قالت عائشة تروي قصة زفافها: فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج، فجاء رسول اللّه ﷺ، فدخل بيتنا، واجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء فجاءتني أمي وأنا لفي أرجوحة بين عذقين، يرجح بي، فأنزلتني من الأرجوحة، ولي جميمة ففرقتها، ومسحت وجهي بشيء من ماء، ثم أقبلت تقودني حتى وقفت بي

عند الباب، وإني لأنهج حتى سكن من نفسي، ثم دخلت بي فإذا رسول اللّه ﷺ جالس على سرير في بيتنا، وعنده رجال ونساء من الأنصار، فأجلستني في حجره ثم قالت: هؤلاء أهلك، فبارك اللّه لك فيهم، وبارك لهم فيك، فوثب الرجال والنساء فخرجوا، ودخل بي رسول اللّه ﷺ في بيتنا.

لماذا تزوّج سَوْدَة؟

وها هو ابن عباس يروي لنا أسباب زواجه ﷺ من سَوْدَة فيقول: إن رسول اللّه ﷺ خطب امرأة من قومه يقال لها سودة وكانت مصبية، كان لها خمس صبية - أو ست - من بعلها مات، فقال رسول اللّه ﷺ: «ما يمنعك مني؟» قالت: واللّه يا نبي اللّه ما يمنعني منك أن لا تكون أحب البرية إليّ، ولكن أكرمك أن يمنعوا هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية. قال: فهل منعك مني غير ذلك؟ قالت: لا واللّه. قال لها رسول اللّه ﷺ: يرحمك اللّه، إن خير نساء ركبن عجائز الإبل، صالح نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على بعل بذات يده. وكان زوجها قبله عليه السلام السكران بن عمرو وكان ممن أسلم وهاجر إلى الحبشة، ثم رجع إلى مكة فمات بها قبل الهجرة.

وهذا يقتضي أن عقده على عائشة كان متقدمًا على تزويجه بسودة بنت زمعة، ولكن دخوله على سودة كان بمكة، وأما دخوله على عائشة فتأخر إلى المدينة في السنة الثانية.

* * *

روايات الإمام البخاري في صحيحه؟!

[بابُ تَزْويج النبيّ... ﷺ... عائشةَ... وقُدُومِها المدينةَ وبنائِه بِها؟!]

أي هذا باب في بيان تزويج النبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... عائشة رضي اللّه تعالى عنها...

قوله (وقدومها) أي وفي بيان قدوم عائشة المدينة...

وكان قدوم عائشة مع أمها وأختها أسماء بنت أبي بكر رضي اللّه تعالى عنه إلى المدينة... بعد أبي بكر... لأن أبا بكر هاجر مع النبي... ﷺ...

وبعد أن استقر ركاب النبي ﷺ وأبو بكر بالمدينة بعد الهجرة...

بعثا زيد بن حارثة وأبا رافع مولى رسول اللّه... ﷺ... ليأتيا بأهاليهم من مكة...

وبعثا معهما بجملين وخمسمائة درهم ليشتريا بها إبلًا من قديد...

فذهبا فجاءا ببنتي النبي... ﷺ فاطمة وأم كلثوم... وزوجته سَوْدة... وعائشة... وأمّها أم رومان...

فقدمن ونزلن بالسُّنح... ثم دخل رسول اللّه... ﷺ... بعائشة... بالسُّنح... في منزل أبي بكر(١)...

واختلفوا في أي شهر دخل بها...

والأصح أنه في شوال...

لما روى مسلم... وأحمد... والترمذي... والنسائي... وابن ماجة عن عائشة:

«قالت: تزوّجني رسول اللّه... ﷺ... في شوال... وبنى بي في شوال»...

قوله (وبنائه بها) أي وفي بيان بناء النبي... ﷺ... بعائشة...

والأصل في هذا أن الداخل على أهله يضرب عليه قبة ليلة الدخول... ثم قيل لكل داخل بأهله بانٍ...

على الخير والبَرَكة؟!

«عن عائشة... رضي اللّه عنها:

«تَزَوَّجَني النبيُّ... ﷺ... فأَتَتْنِي أُمِّي... فأَدْخَلَتْني الدارَ...

---

(١) ذهب العقاد إلى أنها كانت قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها أو قاربتها يوم دخل بها الرسول عليه السلام – أنظر التفاصيل في آخر الكتاب – باب «ماذا قال العقاد»؟.

«فإذا نِسْوَةٌ مِنَ الأنصارِ في البيتِ... فقُلْنَ: عَلَى الخَيْرِ والْبَرَكَةِ... وعَلَى خَيْرِ طَائِرٍ.».

[أخرجه البخاري]

«وعلى خير طائر» كناية عن الفأل... وطائر الإنسان عمله الذي قلده...
وقال ابن الأثير: طائر الإنسان ما حصل له في علم اللّه عز وجل مما قدر له...
وقيل: الطائر... الحظّ...

دخوله عليها كان وقت الضُحَى؟!

«عن عائشةَ... رضي اللّه عنها... قالَتْ:
«تزوَّجَني النبيُّ... ﷺ...
«فأَتَتْني أُمِّي... فأَدْخَلَتْنِي الدَّارَ...
«فَلَمْ يَرُعْني إلّا رسولُ اللّهِ... ﷺ... ضُحًى.».

[أخرجه البخاري]

«فلم يَرُعْني» فلم يفجأني...
«ضُحًى» أي وقت الضحى...
أرادت أن دخوله عليها كان وقت الضُّحى...

هل كانت في الرابعة عشرة؟!

نثبت ما ذهب إليه الاستاذ عباس العقاد في كتابه «الصدِّيقة بنت الصِّدِّيق» قال:
«ولا يعرف على التحقيق في أي سنة ولدت السيدة عائشة رضي اللّه عنها. ولكن أقرب الأقوال إلى الصدق وأحراها بالقبول أنها ولدت في السنة الحادية عشرة أو الثانية عشرة قبل الهجرة، فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها أو قاربتاها يوم بنى بها الرسول عليه السلام[1]»...

---

(١) أثبتنا التفاصيل في آخر الكتاب... في باب «ماذا قال العقاد»؟

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ...
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ...
مِّنَ النِّسَاءِ...؟!

عندما صارت... عائشة... رضي اللّه عنها... زوجة للنبيّ... ﷺ...

صارت... أُمًّا للمؤمنين والمؤمنات... إلى يوم القيامة...

فانتقلت بذلك إلى مقام... أمّ المؤمنين... وزوج النبي... ﷺ...

وظهر للعالَم أجمع... الحكمة من زواجها صغيرة... وبقائها بعد وفاة النبي... ﷺ... نحو خمسين عامًا؟...

لتكون مصدر إشعاع للأمّة كلها... مرجعًا للعلماء والفقهاء...

تروي لهم من شؤون دينهم ما لم يكونوا يعلمون...

طيلة نحو خمسين عامًا... بعد انتقال رسول اللّه... ﷺ... إلى الرفيق الأعلى...

وآتاها اللّه... من الفضائل العليا... ما أعانها على أداء تلك الرسالة...

قالَ تعالى:

﴿يا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّساءِ... إِن اتَّقَيْتُنَّ... فَلَا تَخْضَعْنَ بالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ... وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى... وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ... وَأَطِعْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ... إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللّهِ والْحِكْمَةِ إِنَّ اللّهَ كانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

[الأحزاب ٣٢ – ٣٤]

﴿يا نساءَ النبيِّ لَسْتُنَّ كأَحَدٍ مِّنَ النساءِ﴾...

ذهب جمع من الرجال إلى أن المعنى ليس كل واحدة منكن... كشخص واحد من النساء... أي من نساء عصركن...

أي أن كل واحدة منكن... أفضل من كل واحدة منهن...

لما امتازت بشرف الزوجية... لرسول اللّه... ﷺ... وأمومة المؤمنين...

وقيل: المعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء.. أي إذا تقصيت أمة النساء... جماعة جماعة... لم يوجد منهن جماعة واحدة... تساويكن في الفضل والسابقة...

وقيل: المعنى على تفضيل نساء النبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... على نساء غيره... لا النظر إلى تفضيل واحدة على واحدة من آحاد النساء...

وتفضيل كل واحدة من نسائه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... على كل واحدة واحدة من سائر النساء لا يلزم أن يكون لهذه الآية... بل هو لدليل آخر... إما عقلي أو نصّي... مثل قوله تعالى: ﴿وأَزْواجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾...

وقيل: يجوز أن يكون ذلك لها... فإنها تفيد بحسب عرف الاستعمال تفضيل كل منهن على سائر النساء... لأن فضل الجماعة على الجماعة يكون غالبًا لفضل كل منها...

﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ شرط لنفي المثلية... وفضلهن على النساء...

أي أن اتّقيتُن مخالفة حُكم اللّه تعالى... ورضا رسوله... صلى اللّه تعالى عليه وسلم...

والمراد إن دمتنَّ على اتقاء ذلك...

أو المراد به التهييج... بجعل طلب الدنيا... والميل إلى ما تميل إليه النساء... لبعده من مقامهن... بمنزلة الخروج من التقوى...

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بالْقَوْلِ﴾ بمعنى الاستقبال... أي أن استقبلتن أحَدًا فلَا تخضعن...

ومعنى لا تخضعن بالقول: لا تُجبْن بقولكن خاضعًا... أي لينًا خنثًا... عَلى سنن كلام المريبات...

وحاصله: لا تلنّ الكلام ولا ترقّقنه...

وهذا - على ما قيل - في غير مخاطبة الزوج ونحوه... كمخاطبة الأجانب... وإن كُنَّ محرمات عليهم على التأبيد...

روي عن بعض أمهات المؤمنين أنها كانت تضع يدها على فمها إذا كلمت أجنبيًا... تغير صوتها بذلك... خوفًا من أن يسمع رخيمًا ليّنًا...

وعُدّ إغلاظ القول لغير الزوج من جملة محاسن خصال النساء... جاهلية وإسلامًا...

وما وقع من مدح العشيقة برخامة الصوت... وحسن الحديث... ولين الكلام... فمن باب السَّفَه... كما لا يخفى...

﴿**فَيَطْمَعَ الَّذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ**﴾ أي فجور وزِنا...

والمراد: نية أو شهوة فجور وزنا...

وعن قتادة: تفسيره بالنفاق...

وقرىء: **فيُطْمِعِ**...

أي الخضوعُ الذي في قلبه مرض...

﴿**وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا**﴾ حَسَنًا... بعيدًا عن الريبة... غير مطمع لأحد...

وقال الكلبي: أي صحيحًا... بلا هجر ولا تمريض...

وقال الضحاك: عنيفًا...

وقيل: أي قولًا أذن لكم فيه...

وقيل: ذكر اللّه تعالى... وما يحتاج إليه من الكلام...

﴿**وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ**﴾ المراد أمرهن... رضي اللّه تعالى عنهن... بملازمة البيوت...

وهو أمر مطلوب من سائر النساء...

أخرج البزار... عن أنس... قال: جئن النساء إلى رسول اللّه... ﷺ... فقلن: يا رسول اللّه: ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل اللّه تعالى... فهل لنا عمل ندرك به فضل المجاهدين في سبيل اللّه تعالى؟... فقال عليه الصلاة والسلام:

«من قعدت منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل اللّه تعالى»...

وقد يحرم عليهن الخروج... بل قد يكون كبيرة كخروجهن لزيارة القبور إذا عظمت مفسدته... وخروجهن ولو إلى المسجد وقد استعطرن وتزينّ إذا تحققت الفتنة...

وما يجوز من الخروج كالخروج للحجّ وزيارة الوالدين وعيادة المرضى وتعزية الأموات من الأقارب ونحو ذلك... فإنما يجوز بشروط مذكورة في محلها...

وظاهر إضافة البيوت إلى ضمير النساء المطهرات أنها كانت مِلْكهن...

وقد صرح بذلك الحافظ غلام محمد الأسلمي... وذكر أنه عليه الصلاة والسلام بنى كل حجرة لمن سكن فيها من الأزواج... وكانت كل واحدة منهن تتصرف بالحجرة الساكنة هي فيها تصرف المالك في مِلْكه... بحضوره صلى اللّه تعالى عليه وسلم...

وقد ذكر الفقهاء أن مَن بنى بيتًا لزوجته وأقبضه إياها... كان كمن وهب زوجته بيتًا وسلمه إليها... فيكون البيت مِلْكًا لها...

ويشهد لدعوى أن الحجرة التي كانت تسكنها عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... كانت مِلْكًا لها... غير الإضافة في (بُيُوتِكُنَّ) الداخل فيه حجرتها... استئذان عمر... رضي اللّه تعالى عنه... لدفنه فيها... منها... بمحضر من الصحابة... وعدم إنكار أحد منهم... حتى عليّ... كرّم اللّه تعالى وجهه...

ويجوز أن تكون إضافة البيوت إلى ضمير النساء المطهرات باعتبار أنهن ساكنات فيها... قائمات بمصالحها... قيّمات عليها...

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ التبرّج على ما روي عن مجاهد... وقتادة... وابن أبي نجيح: المشي بتبختر وتكسر وتغنج...

وعن مقاتل: أن تلقي المرأة خمارها على رأسها ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها... ويبدو ذلك كله منها...

وقال المبرد: أن تبدي من محاسنها ما يجب عليها ستره...

قال الليث: ويقال تبرّجت المرأة: إذا أبدت محاسنها من وجهها وجسدها... ويرى مع ذلك من عينها حسن نظر[١]...

وقال أبو عبيدة: أن تخرج من محاسنها ما تستدعي به شهوة الرجال...

وأصله من البرج... وهو سعة العين وحسنها...

أي لا تبرجن مثل تبرج الجاهلية الأولى...

وقيل: هو البُرج بمعنى القصر...

ومعنى تبرّجت المرأة: ظهرت من بُرجها أي قصرها...

والمراد بالجاهلية الأولى...

قيل: كانت الجاهلية الأولى زمن إبراهيم عليه السلام... والثانية زمن محمد... صلى اللّه تعالى عليه وسلم قبل أن يبعث...

وقال أبو العالية: كانت الأولى زمن داود وسليمان عليهما السلام... وكان للمرأة قميص من الدرّ غير مخيط الجانبين... يظهر منه الأعكان والسوأتان...

وقال الشعبي: ما بين عيسى ومحمد... عليهما الصلاة والسلام...

قال الزجاج: وهو الأشبه لأنهم هم الجاهلية المعروفة... كانوا يتخذون البغايا...

وروي عن ابن عباس ما هو نص في أن الأولى هنا مقابل الأخرى...

وقال الزمخشري: يجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام...

والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام...

فكأن المعنى: ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام... تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر...

وفسرها ابن الأثير بالحالة التي عليها العرب قبل الإسلام... من الجهل باللّه تعالى... ورسوله عليه الصلاة والسلام... وشرائع الدين... والمفاخرة بالأنساب... والكبر والتجبر وغير ذلك... واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أقول: ماذا يقول الشارح لو رأى ما عليه كثير من نساء اليوم؟!

﴿وأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ أمِرن بهما لأنافتهما على غيرهما... وكونهما أساس العبادات البدنية والمالية...

﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ ورسُولَهُ﴾ في كل ما تأتين وتذرن... لاسيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه...

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا.﴾.

الرجس في الأصل: الشيء القذر.. وأريد به هنا – عند كثير – الذنب مجازًا...

وقال السدي: الإثم...

وقال الزجاج: الفسق..

وقال ابن زيد: الشيطان...

وقال الحسن: الشرك...

وقيل: الشك...

وقيل: البخل والطمع...

وقيل: الأهواء والبدع...

وقيل: إنَّ الرجس يقع على الإثم... وعلى العذاب... وعلى النجاسة... وعلى النقائص...

والمراد به هنا ما يعم كل ذلك...

والمراد بالتطهير... قيل: التحلية بالتقوى...

والمعنى – على ما قيل – إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الذنوب والمعاصي... فيما نهاكم... ويحليكم بالتقوى تحلية بليغة فيما أمركم...

وجوز أن يراد به الصون... والمعنى: إنما يريد سبحانه ليذهب عنكم الرجس ويصونكم من المعاصي صونًا بليغًا فيما أمر ونهى جلّ شأنه...

والمراد بأهل البيت: نساؤه... ﷺ... المطهرات... للقرائن الدالة على ذلك من الآيات السابقة واللاحقة... مع أنه عليه الصلاة والسلام ليس له بيت يسكنه سوى سكناهن...

وروى ذلك غير واحد...

أخرج ابن أبي حاتم... وابن عساكر... من طريق عكرمة... عن ابن عباس... رضي اللّه تعالى عنهما: نزلت ﴿إنَّما يُرِيدُ اللّهُ﴾ الخ في نساء النبي ﷺ... خاصة...

وروى ابن جرير أيضًا أن عكرمة كان ينادي في السوق: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ الْبَيْتِ﴾ نزل في نساء النبي عليه الصلاة والسلام...

وأخرج ابن سعد عن عُرْوة ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ﴾ قال: يعني أزواج النبي... ﷺ... وتوحيد البيت لأن بيوت الأزواج المطهَّرات باعتبار الإضافة إلى النبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... بيت واحد... وجمعه فيما سبق ولحق باعتبار الإضافة إلى الأزواج المطهرات اللاتي كن متعددات... وجمعه في قوله سبحانه الآتي إن شاء اللّه تعالى: ﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النبيِّ إلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ دفعًا لتوهم إرادة بيت زينب... لو أفرد من حيث أن سبب النزول أمر وقع فيه...

هل المراد بالبيت... بيت النَّسَب؟!

وقيل: المراد بالبيت بيت النَّسَب...

ولذا أفرد ولم يجمع... كما في السابق واللاحق...

«عن ابن عباس... رضي اللّه تعالى عنهما... قال:

«قال رسول اللّه... ﷺ...:

«إن اللّه تعالى قسم الخلقَ قسمين... فجعلني في خيرهما قسمًا... فلذلك قوله تعالى: ﴿وأصحابُ اليَمِينِ﴾ ﴿وأصحابُ الشِّمالِ﴾... فأنا من أصحاب اليمين... وأنا خير أصحاب اليمين...

«ثم جعل القسمين أثلاثًا... فجعلني في خيرها ثلثًا... فلذلك قوله تعالى: ﴿وأَصْحَابُ المَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ * والْسَّابِقُونَ الْسَّابِقُونَ﴾... فأنا من السابقين... وأنا خير السابقين...

«ثم جعل الأثلاث قبائل... فجعلني في خيرها قبيلة... وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾... وأنا أتقى ولد آدم... وأكرمهم على اللّه تعالى... ولا فخر...

«ثم جعل القبائل بيوتًا... فجعلني في خيرها بيتًا... فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾... أنا وأهل بيتي مطهّرون من الذنوب».

فإن المتبادر من البيت الذي هو قسم من القبيلة... البيت النَّسَبي.. واختلف في المراد بأهله...

فذهب الثعلبي إلى أن المراد بهم جميع بني هاشم... ذكورهم وإناثهم...

والظاهر أنه أراد مؤمني بني هاشم... وهذا هو المراد بالآل عند الحنفية...

وقال بعض الشافعية:

المراد بهم آله صلى اللّه تعالى عليه وسلم... الذي هم مؤمنو بني هاشم... والمطلب...

وذكر الراغب أن أهل البيت تعورف في أسرة النبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... مطلقًا...

وأسرة الرجل: رهطه... أو قومه وقبيلته الأدنون...

وقال في موضع آخر: صار أهل البيت متعارفًا في آله عليه الصلاة والسلام...

وصح عن زيد بن أرقم... في حديث أخرجه مسلم أنه قيل له: من أهل بيته نساؤه صلى اللّه تعالى عليه وسلم؟...

«فقال: لا أيم اللّه... إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها...

«أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده صلى اللّه تعالى عليه وسلم».

وفي آخر أخرجه هو أيضًا مبين هؤلاء الذين حرموا الصدقة أنه قال: هم آل عليّ...

وآل عقيل...

وآل جعفر...

وآل عباس..

أخرج الترمذي... والحاكم وصححاه...

وابن جرير... وابن المنذر... وابن مردويه... والبيهقي... في سننه... من طرق عن أم سلمة... رضي اللّه تعالى عنها... قالت:

«في بيتي نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيْدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾...

«وفي البيت فاطمة وعليّ والحَسَن والحسين...

«فجللهم رسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... بكساء كان عليه... ثم قال:

«هؤلاء أهل بيتي... فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا.»».

وجاء في بعض الروايات:

أنه عليه الصلاة والسلام أخرج يده من الكساء وأومأ بِها إلى السماء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي... فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا... ثلاث مرات.

وفي بعض آخر:

أنه عليه الصلاة والسلام ألقى عليهم كساء فدكيًّا... ثم وضع يده عليهم ثم قال: اللهم إن هؤلاء أهل بيتي...

وفي لفظ: آل محمد...

فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد... كما جعلتها على آل إبراهيم... إنك حميد مجيد.

وجاء في رواية أخرجها الطبراني...

عن أم سلمة أنها قالت: فرفعت الكساء لأدخل معهم...

«فجذبه ﷺ من يدي... وقال: **إنكِ على خير.**

وفي أخرى رواها ابن مردويه عنها أنها قالت: ألست من أهل البيت؟...

«فقال ﷺ: إنك إلى خير... إنك من أزواج النبي... ﷺ...
وأخبار إدخاله صلى اللّه تعالى عليه وسلم... عليًا وفاطمة وابنيهما رضي اللّه تعالى عنهم... تحت الكساء... وقوله عليه الصلاة والسلام... اللهم هؤلاء أهل بيتي... ودعائه لهم... وعدم إدخال أم سلمة... أكثر من أن تحصى...

رأي الإمام الألوسي... مَن هم أهل البيت؟!

«لا يخلو جميع ما ذكر عن بحث... والذي يظهر لي:
أن المراد بأهل البيت مَن لهم مزيد علاقة به... ﷺ...
ونسبة قوية قريبة إليه... عليه الصلاة والسلام...
بحيث لا يقبح عرفًا اجتماعهم وسكناهم معه... ﷺ... في بيت واحد...
ويدخل في ذلك أزواجه...
والأربعة أهل الكساء...
وعليّ... كرّم اللّه تعالى وجهه...
مع ما له من القرابة من رسول اللّه... ﷺ... قد نشأ في بيته وحجره... عليه الصلاة والسلام... فلم يفارقه...
وعامله كولده صغيرًا... وصاهره وآخاه كبيرًا...
والإرادة على معناها الحقيقي المستتبع للفعل...
والآية لا تقوم دليلًا على عصمة أهل بيته... صلى اللّه تعالى عليه وعليهم وسلم... الموجودين حين نزولها... وغيرهم...
ولا على حفظهم من الذنوب... على ما يقوله أهل السنّة...
لا لاحتمال أن يكون المراد توجيه الأمر والنهي أو نحوه لإذهاب الرجس والتطهير بأن يجعل المفعول به (ليريد) محذوفًا، ويجعل (ليذهب. ويطهر) في موضع المفعول له وإن لم يكن فيه بأس... بل لأن المعنى حسبما ينساق إليه الذهن ويقتضيه وقوع الجملة موقع التعليل للنهي والأمر... نهاكم اللّه تعالى وأمركم لأنه عزّ وجلّ يريد بنهيكم وأمركم إذهاب الرجس عنكم

وتطهيركم... وفي ذلك غاية المصلحة لكم... ولا يريد بذلك امتحانكم وتكليفكم... بلا منفعة تعود عليكم...

والمراد بالرجس الذنب... وبإذهابه إزالة مباديه... بتهذيب النفس... وجعل قواها كالقوة الشهوانية والقوة الغضبية بحيث لا ينشأ عنها ما ينشأ من الذنوب كالزنا وقتل النفس التي حرم اللّه تعالى وغيرهما... لا إزالة نفس الذنب بعد تحققه في الخارج وصدوره من الشخص...

وكأن مآل الإذهاب التخلية... ومآل التطهير التحلية...

والآية متضمنة الوعد منه عز وجل لأهل بيت نبيّه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم...

بأنهم أن ينتهوا عما ينهى عنه ويأتمروا بما يأمرهم به... يذهب عنهم لا محالة مبادي ما يستهجن... ويحليهم أجل تحلية بما يستحسن...

وفيه إيماء إلى قبول أعمالهم... وترتب الآثار الجميلة عليها قطعًا...

ويكون هذا خصوصية لهم... ومزية على من عداهم...

من حيث أن أولئك الأخيار إذا انتهوا وائتمروا لا يقطع لهم بحصول ذلك...

ولذا نجد عُبَّاد أهل البيت أتمّ حالًا من سائر العباد المشاركين لهم في العبادة الظاهرة...

وأحسن أخلاقًا... وأزكى نفسًا... وإليهم تنتهي سلاسل الطرائق التي مبناها كما لا يخفى على سالكيها التخلية والتحلية... اللتان هما جناحان للطيران إلى حظائر القدس... والوقوف على أوكار الأنس...

حتى ذهب قوم إلى أن القُطْب في كل عصر لا يكون إلّا منهم...

خلافًا للأستاذ أبي العباس المرسي... حيث ذهب... كما نقل عنه تلميذه التاج بن عطاء اللّه... إلى أنه قد يكون من غيرهم...

هذا ما عندي في الكلام على الآية الكريمة المتضمنة فضيلة لأهل البيت عظيمة»...

عَوْد إلى تفسير الآيات؟!

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي اذكرن للناس بطريق العظة والتذكير...

وقيل: أي تذكرن ولا تنسين ما يتلى في بيوتكن...

﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي القرآن...

﴿والحِكْمَةِ﴾ هي السُّنَّة...

وفسّرت بنصائحه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم...

وعدم تعيين التالي... لتعم تلاوة جبريل... وتلاوة النبي... عليهما الصلاة والسلام... وتلاوتهن... وتلاوة غيرهن تعليمًا وتعلمًا...

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾. يعلم ويدبر ما يصلح في الدين...

ولذلك فعل ما فعل من الأمر والنهي...

أو: يعلم من يصلح للنبوة... ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته...

وقيل: يعلم الحكمة حيث أنزل كتابه جامعًا بين الوصفين...

وجوز بعهضهم... أن يكون اللطيف ناظرًا للآيات لدقة إعجازها... والخبير للحكمة لمناسبتها للخبرة.

* * *

وأخيرًا... بعد هذا السرد المستفيض في تفسير الآيات الكريمة... ماذا أريد أن أقول؟!

أريد أن أقول... إن هذه الآيات التي تحدثت عن فضل نساء النبي... ﷺ...

هي في نفس الوقت... تتحدث عن فضل عائِشة... رضي اللّه تعالى عنها...

لأنها إحدى أولئك المطهرات... رضي اللّه تعالى عنهن...

بل أشهرهن...

بل أحبهنَّ إليه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم!!!.

وَأَزْوَاجُهُ...

أُمَّهَاتُهُمْ...؟!

في الفصل السابق... ظهر للجميع... فضل عائشة... رضي اللّه عنها... باعتبارها إحدى نساء النبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم...

اللاتي قال اللّه فيهن: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾...!!!

وفي هذا الفصل يظهر لنا.. إن شاء اللّه... فضل عائشة... رضي اللّه عنها...

باعتبارها إحدى أمهات المؤمنين... المطهرات... رضي اللّه عنهن...

قال تعالى:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾

﴿وأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ...﴾

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِيْنَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا...﴾.

﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾.

[الأحزاب ٦]

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بالمؤمنينَ﴾ أي أحق وأقرب إليهم...

﴿مِنْ أَنفُسِهِم﴾ أو... أشد ولاية ونصرة لهم منها...

فإنه عليه الصلاة والسلام... لا يأمرهم... ولا يرضى منهم... إلّا بما فيه صلاحهم ونجاحهم...

بخلاف النفس... فإنها إما أمّارة بالسوء... وحالها ظاهر أو لا...

«فقد تجهل بعض المصالح... وتخفى عليها بعض المنافع...».

وأطلقت الأولوية ليفيد الكلام أولويته... عليه الصلاة والسلام... في جميع الأمور...

ويعلم من كونه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... أولى بهم من أنفسهم... كونه عليه الصلاة والسلام... أولى بهم من كل من الناس...

وقد أخرج البخاري... وغيره... عن أبي هريرة.. عنه ﷺ... أنه قال:

«ما من مؤمن إلّا وأنا أوْلى الناس به في الدنيا والآخرة...

اقرؤا إن شئتم... النبيُّ أوْلَى بالمؤمنينَ مِن أنفُسِهِم...

فأيما مؤمن ترك مالًا... فليرثه عصبته... من كانوا...

فإن تَرَكَ دينًا أو ضياعًا... فليأتني فأنا مولاه...

وإذا كان صلى اللّه تعالى عليه وسلم... بهذه المثابة في حق المؤمنين... يجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم...

وحُكمه... عليه الصلاة والسلام... عليهم أنفذ من حكمها...

وحقه آثر لديهم من حقوقها... وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها...

وسبب نزول الآية – على ما قيل – ما روي من أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأَمر الناس بالخروج... فقال أناس منهم:

نستأذن آباءنا وأمهاتنا...

فنزلت...

ووجه دلالتها على السبب... أنه صلى اللّه تعالى عليه وسلم... إذا كان أوْلى من أنفسهم... فهو أولى من الأبوين...

﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾...

أي منزلات منزلة أمهاتهم...

في تحريم النكاح...

واستحقاق التعظيم...

وأما فيما عدا ذلك من النظر إليهن... والخلوة بهن... وإرثهن ونحو ذلك... فهُنَّ كالأجنبيات...

ولكون وجه الشبه مجموع ما ذكر... قالت عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... لامرأة قالت لها يا أُمَّه:

«أنا أُمّ رجالكم... لا أمّ نسائكم»...

أخرجه ابن سعد... وابن المنذر... والبيهقي في سننه عنها...

ولا ينافي هذا استحقاق التعظيم منهن أيضًا...

وأخرج ابن سعد... عن أم سلمة... رضي اللّه تعالى عنها... أنها قالت: أنا أمّ الرجال منكم... والنساء...

وعليه يكون ما ذكر وجه الشبه بالنسبة إلى الرجال...

وأما بالنسبة إلى النساء فهو استحقاق التعظيم...

والظاهر أن المراد من أزواجه... كل من أطلق عليها أنها زوجة له... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... من طلقها... ومن لم يطلِقها...

وروى ذلك ابن أبي حاتم... عن مقاتل...

فيثبت الحكم لكلهنّ...

وهو الذي نص عليه الإمام الشافعي... وصححه في الروضة...

وقيل: لا يثبت الحُكم لمن فارقها عليه الصلاة والسلام في الحياة... كالمستعيذة والتي رأى بكشحها بياضًا...

وصحح إمام الحرمين... والرافعي... في الصغير... تحريم المدخول بها فقط... لما روي أن الأشعث بن قيس نكح المستعيذة في زمن عمر... رضي اللّه تعالى عنه... فهمّ عمر برَجْمه... فأخبره أنها لم تكن مدخولًا بها... فكفَّ...

وفي رواية أنه رضي اللّه تعالى عنه همّ برَجْمها فقالت له: ولم هذا؟... وما ضُرِبَ عليّ حجاب... ولا سميت للمسلمين أُمًّا؟... فكفَّ عنها...

وعن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿النبيُّ أوْلَى بالمُؤْمِنِينَ مِن أنفُسِهِم وهو أبٌ لَهُم وأزواجُهُ أُمّهَاتُهُمْ﴾...

وإطلاق الأب عليه صلى اللّه تعالى عليه وسلم... لأنه سبب الحياة الأبدية... كما أن الأب سبب للحياة أيضًا...

بل هو عليه الصلاة والسلام... أحق بالأبوة منه...

وعن مجاهد: كل نبيّ أب لأمته... ﴿وأُولُوا الأَرْحَامِ﴾ أي ذوو القرابات الشاملون للعصبات لا ما يقابلهم... ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ في النفع بميراث وغيره من النفع المالي... أو في التوارث...

﴿في كتابِ اللّهِ﴾ أي فيما كتبه في اللوح... أو: فيما أَنزله... وهي آية المواريث... أو: هذه الآية... أو: فيما كتبه سبحانه وفرضه وقضاه...

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِيْنَ﴾ أي: أولو الأرحام بحق القرابة... أولى في كل نفع... أو: بالميراث... من المؤمنين بحق الدِّين... ومن المهاجرين بحق الهجرة...

وكان في المدينة توارث بالهجرة وبالموالاة في الدين... فنسخ ذلك بآية آخر الأنفال... أو: بهذه الآية...

﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائكُمْ مَعْرُوفًا﴾ كأنه قيل: القريب أولى من الأجنبي من المؤمنين والمهاجرين في كل نفع من ميراث وصدقة وهدية ونحو ذلك... إلّا في الوصية... فإنها المرادة بالمعروف... فالأجنبي أحق بها من القريب الوارث... فإنها لا تصح لوارث...

«كان ذلك» أي ما ذكر في الآيتين... أعني ادعوهم لآبائهم... والنبيُّ أوْلَى بالمؤمنينَ مِن أنفُسِهم...

وجوز أن يكون إشارة إلَى ما سبق من أول السورة إلى هنا...

﴿في الكتاب﴾ أي في اللوح... أو القرآن...

﴿مَسْطورًا﴾ أي مثبتًا.

* * *

والآن: ماذا في هذه الآية الكريمة من إشارة إلى فضل عائشة... رضي اللّه تعالى عنها؟!

تأمَّل قوله سبحانه:

﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾ وفكِّر فيها مَليًّا!!!

إنَّ الآية تُحَرِّم كل زوجة للنبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... تحريمًا

أبديًّا...

وأزواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ؟!!

وعائشة... رضي الله عنها... إحدى هؤلاء المطهرات... هُنَّ أمَّهات المؤمنين!!!

وهي أُمُّ المؤمنين!!!

لها منزلة الأُمّ!!!

واستحقاق التعظيم!!!.

ماذا قالت...
أم المؤمنين عائشة...
عندما خيَّرها...
رسول اللّه...
صلى اللّه عليه وسلم؟!

فلمّا نصر اللّه تعالى... رسولَه... ﷺ... في غزوة الأحزاب... وفتح عليه النضير... وقريظة...

ظن أزواجه... عليه الصلاة والسلام أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم... فقعدن حوله وقلن:

يا رسول اللّه... بنات كسرى... وقيصر... في الحلى والحلل... والإماء والخول...

ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق!!!.

وآلمن قلبه الشريف... عليه الصلاة والسلام... بمطالبتهن له بتوسعة الحال...

وأن يعاملهن بما تعامل به الملوك... وأبناء الدنيا أزواجهم...

فأمره اللّه تعالى بأن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن...

قالَ تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَن

يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

[الأحزاب ٢٨ – ٣١]

﴿يا أيها النبيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدُّنْيَا﴾ أي السعة والتنعم فيها...

﴿وزينَتَها﴾ أي زخرفها...

﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أي أقبلن بإرادتكن واختياركن لإحدى الخصلتين...

﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي أعطكن متعة الطلاق...

﴿وأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أي وأطلقكن... والتسريح في الأصل مطلق الإرسال ثم كنى به عن الطلاق...

﴿سَرَاحًا﴾ أي طلاقًا...

﴿جَمِيلًا﴾ أي ذا حسن كثير... بأن يكون سُنيًّا لا ضرار فيه... وفي مجمع البيان: تفسير السراح الجميل بالطلاق الخالي عن الخصومة والمشاجرة...

وأخرج أحمد... ومسلم... والنسائي... وابن مردويه... من طريق ابن الزبير... عن جابر... قال:

«أقبل أبو بكر... رضي اللّه تعالى عنه... والناس ببابه جلوس...

«والنبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... جالس... فلم يؤذن له...

«ثم أذن لأبي بكر وعمر... رضي اللّه تعالى عنهما... فدخلا...

«والنبي... ﷺ... جالس... وحوله نساؤه... وهو ساكت...

«فقال عمر: لأكلمن رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم... لعله يضحك...

«فقال: يا رسول اللّه... لو رأيت ابنة زيد... يعني امرأته رضي اللّه تعالى عنه... سألتني النفقة آنفًا... فوجأت عنقها...

«فضحك النبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... حتى بدا ناجذه... وقال: هُنَّ حولي سألنني النفقة...

«فقام أبو بكر... رضي اللّه تعالى عنه... إلى عائشة... ليضربها...
«وقام عمر... رضي اللّه تعالى عنه... إلى حفصة...
«كلاهما يقولان: تسألان النبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... ما ليس عنده...
«فنهاهما رسول اللّه... ﷺ...
«فقلن نساؤه: واللّه لا نسأل رسول اللّه... ﷺ... بعد هذا المجلس ما ليس عنده...
«وأنزل اللّه تعالى الخيار...
«فبدأ بعائشة... فقال... عليه الصلاة والسلام: إني ذاكر لك أمرًا ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبَوَيْكِ...
«قالت: وما هو؟...
«فتلا عليها ﴿يا أيها النبيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ الآية...
«قالت عائشة: أفيك أستأمر أبويّ؟!...
«بل أختار اللّه تعالى ورسوله... صلى اللّه تعالى عليه وسلم...
«وأسألك أَن لا تذكره لامرأة من نسائك ما اخترت...
«فقال عليه الصلاة والسلام: إن اللّه تعالى لم يبعثني متعنتًا... ولكن بعثني معلمًا مبشرًا... لا تسألني امرأة منهن عمّا أخبرتني إلّا أخبرتها.».
وفي خبر رواه ابن جرير... وابن أبي حاتم... عن قتادة... والحسن:
«أنه لما نزلت آية التخيير... كان تحته... عليه الصلاة والسلام... تسع نسوة...
«خمس من قريش: عائشة... وحفصة... وأم حبيبة بنت أبي سفيان... وسَوْدة بنت زمعة... وأم سلمة بنت أبي أمية...
«وكان تحته صفية بنت حيي الخيبرية... وميمونة بنت الحرث الهلالية... وزينب بنت جحش الأسدية... وجويرية بنت الحرث من بني المصطلق...

«وبدأ بعائشة...

«فلما اختارت اللّه تعالى ورسوله... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... والدار الآخرة... رؤي الفرح في وجه رسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم...

«فتتابعن كلهن على ذلك...

«فلما خيّرهن واخترن اللّه عز وجل ورسوله... عليه الصلاة والسلام... والدار الآخرة...

«شكرهن اللّه جلّ شأنه على ذلك... إذ قال سبحانه: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾...

«فقصره اللّه تعالى عليهن... وهن التسع اللاتي اخترن اللّه عز وجل... ورسوله... صلى اللّه تعالى عليه وسلم....

وأخرج ابن سعد... عن عمرو بن سعيد... عن أبيه... عن جده... أنه صلى اللّه تعالى عليه وسلم... خيّر نساءه... فاخترن جميعًا اللّه تعالى ورسوله... عليه الصلاة والسلام... غير العامرية... اختارت قومها... فكانت بعد تقول: أنا الشقية... وكانت تلقط البعر وتبيعه... وتستأذن على أزواج النبي... ﷺ... فتقول: أنا الشقية.

وكان هذا التخيير... كما روي عن عائشة... وأبي جعفر... بعد أن هجرهن... عليه الصلاة والسلام... شهرًا... تسعة وعشرين يومًا...

﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللّهَ ورسولَهُ﴾ إن كنتن تردن رسول اللّه... وإنما ذكر اللّه عزّ وجلّ... للإيذان بجلالة محله... عليه الصلاة والسلام... عنده تعالى...

﴿والدَّارَ الآخِرَةَ﴾ أي نعيمها الباقي الذي لا قدر عنده للدنيا وما فيها...

﴿فإِنَّ اللّهَ أَعَدَّ﴾ أي هيّأ ويسّر...

﴿للمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ﴾ بمقابلة إحسانهن...

﴿أجْرًا﴾ لا تحصى كثرته.

﴿عظيمًا﴾ لا تستقصى عظمته...

﴿يا نساءَ النبيّ﴾ لإظهار الاعتناء بنصحهن... ونداؤهن ها هنا وفيما بعد

بالإضافة إليه... عليه الصلاة والسلام... لأنها التي يدور عليها ما يرد عليهن من الأحكام...

﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ بكبيرة... ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ ظاهرة القبح...

عن مقاتل: أنها العصيان للنبي... ﷺ...

وقيل: ذلك... وطلبهن ما يشقّ عليه... عليه الصلاة والسلام... أو ما يضيق به ذرعه... ويغتم... ﷺ... لأجله...

وينبغي أن تحمل الفاحشة على عقوق الزوج وفساد عشرته...

﴿يُضَاعَفْ لهَا العذابُ﴾ يوم القيامة... وفي الدنيا...

﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي يعذبن ضعفي عذاب غيرهن... أي مثليه...

وسبب تضعيف العذاب... أن الذنب منهن أقبح... فإن زيادة قبحه تابعة لزيادة فضل المذنب والنعمة عليه... ولذلك عوتب الأنبياء عليهم السلام بما لا يعاتب به الأمم... وكذا حال العالم بالنسبة إلى الجاهل... فليس من يعلم كمن لا يعلم...

﴿وكانَ ذلكَ﴾ أي تضعيف العذاب عليهن...

﴿على اللّهِ يسيرًا﴾ أي سهلًا لا يمنعه جلّ شأنه عنه... كونهن نساء النبي... ﷺ... بل هو سبب له...

﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ﴾ أي ومن تخشع وتخضع...

﴿لله ورسوله وَتَعْمَلْ﴾ عملًا...

﴿صالحًا﴾ كصلاة وصوم وحج وإيتاء زكاة...

﴿نُؤْتِها أجْرَهَا﴾ الذي تستحقه على ذلك فضلًا وكرمًا...

﴿مَرَّتَيْنِ﴾ فيكون أجرها مضاعفًا... وهذا في مقابلة يضاعف لها العذاب ضعفين...

أخرج ابن أبي حاتم... عن الربيع بن أنس... أنه قال في حاصل معنى الآيتين:

«إنَّهُ مَنْ عَصَى مِنْكُنَّ فإنَّهُ يكونُ العَذَابُ عَلَيْها الضِّعْفَ مِنْهُ عَلَى سَائِرِ نِسَاءِ المُؤْمِنِينَ...

ومَنْ عَمِلَ صَالِحًا فإنَّ الأَجْرَ لَهَا الضّعْفَ على سائِرِ نِسَاءِ المُسْلِمِينَ».

ويستدعي هذا أنه إذا أثيب نساء المسلمين على الحسنة بعشر أمثالها... أثبن هُنَّ على الحسنة بعشرين مثلًا لها... وإن زيد للنساء على العشر شيء زيد لهن ضعفه...

ثم إن تضعيف أجرهن لمزيد كرامتهن... رضي اللّه تعالى عنهن... على اللّه عزّ وجلّ... مما مَنَّ به عليهن من النسبة إلى خير البرية... عليه من اللّه تعالى أفضل الصلاة وأكمل التحية...

والظاهر أن ذلك ليس بالنسبة إلى أعمالهن الصالحة التي عملنها في حياته... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... فقط... بل يضاعف أجرهن عليها وعلى الأعمال الصالحة التي يعملنها بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

وقيل: إنَّ هاتين المرتين... إحداهما على الطاعة...

والأخرى على طلبهن رضاء النبي... ﷺ... بالقناعة وحسن المعاشرة...

﴿**وأعْتَدْنا لها**﴾ في الجنة زيادة على أجرها المضاعف...

﴿**رِزْقًا كريمًا**﴾ عظيم القدر... رفيع الخطر... مرضيًا لصاحبه...

* * *

ماذا قال الإمام البخاري؟!

[باب... ﴿يا أيُّها النبيُّ قُلْ لأزواجِكَ إن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدُّنْيا وزينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.]

أي هذا باب في قوله تعالى ﴿**يا أيها النبي**﴾ إلى آخر الآية... في رواية الأكثرين...

قال المفسّرون:

كان نساء النبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... يسألنه من عروض الدنيا... والزيادة في النفقة... ويتأذى بغيرة بعضهن على بعض...

فهجرهن... وآلى منهن شهرًا... ولم يخرج إلى أصحابه...

فنزلت آية التخيير...

قوله ﴿إِنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدُنْيَا﴾ أي السعة في الدنيا... وكثرة الأموال وزينتها...

﴿فتعالَيْنَ﴾ أي أقبلن بإرادتكن واختياركن...

﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ متعة الطلاق...

﴿وأُسَرِّحْكُنَّ﴾ يعني الطلاق...

﴿سراحًا جميلًا﴾ من غير إضرار...

واختلفوا في تخييره؟!

واختلفوا في تخييره... ﷺ... فقيل إنه خيّرهن بين اختيارهن الدنيا فيفارقهن... واختيار الآخرة فيمسكهن... ولم يخيّرهنّ في الطلاق... قاله الحسن... وقتادة...

وقيل: بل بين الطلاق... والمقام معه...

قالته عائشة... ومجاهد... والشعبي... ومقاتل...

وكان تحته يومئذ تسع نسوة...

واختلفوا في سبب التخيير؟!

فقيل: لأن اللّه تعالى خيّره بين مُلْك الدنيا ونعيم الآخرة... فأمر أن يخيّر بين نسائه... ليكُنَّ على مثل حاله...

وقيل: لأنهن تغايرن عليه... فآلى منهن شهرًا...

وقيل: لأنهن اجتمعن يومًا فقُلْن: نريد ما تريد النساء من الحلي... حتى قال بعضهن: لو كنا عند غير النبي... ﷺ... لكان لنا شأن... وثياب... وحلي...

وقيل: لأن كل واحدة طلبت منه شيئًا... فكان غير مستطيع...

فطلبت أم سلمة معلمًا...

وميمونة حلة يمانية...

وزينب ثوبًا مخططًا وهو البرد اليماني...
وأم حبيبة ثوبًا سحوليًا...
وحفصة ثوبًا من ثياب مصر...
وجويرية معجرًا...
وسَوْدة قطيفة خيبرية...

إلّا عائشة؟!

إلّا عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... فلم تطلب شيئًا!!!.

موقف رائع لعائشة؟!

«عنِ الزُّهْرِيِّ... قالَ:
«أخبرني أَبُو سَلَمَةَ بنُ عبدِ الرحمنِ... أنَّ عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... زَوْجَ النبيِّ... ﷺ... أَخْبَرَتْهُ...
«أنَّ رسولَ اللّهِ... ﷺ... جاءَهَا...
«حِينَ أَمَرَ اللّهُ أنْ يُخَيِّرَ أَزْوَاجَهُ...
«فَبَدَأَ بي رسولُ اللّهِ... ﷺ... فقالَ:
«إِنِّي ذَاكِرٌ لكِ أمْرًا... فَلَا عَلَيْكِ أنْ تَسْتَعْجِلِي... حتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ...
«وَقَدْ عَلِمَ أنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ...
«قالَتْ: ثُمَّ قَالَ:
«إنَّ اللّهَ قالَ: يا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ... إلى تَمامِ الآيَتَيْنِ...
«فقُلْتُ لَهُ: فَفِي أيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟...
«فَإِنِّي أُرِيدُ اللّهَ ورسُولَهُ والدَّارَ الآخِرَةَ».

[أخرجه البخاري]

«فلا عليك» أي لا بأس عليكِ في عدم الاستعجال...
«حتى تستأمري» حتى تشاوري...

«ففي أيٍّ هذا؟» ويروى: ففي أي شيء...

* * *

ثُمَّ فَعَلَ أزْوَاجُ النبيِّ... صلى اللّه عليه وسلم... مِثْلَ مَا فَعَلْتُ؟!

[بابُ... قوْلِهِ تعالى... ﴿وإنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللّهَ ورسولَهُ والدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عظيمًا﴾.].

أي: هذا باب في قوله عزّ وجلّ وإن كنتن... الآية...

* * *

[وقالَ قَتادَةُ: واذْكُرْنَ ما يُتْلَى في بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيات اللّهِ والحِكْمَةِ... القرآنِ والسُّنَّةِ...].

«أخبرَني أَبُو سَلَمَةَ... بنُ عبدِ الرحمٰنِ...

«أنَّ عائشةَ... زَوْجَ النبيِّ... ﷺ... قالَتْ:

«لمَّا أُمِرَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... بتخْيِيرِ أزْوَاجِهِ... بَدَأَ بِي...

«فقالَ: إنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكِ أَنْ لا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ...

«قالَتْ: وقَدْ عَلِمَ أنَّ أبَوَيَّ لمْ يَكُونَا يأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ...

«قالَتْ: ثُمَّ قَالَ: إنَّ اللّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ قال: يا أَيُّها النبيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدُّنيا وزينَتَها... إلى... أجْرًا عَظِيمًا...

«قالتْ: فقُلْتُ: فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أبَوَيَّ... فإنِّي أُرِيدُ اللّهَ ورسولَهُ والدَّارَ الآخِرَةَ؟...

«قالَتْ: ثُمَّ فَعَلَ أزواجُ النبيِّ... ﷺ... مِثْلَ مَا فَعَلْتُ.».

[أخرجه البخاري]

* * *

أقول... الجديد الخطير في هذه الرواية هو قول عائشة... رضي اللّه تعالى عنها

«ثم فعلَ أزواجُ النبيّ... ﷺ... مِثْلَ ما فَعَلْتُ»!!!.
إن عائشة دائمًا في المقدمة...
بدأ بها... رسول اللّه... ﷺ... في التخيير...
فلما اختارت اللّه ورسوله والدار الآخرة...
فعلَ أزواجُ النبيِّ... ﷺ... مِثْلَ ما فَعَلْتُ؟!!.
فما معنى هذا؟!.
معناه أنها دائمًا في المقدمة... أنها مؤهلة للقيادة!!!.

عائشة... وماذا قالت؟!

«عن أنَس... رضي اللّه عنه... قال:
«آلَى رسُولُ اللّهِ... ﷺ... من نسائِهِ شَهْرًا...
«وَقَعَدَ في مَشْرُبَةٍ لَهُ...
«فَنَزَلَ لِتِسْعٍ وعِشْرِينَ...
«فَقيلَ: يا رسولَ اللّهِ... إنَّكَ آلَيْتَ عَلَى شَهْرٍ؟...
«قال: إنَّ الشَّهْرَ تِسْعٌ وعِشْرُونَ.».

[أخرجه البخاري]

«آلى» أي حلف... من الإيلاء...
وهجرهن... ﷺ... شهرًا... وقعد في مشرُبة له... وهي الغرفة...
«فنزل» من الغرفة...
«لتسع» أي عند تسع وعشرين ليلة...
«فقيل» القائل هو عائشة...
وقيل سأله عمر وغيره عن ذلك...
أقول... القائل هنا هو عائشة... وكان قولها: يا رسول اللّه... إنك آليت على شهر؟!.
إنك حلفت على شهر؟!.

إنها دائمًا تستفسر عن أي شيء لا تفهمه؟!.
إنَّ اللّه يؤهلها... لتتعلم من رسول اللّه... ﷺ...
لأنها سوف تُعَلِّم الأمة... بعد وفاته... ﷺ...
على مدى نحو خمسين عامًا!!!.

* * *

والآن نطرح السؤال الذي جعلناه عنوانًا لهذا الفصل:
ماذا قالت أُمُّ المؤمنين عائشة... عندما خيَّرها رسول اللّه ﷺ؟!
الجواب... قالت قولًا سديدًا رشيدًا... غاية في الحكمة... وغاية في الحُبّ!!!.
قالت: «فَفِي أيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟!!.
«فإنِّي أُرِيدُ اللّهَ... ورسولَهُ... والدَّارَ الآخِرَةَ.»!!!.
ولا يتصور أعلى... ولا أغلى... ولا أحكم... من قولها ذاك!!!.
لم تستشر أبويها!!!.
لم تتردد لحظة!!!.
وهتفت هتاف الصدق والحبّ والوفاء والإيمان والتضحية...
فإنِّي أُرِيدُ اللّهَ!!!.
ورسولَهُ!!!
والدَّارَ الآخِرَة!!!.
هنيئًا... ثم هنيئًا... ثم هنيئًا... ما اخترتِ... يا حبيبة رسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم!!!.
ثم ماذا؟!!.
ثم ما هو أعجب وأعجب...
أنَّ جميع أمهات المؤمنين... فَعَلْنَ مِثْلَ ما فَعَلَتْ!!!.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللّهِ...
وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ...
مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾...؟!

قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ... وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا... فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا... وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ... إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ... وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ... وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فاسأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ... ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللّهِ... وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا... إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللّهِ عَظِيمًا﴾.

[الأحزاب ٥٣]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

شروع في بيان بعض الحقوق على الناس... المتعلقة به... ﷺ... وهو عند نسائه...

والحقوق المتعلقة بهن رضي اللّه تعالى عنهن... والآية عند الأكثرين نزلت يوم تزوج... عليه الصلاة والسلام... زينب بنت جحش...

أخرج الإمام أحمد... وعبد بن حميد... والبخاري... ومسلم... والنسائي... وابن جرير... وابن المنذر... وابن أبي حاتم... وابن مردويه... والبيهقي في سننه...

من طرق... عن أنس... قال:

«لما تزوج رسول اللّه... ﷺ... زينب بنت جحش...

«دعا القوم... فطعموا... ثم جلسوا يتحدثون...

«وإذا هو كأنه يتهيّأ للقيام... فلم يقوموا...

«فلما رأى ذلك قام...

«فلما قام قام من قام... وقعد ثلاثة نفر...

«فجاء النبي... ﷺ... ليدخل... فإذا القوم جلوس...

«ثم إنهم قاموا...

«فانطلقتُ فجئتُ فأخبرت النبي... ﷺ... أنهم قد انطلقوا...

«فجاء حتى دخل...

«فذهبت أدخل... فألقى الحجاب بيني وبينه...

«فأنزل اللّه تعالى ﴿يا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النبيِّ﴾ الآية...».

والنهي للتحريم... وقوله: ﴿إلّا أن يُؤْذَنَ﴾ أي لا تدخلوها في حال من الأحوال إلّا حال كونكم مصحوبين بالإذن... أو: لا تدخلوها بسبب من الأسباب إلّا بسبب الإذن...

أو: لا تدخلوها في وقت من الأوقات إلّا وقت أن يؤذن لكم...

﴿إلى طَعَامٍ﴾ للإشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على طعام بغير دعوة...

﴿غَيْرَ نَاظِرِيْنَ إِنَاهُ﴾ غير منتظرين نضجه وبلوغه...

﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ استدراك من النهي عن الدخول بغير إذن... وفيه دلالة على أن المراد بالإذن إلى الطعام الدعوة إليه...

﴿فإذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ أي فإذا أكلتم الطعام فتفرقوا ولا تلبثوا...

والآية - على ما ذهب إليه الجل من المفسرين - خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبي... ﷺ... فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه... مخصوصة بهم وبأمثالهم ممن يفعل مثل أفعالهم في المستقبل...

فالنهي مخصوص بمن دخل بغير دعوة... وجلس منتظرًا للطعام من غير حاجة... فلا تفيد النهي عن الدخول بإذن لغير طعام... ولا عن الجلوس واللبث بعد الطعام لمهم آخر...

وعن سليمان بن أرقم قال: نزلت في الثقلاء... ومن هنا قيل إنها آية

الثقلاء...

﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي لحديث بعضكم بعضًا... أو لحديث أهل البيت بالتسمع...

﴿إِنَّ ذَلِكُمْ﴾ أي اللبث الدال عليه الكلام... أو الاستئناس...

﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ لأنه يكون مانعًا له... عليه الصلاة والسلام... عن قضاء بعض أوطاره... مع ما فيه من تضييق المنزل عليه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم وعلى أهله...

﴿فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ أي من إخراجكم بأن يقول لكم اخرجوا... أو: من منعكم عما يؤذيه...

﴿واللّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ﴾ وحاصل الكلام أنه تعالى لم يترك الحق... وأمركم بالخروج...

والظاهر حرمة اللبث على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم... إذا كان في ذلك أذى لرب البيت... وليس ما ذكر مختصًا بما إذا كان اللبث في بيت النبي... عليه الصلاة والسلام...

ومن هنا كان الثقيل مذمومًا عند الناس... قبيح الفعل عند الأكياس...

وعن ابن عباس... وعائشة... رضي اللّه تعالى عنهما: حسبك في الثقلاء أن اللّه عز وجل لم يحتملهم...

﴿وإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الضمير لنساء النبي... ﷺ... المدلول عليهن بذكر بيوته... عليه الصلاة والسلام... أي وإذا طلبتم منهن...

﴿مَتَاعًا﴾ أي شيئًا يتمتع به من الماعون وغيره...

﴿فَاسْأَلُوهُنَّ﴾ فاطلبوا منهن ذلك...

﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي ستر..

أخرج البخاري... وابن جرير... وابن مردويه... عن أنس... رضي اللّه تعالى عنه... قال:

«قال عمر بن الخطاب... رضي اللّه تعالى عنه: يا رسول اللّه... يدخل

عليك البر والفاجر... فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟...

«فأنزَل اللّه تعالى آية الحجاب...».

وكان رضي اللّه تعالى عنه حريصًا على حجابهن... وما ذاك إلّا حُبًّا لرسول اللّه... ﷺ.

أخرج ابن جرير... عن عائشة...

أن أزواج النبي... عليه الصلاة والسلام... كنّ يخرجن بالليل إذ برزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح... وكان عمر بن الخطاب... رضي اللّه تعالى عنه... يقول للنبي... ﷺ: احجب نساءك... فلم يكن رسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... يفعل... فخرجت سَوْدَة بنت زمعة... رضي اللّه تعالى عنها... ليلة من الليالي عشاء... وكانت امرأة طويلة... فناداها عمر... رضي اللّه تعالى عنه... بصوته الأعلى... قد عرفناك يا سودة... حرصًا على أن ينزل الحجاب... فأنزل اللّه تعالى الحجاب...

وذلك أحد موافقات عمر... رضي اللّه تعالى عنه... وهي مشهورة..

وأخرج البخاري في الأدب... والنسائي... من حديث عائشة...

أنها كانت تأكل معه... عليه الصلاة والسلام... وكان يأكل معهما بعض أصحابه...

فأصابت يد رجل يَدَها...

فكرِهَ النبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... ذلك... فنزلت...

ولا يبعد أن يكون مجموع ما ذكر سببًا للنزول...

ونزل الحجاب - على ما أخرج ابن سعد - عن أنس... سنة خمس من الهجرة...

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى السؤال من وراء حجاب...

وقيل: هو إشارة إلى ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن... وعدم الاستئناس للحديث بعد الدخولِ... وسؤال المتاع من وراء حجاب...

﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي أكثر تطهرًا من الخواطر الشيطانية التي

تخطر للرجال في أمر النساء... وللنساء في أمر الرجال... فإن الرؤية سبب التعلق والفتنة...

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي ما صح وما استقام لكم...

﴿أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي تفعلوا في حياته فعلًا يكرهه ويتأذى به... كاللبث والاستئناس بالحديث الذي كنتم تفعلونه وغير ذلك...

والتعبير عنه... عليه الصلاة والسلام... بعنوان الرسالة لتقبيح ذلك الفعل... والإشارة إلى أنه بمراحل عما يقتضيه شأنه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... إذ في الرسالة من نفعهم المقتضي للمقابلة بالمثل دون الإيذاء ما فيها...

﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ من بعد وفاته أو فراقه...

نزلت في رجل كان يقول لئن توفي رسول اللّه... ﷺ... لأتزوجن عائشة...

وحرمة نكاح أزواجه... عليه الصلاة والسلام... من بعده... من خصوصياته... صلى اللّه تعالى عليه وسلم...

﴿إِنَّ ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من إيذائه... عليه الصلاة والسلام... ونكاح أزواجه من بعده...

وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الشر والفساد...

﴿كَانَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ في حُكمه عز وجل...

﴿عَظِيمًا﴾ أي أمرًا عظيمًا... وخطبًا هائلًا لا يقادر قدره...

وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... وإيجاب حرمته حيّاً وميتًا ما لا يخفى.

عائشة...

وحديث...

الأفْك...؟!

نحن الآن في سنة ست من الهجرة، وهي السنة التي كان في أوائلها...

غزوة بني لحيان

ثم أقام رسول اللّه ﷺ بالمدينة... وخرج على رأس ستة أشهر من فتح بني قريظة إلى بني لحيان.

وأظهر أنه يريد الشام، ليصيب من القوم غِرَّةً.

فخرج من المدينة، واستعمل عليها ابن أم مكتوم... فوجدهم قد حذروا، وتمنَّعوا في رؤوس الجبال.

فلما نزلها رسول اللّه ﷺ، وأخطأه من غرتهم ما أراد قال: «لو أنَّا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة؟».

فخرج في مائتي راكب من أصحابه حتى نزل عسفان، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كُرَاعَ الغَميم... ثم كرَّا.

وراح رسول اللّه ﷺ قافلًا.

غزوة ذي قرد

ثم قدم رسول اللّه ﷺ المدينة، فلم يقم بها إلا ليالي قلائل حتى أغار عيينة ابن حصن في خيل من غطفان على إبل لرسول اللّه ﷺ بالغابة، وفيها رجل من بني غفار وامرأة له، فقتلوا الرجل، واحتملوا المرأة في الإبل.

وبلغ رسول اللّه ﷺ... فصرخ بالمدينة الفزَعَ... الفزَع. فترامت الخيول إلى

رسول اللّه ﷺ.

فلما اجتمعوا إليه أمَّر عليهم سعد بن زيد، ثم قال: «اخرُجْ في طلبِ القوم حتى ألْحَقَك في الناس».

وكان أول فارس لحق بالقوم مُحْرِزُ بن نضْلَةَ وحمل عليه رجل منهم فقتله.

وأقبل رسول اللّه ﷺ في المسلمين، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

فقتلوا من لحقوا به من الأعداء، واستنقذوا بعض الإبل.

وسار رسول اللّه ﷺ حتى نزل بالجبل من ذي قَرَد، وتلاحق به الناس، وأقام عليه يومًا وليلة.

ثم رجع رسول اللّه ﷺ قافلًا حتى قدم المدينة.

وأقبلت امرأة الغفاري على ناقة من إبل رسول اللّه ﷺ حتى قدمت عليه فأخبرته الخبر.

غزوة بني المصْطَلَق

فأقام رسول اللّه ﷺ بالمدينة بعض جمادى الآخرة ورجبًا، ثم غزا بني المُصْطَلَق في شعبان سنة ست من الهجرة.

واستعمل على المدينة أبا ذر الغِفَاريّ.

بلغ رسول اللّه ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، فلما سمع بهم خرج إليهم، حتى لقيهم على ماء لهم يقال له «المرَيْسيعُ».

فتزاحف الناس، واقتتلوا، فهزم اللّه بني المصطلق، وقتل من قتل منهم.

وغنم رسول اللّه ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم.

ليخرجن الأعز منها الأذل

فبينا رسول اللّه على ذلك الماء، وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جَهْجاهُ يقود فرسه.

فازدحم جهجاهٌ وسنانٌ بن وبرَ الجهني، حليف بني عوف بن الخزرج على الماء.

فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار.

وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين.

فغضب عبد اللّه بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلامٌ حدث، فقال: أَوَقَدْ فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، واللّه ما أعُدُّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول «سَمِّن كلْبكَ يأكلْكَ» أما واللّه لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَن الأعز منها الأذلّ.

فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول اللّه ﷺ، وذلك عند فراغ رسول اللّه ﷺ من عدوه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب فقال: مُرْ به عبَّاد بن بشر فليقتله.

فقال له رسول اللّه ﷺ، فكيْفَ يا عمر إذا تحدث الناسُ أنَّ محمدًا يقتُلُ أصْحابَهُ؟! لا، ولكن أذِّن بالرَّحيل».

وذلك في ساعة لم يكن رسول اللّه ﷺ يرتحل فيها.

فارتحل الناس...

وقد مشى عبد اللّه بن أبي بن سلول إلى رسول اللّه ﷺ - حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه - فحلف باللّه ما قلت ما قال، ولا تكلمت به، وكان في قومه شريفًا عظيمًا..

ثم مشى رسول اللّه ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأرض فوقعوا نيامًا.

وإنما فعل ذلك رسول اللّه ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد اللّه بن أبيّ.

ونزلت السورة التي ذكر اللّه فيها المنافقين.

وأتى عبد اللّه - ابن عبد اللّه بن أبيّ - رسول اللّه ﷺ، فقال: يا رسول اللّه، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد اللّه بن أبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلًا فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فواللّه لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده

مني، وإني أخشى أن يأمر به غيري فيقتله، فلا تدعْني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله ابن أبيّ يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلًا مؤمنًا بكافر، فأدخل النار.

فقال رسول الله ﷺ: «بل نَترفّقُ بِهِ ونُحْسِنُ صحبتهُ ما بَقِيَ معنا».

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث، كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه يعنفونه.

فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب – حين بلغه ذلك من شأنهم – «كيف ترى يا عُمرُ؟. أما والله لو قتلْتهُ يومَ قلت لي اقتُلْه لأُرعِدَتْ لَهُ آنُفٌ لو أمَرْتُهَا اليوم بقتله لقَتَلَتْه».

قال عمر: قد والله علمتُ لأمر رسول الله ﷺ أعظمُ بركةً من أمري.

هذا وكان شعار المسلمين يوم بني المصطَلَق «يا منصور أَمِتْ أَمِتْ».

وكان رسول الله ﷺ قد أصاب منهم سبْيًا كثيرًا.

فوزعه رسول الله ﷺ في المسلمين.

زواجه جويرية بن الحرث

وكان فيمن أصيب يومئذ من السبايا جويرية بنت الحرث بن أبي ضرار، زوج رسول الله ﷺ.

وقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأقبل أبوها الحارث بن أبي ضرار بفداء ابنته.

فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التي جاء بها للفداء فرغب في بعيرين منها فغيّبَهمَا في شِعْب من شعاب العقيق.

ثم أتى النبي ﷺ، وقال: يا محمد، أصبتم ابنتي وهذا فداؤها.

فقال رسول الله ﷺ: «فأيْنَ البعيران اللذان غيّبْتَهُما بالعقيق في شِعب كذا وكذا؟».

فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله، فوالله ما أطلع على ذلك إلا الله!.

فأسلم الحارث، وأسلم معه ابنان له، وناس من قومه.

وأرسل إلى البعيرين، فجاء بهما، فدفع الإبل إلى النبي ﷺ ودُفعت إليه ابنته جويرية، فأسلمت وحسن إسلامها.

فخطبها النبي ﷺ إلى أبيها: فزوّجه إياها، وأصدقها أربعمائة درهم.

وقد أقبل رسول اللّه ﷺ من سفره ذلك، حتى إذا كان قريبًا من المدينة، وكانت معه عائشة في سفره ذلك، قال فيها أهل الإفك ما قالوا.

حديث الإفْك

قالت عائشة: كان رسول اللّه إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه فأيّتهُنَّ خرج سهمها خرج بها معه.

فلما كانت غزوة بني المصطَلَق أقرع بين نسائه كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهن معه.

فخرج بي رسول اللّه ﷺ، وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العُلَقَ(١)، لم يُهيجهنَّ(٢) اللحمُ فيثقُلن، وكنت إذا رُحل لي بعيري جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحّلون لي ويحملونني، فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير فيشُدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به.

فلما فرغ رسول اللّه ﷺ من سفره ذلك وجّه قافلًا.

حتى إذا كان قريبًا من المدينة نزل منزلًا، فبات به بعضَ الليل.

ثم أذن في الناس بالرحيل.

فارتحل الناس.

وخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عِقْدٌ لي فيه جزْعُ ظَفَارِ(٣)، فلما فرغت انسَلَّ من عنقي ولا أدري.

فلما رجعت إلى الرحل، ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده.

---

(١) العلق: طعامهن كان قليلًا.

(٢) التهيج: انتفاخ الجسم.

(٣) الجزع: الخرز، وظفار: اسم المدينة.

وقد أخذ الناس في الرحيل.

فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته.

وجاء القوم خلافي الذين كانوا يرحلون لي البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه كما كنت أصنع، فاحتملوه فشدوه على البعير، ولم يشُكُّوا أني فيه.

ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به.

فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس.

فتلفَّفْتُ بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو قد افْتُقِدْت لرُجع لي.

فواللّه إني لمضطجعةٌ إذ مرَّ بي صَفوانُ بن المُعَطّل السُّلمِيُّ، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجاته، فلم يبت مع الناس.

فرأى سوادي[1]، فأقبل حتى وقف علي، وقد كان يراني قبل أن يُضرب علينا الحجاب.

فلما رآني قال: إنا للّه وإنا إليه راجعون، ظعينةُ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟!.

وأنا متلففة في ثيابي.

قال: ما خلفك يرحمك اللّه؟

فما كلمته.. ثم قرَّب البعير فقال: اركبي، واستأخر عني.

فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعًا يطلب الناس.

فواللّه ما أدركنا الناس، وما افتُقدْت حتى أصبحت ونزل الناس.

فلما اطمأنوا طلع الرجلُ يقودني، فقال أهل الإفك ما قالوا: فارتعج[2] العسكر، وواللّه ما أعلم بشيء من ذلك.

وقالت: ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة، ولا يبلغني من ذلك شيء.

وقد انتهى الحديث إلى رسول اللّه ﷺ، وإلى أبويَّ، لا يذكرون لي منه قليلًا

---

(١) شخصي.

(٢) فارتعج: تحرك واضطرب.

ولا كثيرًا، إلا أني قد أنكرت من رسول اللّه ﷺ بعض لطفه بي.

كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي: فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك فأنكرت ذلك منه. كان إذا دخل علي وعندي أمي تمرضني قال: كيف تيكُمْ؟ لا يزيد على ذلك.

حتى وجدتُ في نفسي، فقلت: يا رسول اللّه – حين رأيت ما رأيت من جفائه لي – لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني؟

قال: «لا عَلَيْكِ».

فانتقلت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان، حتي نقِهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة.

وكنا قَوْمًا عَرَبًا، ولا نتخذ في بيوتنا هذه الكُنف التي تتخذها الأعاجم نعافها ونكرهها، إنما كنا نذهب في فسح المدينة، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن.

فخرجت ليله لبعض حاجتي ومعي أمُّ مِسْطَح... وكانت أمها خالة أبي بكر الصدِّيق رضي اللّه عنه.

فواللّه إنها لتمشي معي إذ عثرتْ في مِرْطها(١) فقالت: تعس مسطح.

قلت: بئس لعمرُ اللّه ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرًا؟!.

قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟!

قلت: وما الخبر؟

فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك.

قلت: أوقد كان هذا؟!

قالت: نعم واللّه لقد كان!

فواللّه ما قدرتُ على أن أقضي حاجتي ورجعت!

فواللّه ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدعُ كبدي.

وقلت لأمّي: يغفر اللّه لك، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من

---

(١) مرطها: كسائها.

ذلك شيئًا؟!.

قالت: أي بنية خفضي عليك الشأن، فواللّه لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.

وقد قام رسول اللّه ﷺ في الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق؟. واللّه ما علمت منهم إلا خيرًا! ويقولون ذلك لرجل واللّه ما علمت منه إلا خيرًا، وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي»!.

وكان كِبْرُ ذلك عند عبداللّه بن أبي بن سلول، في رجال من الخزرج، مع الذي قال مسطح، وحَمْنة بنت جحش، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول اللّه ﷺ، ولم تكن من نسائه امرأة تناصبني في المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها اللّه تعالى بدينها، فلم تقل إلا خيرًا، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادني لأختها فشقيت بذلك.

فلما قال رسول اللّه ﷺ تلك المقالة قال أسَيدُ بن حضير: يا رسول اللّه، إن يكونوا من الأوس نكفكَهُم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك، فواللّه إنهم لأهل أن تضْرَبَ أعناقهم.

فقام سعد بن عُبادة - وكان قبل ذلك يُرى رجلًا صالحًا - فقال: كذبت، لعمراللّه لا نضرب أعناقهم، أما واللّه ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا؟.

فقال أسَيد: كذبت لعمراللّه، ولكنك مُنافق تجادل عن المنافقين.

وتَثَاوَر الناس، حتى كاد يكون بين هذه الحيَّيْن من الأوس والخزرج شر.

ونزل رسول اللّه ﷺ فدخل عليّ، فدعا علي بن أبي طالب رضوان اللّه عليه وأسامة بن زيد فاستشارهما.

فأما أسامة فأثنى عليّ خيرًا وقاله، ثم قال: يا رسول اللّه، أهلُك ولا نَعْلم إلا خيرًا، وهذا الكذب والباطل.

وأما عليّ فإنه قال: يا رسول اللّه، إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف

وسلِ الجارية فإنها لتصدقك.

فدعا رسول اللّه ﷺ بُرَيْرَة ليسألها.

فقام إليها علي بن أبي طالب فضربها ضربًا شديدًا، ويقول: أصدُقي رسول اللّه ﷺ فتقول: واللّه ما أعلم إلا خيرًا، وما كنت أعيب على عائشة شيئًا إلا أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله.

ثم دخل عليَّ رسول اللّه ﷺ وعندي أبواي، وعندي امرأة من الأنصار... وأنا أبكي وهي تبكي معي، فجلس فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال: «يا عائشة... إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي اللّه فإن كنْتِ قارَفْت سوءًا مما يقول الناس فتوبي إلى اللّه فإن اللّه يقبل التوبة من عباده».

فواللّه ما هو إلا أن قال لي ذلك فَقَلَص[1] دمعي حتى ما أحسُّ منه شيئًا وانتظرت أبويَّ أن يجيبا عنّي رسول اللّه ﷺ، فلم يتكلما!

وأيم اللّه لأنا كنت أحقَرَ في نفسي، وأصغر شأنًا من أن يُنزلَ اللّه فيَّ قرآنًا يُقرأ به في المساجد ويُصَلَّى به، ولكني قد كنت أرجو أن يرى رسول اللّه ﷺ في نومه شيئًا يكذب به اللّه عني، لما يعلم من براءتي، أو يخبر خبرًا، فأما قرآن ينزل فيّ فواللّه لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك.

فلما لم أرَ أبَوَيَّ يتكلمان قلت لهما: ألا تجيبان رسول اللّه ﷺ؟!

فقالا: واللّه ما ندري بماذا نجيبه!

وواللّه ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام.

فلما أن استَعجما علي استَعبرْتُ فبكيت ثم قلت: واللّه لا أتوب إلى اللّه مما ذكرت أبدًا، واللّه إني لأعلم لئن أقْرَرْتُ بما يقول الناس واللّه يعلم أني منه بريئة لأقولنَّ ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني.

ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره!

قلت: ولكن سأقول كما قال يوسف «فصبرٌ جميلٌ واللّه المستعان على ما تصفون».

---

(١)قلص الدمع : ارتفع.

فواللّه ما برح رسول اللّه ﷺ مجلسه حتى تغشّاه من اللّه ما كان يتغَشّاه، فسجي بثوبه، ووضعت له وسادة من أَدَمٍ تحت رأسه.

فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فواللّه ما فزعْتُ ولا باكيت، قد عرفت أني منه بريئة، وأنَّ اللّه عز وجل غير ظالمي.

وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سُريَ عن رَسول اللّه ﷺ حتى ظننت لتخرجنَّ أنفسُهُما فَرَقًا من أن يأتي من اللّه تحقيقُ ما قال الناس.

أبشري يا عائشة

ثم سُري عن رسول اللّه ﷺ، فجلس، وإنه ليتحدَّرُ منه مثل الجمَان في يوم شاتٍ، فجَعل يمسح العَرَقَ عن جبينه ويقول: «أبشري يا عائشةُ، فقد أنزل اللّه بَرَاءتك».

قلت: بحمداللّه.

ثم خرج إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل اللّه من القرآن في ذلك.

ثم أمر بمسطح بن أُثاثة، وحسَّان بن ثابت، وَحمْنَة بنت جحش - وكانوا ممن أفصح بالفاحشة - فضربوا حَدَّهم.

هذه رواية ابن هشام... في سيرته... باختصار...

فماذا قال الإمام البخاريّ... في قصة الإفْك؟!

رواية...
الإمام البخاري...
في حديث الإفْك...؟!

«عن ابنِ شِهابِ الزُّهْرِيِّ[1]...
«عَنْ عُرْوَةَ بنِ الزبَيْرِ...
«وسعيدِ بنِ المُسَيِّبِ...
«وعَلْقَمَة بنِ وقَّاصٍ اللَّيْثِيِّ...
«وعُبَيْدِ اللّهِ بن عبدِاللّهِ بنِ عُتْبَةَ..
«عَنْ عائشة... رضي اللّه عنها... زوجِ النبيِّ... ﷺ...
«حينَ قالَ لَها أَهْلُ الإِفْكِ ما قالوا...
«فبَرَّأَهَا اللّهُ مِنْهُ.»...
«قال الزُّهْرِيُّ... وكُلُّهُمْ حدّثني طائفَةً من حديثِها... وبعضُهُمْ أوْعَى مِن بَعْضٍ... وأَثْبَتُ لَهُ اقتصَاصًا... وقَدْ وَعَيْتُ عنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ الحديثَ الَّذي حَدَّثني...
«عَنْ عائِشَةَ... وبَعْضُ حديثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا...
«زَعَمُوا أنَّ عائِشَةَ قَالَتْ:

عائِشة تروي القصة[2]؟!

«كانَ رسولُ اللّهِ... ﷺ...

---

(١) روى البخاريّ في صحيحه قصة الإفك في أكثر من موضع وهذه إحدى الروايات.

(٢) العناوين ليست واردة بحديث البخاري وإنما وضعناها تيسيرًا للقارىء ليستطيع متابعة الموضوع بدون ملالة.

إذا أرادَ أَنْ يَخْرُج سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ... فأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمَها خَرَجَ بها مَعَهُ...

«فأَقْرَعَ بَيْنَنا في غَزَاةٍ غَزَاها...

«فخَرَجَ سَهْمِي... فخَرَجْتُ مَعَهُ... بَعْدَمَا أُنْزِلَ الحِجَابُ...

«فأنا أُحْمَلُ في هَوْدَجٍ... وأُنزَلُ فيهِ...

«فسِرْنا حتَّى إذا فَرَغَ رسُولُ اللّهِ... ﷺ... مِنْ غَزْوَتِهِ تلكَ... وقَفَلَ... ودَنَوْنا مِنَ المَدينةِ...

«آذَنَ لَيْلَةً بالرَّحيلِ...

«فقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بالرحيلِ... فمَشَيْتُ حتَّى جاوَزْتُ الجَيْشَ...

«فلمَّا قَضَيْتُ شأني... أَقْبَلْتُ إلى الرَّحْلِ... فلَمَسْتُ صَدْرِي...

«فإذَا عِقْدٌ لي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ قد انقَطَعَ...

«فرَجَعْتُ... فالْتَمَسْتُ عِقْدِي...

«فحَبَسَنِي ابتِغاؤُهُ...

«فأَقْبَلَ الذينَ يَرْحَلُونَ لِي... فاحْتَمَلُوا هَوْدَجي... فرَحَلُوهُ على بَعيرِي الذي كُنْتُ أَرْكَبُ... وهُمْ يَحْسَبُونَ أَنِّي فيهِ!...

وكُنْتُ جاريةً حَدِيثَةَ السِّنِّ؟!

«وكانَ النِساءُ إذْ ذاكَ خِفَافًا... لَمْ يَثْقُلْنَ... ولَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ... وإنَّما يَأْكُلْنَ العُلْقَةَ مِنَ الطعَامِ...

«فَلَمْ يَسْتَنْكِر القومُ حينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الهَوْدَجِ... فاحْتَملوهُ...

«وكُنتُ جاريةً حديثةَ السِّنِّ...

«فبَعَثُوا الْجَمَلَ... وسارُوا.».

غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ؟!

«فوَجدْتُ عِقْدي... بَعْدَما استَمَرَّ الجيْشُ...

«فجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ ولَيْسَ فيهِ أَحَدٌ...

«فأمَمْتُ مَنْزِلي الّذي كُنْتُ بِهِ...
«فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفقِدُونِي... فيرْجعونَ إليَّ...
«فبيْنا أنَا جالِسَةٌ... غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ... فنِمْتُ...

صَفْوَانُ يقول: إنّا للّهِ وإِنّا إليْه راجعونَ؟!

«وكانَ صَفْوَانُ بنُ المُعَطَّلِ السُّلَميُّ ثُمَّ الذَّكْوَانيُّ مِنْ ورَاءِ الجَيْشِ...
«فأصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلي...
«فَرأى سَوادَ إنسانٍ نائِمٍ...
«فأتاني... وكانَ يَرانِي قَبْل الحِجَابِ...
«فاستيْقَظْتُ باسْتِرْجَاعِهِ حين أنَاخَ راحِلَتَهُ...
«فَوطِئَ يَدَهَا... فرَكِبْتُها...
«فانطَلَقَ يقُودُ بي الراحِلَةَ...
«حتّى أتَيْنا الجَيْشَ...
«بعْدَ ما نَزَلُوا مُعَرِّسينَ... في نَحْرِ الظَّهيْرَةِ...
«فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ...

عبْدُاللّهِ بنُ أُبيّ بن سَلُولَ يتوَلّى الإِفْكَ؟!

«وكانَ الذي تولّى الإِفْكَ عبدُ اللّهِ بنُ أُبيٍّ بنَ سَلُولَ...
«فَقدِمْنا المدينةَ...
«فاشتكَيْتُ بها شهْرًا...
«والناسُ يُفيضونَ مِنْ قوْلِ أصحابِ الإِفْكِ...
«ويَريبُني في وَجَعِي أنِّي لا أرى مِنَ النبيِّ... ﷺ... اللُّطْفَ الذي كُنْتُ أَرى مِنْهُ... حينَ أمْرَضُ...
«إنَّما يَدْخُلُ فَيُسلِّمُ...
«ثُمَّ يقولُ: كيْفَ تِيكُمْ؟...

«لا أشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ... حتَّى نَقَهْتُ...

«فخرَجْتُ أنا وأُمُّ مِسطَحٍ قِبَلَ المناصِعِ مُتَبَرَّزُنا... لا نخرُجُ إلَّا ليْلًا إلى لَيْل...

«وذلكَ قَبْلَ أن نَتَّخِذَ الكُنُفَ... قريبًا مِن بُيُوتِنَا... وأمْرُنا أمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ... في البَرِيَّةِ أو في التَّنَزُّهِ.»...

أَلَمْ تَسْمَعِي ما قَالُوا؟!

«فأَقْبَلْتُ أنا وأُمُّ مِسْطَحٍ بنْتُ أبي رُهْمٍ... نَمْشي فعَثَرَتْ في مِرْطها...

«فقالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ!...

«فقُلْتُ لَها: بِئْسَ ما قُلْتِ!...

أتسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟!...

«فقالَتْ: يا هَنْتاهْ... أَلَمْ تَسْمَعِي ما قالوا؟!...

«فأَخْبَرَتْني... بِقَوْلِ أهْلِ الإفْكِ!...

«فازْدَدْتُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِي...

كَيْفَ تِيكُمْ؟!

«فلمَّا رَجَعْتُ إلى بَيْتي...

«دَخَلَ عَليَّ رسولُ اللّهِ... ﷺ... فسَلَّمَ...

«فقال: كَيْفَ تِيكُمْ؟...

«فقُلْتُ: إئْذَنْ لِي إِلَى أَبَوَيَّ...

«قالَتْ: وأنا حِينَئِذٍ أريدُ أنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهما...

«فأَذِنَ لِي رسولُ اللّهِ... ﷺ...

«فأَتَيْتُ أَبَوَيَّ...

أَصْبَحْتُ لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ؟!

«فقُلْتُ لِأُمِّي مَا يتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ...

«فقالَتْ: يَا بُنَيَّةُ... هَوِّني علَى نفْسِكِ الشَّأْنَ... فَوَاللّهِ لَقَلّما كانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وضيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّها... ولَهَا ضَرَائِرُ... إلَّا أكْثَرْنَ عليْها...

«فقُلْتُ: سُبْحانَ اللّهِ!... ولَقَدْ يَتَحَدَّثُ الناسُ بِهذَا؟!...

«قالَتْ: فبِتُّ تِلْكَ الليْلَةَ حتَّى أصْبَحْتُ... لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ... ولا أكْتَحِلُ بنَوْمٍ...

رسول اللّه... ﷺ... يستشير؟!

«ثُمَّ أصْبَحتُ... فدَعا رسولُ اللّهِ... ﷺ... عليَّ بنَ أبي طالبٍ... وأُسامةَ ابنَ زَيْدٍ... حينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ... يَسْتشيرُهُما في فِراقِ أَهْلِهِ...

«فَأَمَّا أُسامةُ فأشارَ عليْهِ بالَّذِي يَعْلَمُ في نَفْسِهِ مِنَ الوُدِّ لَهُمْ...

«فقالَ أُسامَةُ: أَهْلُكَ يا رسولَ اللّهِ... ولا نَعْلَمُ واللّهِ إلَّا خيْرًا...

«وأمَّا عليُّ بنُ أبي طالبٍ فقال: يا رسولَ اللّهِ... لَمْ يُضَيِّقِ اللّهُ عليْكَ... والنِّساءُ سِواهَا كثيرٌ... وسَلِ الجاريةَ تَصْدُقْكَ...

«فدعَا رسول اللّه... ﷺ... بَريرَةَ...

«فقالَ: يا بَريرَةُ... هَلْ رَأَيْتِ فيها شيْئًا يَريبُكِ؟...

«فقالَتْ بَريرَةُ: لا والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ... إِنْ رَأَيْتُ منها أمْرًا أغْمِصُهُ عَلَيْها... أكثَرَ منْ أنَّها جارِيةٌ حَديثَةُ السِّنِّ... تنامُ عنِ العَجينِ فَتأْتي الدَّاجِنُ فتأْكُلُهُ.»...

ما علِمْتُ على أهلي إلّا خيْرًا؟!

«فقامَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... مِنْ يَوْمِهِ...

«فاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللّهِ بن أُبيٍّ بنِ سَلُولَ...

«فقالَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... مَن يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَني أذَاهُ في أَهْلِي؟... فواللّهِ ما عَلِمْتُ على أَهْلِي إلَّا خَيْرًا... وقَدْ ذَكَرُوا رجُلًا ما علِمْتُ عليْه إلَّا خَيْرًا... وَمَا كانَ يَدْخُلُ على أَهْلي إلَّا مَعي.»...

واللّهِ لنَقْتُلَنَّهُ؟!

«فقامَ سعْدُ بنُ مُعاذٍ[1]... قال: يا رسولَ اللّهِ... أنا واللّهِ أعْذِرُكَ مِنْهُ...
إن كانَ منَ الأَوْسِ ضربْنا عُنُقَهُ...
وإن كانَ مِنْ إِخْوَانِنا الخَزْرَجِ أمَرْتَنا ففَعَلْنا فيه أَمْرَكَ...

«فقامَ سَعْدُ بنُ عُبادةَ... وهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ... وكانَ قَبْلَ ذَلِكَ رجُلًا صالحًا... ولكن احْتَمَلَتْهُ الحَميَّةُ فقالَ: كذَبْتَ لَعَمْرُاللّهِ... لا تَقْتُلُهُ... ولا تقْدرُ على ذلك...

«فقامَ أُسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ فقال: كذَبْتَ لَعَمْرُاللّهِ... واللّه لَنَقْتُلَنَّهُ... فإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ...
«فَثَارَ الحَيَّانِ... الأَوْسُ والخَزْرَجُ... حتَّى هَمُّوا...
«ورسولُ اللّهِ... ﷺ... على المِنْبَرِ...
«فَنَزَلَ... فَخَفَّضَهُمْ... حتَّى سَكَتُوا... وسَكَتَ.»...

بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ ويَوْمًا؟!!

«وَبَكَيْتُ يَوْمي... لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ... ولا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ...
«فأصْبَحَ عندِي أبَوَايَ...
«قَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ ويَوْمًا... حتَّى أظُنُّ أنَّ البُكاءَ فالِقٌ كَبِدِي...
«قالَتْ: فبَيْنَما هُما جَالِسانِ عِنْدِي وأنا أبْكي...
«إذ اسْتَأْذَنَتِ امْرأة مِنَ الأنْصارِ... فأذِنْتُ لَها...
«فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِيَ.»...

---

(١) ذكر ابن اسحاق أن المتكلم أولًا وآخرًا أسَيْد بن حُضَيْر... وهو الصحيح.

مَكَثَ شَهْرًا لا يُوحَى إليْهِ في شَأْنِي شَيْءٌ؟!

«فَبَيْنَما نَحْنُ كَذَلِكَ... إذْ دَخَلَ رسولُ اللّهِ... ﷺ...

«فَجَلَسَ...

«وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمِ قِيلَ فِيَّ ما قِيْلَ قَبْلَها...

«وقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إلَيْهِ في شَأْنِي شَيْءٌ...

«قالَتْ: فَتَشَهَّدَ... ثُمَّ قَالَ:

«يا عَائِشَةُ...

«فإنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وكَذَا...

«فإنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللّهُ...

«وإنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ فَاسْتَغْفِري اللّهَ وتُوبِي إلَيْهِ... فإنَّ العَبْدَ إذَا اعْتَرَفَ بذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ... تَابَ اللّهُ عَلَيْهِ.»...

الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيق... تدافعُ عن نفسِها؟!

«فَلَمَّا قَضَى رسولُ اللّهِ... ﷺ... مَقَالَتَهُ...

«قَلَصَ دَمْعِي... حتَّى ما أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً...

«وقُلْتُ لِأَبي: أَجِبْ عَنِّي رسول اللّهِ... ﷺ...

«قال: واللّهِ ما أدْرِي... ما أَقُولُ لِرَسُولِ اللّهِ... ﷺ...

«فقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رسولَ اللّه... ﷺ... فِيمَا قالَ...

«قالَتْ: واللّهِ ما أَدْرِي ما أقولُ لِرَسُولِ اللّهِ... ﷺ...

«قالَتْ: وأنا جارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ... لا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ القُرْآنِ...

«فقُلْتُ: إنِّي واللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ ما يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ... وَوَقَرَ في أَنْفُسِكُمْ... وصَدَّقْتُمْ بِهِ!!!.

«ولَئِنْ قُلْتُ إنِّي بَرِيئَةٌ واللّهُ يَعْلَمُ أنِّي لَبَرِيئَةٌ... لا تُصَدِّقُوني بِذَلِكَ... وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ... واللّهُ يَعْلَمُ أنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصدِّقُنِّي...

«واللّهِ ما أَجِدُ لِي ولكُمْ مَثَلًا إلّا أبا يُوسُفَ إذْ قال: فصَبْرٌ جَميلٌ واللّهُ المُسْتَعانُ عَلَى ما تَصِفُونَ.»...

ما ظَنَنْتُ أَن يُنْزِلَ في شَأْنِي وَحْيًا؟!

«ثُمَّ تحَوَّلْتُ على فِرَاشِي...

«وأنا أرْجُو أنْ يُبَرِّئَنِي اللّهُ...

«ولَكِنْ واللّهِ مَا ظَنَنْتُ أنْ يُنْزِلَ في شَأْنِي وَحْيًا...

«ولأَنا أَحْقَرُ في نَفْسِي مِنْ أَنْ يتَكَلَّمَ بالقُرْآن في أمْري...

«وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أنْ يَرَى رسولُ اللّه... ﷺ... في النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُني اللّهُ...

يا عائِشَةُ... احْمَدِي اللّه... فَقَدْ بَرَّأَكِ اللّهُ؟!

«فَوَاللّهِ ما رَامَ مَجْلِسَهُ...

«ولا خَرَجَ أحَدٌ مِنْ أهْلِ البَيْتِ...

«حتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ...

«فأخَذَهُ ما كانَ يأْخُذُهُ مِنَ البُرَحاءِ... حتى أَنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمانِ مِنَ الْعَرَقِ في يَوْمٍ شَاتٍ...

«فلمَّا سُرِّيَ عَنْ رسولِ اللّهِ... ﷺ... وهُوَ يَضْحَكُ...

«فكانَ أوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّم بِها أَنْ قالَ لي:

«يا عَائِشَةُ...

«احْمَدِي اللّه...

«فَقَدْ بَرَّأَكِ اللّهُ...

«فقالَتْ لي أُمِّي: قُومِي إلى رسولِ اللّهِ... ﷺ...

«فقُلْتُ: لَا واللّهِ... لا أقُومُ إلَيْهِ... ولا أَحْمَدُ إلَّا اللّهَ.»...

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بالْإِفْكِ؟!

«فأَنْزَلَ اللّهُ تعالى ﴿إِنَّ الّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ الآيات...

«فلمَّا أنْزَلَ اللّهُ هَذَا في بَرَاءَتي...

«قال أبو بكْر الصِّدِّيقُ رضي اللّه عنه... وكانَ يُنْفِقُ على مِسْطَح بن أثاثَةَ... لقَرَابَتِهِ مِنْهُ: واللّهِ لا أُنْفِقُ على مِسْطَح شَيْئًا أبَدًا... بَعْدَ مَا قَالَ لِعائِشة...

«فأَنْزَلَ اللّهُ تعالى: ﴿ولا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ والسَّعَةِ﴾ إلى قولِهِ ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾...

«فقال أبو بَكْر الصِّدِّيقُ: بَلَى واللّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللّهُ لِي...

«فرَجَعَ إلى مِسْطَحِ الذي كانَ يجْدِي عَلَيْهِ...

ما عَلِمْتُ عليها إلا خَيْرًا؟!

«وكان رسول اللّه... ﷺ... يَسْأَلُ زَيْنَبَ بنْتَ جَحْشٍ عَنْ أمْرِي...

«فقال: يا زَيْنَبُ... ما عَلِمْتِ؟... ما رَأَيْتِ؟...

«فقالَتْ: يا رسولَ اللّهِ... أحْمِي سَمْعِي وبَصَري... واللّهِ ما عَلِمْتُ عَلَيْها إلَّا خَيْرًا...

«قالَتْ: وهِيَ الَّتي كانَتْ تُسامِيني... فَعَصَمَها اللّهُ بالوَرَعِ.».

[أخرجه البخاري]

روائع شرح الحديث؟!

«أهل الإفك»:

قال السهيلي في قوله عزّ وجلّ ﴿إِنَّ الذين جَاءُوا بالإِفْكِ﴾...

هم عبداللّه بن أبيّ...

وحمنة بنت جحش...

وعبدالله أبو أحمد أخوها...

ومسطح... وحسّان...

وقال النسفي: في هذه الآية... أهل الإفك هم عبدالله بن أُبيّ رأس المنافقين... ويزيد بن رفاعة... وحسان بن ثابت... ومسطح بن أثاثة... وحمنة بنت جحش... ومن ساعدهم...

وفي صحيح مسلم: وكان الذين تكلموا مسطح وحمنة وحسان... وأما المنافق عبدالله بن أبيّ... فهو الذي كان يستوشيه ويجمعه... وهو الذي تولى كبره وحمنة.

قوله يستوشيه أي يستخرجه بالبحث والمسألة ثم يفشيه ويشيعه ويحركه ولا يدعه يخمد...

وقال النسفي: في قوله تعالى ﴿**والذي تولَّى كِبْرَه**﴾ هو عبدالله بن أبيّ... أي الذي تولى عظمه... وبدأ به... ومعظم الشرّ كان منه... قال الله تعالى ﴿**والذي تولَّى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم**﴾ لإمعانه في عداوة رسول الله... ﷺ... وانتهازه الفرص... وطلبه سبيلًا إلى الغميزة...

وأما الإفْك: فقال النسفي: الإفْك أبلغ ما يكون من الافتراء والكذب... وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك...

«**زعموا**» أي قالوا... والزعم قد يراد به القول المحقق الصريح...

«**كان رسول الله... ﷺ... إذا أراد أن يخرج سفرًا**» وفي رواية مسلم... ذكروا أن عائشة قالت: كان رسول الله... ﷺ... إذا أراد أن يخرج سفرًا...

«**أقرع بين أزواجه**» أي ساهم بينهن... تطييبًا لقلوبهن...

وكيفية القرعة بالخواتيم... يؤخذ خاتم هذا وخاتم هذا ويدفعان إلى رجل فيخرج منهما واحدًا.

وعن الشافعي: يجعل رقاعًا صغاراً... يكتب في كل واحد اسم ذي السهم... ثم يجعل بنادق طين ويغطى عليها ثوب... ثم يدخل رجل يده فيخرج بندقة... وينظر مَن صاحبها؟... فيدفعها إليه...

وقال أبو عبيد بن سلام: عمل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء... عليهم الصلاة والسلام... نبينا ويونس وزكريا... عليهم الصلاة والسلام...

«**فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه**» في رواية النسفي **أخرج بها معه...** والصواب هو الأول...

«**في غزاة غزاها**» هي غزوة بني المصْطَلَق... وكانت سنة ست...

«**في هَوْدَج**» وهو مركب من مراكب العرب أعدّ للنساء...

«**قَفَل**» رجع...

«**آذن ليلةً**» أي أعلم...

«**شأني**» ما يتعلق بقضاء الحاجة... وهو ما يكنى عنه استقباحًا لذكره...

«**فإذا عِقْد**» قلادة...

«**مِن جَزْعِ أَظْفارٍ**» خرز يَمَان... وهو أصناف... وأظفار... مدينة باليَمَن...

وقال ابن التين: في بعض الروايات: العقد الملتمس مقدار ثمنه اثني عشر درهمًا...

«**ولم يغشهن اللحم**» أي لم يركب عليهن اللحم... يعني: لم يكنّ سمينات...

«**وإنما يأكلن العُلْقة**» ما فيه بلغة من الطعام... وقيل: ما يمسك به المرء نفسه من الأكل...

«**وكان صَفْوَانُ بنُ المعَطِّلِ السُّلَميُّ**» وكان على الساقة... يلتقط ما يسقط من متاع الجيش ليرده إليهم... **وكان شجاعًا خيرًا شاعرًا...**

وعن ابن اسحاق: قتل في غزوة أرمينية شهيدًا... سنة تسع عشرة...

«**فرأى سواد إنسان**» أي شخصه...

«**وكان يراني قبل الحجاب**» أي قبل حجاب البيوت...

وآية الحجاب نزلت في زينب... رضي اللّه تعالى عنها...

«**واستيقظت من نومي**» أي تنبهت من نومي...

«**باسترجاعه**» أي بقوله ﴿**إنّا للّه وإنّا إليه راجعون**﴾...

وفي رواية مسلم: فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني... فخمرت وجهي بجلبابي... واللّه ما يكلمني كلمة... ولا سمعت منه كلمة... غير استرجاعه حتى أناخ راحلته... فوطىء على يدها فركبتها...

«**فوطىء يدها**» فوطىء صفوان يد الراحلة ليسهل الركوب عليها... فلا يكون احتياج إلى مساعدة...

«**حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا مُعَرِّسِين**» أي حال كونهم معرسين من التعريس وهو النزول...

«**في نحر الظهيرة**» وهو وقت القائلة وشدة الحرّ...

«**وهلك من هلك**» أي هلك الذين اشتغلوا بالإفْك...

«**وكان الذي تولّى الإفْك**» أي تصدر وتصدى...

«**فاشتكيت**» أي مرضت...

«**بها**» أي بالمدينة...

«**شهرًا**» أي مدة شهر.

«**فيفيضون**» من الافاضة وهو التكثير والتوسعة... يقال أفاض القوم في الحديث إذا اندفعوا فيه يخوضون...

وقال ابن عرفة: حديث مفاض ومستفاض ومستفيض في الناس: أي جار فيهم وفي كلامهم...

«**ويريبني**» يقال رابني الأمر يريبني: إذا توهمته وشككت فيه...

«**اللُّطْف**» وهو البرّ والرفق...

«**تِيكُم**» إشارة إلى المؤنث... نحو ذاكم إلى المذكّر...

«**حتى نقَهت**» من نقه فهو ناقه... وهو الذي برىء من المرض... وهو قريب عهد به... لم يتراجع إليه كمال صحته...

«**قِبَل المناصع**» أي جهة المناصع... وهي مواضع خارج المدينة كانوا يتبرزون فيها...

«**مُتَبَرَّزُنا**» هو الموضع الذي يتبرزون فيه... أي يقضون حاجتهم فيه...

«**الكُنُف**» الكنيف: الساتر مطلقًا... وسمي به موضع الغائط لأنهم يستترون به...

«**وأمرنا أمر العرب الأوَل**» يعني في التبرز خارج المدينة...

«**أو في التنزه**» في طلب النزاهة بالخروج إلى الصحراء...

«**وأم مِسْطَح بنت أبي رُهْم**» وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف... وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق... وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد ابن المطلب...

قال النووي: ومسطح لقب... واسمه عامر...

توفي سنة سبع وثلاثين...

وقال الواقدي: شهد مع عليّ... رضي اللّه تعالى عنه... صفين... ومات في سنة سبع وثلاثين... عن ست وخمسين سنة...

«**فعثرت في مِرْطِها**» أي زلقت... والمِرْط: كساء من صوف...

«**تعس مِسْطح**» أي هلك... أو لزمه الشر... وقيل: بَعُد...

«**فقالت: يا هَنْتاه**» أي يا هذه... وقيل: ياامرأة...

«**ألم تسمعي**» وفي رواية مسلم: أولم تسمعي؟...

«**ائذن لي إلى أبويّ**» أي ائذن لي أن آتي أبويّ... وفي رواية مسلم: أتأذن لي أن آتي أبويّ؟...

«**من قِبَلهما**» أي من جهتهما...

«لَقَلَّما كانت امرأة قط وضيئة»... أي جميلة... حسنة... من الوضاءة... وهو الحُسْن...

«**ولها ضرائر**» جمع ضرة... وزوجات الرجل ضرائر... لأن كل واحدة تتضرر بالأخرى... بالغيرة والقسم...

«**إلا أكثرن عليها**» أي أكثرن عليها القول... في عيبها ونقصها...

«**لا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ**» لا ينقطع... من رقأ الدمع إذا انقطع...

«**ولا أكتحل بنوم**» أي لا أنام...

«**حين استلبث الوحي**» أي حين أبطأ ولبث ولم ينزل...

«**أهلَك**» روي بالنصب أي الزم أهلك... وروي بالرفع أي هي أهلك... لا تسمع فيها شيئًا..

«**وأمّا عليّ بن أبي طالب**» إلى آخره... إنما قال عليّ ذلك... مصلحة ونصيحة لرسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم... في اعتقاده...

لأنه رأى انزعاج رسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... بهذا الأمر... وقلقه... فأراد راحة خاطره... ﷺ...

لا لعداوة لعائشة... رضي اللّه تعالى عنها...

«**أغمِصُهُ عليها**» أي أعيبها به... وأطعن عليها...

«**فتأتي الداجِنُ**» وهي الشاة التي تألف البيت ولا تخرج إلى المرعى...

وقيل: هو دجاجة أو حمام أو طير يألف البيت...

وكل معتاد موضعًا هو به يقيم فهو كذلك داجن...

«**فاستعذَرَ من عبداللّه بن أُبَيٍّ**» أي طلب من يعذره منه... أي من ينصفه منه... أو: من يقوم بعذري أن عاقبته على سوء فعله؟...

وقال النووي: معناه: من يقوم بعذري إن كافأته على قبح فعاله ولا يلومني على ذلك؟...

«**رجلًا**» هو صَفْوان...

«**فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول اللّه أنا أعذرك منه**» إنما قال ذلك لأن الأوس من قومه وهم بنو النجار... ومن آذى رسول اللّه... ﷺ... وجب قتله...

ثم إن الموجود في الأصول سعد بن معاذ ووقع في موضع آخر سعد بن عبادة...

وقال ابن حزم: هذا عندنا وهم... لأن سعد بن معاذ مات إثر غزوة بني قريظة بلا شك... وبنو قريظة كان في آخر ذي القعدة من سنة أربع... فبين الغزوتين نحو من سنتين... والوَهْم لم يعر منه أحد من البشر...

وقال ابن العربي: **ذكر سعد بن معاذ هنا وَهْم اتفق فيه الرواة...**

ولهذا لم يذكره ابن إسحاق في السير وإنما قال: إن المتكلم أولًا وآخرًا أسيد بن حضير...

«**وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا**» يعني لم يكن قبل ذلك يحمي لمنافق...

«**ولكن احتملته الحمية**» أي أغضبته...

«**فثار الحيّان الأوس والخزرج**» أي تناهضوا للنزاع والعصبية...

«**حتى همُّوا**» أي حتى قصدوا المحاربة وتناهضوا للنزاع...

«**فخَفَّضَهم**» يعني تلطف بهم حتى سكتوا...

«**وقد بكيت ليلتين ويومًا**» وفي رواية ليلتي ويومًا...

«**فالق**» من فلق إذا شقّ...

«**وقد مكث شهرًا لا يوحى إليه**» وذلك ليعلم رسول اللّه... ﷺ... المتكلم من غيره...

«**في شأني**» أي في أمري وحالي...

«**ألْمَمْتِ**» وفي رواية بذنب... وهو من الإلمام وهو النزول النادر غير المتكرر...

وقال الكرماني: أي فعلت ذنبًا مع أنه ليس من عادتك...

«**فإنَّ العبدَ إذا اعترف بذنبه ثم تابَ تَابَ اللّهُ عليه**».

... دعاها إلى الاعتراف ولم يأمرها بالستر كغيرها لأنه لا ينبغي عند الشارع امرأة أصابت ذنبًا...

«**قَلَصَ دمعي**» أي ارتفع وانقبض...

قال القرطبي: يعني أن الحزن والوجدة قد انتهت نهايتهما... وبلغت غايتهما... ومهما انتهى الأمر إلى ذلك قلص الدمع لفرط حرارة المصيبة...

«**ما أُحِسُّ**» من الإحساس... قال تعالى ﴿**هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ**﴾...

«**قال واللّه ما أدري ما أقول**» معناه أن الأمر الذي سألها رسول اللّه... ﷺ... لا نقف منه على أمر زائد على ما عند رسول اللّه... ﷺ... قبل نزول

الوحي... من حسن الظن...

«**إلا أبا يوسف**» إلا مِثل يعقوب عليه الصلاة والسلام... وهو الصبر... وكأنها من شدة حزنها لم تتذكر اسم يعقوب... وإنما قالت أبا يوسف لأنه لما جاء أخوة يوسف أباهم يعقوب ومعهم قميص يوسف بدم كذب قال يعقوب **﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللّهُ المستعانُ على ما تَصِفُونَ﴾**...

«**إذ قال**» حين قال...

«**فواللّه ما رام مجلسه**» أي ما برح المجلس ولا قام عنه...

«**من البُرَحَاء**» شدة الكرب... مأخوذ من قولك برحت بالرجل إذا بلغت به غاية الأذى والمشقة...

«**ليتحدَّر**» أي ينزل ويقطر...

«**مِثل الجُمانِ**» وهوَ الدرّ... وقيل هو اللؤلؤ الصغير...

«**فلما سُرِّيَ**» لما كشف وأزيل عنه...

قال ابن دحية: ونزل عذرها بعد سبع وثلاثين ليلة...

«**واللّه لا أقوم إليه**» قالت ذلك إدلالًا عليهم وعتابًا...

لكونهم شكوا في حالها مع علمهم بحسن طرائفها... وجميل أحوالها... وتنزهها عن هذا الباطل... الذي افتراه الظلمة لا حجة لهم... ولا شبهة فيه...

«**لقرابته**» وذلك أن أمّ مسطح سلمى هي بنت خالة أبي بكر الصديق...

«**ولا يَأْتَلِ**» أي ولا يحلف... والالية اليمين...

«**أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ**» الفضل هنا المال...

«**والسَّعَةِ**» في العيش والرزق... والمراد هنا أبو بكر وغيره من المسلمين...

«**إلى قوله غفورٌ رحيمٌ**» وفي رواية مسلم إلى قوله **﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَكُمْ﴾**...

قال ابن حيان بن موسى: قال عبداللّه بن المبارك:

هذه أرجى آية في كتاب اللّه... فقال أبو بكر: بلى واللّه إني لأحب أن يغفر اللّه لي... فرجع إلى مِسْطح النفقة التي كان ينفق عليه... وقال: لا أنزعها منه أبدًا...

«**الذي كان يجْدِي عليه**» أي يعطي... من الجداء وهو العطية...

«**أحمى**» أصون سمعي من أن أقول سمعت ولم أسمع... وبصري من أن أقول أبصرت ولم أبصر... أي لا أكذب حماية لهما...

«**تُساميني**» أي تضاهيني بكمالها ومكانها عند رسول اللّه... ﷺ...

ما يستفاد من الحديث؟!

فيه صحة القرعة بين النساء...

وبه استدل مالك... والشافعي... وأحمد... وجماهير العلماء في العمل بالقرعة... في القسم بين الزوجات... وفي العتق... والوصايا... والقسمة ونحو ذلك....

وقال ابن المنذر: استعمالها كالإجماع...

وفيه جواز سفر الرجل بزوجته...

وفيه جواز الغزو بهنّ...

وفيه جواز لبس النساء القلائد في السفر كالحضر...

وفيه إغاثة الملهوف... وعون المنقطع... وإنقاذ الضائع... وإكرام ذوي الأقدار... كما فعل صفهوان بهذا كله...

وفيه حسن الأدب مع الأجنبيات لاسيما في الخلوة بهن عند الضرورة في برية أو غيرها...

وفيه أنه إذا أركب أجنبية ينبغي أن يمشي قدامها ولا يمشي بجنبها ولا وراءها...

وفيه استحباب الاسترجاع عند المصائب... سواء كانت في الدين أو في الدنيا... وسواء كانت في نفسه أو من يعزّ عليه...

وفيه تغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي سواء كان صالحًا أو غيره...

وفيه أنه يستحب أن يُسرّ عن الإنسان ما يقال فيه... إذا لم يكن في ذكره فائدة... كما كتموا عن عائشة رضي اللّه تعالى عنها هذا الأمر شهرًا ولم تسمعه بعد ذلك إلا بعارض عرض وهو قول أم مِسْطح تعس مسطح...

وفيه استحباب ملاطفة الرجل زوجته ويحسن معاشرتها...

وفيه أنه إذا عرض عارض بأن سمع عنها شيئًا أو نحو ذلك يقلل من اللطف ونحوه لتفطن أن ذلك لعارض فتسأل عن سببه فتزيله...

وفيه استحباب السؤال عن المريض...

وفيه أنه يستحب للمرأة إذا أرادت الخروج لحاجة أن يكون معها رفيقة لها لتأنس بها ولا يتعرض لها...

وفيه كراهة الإنسان صاحبه وقريبه إذا آذى أهل الفضل أو فعل غير ذلك من القبائح كما فعلت أم مسطح في دعائها عليه...

وفيه أن المرأة لا تذهب لبيت أبويها إلا بإذن زوجها...

وفيه جواز التعجب بلفظ التسبيح...

وفيه استحباب مشاورة الرجل بطانته وأهله وأصدقاءه فيما ينوبه من الأمور...

وفيه جواز البحث والسؤال عن الأمور المسموعة لمن له بها تعلق... وأما غيره فمنهي عنه... وهو تجسس وفضول...

وفيه فضائل ظاهرة لصفوان... بشهادة النبي... ﷺ... بما شهد وبفعاله الجميلة...

وفيه استحباب المبادرة بتبشير من تجددت له نعمة ظاهرة... أو اندفعت عنه بلية بارزة.

وفيه براءة عائشة؟!

وفيه براءة عائشة... رضي اللّه عنها... من الإفك...

وهي براءة قطعية...

بنص القرآن...

فلو تشكك فيها إنسان صار كافرًا... مرتدًا... بإجماع المسلمين...

وفيه؟!...

وفيه تجديد شكر الله تعالى... عند تجدد النعمة...

وفيه فضائل لأبي بكر رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿ولا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ﴾...

وفيه استحباب صلة الأرحام وإن كانوا مسيئين...

وفيه استحباب العفو والصفح عن المسيء...

وفيه استحباب الصدقة والإنفاق في سبيل الخيرات...

وفيه استحباب لمن حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها أن يأتي بالذي هو خير فيكفر عن يمينه...

وفيه فضيلة زينب أم المؤمنين رضي الله عنها...

وفيه غضب المسلمين عند انتهاك حرمة أميرهم واهتمامهم بدفع ذلك...

وفيه جواز سبّ المتعصب لمبطل... كما سب أسيد بن حضير... سعد بن عبادة لتعصبه للمنافق وقال إنك منافق تجادل عن المنافقين... وقد ذكرنا أنه لم يرد به النفاق الحقيقي...

وفيه أن من آذى رسول الله... ﷺ... في أهله وعرضه... فإنه يقتل... لقول أسيد بن حضير... إن كان من الأوس قتلناه... ولم يرد عليه النبي... ﷺ... شيئًا...

قال ابن بطال: وكذا من سبّ عائشة رضي الله عنها بما برأها الله تعالى منه... أنه يقتل لتكذيبه الله ورسوله... ﷺ...

وفيه.. وجوب تعظيم أهل بَدْر والذبّ عنهم...

وفيه أن الصبر الجميل فيه الغبطة والعزة في الدارين...

وفيه ترك الحدّ لما يخشى من تفريق الكلمة... كما ترك رسول الله...

ﷺ... حدّ ابن سلول...

وفيه أن الوحي ما كان يأتيه متى أراد لبقائه شهرًا لم يوح إليه...

وفيه حرمة التشكيك في تبرئة عائشة من الإفْك!!!.

* * *

أقول... هذا حديث الإفْك... فماذا نزل من الآيات... في هذا الأمر العظيم؟!!.

الآيات...
التي نَزَلَتْ...
في براءة...
عائشة...؟!

في هذه الآيات...
من الدلالة على فضل الصِّدِّيقة ما فيها ولو قلبت القرآن كله...
وفتشت عما أوعد به العصاة...
لم ترَ اللّه عزّ وجلّ قد غلظ في شيء تغليظه في الإفْك...
وهو دال على فضلها أيضًا...
وكانت رضي اللّه تعالى عنها تتحدث بنعمة اللّه تعالى عليها... بنزول ذلك في شأنها...

عائشة تتحدث عن نفسها؟!

فقد أخرج ابن أبي شيبة عنها... أنها قالت:
«خلال فيّ... لم تكن في أحد من الناس...
«إلّا ما آتى اللّه تعالى مريم ابنة عمران...
«واللّه ما أقول هذا... أني أفتخر على صواحباتي...
«قيل: وما هنّ؟...
«قالت: نزل المَلَك بصورتي...
«وتزوجني بكرًا... لم يشركه فيّ أحد من الناس...
«وأتاه الوحي وأنا وإياه في لحاف واحد...

«وكنت من أحبّ الناس إليه...

«ونزل فيّ آيات من القرآن... كادت الأمة تهلك فيهن...

«ورأيت جبريل عليه السلام... ولم يره أحد من نسائه غيري...

«وَقَبض في بيتي... لم يله أحد غير المَلَك وأنا».

وأخرج ابن مردويه... عنها أنها قالت:

«لقد نزل عذري من السماء...

«ولقد خلقت طيبة... عند طيب...

«ولقد وعدت مغفرة وأجرًا عظيمًا».

* * *

والآيات المنزلة في ذلك... على ما روي عن عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... عشرة...

وها هي الآيات... من سورة النور... قال جلّ ثناؤه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

[سورة النور ١١]

﴿إِنَّ الذينَ جاؤُوا بالْإفْكِ﴾ أي بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء... وكثيرًا ما يفسر بالكذب مطلقًا...

وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك...

والمراد به ما أفك به الصِّدِّيقة... أم المؤمنين... رضي اللّه تعالى عنها...

وفي لفظ المجيء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل...

وتفصيل القصة ما أخرجه البخاري... وغيره... عن عروة... عن عائشة... رضي اللّه تعالى عنها...

(وقد مَرَّ الحديث في الفصل السابق)...

إلى أن قالت: وأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ جاؤوا بالإفْك﴾ العشر الآيات كلها...

﴿**عُصْبَةٌ منْكُمْ**﴾ أصل العصبة الفرقة المتعصبة... قلَّت أو كثرت...

وقد صح أن عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... عدت المنافق عبد اللّه بن أبيّ ابن سلول... وحمنة بنت جحش، أخت أم المؤمنين زينب رضي اللّه تعالى عنها... وزوجة طلحة بن عبيد اللّه... ومسطح ابن أثاثة... وحسان بن ثابت...

ومعنى ﴿**منكم**﴾ من أهل ملّتكم... وممن ينتمي إلى الإسلام... سواء كان كذلك في نفس الأمر أم لا...

فيشمل ابن أبيّ لأنه ممن ينتمي إلى الإسلام ظاهرًا... وإن كان كافرًا في نفس الأمر...

﴿**لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ**﴾ والفائدة في الإخبار قيل: التسلية بأن الجائين بذلك الإفْك فرقة متعصبة متعاونة وذلك من أمارات كونه إفكًا لا أصل له...

وقيل: الأولى أن تكون التسلية بأن ذلك مما لم يجمع عليه... بل جاء به شرذمة منكم...

﴿**بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُم**﴾ هو خير عظيم لكم... لنيلكم بالصبر عليه الثواب العظيم...

وظهور كرامتكم على اللّه عز و جل... بإنزال ما فيه تعظيم شأنكم... وتشديد الوعيد فيمن تكلم بما أحزنكم...

والآيات المنزلة في ذلك على ما سمعت آنفًا عن عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... عشرة...

﴿**لِكُلِّ امْرِئٍ منْهُمْ**﴾ أي من الذين جاؤوا بالإفك...

﴿**ما اكْتَسَبَ مِنَ الإثْمِ**﴾ أي جزاء ما اكتسب... وذلك بقدر ما خاض فيه...

فإن بعضهم تكلم...

وبعضهم ضحك كالمعجب الراضي بما سمع...

وبعضهم أكثر... وبعضهم أقلّ...

﴿والَّذي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ البداءة بالشيء... أي والذي تحمل معظمه...

﴿منهُمْ﴾ من الجائين به...

﴿لَهُ عذابٌ عظيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة... أو في الآخرة فقط...

والمراد بالذي تولى كبره - كما في صحيح البخاري عن الزهري - عن عروة... عن عائشة... رضي اللّه تعالى عنها: عبد اللّه بن أُبَيّ... عليه اللعنة... وعلى ذلك أكثر المحدثين...

وكان لعنه اللّه تعالى... يجمع الناس عنده... ويذكر لهم ما يذكر من الإفْك...

وهو أول من اختلقه وأشاعه...

لإمعانه في عداوة رسول اللّه... ﷺ...

وعذابه في الآخرة بعد جعله في الدرك الأسفل من النار... لا يقدر قدره إلا اللّه عزّ وجلّ...

وأما في الدنيا فوسمه بميسم الذل... وإظهار نفاقه على رؤوس الأشهاد...

* * *

﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

[النور ١٢]

﴿لَوْلَا إذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ التفات إلى خطاب الخائضين ما عدا من تولى كبره منهم...

﴿ظَنَّ المُؤْمِنُونَ والمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي كان الواجب على المؤمنين والمؤمنات أن يظنوا أول ما سمعوا ذلك الإفك ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تعلثم وتردد بأهل ملتهم من آحاد المؤمنين والمؤمنات خيرًا...

﴿وَقَالُوا﴾ في ذلك الآن...

﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر... مكشوف... كونه إفكًا... فكيفَ بأم المؤمنين... حليلة رسول اللّه... ﷺ... بنت المهاجرَيْن... رضي اللّه تعالى عنهما؟!...

ويجوز أن يكون المعنى... هلا ظن المؤمنون والمؤمنات أول ما سمعوا ذلك خيرًا... بأهل ملّتهم... عائشة وصفوان... وقالوا الخ...

* * *

﴿لَّوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

[النور ١٣]

﴿لَّوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي هلا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ثبوت ما قالوا؟...

﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ الأربعة... وكان الظاهر... فإذ لَم يأتوا بهم... إلّا أنه عدل إلى ما في النظم الجليل لزيادة التقدير...

﴿فأولَئِكَ﴾ إشارة إلى الخائضين... وما فيها من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفساد... أي فأولئك المفسدون...

﴿عندَ اللّهِ﴾ أي في حُكْمه وشريعته...

﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي المحكوم عليهم بالكذب شرعًا... أَي بأن خبرهم لم يطابق في الشرع الواقع...

وقيل: المعنى فأولئك في علم اللّه تعالى هم الكاذبون... الذين لم يطابق خبرهم الواقع... في نفس الأمر... لأن الآية في خصوص عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... وخبر أهل الإفك فيها غير مطابق للواقع في نفس الأمر... في علمه عزّ وجلّ...

* * *

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

[النور ١٤]

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ أي تفضله سبحانه...

﴿عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ إياكم...

﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بفنون النعم... التي من جملتها الإمهال للتوبة...
﴿وَ﴾ في...
﴿الآخِرَةِ﴾ بضروب الآلاء... التي من جملتها العفو والمغفرة بعد التوبة...
وجوز أن يتعلق (في الدنيا والآخرة) بكل من فضل اللّه تعالى ورحمته...
والمعنى: لولا الفضل العام... والرحمة العامةِ... في كلا الدارين...
﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلًا...
﴿فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ أي بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك...
والإبهام لتهويل أمره... واستهجان ذكره...
يقال: أفاض في الحديث... وخاض... واندفع... بمعنى...
﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقر دونه التوبيخ والجَلْد...
والخطاب لغير ابن أُبيّ من الخائضين... وجوز أن يكون لهم جميعًا...

* * *

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَّا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

[النور ١٥]

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي لمسكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقيكم ما أفضتم فيه من الإفك... وأخذِ بعضكم إياه من بعض بالسؤال عنه...
والتلَقّي... والتلقف... والتلقن... متقاربة المعاني...
إلّا أن في التلقي معنى الاستقبال...
وفي التلقف معنى الخطف والأخذ بسرعة...
وفي التلقن معنى الحذق والمهارة...
وقرأ أبيّ... رضي اللّه تعالى عنه...
﴿تتلَقَّوْنَهُ﴾...
وقرأ ابن السميقع ﴿تُلْقُونه﴾...
﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي تقولون قولًا مختصًا

بالأفواه... من غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب... لأنه ليس تعبيرًا عن علم به في قلوبكم... فهذا كقوله تعالى ﴿**يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم**﴾...

وقال ابن المنير: يجوز أن يكون قوله سبحانه ﴿**تقولون بأفواهكم**﴾ توبيخًا...

كقولك: أتقول ذلك بملء فيك؟... فإن القائل ربما رمز.. وعرض... وربما تشدَّق جازمًا كالعالم...

﴿**وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا**﴾ سهلًا... لا تبعة له...

﴿**وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ**﴾ أي والحال أنه عند اللّه عزّ وجلّ أمر عظيم... لا يقادر قدره في الوزر... واستجرار العذاب...

* * *

﴿**وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ.**﴾.

[**النور ١٦**]

﴿**وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ**﴾ ممن اخترعه أو المتابع لَه...

﴿**قُلْتُمْ**﴾ تكذيبًا له... وتهويلًا لما ارتكبه...

﴿**مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ**﴾ أي ما يمكننا... وما يصدر عنا... بوجه من الوجوه التكلم...

﴿**بِهَذَا**﴾ إشارة إلى القول الذي سمعوه باعتبار شخصه...

وجوز أن يكون إشارة إلى نوعه... فإن قذف آحاد الناس المتصفين بالإحصان محرم شرعًا...

وجاء عن حذيفة مرفوعًا... أنه يهدم عمل مائة سنة...

فضلًا عن تعرض الصِّدِّيقة... حرمة رسول اللّه... ﷺ...

﴿**سُبْحَانَكَ**﴾ تعجب ممن تفوّه به...

وأصله أن يذكر عند معاينة العجيب من صنائعه تعالى شأنه... تنزيهًا له سبحانه من أن يصعب عليه أمثاله... ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه...

واستعماله فيما ذكر مجاز متفرع على الكناية... ومثله في استعماله للتعجب لا إلٰه إلّا اللّه...

وجوز أن يكون ﴿سُبۡحَانَكَ﴾ هنا مستعملًا في حقيقته...

والمراد تنزيه اللّه تعالى شأنه... من أن يصم نبيّه... عليه الصلاة والسلام... ويشينه...

فإن فجور الزوجة وصمة في الزوج تنفر عنه القلوب... وتمنع عن اتباعه النفوس...

ولذا صان اللّه تعالى أزواج الأنبياء... عليهم السلام... عن ذلك...

وهذا بخلاف الكفر... فإن كفر الزوجة ليس وصمة في الزوج...

وقد ثبت كفر زوجتي نوح ولوط... عليهما السلام...

﴿هَذَا بُهۡتَانٌ﴾ أي كذب... يبهت ويحير سامعه لفظاعته...

﴿عَظِيمٌ﴾ لا يقدر قدره... لعظمة المبهوت عليه... فإن حقارة الذنوب وعظمها كثيرًا ما يكونان باعتبار متعلقاتها...

والظاهر أن التوبيخ للسامعين الخائضين... لا للسامعين مطلقًا...

فقد روي عن سعيد بن جبير... أن سعد بن معاذ[1]... لما سمع ما قيل في أمر عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... قال:

سبحانك هذا بهتان عظيم...

وعن سعيد بن المسيب أنه قال: كان رجلان من أصحاب النبي... ﷺ... إذا سمعا شيئًا من ذلك قالا ما ذكر أسامة بن زيد بن حارثة... وأبو أيوب... رضي اللّه تعالى عنهما...

وأخرج ابن مردويه... عن عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... أنها قالت: «إن امرأة أبي أيوب الأنصاري قالت له: يا أبا أيوب ألا تسمع ما يتحدث به الناس؟!...

«فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم.»».

(١) الصحيح أنه أُسَيْد بن حُضَير – وقد مرّ ذكر ذلك عن قريب.

من شروط النبوة... السلامة عن كل ما ينفر... عن الاتباع؟!

ومنشأ هذا الجزم – على ما قاله الإمام الرازي – العلم بأن زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام... لا يجوز أن تكون فاجرة...

وعلل بأن ذلك ينفر عن الاتباع...

فيخل بحكمة البعثة... كدناءة الآباء وعهر الأمهات...

وقد نص على أن من شروط النبوة السلامة عن ذلك... بل عن كل ما ينفر عن الاتباع...

واستشكل ذلك بأنه إذا كان ما ذكر شرطًا... فكيف علمه مَن سمعت حتى قالوا ما قالوا... وخفي الأمر على رسول اللّه... ﷺ... حتى قال – كما في صحيح البخاري... وغيره:

«يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك اللّه تعالى وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري اللّه تعالى وتوبي إليه»؟!...

وجاء في بعض الروايات:

«يا عائشة إن كنت فعلت هذا الأمر فقولي لي حتى أستغفر اللّه تعالى لك»...

وكذا خفي على صاحبه أبى بكر الصدّيق... رضي اللّه تعالى عنه...

فقد أخرج البزار... بسند صحيح... عن عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... أنه لما نزل عذرها... قَبّلَ أبو بكر... رضي اللّه تعالى عنه... رأسها...

فقالت: ألا عذرتني؟... فقال:

أي سماء تظلني وأي أرض تقلّني إن قلت ما لا أعلم؟...

وأجيب بأن ذلك ليس من الشروط العقلية للنبوة... كالأمانة والصدق...

بل هو من الشروط الشرعية والعادية...

فيجوز أن يقال: إنه لم يكن معلومًا قبل... وإنما علم بعد نزول آيات براءة عائشة... رضي اللّه تعالى عنها...

وعدم العلم بمثل ذلك لا يقدح في منصب النبوة.

وجوز أن يدعى أن النبي... ﷺ... كان عالمًا بعدم جواز فجور نساء الأنبياء... عليهم الصلاة والسلام... لما فيه من النفرة المخلة بحكمة البعثة...

لكن أراد... عليه الصلاة والسلام... أن يظهر براءة الصدِّيقة... رضي اللّه تعالى عنها... ظهور الشمس في رابعة النهار...

بحيث لا يبقى فيه خفاء عند أحد من الصحابة الكرام... رضي اللّه تعالى عنهم...

وما عراه من الهمّ إنما هو أمر طبيعي حصل بسبب خوض المنافقين ومن تبعهم... وشيوع ما لا أصل له من الباطل بين الناس...

ويحتمل أنه... ﷺ... كان عالمًا بأن السلامة من المنفر من شروط النبوة...

لكن خشي من اللّه عزّ وجلّ... الذي لا يجب عليه شيء... أن لا يجعل ما خاض المنافقون وأتباعهم فيه من المنفر...

بأن لا يرتب سبحانه خلق النفرة في القلوب عليه... ليمنع من الاتباع...

فتختل حكمة البعثة...

فداخله... عليه الصلاة والسلام... من الهمّ ما داخله...

وجعل يتتبع الأمر على أتمّ وجه... وما ذلك إلّا من مزيد العلم... ونهاية الحزم...

ونظيره من وجه خوفه... عليه الصلاة والسلام... من قيام الساعة عند اشتداد الريح... بحيث لا يستطيع أن ينام ما دام الأمر كذلك حتى تمطر السماء...

ولا ينبغي لمن يؤمن باللّه تعالى... ورسوله ﷺ... أن يخالج قلبه بعد الوقوف على الآيات والأخبار شك في طهارة نساء الأنبياء... عليهم الصلاة والسلام... عن الفجور في حياة أزواجهن... وبعد وفاتهم عنهن...

* * *

﴿يَعِظُكُمُ اللّهُ أَنْ تَعُوْدُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِيْنَ﴾.

[النور ١٧]

﴿يَعِظُكُمُ اللّهُ﴾ أي ينصحكم...

﴿أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ أي كراهة أن تعودوا... أو لئلا تعودوا... أو يعظكم في العود... أي في شأنه وما فيه من الإثم والمضار... كما يقال وعظته في الخمر وما فيها من المضار...

والمراد بأَبَدًا... مدة الحياة...

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ يتضمن تذكيره بالإيمان... الذي هو لِعلة في الترك والتهييج لإبرازه في معرض الشك... وفيه طرف من التوبيخ...

* * *

﴿وَيُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ واللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.﴾

[النور ١٨]

﴿ويُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآياتِ﴾ أي ينزلها مبينة... ظاهرة الدلالة على معانيها... والمراد بها الآيات الدالة على الشرائع... ومحاسن آداب معاملة المسلمين...

﴿واللّهُ عليمٌ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته جلّها ودقّها...

﴿حكيمٌ﴾ في جميع أفعاله...

فأنّى يمكن صدْق ما قيل في حق حرم من اصطفاه لرسالته... وبعثه إلى كافة الخلْق... ليرشدهم إلى الحق... ويزكيهم... ويطهرهم تطهيرًا؟!...

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.

[النور ١٩]

﴿إِنَّ الذينَ يُحِبُّونَ﴾ أي يريدون ويقصدون...

﴿أَن تَشِيعَ﴾ أن تنتشر...

﴿**الْفَاحِشَةُ**﴾ أي الخصلة المفرطة في القبح... وهي الفرية... والرمي بالزنا... أو نفس الزنا... والمراد بشيوعها شيوع خبرها...

﴿**فِي الَّذِيْنَ آمَنُوا**﴾ أي تشيع فيما بين الناس... وذكر المؤمنين لأنهم العمدة فيهم...

أو...كائنة في حق المؤمنين... وفي شأنهم... والمراد بهم المحصنون والمحصنات...

﴿**لَهُمْ**﴾ بسبب ذلك...

﴿**عَذَابٌ أليمٌ فِي الدُّنْيَا**﴾ مما يصيبه من البلاء كالشلل والعمى...

﴿**وَ**﴾ في

﴿**الآخرَةِ**﴾ من عذاب النار ونحوه...

وترتب ذلك على المحبة ظاهر... من أن أعمال القلب السيئة كالحقد والحسد ومحبة شيوع الفاحشة... يؤاخذ العبد إذا وطن نفسه عليها...

ويعلم من الآية على أتم وجه... سوء حال من نزلت الآية فيهم... كابن أبيّ... ومن وافقه قلبًا وقالبًا...

وأن لهم الحظ الأوفر من العذابين... حيث أحبوا الشيوع وأشاعوا...

وقد فسر ابن عباس... وابن جبير... العذاب الأليم في الدنيا هنا بالحدّ...

﴿**واللّهُ يَعْلَمُ**﴾ جميع الأمور... التي من جملتها ما في الضمائر من المحبة المذكورة... وكذا وجه الحكمة في تغليظ الوعيد...

﴿**وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ ما يعلمه سبحانه وتعالى...

وقيل: المعنى واللّه يعلم ما في ضمائرهم... فيعاقبهم عليه في الآخرة... وأنتم لا تعلمون ذلك... بل تعلمون ما يظهر لكم من أقوالهم... فعاقبوا عليه في الدنيا...

* * *

﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ.**﴾.

[النور ٢٠]

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ الخطاب على ما أخرج الطبراني... عن ابن عباس:

لمسطح... وحسان... وحمنة...

أو: لمن عدا ابن أبيّ وأضرابه من المنافقين الخائضين...

وهذا تكرير للمنّة... بترك المعالجة بالعقاب... للتنبيه على كمال عظم الجريرة...

﴿وَأَنَّ اللّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ المراد بيان اتصافه تعالى في ذاته... بهاتين الصفتين الجليلتين... على الدوام والاستمرار... لا بيان حدوث تعلقهما بهم...

وهذا نظير الآية المارة في آخر حديث اللعان... إلّا أن في التعقيب بالرؤوف الرحيم بدل التواب الحكيم هنالك... ما يؤذن بأن الذنب في هذا أعظم... وكأنه لا يرتفع إلا بمحض رأفته تعالى... وهو أعظم من أن يرتفع بالتوبة...

كما روي عن ابن عباس: من خاض في حديث الإفك وتاب... لم تقبل توبته... والغرض التغليظ...

واللّه تعالى أعلم!!!

مع...
الرفيق...
الأعلى؟!

نحن في سنة إحدى عشرة من الهجرة.

فبينا الناس على ذلك، ابتدىء رسول اللّه ﷺ بشكواه، الذي قبضه اللّه فيه، في ليال بقين من صفر.

فكان أول ما ابتدىء به من ذلك، أنه خرج إلى بقيع الغَرْقد من جوف الليل، فاستغفر لهم ثم رجع إلى أهله.

فلما أصبح ابْتُدِىءَ بوجعه من يومه ذلك.

لقد اخترت لقاء ربي؟!

عن أبي مُوَيْهِبَةَ مولى رسول اللّه ﷺ، قال: بعثني رسول اللّه ﷺ من جوف الليل، فقال: «يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي».

فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر، ليَهْنِىء لكم ما أُصبحتم فيه، مما أصبح الناسُ فيه، أقبلت الفتَنُ كقطع الليْل المظلم، يتبع آخِرُها أوّلَهَا، الآخِرَةُ شَرٌ من الأولى».

ثم أقبل عليّ فقال: «يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة».

فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة.

قال: «لا، واللّه يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربّي والجنة».

ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف.

فبدأ رسول اللّه ﷺ مرضه الذي قبضه اللّه فيه.

وارأساه؟!

عن عائشة زوج النبي ﷺ، قالت: رجع رسول اللّه ﷺ من البقيع، فوجدني وأنا أجد صُداعًا في رأسي، وأنا أقول: وارأساه، فقال: «بل أنا واللّه يا عائشةُ وارأساه».

قالت: ثم قال: «وما ضرك لو مُتِّ قبلي، فقمتُ عليك وكفّنْتكِ وصلّيت عليكِ ودفنتك؟».

قالت: قلت: واللّه لكأَني بك لو قد فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتي فأعْرَست فيه ببعض نسائك؟!.

فتبسّم رسول اللّه ﷺ.

وتتامَّ عليه مرضه وهو يدور على نسائه، حتى اشتد به وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يمرض في بيتي، فأَذِنَّ له.

المرض يشتد؟!

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: فخرج رسول اللّه ﷺ يمشي بين رجلين من أهله، أحدهما الفضل بن عباس، ورجل آخر[1]، عاصبًا رأسه؛ تخط قدماه، حتى دخل بيتي.

ثم غُمِرَ رسول اللّه ﷺ، واشتد به وجعه، فقال: «هَريقُوا عَليَّ سبع قِربٍ من آبار شتى، حتى أخرُجَ إلى الناس، فأَعْهَدَ إليهم».

فأقعدناه في مِخْضَبٍ لحفصة بنت عمر، ثم صببنا الماء حتى طفق يقول: «حَسْبُكم حسبكم».

ينعي نفسه؟!

وخرج رسول اللّه ﷺ عاصبًا رأسه، حتى جلس على المنبر.

---

(١) هو علي بن أبي طالب.

ثم كان أول ما تكلم به، أنه صلى على أصحاب أُحُدٍ، واستغفر لهم، فأكثر الصلاة عليهم.

ثم قال: «إن عبدًا من عباد اللّه، خيّره اللّه بين الدنيا والآخرة، وبين ما عنده، فاختار ما عند اللّه».

ففهمها أبو بكر، وعرف أن نفسه يريد، فبكى، وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا.

فقال رسول اللّه ﷺ: «على رسلك يا أبا بكر».

ثم قال: «انظروا هذا الأبواب اللافظة[١] في المسجد فسدوها، إلا بيت أبي بكر، فإني لا أعلم أحدًا، كان أفضل في الصحبة عندي يدًا منه».

ويروى أن رسول اللّه ﷺ قال يومئذ في كلامه هذا: «فإني لو كنت متخذًا من العباد خليلًا، لاتّخذتُ أبا بكر خليلًا، ولكن صحبةٌ، وإخاء إيمانٍ، حتى يجمع اللّه بيننا عنده».

أنفذوا بعث أسامة؟!

ثم إن رسول اللّه ﷺ استبطأ الناس في بعث أسامة، وهو في مرضه.

فخرج عاصبًا رأسه، حتى جلس على المنبر.

وقد كان الناس قالوا في إمرة أسامة: أمّر غلامًا حدثًا، على جلة المهاجرين والأنصار.

فحمد اللّه، وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال: «يا أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته، لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليقٌ للإمارة، وإن كان أبوه لخليقًا لها».

ثم نزل رسول اللّه ﷺ، وانكمش الناس في جهازهم، واشتد برسول اللّه ﷺ مرضه.

فخرج أسامة، وخرج بجيشه معه، حتى نزلوا الْجُرْف من المدينة على فرسخ.

---

(١) اللافظة: النافذة إليه.

فضرب به معسكره، وتتامَّ إليه الناس.

وثقل رسول اللّه ﷺ، فأقام أسامة والناس، لينظروا ما اللّه قاض في رسول اللّه ﷺ.

استوصوا بالأنصار خيرًا؟!

وروي أن رسول اللّه ﷺ قال - يوم صلى واستغفر لأصحاب أُحُد، وذكر من أمرهم ما ذكر، مع مقالته يومئذ - «يا معشر المهاجرين، استوصوا بالأنصار خيرًا، فإن الناس يزيدون، وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عَيْبتي التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم».

ثم نزل رسول اللّه ﷺ، فدخل بيته، وتتامَّ به مرضه حتى غمره.

من صنع هذا بي؟!

فاجتمع إليه نساء من نسائه، أم سلمة، وميمونة، ونساء من نساء المسلمين، منهن أسماء بنت عُمَيْس.

وعنده العباس عمّه، فأجمعوا على أن يَلُدُّوه[١]، وقال العباس: لأُلُدَّنَّه.

فلدُّوه، فلما أفاق رسول اللّه ﷺ قال: «من صنع هذا بي»؟.

قالوا: يارسول اللّه عمك.

قال: «هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض». وأشار نحو أرض الحبشة.

قال: «ولم فعلتم ذلك؟».

فقال عمه العباس: خشينا يا رسول اللّه أن يكون بك ذات جَنْب.

فقال: «إن ذلك لداءٌ ما كان اللّه ليقذفَني به، لا يبقَ في البيت أحد إلا لُدَّ إلا عمي».

فلقد لدت ميمونة، وإنها لصائمة، لقسم رسول اللّه ﷺ، عقوبة لهم بما صنعوا به.

---

(١) لددت المريض: إذا جعلت الدواء في شق فمه.

يدعو بالإشارة؟!

عن أسامة بن زيد، لما ثَقُل رسول اللّه ﷺ، هبطت، وهبط الناس معي إلى المدينة.

فدخلت على رسول اللّه ﷺ، وقد أُصْمِت، فلا يتكلم.

فجعل يرفع يده إلى السماء، ثم يضعها عليّ، فأعرف أنه يدعو لي.

إذًا واللّه لا يختارنا؟!

عن عائشة قالت: كان رسول اللّه ﷺ، كثيرًا ماأسمعه يقول: «إن اللّه لم يقبض نبيًا حتى يُخيِّرَهُ».

قالت: فلما حُضر رسول اللّه ﷺ، كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول: «بل الرفيقَ الأعلى من الجنَّة».

قالت: قلت: إذًا واللّه لا يختارنا، وعرفت أنه الذي كان يقول لنا «إن نبيًا لم يُقبضْ حتى يُخَيَّر».

وعن عائشة أيضًا قالت: كان رسول اللّه ﷺ يقول: «ما من نبي إلّا تُقبض نفسه، ثم يرى الثواب، ثم ترد إليه، فيخيّر بين أن ترد إليه، وبين أن يلحق».

فكنت قد حفظت ذلك منه، فإني لمسندته إلى صدري، فنظرت إليه حين مالت عنقه، فقلت: قد قضى، فعرفت الذي قال.

فنظرت إليه حين ارتفع فنظر، قلت: إذًا واللّه لا يختارنا.

فقال: مع الرفيق الأعلى، في الجنة، مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

مروا أبا بكر فليصل بالناس؟!

عن عائشة قالت: لما استعزَّ برسول اللّه ﷺ قال: «مروا أبا بكر فليُصَلِّ بالناس».

قلت: يا نبي اللّه، إن أبا بكر رجل رقيق، ضعيف الصوت، كثير البكاء إذا قرأ القرآن؟

قال: «مروه فليصل بالناس».

قالت: فعدت بمثل قولي.

فقال: «إنكنَّ صواحبُ يوسفَ، فمروه فليصل بالناس».

قالت: فواللّه ماأقول ذلك إلا أني كنت أحب أن يُصْرَف ذلك عن أبي بكر.

وعرفت أنَّ الناس لا يحبُّون رجلًا قام مقامه أبدًا، وأن الناس سيتشاءمون به في كل حدث كان، فكنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي بكر.

فأين أبو بكر؟!

عن عبد اللّه بن زَمْعة قال: لما استعز برسول اللّه ﷺ - وأنا عنده في نفر من المسلمين - دعاه بلال إلى الصلاة.

فقال: «مروا من يصلّي بالناس».

فخرجت، فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائبًا.

فقلت: قم يا عمر فصلّ بالناس.

فقام: فلما كبّر، سمع رسول اللّه ﷺ صوته وكان عمر رجلًا مُجْهِرًا[١].

فقال رسول اللّه ﷺ: «فأين أبو بكر؟. يأبى اللّه ذلك والمسلمون، يأبى اللّه ذلك والمسلمون».

فبعث إلى أبى بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة، فصلى بالناس.

قال لي عمر: ويْحك!!. ماذا صنعتَ بي يابن زمعة؟. واللّه ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول اللّه ﷺ أمرك بذلك؟. ولولا ذلك ما صلّيت بالناس.

قلت: واللّه ما أمرني رسول اللّه ﷺ بذلك، ولكني حين لم أرَ أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس.

---

(١) مجهرًا: عالي الصوت.

النظرة الأخيرة؟!

عن أنس بن مالك: لما كان يوم الاثنين الذي قبض اللّه فيه رسوله ﷺ، فخرج إلى الناس وهم يصلون الصبح.

فرفع الستر، وفتح الباب، فخرج رسول اللّه ﷺ، فقام على باب عائشة.

فكاد المسلمون يفتتنون في صلاتهم برسول اللّه ﷺ حين رأوه، فرحًا به، وتفرّجوا.

فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم.

وتبسم رسول اللّه ﷺ سرورًا لما رأى من هيئتهم في صلاتهم.

وما رأيت رسول اللّه ﷺ أحسن هيئةً منه تلك الساعة.

ثم رجع، وانصرف الناس، يرون أن رسول اللّه ﷺ قد أفْرقَ(١) من وجعه، فرجع أبو بكر إلى أهله بالسُّنحِ(٢).

يصلي وراء أبي بكر!!

لما كان يوم الاثنين، خرج رسول اللّه ﷺ، عاصبًا رأسه إلى الصبح، وأبو بكر يصلي بالناس.

فلما خرج رسول اللّه ﷺ تفرج الناس، فعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول اللّه ﷺ فنكص عن مصلاه.

فدفع رسول اللّه ﷺ في ظهره، وقال: «صَلِّ بالناس».

وجلس رسول اللّه ﷺ إلى جَنبه، فصلى قاعدًا عن يمين أبي بكر.

فلما فرغ من الصلاة، أقبل على الناس، فكلمهم رافعًا صوته، حتى خرج صوته من باب المسجد يقول: «يا أيها الناس، سُعِّرتِ النارُ، وأقبلتِ الفتن كقطع الليل المظلم، وإني واللّه ما تمسَّكون عليّ بشيء، إني لم أُحِلَّ إلَّا ما أحَلَّ القرآنُ، ولم

---

(١) أفرق من وجعه: أبل من مرضه وبرىء منه.

(٢) موضع كان لأبي بكر فيه مال، وكان ينزله بأهله.

أحَرمْ إلّا ما حرّم القرآنُ».

فلما فرغ رسول اللّه ﷺ من كلامه، قال أبو بكر: يا نبي اللّه، إني أراكَ قد أصبَحْتَ بنعمة من اللّه وفضل، كما نُحب، واليوم يوم بنت خارجة أفآتيها؟.

قال: «نعم».

ثم دخل رسول اللّه ﷺ، وخرج أبو بكر إلى أهله بالسُّنْح.

بل الرفيق الأعلى؟!

فَتُوفّي رسول اللّه ﷺ حين اشتد الضُّحاء من يوم الإثنين، لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، لتمام عشر سنين من مقدمه المدينة.

عن عائشة قالت: رجع إليّ رسول اللّه ﷺ في ذلك اليوم، حين دخل من المسجد، فاضطجع في حجري.

فدخل عليّ رجل من آل أبي بكر، وفي يده سواك أخضر.

فنظر رسول اللّه ﷺ إليه في يده، نظرًا عرفت أنه يريده.

فقلت: يا رسول اللّه، أتحب أن أعطيك هذا السواك؟

قال: «نعم».

قالت: فأخذته فمضغته حتى لَيّنْتُه، ثم أعطيته إياه.

فاستَنَّ به كأشد ما رأيته يستن بسواك قطُّ، ثم وضعه.

ووجدت رسول اللّه ﷺ يثقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول: «بلِ الرفيقَ الأعلى من الجنة».

فقلت: خُيِّرْتَ فاخترتَ، والذي بعثك بالحق.

وقُبض رسول اللّه ﷺ.

تقول عائشة: مات رسول اللّه ﷺ بين سَحْري[١] ونَحْري[٢] وفي دولتي[٣]،

---

(١) السحر: من الرئة إلى الحلقوم.

(٢) النحر: أعلى الصدر.

(٣) في دولتي: في نوبتي التي كانت لي.

لم أظلم فيه أحدًا. فمن سَفَهي وحداثة سنّي، أن رسول اللّه ﷺ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت أَلْتَدِمُ[1] مع النساء، وأضربُ وجهي!.

واللّه ما مات!!

عن أبي هريرة:

لما توفي رسول اللّه ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال: إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول اللّه ﷺ قد توفي، وإن رسول اللّه ﷺ واللّه ما مات، ولكنه ذهب إلى ربّه، كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات، واللّه ليرجعَنَّ رسول اللّه ﷺ كما رجع موسى، فليقطَعَنَّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول اللّه ﷺ مات.

أبو بكر يُقَبِّل رسول اللّه؟!

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد - حين بلغه الخبر - وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول اللّه ﷺ في بيت عائشة.

ورسول اللّه ﷺ مغطى الوجه في ناحية البيت، عليه بُرْدُ حِبَرَةٍ[2].

فأقبل حتى كشف عن وجه رسول اللّه ﷺ.

ثم أقبل عليه فقبّله، ثم قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتةُ التي كتب اللّه عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا.

ثم رَدَّ البُرْد على وجه رسول اللّه ﷺ، ثم خرج وعمر يكلم الناس.

وما محمد إلا رسول؟!

فقال: على رسلك يا عمر، أنصت.. فأبى إلا أن يتكلم.

---

(١) ألتدم: أضرب صدري.

(٢) نوع من ثياب اليمن.

فلما رآه أبو بكر لا ينصت، أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه، أقبلوا عليه، وتركوا عمر.

فحمد اللّه وأثنى عليه. ثم قال: أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد اللّه فإن اللّه حي لا يموت. ثم تلا هذه الآية:

﴿ومَا مُحَمَّدٌ إلّا رَسُولٌ قدْ خَلَتْ منْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُم عَلَى أعْقابِكُمْ ومَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وسَيَجزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

فواللّه لكأن الناس لم يعلموا أن هذا الآية نزلت، حتى تلاها أبو بكر يومئذ.

وأخذها الناس عن أبي بكر، فإنما هي في أفواههم.

قال أبو هريرة: قال عمر: فواللّه ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقِرْتُ(١) حتى وقعت إلى الأرض، ما تحملني رجلاي، وعرفت رسول اللّه ﷺ قد مات.

عمر يروي قصة اختيار أبي بكر؟!

قال عمر: إنه كان من خبرنا – حين توفى اللّه نبيّه ﷺ – أن الأنصار خالفونا، فاجتمعوا بأشرافهم في سقيفة بني ساعدة، وتخلف عنا علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ومن معهما.

واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار.

فانطلقنا نؤُمُّهم... حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة...

فلما جلسنا تَشَهّدَ خطيبهم، فأثنى على اللّه بما هو له أهل، ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار اللّه. وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دَفَّت(٢) دَافَّةٌ من قومكم.

قال عمر: وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر.

---

(١) فعقرت: تحيرت ودهشت.

(٢) الدافَّة: الجماعة تأتي من البادية إلى الحاضرة.

فلما سكت أردت أن أتكلم، وقد زَوَّرْتُ[1] في نفسي مقالة قد أعجبتني، أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر..

فقال أبو بكر: على رِسْلِكَ يا عمر، فكرهت أن أغضبه.

فتكلم، وهو كان أعلم مني وأوقر، فواللّه ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلا قالها في بديهته، أو مثلها، أو أفضل، حتى سكت، قال: أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم.

وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا.

ولم أكره شيئًا مما قال غيرها، كان واللّه أن أُقَدَّمَ فتضرب عنقي لا يُقَرِّبني ذلك إلى إثم، أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر.

فقال قائل من الأنصار: منا أمير، ومنكم أمير يا معشر قريش.

قال: فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى تخوَّفْت الاختلاف.

فقلت: ابسُط يَدَكَ يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته، ثم بايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار...

عمر يعتذر؟!

عن أنس بن مالك: لما بويع أبو بكر في السقيفة، وكان الغد، جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر.

فحمد اللّه وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس، إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت، وما وجدتها في كتاب اللّه، ولا كانت عهدًا عهده إليّ رسول اللّه ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسول اللّه ﷺ سَيُدَبِّرُ أمرنا... يكون آخرنا!.

وإن اللّه قد أبقى فيكم كتابه الذي به هَدَى اللّه رسوله ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم اللّه لما كان هداه له.

---

(١) زورت: أعددت وحسنت.

وإن اللّه قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول اللّه ﷺ، ثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه.

فبايع الناس أبا بكر بيعته العامة، بعد بيعة السقيفة.

لست بخيركم؟!

ثم تكلم أبو بكر، فحمد اللّه وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أما بعد أيها الناس؛ فإني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحْسَنتُ فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء اللّه، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء اللّه.

لا يَدَعُ قوم الجهاد في سبيل اللّه إلا ضربهم اللّه بالذل.

ولا تشيعُ الفاحشة في قوم قطُّ إلا عَمَّهُمُ اللّه بالبلاء.

أطيعوني ما أطعت اللّه ورسوله، فإذا عصيت اللّه ورسوله فلا طاعة لي عليكم.

قوموا إلى صلاتكم يرحمكم اللّه.

إعداد الجسد الشريف؟!

فلما بويع أبو بكر رضي اللّه عنه، أقبل الناس على جهاز رسول اللّه ﷺ يوم الثلاثاء.

فأسند علي بن أبي طالب رسول اللّه ﷺ إلى صدره، وكان العباس والفضل وقُثَم يقلبونه معه.

وكان أسامة بن زيد، وشُقْران مولاه، هما اللذان يصبّان الماء.

وعليٌّ يغسله، قد أسنده إلى صدره، وعليه قميصه يدلكه من ورائه، لا يُفضي بيده إلى رسول اللّه ﷺ.

وعليٌّ يقول: بأبي أنت وأمي، ما أطْيبك حيًا وميتًا.

ولم يَر من رسول اللّه ﷺ شيء مما يُرى من الميت.

فلما فرغ من غسل رسول اللّه ﷺ كفن في ثلاثة أثواب. صُحاريّين[1]، وبُردِ حِبَرَةٍ، أُدرج فيه إدراجًا.

الصلاة على رسول اللّه؟!

فلما فرغ من جهاز رسول اللّه ﷺ يوم الثلاثاء، وُضع على سريره في بيته.

وقد كان المسلمون اختلفوا في دفنه، فقال قائل: ندفنه في مسجده.

وقال قائل: بل ندفنه مع أصحابه.

فقال أبو بكر: إني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «ما قبض نبيٌّ إلا دُفِنَ حيثُ يُقبضُ».

فرفع فراش رسول اللّه ﷺ الذي توفي عليه، فحفر له تحته.

ثم دخل الناس على رسول اللّه ﷺ، يصلون عليه أرسالًا.

دخل الرجال، حتى إذا فرغوا أدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان.

ولم يَؤُمَّ الناس على رسول اللّه ﷺ أحد.

في ليلة الأربعاء؟!

عن عائشة قالت: ما علمنا بدفن رسول اللّه ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوْفِ الليل من ليلة الأربعاء.

وكان الذين نزلوا في قبر رسول اللّه ﷺ، علي بن أبي طالب، والفضل بن عباس، وقثم بن عباس، وشقران مولى رسول اللّه ﷺ.

وقد قال أوس بن خَوْليٍّ لعلي بن أبي طالب: يا علي أنشدك اللّه، وحظّنا من رسول اللّه ﷺ؟

فقال له: انزل. فنزل مع القوم.

وقد كان مولاه شقران – حين وضع رسول اللّه ﷺ في حفرته وبنى عليه – قد

---

(١) نسبة إلى صحار، وهي بلدة من بلاد اليمن.

أخذ قطيفة، قد كان رسول اللّه ﷺ يلبسها ويفترشها، فدفنها في القبر، وقال: واللّه لا يلبسها أحد بعدك أبدًا.

قال ابن عباس: بُعث رسول اللّه ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة، ثم أمر بالهجرة، فهاجر عشر سنين، ثم مات وهو ابن ثلاث وستين.

عندما قال صلى اللّه عليه وسلم...
«بل أنا واللهِ...
يا عائشةُ..!
وارَأْساه»...؟!

قال الراوي:

«أحداث سنة إحدى عشرة...

«مرض رسول اللّه... ﷺ... ووفاته...

«ابتدأ برسول اللّه... ﷺ... مرضه أواخر صفر...

«قالت عائشة: فلما رجع من البقيع... وجدني وأنا أجد صداعًا وأنا أقول: وارأساه...

«قال: **بل أنا واللّه يا عائشةُ وارأساه!..**

«ثم قال: **ما ضرّك لو مُتِّ قبلي... فقمتُ عليكِ... وكفّنتكِ... وصلّيتُ عليكِ ودفنتك؟...**

«فقلتُ: كأني بك واللّه لو فعلتَ ذلك... فرجعتَ إلى بيتي فعرّست ببعض نسائك..

«فتبسّم... وتتامّ به وجعه... وتمرّض في بيتي...

«فخرج منه يومًا بين رجلين... أحدهما الفضل بن العبّاس... والآخر عليّ...

«قال الفضل: فأخرجته... حتى جلس على المنبر... فحمد اللّه...

«وكان أول ما تكلم به النبي... ﷺ... أن صلّى على أصحاب أُحُد... فأكثر واستغفر لهم...

«ثم قال: أيها الناس... إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم...
«فمن كنتُ جلدتُ له ظهرًا... فهذا ظهري... فليستقد منه...
«ومَن كنتُ شتمتُ له عِرْضًا... فهذا عِرضي... فليستقد منه...
«ومَن أخذت له مالًا... فهذا مالي... فليأخذ منه... ولا يخشَ الشحناء من قِبلي... فإنها ليست من شأني...
«ألا وإنّ أحبكم إليّ... مَنْ أخذ مني حقًا... إن كان له... أو حلّلني... فلقيتُ ربي... وأنا طيب النفس...
«ثم نزل... فصلّى الظهر... ثم رجع إلى المنبر... فعاد لمقالته الأولى...»!!!.
«قال ابن مسعود:
«نعى إلينا نبيّنا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر...

اجتماع في حجرة عائشة؟!

«فلما دنا الفراق... جمعَنا في بيت عائشة... فنظر إلينا... فشدّد... ودمعت عيناه... وقال:
«مرحبًا بكم...
«حيّاكم اللّه...
«رحمكم اللّه...
«آواكم اللّه...
«حفظكم اللّه...
«رفعكم اللّه...
«وفقكم اللّه...
«سلّمكم اللّه...
«قبلكم اللّه...
«أوصيكم بتقوى اللّه...

«وأوصي اللّه بكم...

«وأستخلفه عليكم...

«وأؤدّيكم إليه...

«إني لكم منه نذير وبشير...

«ألا تعلوا على اللّه... في عباده وبلاده...

«فإنه قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِيْنَ لا يُرِيْدُونَ عُلُوّاً في الْأَرضِ ولا فَسَادًا والْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينْ﴾...

«قلنا: فمتى أجلك؟..

«قال: دنا الفراق... والمنقلب إلى اللّه... وسِدرة المنتهى... والرفيق الأعلى... وجنّة المأوى...

«فقلنا: من يغسلك؟...

«قال: أهلي...

قلنا: فيمَ نكفّنك؟..

«قال: في ثيابي... أو في بياض...

«قلنا: فمن يصلّي عليك؟...

«قال: مهلًا... غفر اللّه لكم... وجزاكم عن نبيكم خيرًا...

«فبكينا...

«وبكى...»!!!.

أقرئوا أنفسكم منّي السّلام؟!

«ثم قال:

«ضعوني على سريري...

«على شفير قبري...

«ثم أخرجوا عني ساعة... ليصلّي عليّ... جبرائيل... وإسرافيل... وميكائيل... ومَلك الموت... مع الملائكة...

«ثم ادخلوا عليّ... فوجًا فوجًا... فصلّوا عليّ...

«ولا تؤذوني... بتزكية...

ولا رنة...

«أقرئوا أنفسكم منّي السّلام...

«ومَن غاب من أصحابي... فأقرئوه منّي السلام...

«ومن تابعكم على ديني... فاقرئوه السلام.»!!!

قال الراوي: قال ابن عباس:

«يوم الخميس... وما يوم الخميس...

«ثم جرت دموعه على خدّيه...

«اشتد برسول اللّه... ﷺ... مرضه ووجعه...

«وخرج عليّ بن أبي طالب... من عند رسول اللّه... ﷺ... في مرضه...

«فقال الناس: كيف أصبح رسول اللّه؟...

«قال: أصبح بحمد اللّه بارئًا...

«فأخذ بيده العبّاس فقال: أنت بعد ثلاث عبد العصا... وإن رسول اللّه... ﷺ... سيتوفى في مرضه هذا... وإني لأعرف الموت في وجوه بني عبد المطلب... فاذهب إلى رسول اللّه... ﷺ... فاسأله فيمن يكون هذا الأمر؟... فإن كان فينا علمناه... وإن كان في غيرنا أمره... أوصى بنا...

«فقال عليّ: لئن سألناها رسول اللّه... ﷺ... فمنعناها... لا يُعطيناها الناس أبدًا...

«واللّه لا أسألها رسول اللّه... ﷺ... أبدًا..»!!!

قالَ الراوي:

«ولما اشتد برسول اللّه... ﷺ... وجعه... ونزل به الموت...

«جعل يأخذ الماء بيده... ويجعله على وجهه ويقول: **واكرباه!..**

«فتقول فاطمة: واكربي لكربك يا أبتي!..

فيقول رسول اللّه... ﷺ: **لا كربَ على أبيك بعد اليوم...**

«فلمّا رأى شدّة جزعها... استدناها وسارّها... فبكت...
«ثم سارّها الثانية... فضحكت...
«فلمّا توفي رسول اللّه... ﷺ... سألتها عائشة عن ذلك...
«قالت: أخبرني أنه ميّت... فبكيتُ...
«ثم أخبرني أني أوّل أهله لحوقًا به... فضحكتُ...»!!!
قال الراوي:
«وكان موته... يوم الاثنين... لثنتي عشرة ليلة... خلت من ربيع الأوّل...
«ودُفن... من الغد... نصف النهار...»!!!

* * *

أقول... هذه المشاهد المقدسة...
حَدَثَتْ في حجرة عائشة...
رضي اللّه تعالى عنها!!!
فلمّا دُفِنَ ﷺ حيث قُبض... في تلك الحجرة...
صارت تلك الحجرة بقعة في الأرض يشتاق إلى زيارتها كلّ مؤمن وكلّ مؤمنة!!!.

عائشة تقول:

«قَبَضَهُ اللّهُ...

بَيْنَ سَحْرِي ونَحْرِي...

وَدُفِنَ في بَيْتي»...؟!

في صحيح البخاري...

بابُ ما جاءَ في قَبْرِ النبيِّ... ﷺ... وأَبي بَكْرٍ... رضي اللّه عنهما

أي هذا باب في بيان ما جاء في صفة قبر النبي... ﷺ...
وصفة قبر أبي بكر الصدّيق...
وعمر الفاروق...
من كون قبرهم في بيت عائشة... رضي اللّه تعالى عنها...
وكونه مسنَّمًا أو غير مسنَّم...
وكونه بارزًا أو غير بارز...
ومن كون أبي بكر وعمر معه... ﷺ...
وفيه فضيلة عظيمة لهما... فيما لا يشاركهما فيها أحد...
وذلك أنهما كانا وزيريه في حال حياته...
وصارا ضجيعيه بعد مماته...
وهذه فضيلة عظيمة... خصّهما اللّه تعالى بها...
وكرامة حيَّاهما بها...
لم تحصل لأحَد!!!

وصية عائشة؟!

ألا ترى وصية عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... إلى ابن الزبير... رضي اللّه تعالى عنهما... أن لا يدفنها معهم... خشية أن تُزَكَّى بذلك!...

وهذا من تواضعها... وإقرارها بالحقّ لأهله... وإيثارها به على نفسها...

ورأت عمر... رضي اللّه تعالى عنه أهلًا...

وأيضًا لقرب طينتهما من طينته...

ففي حديث أبي سعيد... رضي اللّه تعالى عنه:

«مرَّ رسول اللّه... ﷺ... في جنازة عند قبر فقال:

«من هذا؟

«فقيل: فلان الحبشي...

«فقال ﷺ: لا إله إلا اللّه... سيق من أرضه وسمائه إلى تربته التي منها خُلِق»...

قال الحاكم: صحيح الإسناد...

وإنما استأذنها عمر في ذلك...

ورغب إليها فيه... لأن الموضع كان بيتها... ولها فيه حق... ولها أن تؤثر به نفسها لذلك...

فآثرت به عمر... رضي اللّه تعالى عنه...

عائشة رأت رؤيا؟!

وقد كانت عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... رأت رؤيا دلتها على ما فعلت...

«حين رأت ثلاثة أقمار سقطن في حجرتها...

«فقصتها على والدها لما توفي رسول اللّه... ﷺ... ودفن في بيتها...

«فقال لها أبو بكر: هذا أول أقمارك... وهو خيرها.»).

* * *

«عَنْ عائشةَ... قالَتْ:
«إنْ كانَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... لَيَتَعَذَّرُ في مَرَضِهِ...
«أيْنَ أنَا اليَوْمَ... أيْنَ أنَا غَدًا...
«اسْتِبْطَاءً لِيَوْمِ عائشةَ...
«فلمَّا كانَ يَوْمِي...
«قَبَضَهُ اللّهُ بَيْنَ سَحْرِي ونَحْرِي...
«ودُفِنَ فِي بَيْتِي.».

[أخرجه البخاري]

مطابقته للترجمة من حيث أنه... ﷺ... دُفِنَ في بيت عائشة...

وفيه قبره... والترجمة في قبر النبيّ... ﷺ....

«**إن كان رسول اللّه... ﷺ... لَيَتَعَذَّرُ**» أي يطلب العذر فيما يحاوله من الانتقال إلى بيت عائشة... رضي اللّه تعالى عنها...

وفي رواية أبي الحسن «ليتقدر» معناه يسأل عن قدر ما بقي إلى يومها... ليهون عليه بعض ما يجد... لأن المريض يجد عند بعض أهله ما لا يجده عند غيره من الأنس والسكون...

«**أين أنا اليوم**» أي أين أكون في هذا اليوم... وأين أكون غدًا؟...

وقال الكرماني: يريد بقوله: «أين أنا اليوم» لمن النوبة اليوم... ولمن النوبة غدًا؟...

أي في حجرة أي امرأة من النساء أكون غدًا؟...

استبطاء ليوم عائشة... رضي اللّه تعالى عنها...

يستطيل اليوم اشتياقًا إليها... وإلى نوبتها...

«**فلما كان يومي**» أي في النوبة...

«**بين سَحْرِي ونَحْري**» السَحْر: ما التزق بالحلقوم والمريء من أعلى البطن..

والسَحَر... بفتحتين كذلك: الرئة والجمع أسحار...

وقال الفراء: أكثر قول العرب:

السَحْر... والنَحْر بالنون: الصدر...

وقال ابن قتيبة في كتابه الغريب:

بلغني عن عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير أنه قال: **إنما هو «شَجْري ونَحْرِي»...**

فسئل عن ذلك... فشبَّك بين أصابعه وقدمها من صدره كأنه يضم شيئًا إليه...

أراد أنه قُبِض... وقد ضمَّته بيديها إلى نحرها وصدرها...

والشجر: التشبيك...

ويستفاد من الحديث:

فضيلة عائشة... رضي اللّه تعالى عنها...

«**ودُفِنَ في بيتي**» نسبة البيت إليها... كما في قوله تعالى ﴿**وقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ**﴾ لأن البيوت كانت لرسول اللّه... ﷺ.

«**أخبرنا أبو بَكْر بنِ عَيَّاشٍ...**

«**عَنْ سُفيانَ التَّمَّارِ... أنَّهُ حَدَّثَهُ...**

«**أنَّهُ رَأَى قَبْرَ النبيِّ... ﷺ... مُسَنَّمًا.»**.

[أخرجه البخاري]

روى أبو داود... عن القاسم بن محمد... قال: دخلت على عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... فقلت: يا أُمَّاه... اكشفي لي قبر رسول اللّه... ﷺ...

«فكشفت لي عن ثلاثة قبور...

«لا مشرفة ولا لاطئة..

«مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء...

«فرأيت رسول اللّه... ﷺ... مقدمًا...

«وأبا بكر رأسه بين كتفي النبي... ﷺ...

«وعمر رأسه عند رجلي النبي... ﷺ».

وقال صاحب الهداية: ويسنم القبر، من التسنيم... وتسنيمه رفعه من الأرض مقدار شبر... أو أكثر قليلًا...

وعن عثمان بن نسطاس قال: رأيت قبر النبي... ﷺ... لما هدمه عمر بن عبد العزيز... رضي اللّه تعالى عنه... مرتفعًا نحو أربع أصابع... ورأيت قبر أبي بكر... رضي اللّه تعالى عنه... وراء قبر النبي... ﷺ... وقبر عمر... رضي اللّه تعالى عنه... أسفل منه...

وقد استدلت جماعة على فضيلة الشيخين بمجاورتهما ملحده... ﷺ...

لا تَدْفِنِّي مَعَهُمْ؟!

«عَنْ هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ...
«عَنْ أبِيهِ...
«لَمَّا سَقَطَ عَلَيْهِمُ الحَائِطُ في زمانِ الوَلِيدِ بنِ عبْدِ المَلِكَ...
«أَخَذُوا في بِنَائِهِ...
«فَبَدَتْ لَهُمْ قَدَمٌ فَفَزِعُوا...
«وَظَنُّوا أنَّها قَدَمُ النبيِّ... ﷺ...
«فَمَا وَجَدُوا أحَدًا يَعْلَمُ ذَلِكَ...
«حَتَّى قالَ لَهُمْ عُرْوَةُ: لَا وَاللّهِ ما هِيَ قَدَمُ النبيِّ... ﷺ...
«مَا هِيَ إِلَّا قَدَمُ عُمَرَ... رضي اللّه عنهُ.».

* * *

«وعنْ هِشَامٍ... عَنْ أَبِيهِ... عَنْ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها...
«أنَّهَا أَوْصَتْ عَبْدَ اللّهِ بنَ الزُّبَيْرِ... رضي اللّه عنهما...
«لَا تَدْفِنِّي مَعَهُمْ...
«وادْفِنِّي مَعَ صَوَاحِبِي بالبَقِيعِ...
«لَا أُزَكَّى بِهِ أَبَدًا.».

[أخرجه البخاري]

مطابقته للترجمة من حيث أن حائط مسجد النبي... ﷺ... لما سقط وبدا قدم ففزعوا وظنّوا أنها قدم النبي... ﷺ... ولم تكن الّا قدم عمر... رضي اللّه

تعالى عنه... دلَّ هذا على قدم النبي... ﷺ... وهو في القبر... والترجمة في قبر النبي... ﷺ...

«**لما سقط عليهم الحائط**» **أي** حائط حجرة النبي... ﷺ...

والسبب في ذلك...

«كان الناس يصلون إلى القبر...

«فأمر به عمر بن عبد العزيز... فرفع حتى لا يصلي إليه أحد...

«فلما هدم بدت قدم بساق ورُكْبة...

«**ففزع عمر بن عبد العزيز...**

«**فأتاه عروة فقال: هذا ساق عمر... رضي اللّه تعالى عنه... وركبته...**

«**فسري عن عمر بن عبد العزيز...**»

وروي:

«كتب الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز...

«وكان قد اشترى حجر أزواج النبي... ﷺ...

«أن أهدمها ووسِّع بها المسجد...

«فقعد عمر في ناحية...

«ثم أمر بهدمها...

«فما رأيت باكيًا أكثر من يومئذ...

«ثم بناه كما أراد...

«**فلما أن بني البيت على القبر... وهدم البيت الأول...**

«**ظهرت القبور الثلاثة...**

«**وكان الرمل الذي عليها قد انهار...**

«**ففزع عمر بن عبد العزيز...**

«**وأراد أن يقوم فيسويها بنفسه...**

«**فقلت له:** أصلحك **اللّه... إنك إن قمت قام الناس معك... فلو أمرت رجلًا أن يصلحها...**

«ورجوت أنه يأمرني بذلك...
«فقال: يامزاحم - يعني مولاه - قم فأصلحها...
«قال رجاء: فكان قبر أبي بكر عند وسط النبي... ﷺ...
«وعمر.. خلف أبي بكر... رأسه عند وسطه...».
وفي الاكليل:
«عن وردان... وهو الذي بنى بيت عائشة... لما سقط شقه الشرقي... في أيام عمر بن عبد العزيز...
«وأن القدمين لما بدتا... قال سالم بن عبدالله: أيها الأمير... هذان قدما جدي وجدك عمر.».

بيت عائشة؟!

قال مالك:
«قسم بيت عائشة...
«قسم كان فيه القبر...
«وقسم كان تكون فيه عائشة...
«وبينهما حائط...
«فكانت عائشة ربما دخلت جنب القبر (فصلا)[1]...
«فلما دفن عمر... رضي الله تعالى عنه... لم تدخله إلّا وهي جامعة عليها ثيابها.».

تطور البناء على بيت عائشة؟!

وقال عمرو بن دينار... وعبيد الله بن أبي يزيد...
«لم يكن على عهد النبي... ﷺ... على بيت النبي... ﷺ... حائط...
«فكان أول من بنى عليه جدارًا عمر بن الخطاب... رضي الله تعالى عنه...

---

(١) (فصلا) هكذا بالأصل... والراجح (فصَلَّت) أي أدَّت الصلاة.

«قال عبيد اللّه: كان جداره قصيرًا...

«ثم بناه عبداللّه بن الزبير... وزاد فيه».

وفي الدرة الثمينة لابن النجار:

«سقط جدار الحجرة مما يلي موضع الجنائز في زمان عمر[1]... رضي اللّه تعالى عنه... فظهرت القبور... فما رؤي باكيًا أكثر من يومئذ...

«فأمر عمر بقباطي يستر بها الموضع...

«وأمر ابن وردان أن يكشف عن الأساس...

«فلما بدت القدمان قام عمر فزعًا...

«فقال له عبيد اللّه بن عبداللّه بن عمر... رضي اللّه تعالى عنهم... وكان حاضرًا: أيها الأمير... لا تفزع فهُما قدما جدّك عمر... ضاق البيت عنه فحفر له في الاساس...

«فقال له عمر: يابن وردان... غطّ ما رأيت... ففعل.».

وفي رواية:

أن عمر أمر أبا حفصة – مولى عائشة – وناسًا معه... فبنوا الجدار... وجعلوا فيه كوة... فلما فرغوا منه ورفعوه... دخل مزاحم – مولى عمر – فقمَّ ما سقط على القبر من التراب...

«وبنى عمر على الحجرة حاجزًا... في سقف المسجد إلى الأرض...

«وصارت الحجرة في وسطه...

«وهو على دورانها...

الخلفاء يتنافسون؟!

«فلما ولي المتوكل... أزرها بالرخام من حولها...

«فلما كان سنة ثمان وأربعين وخمسمائة... في خلافة المقتفي... جدّد التأزير... وجعل قامة وبسطة... وعمل لها شباكًا من الصندل والأبنوس...

---

(١) أي عمر بن عبد العزيز.

وأداره حولها مما يلي السقف...

«ثم إن الحسن بن أبي الهيجا - صهر الصالح - وزير المصريين... عمل لها ستارة من الديبقى الأبيض... مرقومة بالابريسيم الأصفر والأحمر...

«ثم جاءت من المستضيء بأمر اللّه... ستارة من الابريسيم البنفسجي... وعلى دوران حاماتها مرقوم... أبو بكر... وعمر... وعثمان... وعليّ... رضي اللّه تعالى عنهم...

«ثم شيلت تلك... ونفذت إلى مشهد علي بن أبي طالب... وعلقت هذه...

«ثم إن الناصر لدين اللّه... نفذ ستارة من الابريسيم الأسود... وطرزها وحاماتها أبيض فعلقت فوق تلك...

«ثم لما حَجَّت الجهة الخليفية عملت ستارة على شكل المذكورة ونفذتها... فعلقت...»[1].

* * *

«في زمان الوليد بن عبد الملك» ولي الأمر بعد موت عبد الملك في سنة ست وثمانين... وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر على المشهور...

«فبَدَتْ لهم قَدَمٌ» أي ظهرت...

«لا تَدْفِنّي معهم» أي مع النبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... وأبي بكر وعمر...

وإنما قالت ذلك مع أنه بقي في البيت موضع ليس فيه أحد... خوفًا من أن يجعل لها بذلك مزية فضل...

«عن عائشة قالت للنبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم:

«إني لا أراني إلا سأكون بعدك...

«فتأذن لي أن أدفن إلى جانبك...

---

(١) هذه الأوصاف التي أثبتها الشارح... إنما هي حتّى تاريخ وفاته في سنة ٨٥٥ هجرية. وقد حدثت تطورات بعد ذلك التاريخ.

«قال: وأنَّى لك ذلك الموضع...

«ما فيه إلا قبري... وقبر أبي بكر وعمر... وفيه عيسى ابن مريم... عليهما الصلاة والسلام.»».

«وادفنّي مع صواحِبي» أرادت بذلك بقية نساء النبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... المدفونات في البقيع...

«لا أُزَكَّى به أبَدًا» أي لا يُثنى عليّ بسببه...

فيه معنى التواضع...

كرهت عائشة أن يقال إنها مدفونة مع النبي... ﷺ...

فيكون في ذلك تعظيمًا لها!!!.

عائشة...

في خلافة أبيها...
أبي بكر الصِّدِّيق...؟!

ليس هناك ضرورة... تدعو إلى الحديث عن أحداث الخليفة الأول... والد عائشة... أبي بكر... رضي اللّه عنه...

فهي مستفيضة ومعلومة...

وقد عاشتها عائشة... كما عاشها الصحابة والصحابيات...

تشهدها في المدينة ساعة بساعة... لا تغيب عن أخبارها...

فالخليفة هو أبوها... والأمور تجري بجوارها... حيث كانت في حجرتها الملاصقة للمسجد... حيث تدور الأمور.. وتُدَبَّر الوقائع...

وفاة أبيها... أبي بكر؟!

كانت وفاة أبي بكر... رضي اللّه عنه... لثماني ليال بقين من جمادى الآخرة... ليلة الثلاثاء... وهو ابن ثلاث وستين سنة...

وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال...

وذُفن ليلًا... وصلّى عليه عمر بن الخطاب... في مسجد رسول اللّه... ﷺ... وكبّر عليه أربعًا...

أبو بكر يُدْفَن مع النبيّ... ﷺ...؟!

وحُمل على السرير الذي حُمل عليه رسول اللّه... ﷺ...

ودخل قبره ابنُه عبد الرحمٰن... وعمر... وعثمان... وطلحة...

وجُعل رأسه عند كتفي النبي... ﷺ...

وألصقوا لحده بلحد النبي... ﷺ...
وجُعل قبره مثل قبر النبي... ﷺ... مسطَّحًا...
وأقامت عائشة عليه النوح...
فنهاهنّ عن البكاء عمر... فأبين...
فقال لهشام بن الوليد: ادخلْ... فأخرِجْ إليّ ابنة أبي قُحافة...
فأخرج إليه أمّ فروة ابنة أبي قحافة...
فعلاها بالدِّرّة ضربات...
فتفرق النّوح حين سمعن ذلك...

أولاد أبي بكر؟!

تزوج في الجاهلية... قُتَيْلة بنت عبد العُزّى بن عامر بن لُؤَيّ... فولدت له عبدالله وأسماء...

وتزوج أيضًا في الجاهلية أمّ رومان... واسمها دَعْد بنت عامر بن عميرة الكنانيّة...

فولدت له عبد الرحمٰن... وعائشة...

وتزوج في الإسلام أسماء بنت عُمَيس... وكانت قبله عند جعفر بن أبي طالب...

فولدت له محمّد بن أبي بكر...
وتزوج أيضًا في الإسلام... حبيبة بنت خارجة بن زيد الأنصاريّة...
فولدت له بعد وفاته أمّ كلثوم...

عائشة تحضر أبا بكر وهو يعالج الموت؟!

قال أبو بكر بن حفص بن عمر:
لما حضرت أبا بكر الوفاة...
حضرته عائشة وهو يعالج الموت فتمثّلت:

لعمرك ما يغني الثّراءُ عن الفتى إذا حشرجتْ يومًا وضاقَ بها الصَّدرُ

فنظر إليها كالغضبان ثمّ قال:

ليس كذلك... ولكن ﴿جَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقِّ ذلِكَ ما كُنتَ منهُ تَحيدُ﴾...

عائشة تُنفِّذ وصية أبيها؟!

إنّي قد كنتُ نحلتُكِ حائط كذا...

وفي نفسي منه شيء...

فردّيه على الميراث...

فردّته!!!.

فقال: إنّما هما أخواكِ وأختاكِ...

قالت: مَنِ الثانية؟!... إنما هي أسماء؟!.

قال: ذاتُ بطن بنت خارجة...

يعني زوجته... وكانت حاملًا... فولدت أم كلثوم بعد موته...

فإذا متُّ فابعثي بالجميع إلى عمر؟!

وقال لها:

أما إنّا منذ ولينا أمر المسلمين... لم نأكل لهم دينارًا ولا درهمًا...

ولكنّا قد أكلنا من جريش طعامهم... ولبسنا من خشن ثيابهم...

وليس عندنا من فيء المسلمين إلّا هذا العبد... وهذا البعير... وهذه القطيفة...

فإذا متُّ... فابعثي بالجميع إلى عُمر...

عمر يبكي؟!

فلمّا مات بعثته إلى عمر...

فلمّا رآه بكى... حتى سالت دموعه إلى الأرض...

وجعل يقول: رحم اللّه أبا بكرا...

لقد أتعب مَنْ بعده!...

ويكرّر ذلك... وأمر برفعه...

فقال عبد الرحمٰن بن عوف: سبحان اللّه!... تسلب عيال أبي بكر عبدًا وناضحًا وسحق قطيفة ثمنها خمسة دراهم؟!... فلو أمرتَ بردّها عليهم...

فقال: لا والذي بعث محمدًا... ﷺ... لا يكون هذا في ولايتي... ولا خرج أبو بكر منه... وأتقلّده أنا...

وأمر أبو بكر أن يُردّ جميع ما أخذ من بيت المال لنفقته بعد وفاته!!!.

عائشة...

في خلافة...

عُمَر...؟!

أخرج البخاريّ في صحيحه...

«عن عَمْرِو بن مَيْمُونِ الأَوْدِيِّ...

«قال: رَأَيْتُ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ... رضي اللّهُ عنهُ... قال:

«يا عَبْدَ اللّهِ بنَ عُمَرَ...

«اذْهَبْ إلَى أُمِّ المؤمنين عائشَةَ... رضي اللّهُ عَنها... فقُلْ:

«يَقْرَأُ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ علَيْكِ السَّلَامَ...

«ثُمَّ سَلْهَا أنْ أُدْفَنَ مَعَ صاحِبَيَّ...

«قالَتْ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي... فَلَأُوثِرَنَّهُ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسي...

«فلَمَّا أَقْبَلَ قال لَهُ: ما لَدَيْكَ؟...

«قال: أذِنَتْ لَكَ يا أميرَ المؤمنينَ...

«قالَ: ما كَانَ شَيْءٌ أَهَمَّ إلَيَّ مِنْ ذَلِكَ المَضْجَعِ...

«فإذا قُبِضْتُ فاحْمِلُوني...

«ثُمَّ سَلِّمُوا...

«ثُمَّ قُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ...

«فإنْ أَذِنَتْ لِي... فَادْفِنُونِي...

«وإلَّا فَرُدُّونِي إلَى مَقَابِرِ المسلمينَ...»

[من حديث طويل أخرجه البخاريّ في كتاب الجنائز]

«مع صاحِبَيَّ» أراد بصاحبيه النبي... صلى اللّهُ تعالى عليه وسلم... وأبا بكر... رضي اللّه تعالى عنه...

«كنتُ أريده» أي كنت أريد الدفن مع صاحبيه...

«فَلَأُوثِرَنَّهُ» من الإيثار... يقال آثرت فلانًا على نفسي... إذا اختاره على نفسه وفضله عليه...

«فلمّا أقبلَ» أي عبد اللّه بن عُمر...

«ما لديْكَ؟» أي ما عندك من الخبر...

«أذِنَتْ لكَ» أي عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... أذنت له بالدفن مع صاحبيه...

«من ذلك المضجع» أراد به مضجع النبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... ومضجع أبي بكر... رضي اللّه تعالى عنه...

«فإذا قُبِضْتُ» على صيغة المجهول...

«وإلّا» وإن لم تأذن لي...

ما يستفاد منه؟!

فيه الحرص على مجاورة الصالحين في القبور... طمعًا في إصابة الرحمة إذا نزلت عليهم... وفي دعاء مَن يزورهم من أهل الخير...

وفيه أنَّ مَن بعث رسولًا في حاجة مهمة... أنّ له أن يسأل الرسول قبل وصوله إليه... ولا يعد ذلك من قلة الصبر... بل من الحرص على الخير...

*** * ***

أقول... رُبَّ قائل يقول: أهذا كل ما عندك عن حياة عائشة في عهد عُمر؟!...

وأقول: كانت خلافة عمر نحو عشر سنين ونصف...

وكانت أحداثها أحداثًا ضخامًا لا تسعها المجلدات الكثيرة...

ولكن أثبتنا هذه القطرة وحدها لأهميتها بالنسبة إلى حياة عائشة...

حيث آثرت عُمر... أن يدفن في بيتها... إلى جوار صاحبيه...

قالوا في وفاة عمر:

«لم يزل يذكر اللّه تعالى... ويُديم الشهادة إلى أن توفي ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة... سنة ثلاث وعشرين...

«وصلّى عليه صُهيب...

«وحُمل إلى بيت عائشة...

«ودُفن عند النبي... ﷺ... وأبي بكر...

«ونزل في قبره عثمان وعليّ والزبير وعبد الرحمٰن بن عوف وسعد.

«وعبد اللّه بن عمر...

«وكان ابن ثلاث وستين سنة وأشهر...»!!!.

عائشة...

في خلافة...

عثمان...؟!

بويع عثمان بن عفّان... بالخلافة... سنة أربع وعشرين... في المحرم منها... لثلاث مضين منه...

وكان قتله لثماني عشرة خلت... من ذي الحجة... سنة خمس وثلاثين... يوم الجمعة...

وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة... إلا اثني عشر يومًا...

وكان عمره اثنتين وثمانين سنة...

وقيل: تسعين سنة!!!.

عائشة تخرج إلى الحجّ؟!

وكانت الفتنة الكبرى... التي انتهت بمقتل عثمان...

فأين كانت أم المؤمنين حين وقوع تلك الكارثة؟!

كانت قد خرجت للحجّ...

قال الراوي:

«وخرجت عائشةُ إلى الحجّ...

«واستتبعت أخاها محمدًا...

فأبى...

«فقالت: واللّه لئن استطعتُ أن يحرمهم اللّه ما يحاولون لأفعلن...

«فقال له حنظلة الكاتب: تستتبعك أمّ المؤمنين فلا تتبعها... وتتبع ذؤبان العرب إلى ما لا يحل؟!...

«وإن هذا الأمر إن صار إلى التغالب غلبك عليه بنو عبد مناف...

«ثم رجع حنظلة إلى الكوفة وهو يقول:

عجبتُ لما يخوضُ الناسُ فيه يـرومـونَ الـخـلافـةَ أنْ تـزُولا

ولوْ زالَتْ لزالَ الخيرُ عنهمْ ولاقَوا بَعْدَها ذُلًّا ذليلا

وكانوا كاليهود وكالنّصارَى سواء كلّهم ضَلّوا السّبيلا

عثمان يأمر ابن عباس أن يحجّ بالناس؟!

«فأشرف عثمان على الناس...

«فاستدعى ابن عبّاس فأمره أن يحجّ بالناس...

«فقال: جهاد هؤلاء أحبّ إليّ من الحجّ...

«فأَقْسَم عليه...

«فانطلق...».

دم عثمان يسقط على المصحف؟!!

«فلمّا قُتِل... سقط من دمه على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾!!!.

وكان أمرُ اللّهِ... قَدَرًا مَقْدُورًا؟!

أقول: ووقع المحذور... وماجت الفتنة الكبرى كموج البحر!!

فماذا كان رأي عائشة...

أم المؤمنين فيما كان؟!

ذبحتموه كما يُذبح الكبْش؟!

قالت عائشة:

مصصتموه مصّ الإناء... ثم قتلتموه!!!

وقالت عائشة حين قُتل عثمان:
تركتموه كالثوب النقيّ من الدنس...
ثم قتلتموه!!!
وفي رواية:
«ثم قرّبتموه... ثم ذبحتموه كما يُذبح الكبش!!!.
وقالت:
قُتل مظلومًا... لعن اللّه قتلته!!.
هذا رأي.. أعظم سيدة في الأمة... وأحبهن إلى رسول اللّه... من زوجاته...
وهو يعطيك فكرة أن الأمة رجالًا ونساء... كانت لا ترى ما رَأى هؤلاء الخوارج... قتلة عثمان...
قالت أم سليم... لما سمعت بقتل عثمان:
رحمه اللّه... أما أنه لم يحلبوا بعده إلّا دمًا!!!.

عائشة...

في خلافة...

عليّ...؟!

بويع الإمام عليّ... بالخلافة... يوم الجمعة... لخمس بقين من ذي الحجة... سنة خمس وثلاثين... يوم الجمعة...

فكيف سارت الأحداث؟!

وماذا كان موقف عائشة منها؟!

عائشة... وطَلْحة... والزُّبَيْر...؟!

لم يصطدم...

خليف من الخلفاء الراشدين الأربعة... بمثل ما اصطدم به... أمير المؤمنين...

خلاف هنا وخلاف هناك...

وزلازل هنا وزلازل هناك...

ثم كانت الطامة الكبرى... أن اجتمع عليه... طلحة... والزبير... وعائشة... فكيف كانت الأحداث؟!.

«فبينما هم كذلك على التجهّز لأهل الشام..

«أتاهم الخبر... عن طلحة... والزبير... وعائشة... وأهل مكة بنحو آخر... وأنهم على الخلاف...

«فأعلم عليّ الناس ذلك...

«وأن عائشة... وطلحة... والزبير... قد سخطوا إمارته... ودعوا الناس إلى الإصلاح...

«وقال: سأصبر ما لم أخف على جماعتكم... وأكفّ إن كفّوا... وأقتصر

على ما بلغني...

«ثم أتاه أنهم يريدون البصرة... فسرّه ذلك...

«وقال: إن الكوفة فيها رجال العرب وبيوتاتهم...»!!!.

مفاجأة... من ابن عُمر؟!

«فأصبح عليّ... فقيل له: **حدث الليلة حدث... هو أشد من طلحة والزبير وعائشة ومعاوية...**

«قال: وما ذاك؟...

«قالوا: خرج ابن عمر إلى الشام... فأتى السوق... وأعدَّ الظهر والرجال... وأخذ لكل طريق طلابًا... وماج الناس...

فسمعت أم كلثوم... فأتت عليًّا... فأخبرته الخبر...

«فطابت نفسه... وقال: **انصرفوا... والله إنه عندي ثقة...**

«فانصرفوا...»!!!.

والله... لأطلبن... بدمه؟!

«وكان سبب اجتماعهم بمكة... أن عائشة كانت خرجت إليها... وعثمان محصور... ثم خرجت من مكة تريد المدينة...

«فلما كانت بسَرِف... لقيها رجل من أخوالها... فقالت له: مَهْيَم...

«قال: قُتل عثمان... وبقوا ثمانيًا...

«قالت: ثم صنعوا ماذا؟..

«قال: اجتمعوا على بيعة عليّ...

«فقالت: ليت هذه انطبقت على هذه... إن تمّ الأمر لصاحبك!..

«ردّوني... ردوني!..

«فانصرفت إلى مكة وهي تقول: **قُتل والله عثمان مظلومًا... والله لأطلبن بدمه!..**

«فقال لها: ولمَ.. واللّه إن أوّل من أمال حرفه لأنتِ...

«قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه... وقد قلتُ وقالوا... وقولي الأخير خير من قولي الأول...»!!!.

بنو أمية... يتجمعون... حول عائشة؟!

«فانصرفت إلى مكة... فقصدت الحِجر... فسترت فيه...

«فاجتمع الناسُ حولها... فقالت:

«أيها الناس... إن الغوغاء من أهل الأمصار... وأهل المياه... وعبيد أهل المدينة... اجتمعوا على هذا الرجل... المقتول ظلمًا بالأمس...

«ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه... وقد استُعمل أمثالهم قبله...

«ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم... ونزع لهم عنها...

«فلما لم يجدوا حجّة ولا عذرًا... بادروا بالعدوان... فسفكوا الدمَ الحرامَ... واستحلوا البلد الحرام... والشهر الحرام... وأخذوا المال الحرام...

«واللّه... لإصبعٌ من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم!..

«وواللّه لو أن الذي اعتدّوا به عليه كان ذنبًا لخلص منه... كما يخلّص الذهب من خَبَثِه... أو الثوب من درنَه... إذ ماصُوه كما يماصُ الثوب بالماء... (أي يغسل)»!!!.

لقد أعلنت عائشة الثورة!!!

«فقال عبد اللّه بن عامر الحضرمي... وكان عامل عثمان على مكة: ها أنا أول طالب!..

«فكان أوّل مجيب...

«وتبعه بنو أمية على ذلك...

«وكانوا هربوا من المدينة بعد قتل عثمان إلى مكة... ورفعوا رؤوسهم.

«وكان أوّل ما تكلموا بالحجاز... وتبعهم سعيد بن العاص... والوليد بن

عُقبة... وسائر بني أمية»...!!!.

طلحة والزبير... ينضمان... إلى عائشة؟!

«وقدم طلحة... والزبير... من المدينة...

«فلقيا عائشة... فقالت: ما وراءكما؟..

«فقالا: إنّا تحمّلنا هُرّابًا من المدينة... من غوغاء وأغراب...

وفارقنا قومًا حيارى... لا يعرفون حقًّا... ولا يُنكرون باطلاً... ولا يمنعون أنفسهم...

«فقالت: انضهوا إلى هذه الغوغاء...

«فقالوا: نأتي الشام...

«فقال ابن عامر: قد كفاكم الشام معاوية... فأتوا البصرة... فإن لي بها صنائع... ولهم في طلحة هوًى...

«قالوا: قبّحك اللّه!.. فواللّه ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب... فهلا أقمت كما أقام معاوية فنُكفى بك... ثم نأتي الكوفة فنسدّ على هؤلاء القوم المذاهب؟..

«فاستقام الرأي على البصرة...

«فأجابتهم إلى ذلك...»!!!.

مَن أراد... ثأر عثمان... فليأتِ؟!

«ونادى مناديها: إنّ أمّ المؤمنين... وطلحة... والزبير... شاخصون إلى البصرة...

«فمن أراد إعزاز الإسلام... وقتال المُحلّين... والطلب بثأر عثمان... وليس له مركب وجهاز فليأتِ...

«فحملوا ستمائة على ستمائة بعير... وساروا في ألف...

«ولحقهم الناس... فكانوا في ثلاثة آلاف رجل...

يوم النحيب؟!

«وخرجت عائشة ومن معها من مكة...

«وتبعها أمهات المؤمنين... إلى ذات عِرق... فبكوا على الإسلام...

«فلم يُرَ يوم كان أكثر باكيًا وباكية من ذلك اليوم... فكان يسمَّى يوم النحيب...»!!!.

قتلُ عثمان... أهون من خروجكِ من بيتك؟!

«فارتحلوا نحو البصرة...

«فأقبلت عائشة فيمن معها... حتى انتهوا إلى المربَد... فدخلوا من أعلاه... ووقفوا حتى خرج عثمان من حُنيف فيمن معه... وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يكون معها...

«فتكلمت عائشة... وكانت جَهْوَرية الصوت... وقالت:

«كان الناس يتجنّون على عثمان... ويُزرون على عماله... ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم...

«فننظر في ذلك فنجده بريئًا تقيًا وفيًا... ونجدهم فجرَة غَدرَة كَذبَة... وهم يحاولون غير ما يُظهرون...

«فلمّا قووا كاثروه... واقتحموا عليه داره...

«واستحلوا الدم الحرام... والشهر الحرام... والبلد الحرام... بلا تِرَة ولا عُذر...

«ألا إن مما ينبغي لا ينبغي لكم غيره... أخْذ قتلة عثمان... وإقامة كتاب الله...

فافترق أصحاب عثمان فرقتين... فرقة قالت: صدقت وبرّت... وقال الآخرون: كذبتم والله ما نعرف ما جئتم به!..

«وأقبل جارية بن قدامة وقال: يا أمّ المؤمنين... والله لقَتلُ عثمان... أهون

من خروجكِ من بيتك... على هذا الجمل الملعون... عرضة للسلاح!

«إنه قد كان لك من اللّه ستر وحرمة... فهتكتِ سترِكِ... وأبحتِ حرمتكِ!...

«إنه مَن رأى قتالكِ يرى قتلكِ!..

«لئن كنت أتيتنا طائعة فارجعي إلى منزلك... وإن كنتِ أتيتنا مكرهة فاستعيني بالناس...»!!!.

ثورة شاب... على طلحة... والزبير؟!

«وخرج غلام شاب... من بني سعد... إلى طلحة والزبير... فقال:

«أما أنت يا زبير... فحواريُّ رسول اللّه... ﷺ...

«وأما أنت يا طلحة... فوقيت رسول اللّه... ﷺ... بيدك...

«وأرى أُمَّكما معكما... فهل جئتما بنسائِكما؟..

«قالا: لا...

«قال: فما أنا منكم في شيء... واعتزل...»!!!.

وهذا الشاب يمثل تمزق الشباب البريء... مما يرى من أفعال الشيوخ وأخطائهم!!!.

ثم ماذا؟!.. ثم إلى أي مصير... انتهت هذه الأمور؟!..

«ونادي منادي طلحة والزبير: **من كان فيهم أحد ممن غزا المدينة.. فليأتنا بهم... فجيء بهم...**

«فقُتلوا[1]... ولم ينجُ منهم... إلّا حرقوص بن زهير...

«وأقام طلحة والزبير... وكتبوا إلى أهل الشام بما صنعوا... وصاروا إليه...

«وكتبت عائشة إلى أهل الكوفة... بما كان منهم... وتأمرهم أن يثبطوا الناس عن عليّ... وتحثهم على طلب قتلة عثمان...

«وكتبت إلى أهل اليمامة... وإلى أهل المدينة... بما كان منهم أيضًا... وسيَّرت الكتب!!...».

---

(١) سيأتي فيما بعد... أنهم قتلوا منهم ستمائة رجل...



ألا ألف فارس... أسير بهم إلى عليّ...؟!

أخطبوط الفتنة... يهصر بأذرعه الجهنمية فحول الرجال... فلا يبصرون أين الحقّ من الأمور!!!.

«وبايع أهل البصرة... طلحة والزبير...

«فلما بايعوهما... قال الزبير: **ألا ألف فارس... أسير بهم إلى عليّ... أقتله... بياتًا أو صباحًا... قبل أن يصل إلينا؟!..**

«فلم يجبه أحد...

«فقال: إن هذه للفتنة... التي كنا نُحدَّث عنها...

«فقال له مولاه: أتسميها فتنة... وتقاتل فيها؟!..

«قال: ويلك!.. إنا نُبَصَّر... ولا نُبْصِر...

«ما كان أمر قط إلّا وأنا أعلم موضع قدمي فيه... غير هذا الأمر... فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر؟!...

«وقال علقمة بن وقّاص الليثي: لما خرج طلحة والزبير وعائشة...

«رأيت طلحة... وأحب المجالس إليه أخلاها... وهو ضارب بلحيته على صدره...

«فقلت: يا أبا محمد... أرى أحب المجالس إليك أخلاها... وأنت ضارب بلحيتك على صدرك... إن كرهت شيئًا فاجلس...

«فقال لي: يا علقمة... بينا نحن يد واحدة على من سوانا... إذ صرنا جبلين من حديد... يطلب بعضُنا بعضًا...»!!!.

ها هما عملاقان... من عمالقة الحقّ...

كلاهما مبشَّر بالجنّة...

الزبير يقول: لا أدري... أمقبل أنا... أم مدبر؟!!...

وطلحة يقول: بينا نحن يد واحدة... إذ صرنا... يطلب بعضنا بعضًا؟!!

أخطبوط رهيب عجيب...

الكل يضطرب بين أذرعه... لا يعرف كيف الخلاص!!!.

معركة...

الجمل...؟!

قال الراوي:

«... مسير عليّ... إلى البصرة... والوقعة...

«قد ذكرنا فيما تقدّم... تجهز عليّ إلى الشام...

«فبينما هو على ذلك... أتاه الخبر... عن طلحة والزبير وعائشة... من مكة بما عزموا عليه...

«فلما بلغه ذلك... دعا وجوه أهل المدينة... وخطبهم...

«إن آخر هذا الأمر... لا يصلح إلّا بما صلح به أوّله...

«فانصروا اللّه ينصركم... ويصلح لكم أمركم...

«فتثاقلوا...

«فلما أراد عليّ... المسير إلى البصرة... وكان يرجو أن يدرك طلحة والزبير... فيردهما قبل وصولهما إلى البصرة... أو يوقع بهما...

«وسار عليّ من المدينة... في تعبيته التي تعبّاها لأهل الشام... آخر شهر ربيع الآخر... سنة ست وثلاثين...

«وسار حتى انتهى إلى الربذة...

«فلما انتهى إليها أتاه خبر سبقهم...

«فأقام بها... يأتمر ما يفعل...»!!!.

فما معنى هذا؟!...

معناه أن عليًا كان يعد العدة للشام... إلى معاوية...

فلما فاجأته أحداث طلحة والزبير وعائشة... اضطر أن يبدأ بهم!!!.

الحسَن... يشير على... أبيه؟!

«وأتاه ابنه الحسن... في الطريق... فقال له:

«لقد أمرتك فعصيتني... فتُقتل غدًا... بمضيعة... لا ناصر لك...

«فقال له عليّ: إنك لا تزال تخنّ خنين الجارية... وما الذي أمرتني فعصيتك؟!...

«قال: أمرتك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة... فيُقتل ولستَ بها...

«ثم أمرتُك يوم قُتل... أن لا تبايَع حتى تأتيك وفود العرب... وبيعة أهل كلّ مصر... فإنهم لن يقطعوا أمرًا دونك... فأبيتَ عليّ...

«وأمرتُك حين خرجَتْ هذه المرأة وهذان الرجلان... أن تجلس في بيتك... حتى يصطلحوا... فإن كان الفساد كان على يد غيرك... فعصيتني في ذلك كله...

فقال: أي بُنيّ!..

«أما قولك: لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان... فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به...

«وأما قولك: لا تبايع حتى يبايع أهل الأمصار... فإن الأمر أمر أهل المدينة... وكرهنا أن يضيع هذا الأمر... ولقد مات رسول الله... ﷺ... وما أرى أحدًا أحق بهذا الأمر مني... فبايع الناس أبا بكر الصديق فبايعتُه... ثم إن أبا بكر انتقل إلى رحمة الله... وما أرى أحدًا أحق بهذا الأمر مني... فبايع الناسُ عمر فبايعتُه... ثم إن عمر انتقل إلى رحمة الله... وما أرى أحدًا أحق بهذا الأمر مني... فجعلني سهمًا من ستة أسهم... فبايع الناسُ عثمان فبايعتُه...

«ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه... وبايعوني طائعين غير مكرهين...

«فأنا مقاتل من خالفني بمن أطاعني... حتى يحكم الله... وهو خير الحاكمين...

«وأما قولك أن أجلس في بيتي... حين خرج طلحة والزبير... فكيف لي بما قد لزمني... أو من تريدني؟..

«أتريدني أن أكون كالضبع التي يحاط بها ويقال ليست ههنا حتى يحل عرقوباها حتى تخرج؟!...

«وإذا لم أنظر فيما يلزمني من هذا الأمر ويعنيني فمن ينظر فيه؟!...

«فكفّ عنك يا بُنيّ...»!!!

حوار سياسي... على أعلى مستوى...

الحسَن يرى رأيًا...

وعليّ... يبين له ما خفي عليه من الأمور!!!.

أين تذهب بنا؟!

«ولمّا قدم عليّ الرَّبَذة... وسمع بها خبر القوم...

«أرسل منها إلى الكوفة... محمد بن أبي بكر الصديق... ومحمد بن جعفر... وكتب إليهم:

«إني اخترتكم على الأمصار... وفزعتُ إليكم لما حدث...

«فكونوا لدين الله أعوانًا وأنصارًا... وانهضوا إلينا...

«فالإصلاح نريد... لتعود هذه الأمة إخوانًا...

«فمضيا... وبقي عليّ بالربذة...

«وقام في الناس فخطبهم:

«إن الله تبارك وتعالى... أعزّنا بالإسلام... ورفعنا به وجعلنا به إخوانًا... بعد ذلة وقلة... وتباغض وتباعد...

«فجرى الناس على ذلك ما شاء الله... الإسلام دينهم... والحق فيهم... والكتاب إمامهم...

«حتى أصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان.. لينزغ بين هذه الأمة!..

«ألا إن هذه الأمة لا بدّ مفترقة... كما افترقت الأمم قبلها...

«فنعوذ بالله من شر ما هو كائن...

«ثم عاد ثانية... وقال:

«إنه لا بدّ مما هو كائن أن يكون...

«ألا وإن هذه الأمة ستفترق... على ثلاث وسبعين فرقة...

«شرّها فرقة تنتحلني... ولا تعمل بعملي...

«وقد أدركتم ورأيتم... فالزموا دينكم... واهدوا بهديي... فإنه هدى نبيّكم... واتبعوا سنّته... وأعرضوا عما أشكل عليكم... حتى تعرضوه على القرآن... فما عرفه القرآن فالزموه... وما أنكره فردّوه...

«وارضوا باللّه ربًا وبالإسلام دينًا... ومحمد نبيًا... وبالقرآن حكمًا وإمامًا...»!!!.

إن أمير المؤمنين... يعلم ما سوف يكون من افتراق...

إنه ناموس حتمي... يسري على كل أمّة...

ثم ماذا؟!...

«فلما أراد المسير من الربذة إلى البصرة...

«قام إليه ابنٌ لرفاعة بن رافع فقال: يا أمير المؤمنين... أيُّ شيء تريد... وأين تذهب بنا؟..

«فقال: **أما الذي نريد وننوي... فالإصلاح... إن قبلوا منّا... وأجابونا إليه...**

«قال: فإن لم يجيبونا إليه؟..

«قال: **ندعهم بعذرهم... ونعطيهم الحق ونصبر...**

«قال: فإن لم يرضوا؟..

«قال: **ندعهم ما تركونا...**

«قال: فإن لم يتركونا؟..

«قال: **امتنعنا منهم...**

«قال: فنعم إذًا...

«وسار عليّ... من الرَّبَذة...

«وأقام بذي قار... ينتظر...»!!!.

لا نقاتل أحدًا... حتى نفرغ من قتلة عثمان؟!

«وأما محمد بن أبي بكر... ومحمد بن جعفر... فأتيا أبا موسى بكتاب عليّ... وقاما في الناس بأمره...

«فلم يجابا إلى شيء...

«فلما أمسوا دخل ناس من أهل الحجى على أبي موسى فقالوا: ما ترى في الخروج؟..

«فقال: كان الرأي بالأمس ليس اليوم...

«إن الذي تهاونتم به فيما مضى... هو الذي جرّ عليكم ما ترون...

«إنما هما أمران: القعود سبيل الآخرة... والخروج سبيل الدنيا... فاختاروا...

«فلم ينفر إليه أحد...

«فغضب محمد ومحمد... وأغلظا لأبي موسى...

«فقال لهما: **والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما...**

«فإن لم يكن بدّ من قتال... لا نقاتل أحدًا... حتى نفرغ من قَتَلَة عثمان... حيث كانوا...

«فانطلقا إلى عليّ فأخبراه الخبر... وهو بذي قار...»!!!.

إن أبا موسى... أمير الكوفة.. يرفض الاستجابة لسفير عليّ... ويرفض القتال مع عليّ... ويرى الفراغ أولًا من قتلة عثمان حيث كانوا...

يرى تعقب الثوار في كل مكان... من أنحاء الدولة أولًا وقتلهم... وهو ما رآه طلحة والزبير وعائشة...

هذا أولًا... وقبل كل شيء!!!.

سفيران آخران؟!

«فقال للأشتر... وكان معه...

«اذهب أنت وابن عباس... فأصلح ما أفسدت...

فخرجا... فقدما الكوفة... فكلّما أبو موسى... واستعانا عليه بنفر من أهل الكوفة...

«فقام لهم أبو موسى وخطبهم:

«أيها الناس... إن أصحاب النبي... ﷺ... الذي صحبوه أعلم بالله وبرسوله ممن لم يصحبه...

«وإن لكم علينا لحقًّا... وأنا مؤدّ إليكم نصيحة...

«كان الرأي أن لا تستخفّوا بسلطان اللّه... وأن لا تجترئوا على اللّه... وأن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة... فتردوهم إليها... حتى يجتمعوا... فهم أعلم بمن تصلح له الإمامة...

وهذه فتنة صماء... النائم فيها خير من اليقظان... واليقظان خير من القاعد... والقاعد خير من القائم... والقائم خير من الراكب... والراكب خير من الساعي...

«فكونوا جرثومة من جراثيم العرب... فأغمدوا السيوف... وانصلوا الأسنّة... واقطعوا الأوتار... وآووا المظلوم والمضطهد... حتى يلتئم هذا الأمر... وتنجلي هذه الفتنة...

«فرجع ابن عباس والأشتر... إلي عليّ... فأخبراه الخبر...»!!!.

ما زال رأي أبي موسى... أمير الكوفة... كما هو... بل هو ينصح بالحياد... حتى تتفق الأمّة... وتنجلي هذه الفتنة!!!.

سفارة ثالثة... إلى الكوفة؟!

«فأرسل ابنه الحسن... وعمّار بن ياسر...

«وقال لعمّار: **انطلق فأصلح ما أفسدت...**

«فأقبلا حتى دخلا المسجد...

«فخرج أبو موسى... **فلقي الحسن**... فضمه إليه...

«وأقبل على عمّار فقال: يا أبا اليقظان أعدَوْت على أمير المؤمنين فيمن عدا

فأحللت نفسك مع الفُجّار؟!..

«فقال: لم أفعل ولم يسؤني.

«فقطع الحسن عليهما الكلام... وأقبل على أبي موسى فقال له: لِمَ تثبط الناس عنا؟.. فواللّه ما أردنا إلّا الاصلاح... ولا مثل أمير المؤمنين يُخاف على شيء...

«فقال: صدقت بأبي أنت وأمي... ولكن المستشار مؤتمن...

«سمعتُ رسول اللّه... ﷺ... يقول: **إنها ستكون فتنة... القاعد فيها خير من القائم... والقائم خير من الماشي... والماشي خير من الراكب...**

«وقد جعلنا اللّه إخوانًا... وقد حرّم علينا دماءنا وأموالنا...»!!!

فاختلف الناس... وتراشقوا التهم!!!.

الكوفة... تستجيب؟!

«فقام القعقاع بن عمرو... فقال:

«أمّا ما قال الأمير فهو الحق... لو أن إليه سبيلًا...

«والقول الذي هو الحقّ... أنه لا بدّ من إمارة تنظّم الناس.. وتزع الظالم... وتعزّ المظلوم...

«وهذا أمير المؤمنين... وليَ بما وليَ... وقد أنصف في الدعاء...

«وإنما يدعو إلى الإصلاح... فانفروا... وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع...»!!!.

هذا هو رأي القعقاع... وهو ما هو... **لا بدّ من إمارة تنظّم الناس...**

فيجب الاستجابة لدعوته ونصرته!!!.

«وقال عبد الخير: يا أبا موسى... هل بايع طلحة والزبير؟..

«قال: نعم...

«قال: هل أحدث عليّ... ما يحلّ به نقض بيعته؟..

«قال: لا أدري...

«قال: لا دريتَ... نحن نتركك حتى تدري...

«هل تعلم أحدًا خارجًا من هذه الفتنة؟..

«إنما الناس أربع فرق:

«عليّ بظهر الكوفة..

«وطلحة والزبير بالبصرة...

«ومعاوية بالشام...

«وفرقة بالحجاز لا غناء بها... ولا يقاتل بها عدوّ...

«فقال أبو موسى: أولئك خير الناس... وهي فتنة...

«فقال عبد الخير: غلب عليك غشك يا أبا موسى!..

«فقال سبحان بن صوحان: أيها الناس... لا بدّ لهذا الأمر وهؤلاء الناس من والٍ... يدفع الظالم ويعزّ المظلوم... ويجمع الناس...

«وهذا واليكم يدعوكم لتنظروا فيما بينه وبين صاحبيه...

«وهو المأمون على الأمة... الفقيه في الدين...

«فمن نهض إليه... فإنّا سائرون معه...

«وقام الحسن بن عليّ... فقال:

«أيها الناس... أجيبوا دعوة أميركم... وسيروا إلى إخوانكم... فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه...

«ووالله لأن يليه أولو النّهي... أمثل في العاجل والآجل... وخير في العاقبة...

«فأجيبوا دعوتنا... وأعينونا على ما ابتُلينا به وابتليتم...

«وإن أمير المؤمنين يقول:

«قد خرجت مخرجي هذا ظالمًا أو مظلومًا...

«وإني أذكر الله رجلًا رعى حقّ الله إلّا نفر...

«فإن كنت مظلومًا أعانني... وإن كنتُ ظالمًا أخذ مني...

«والله إن طلحة والزبير أول من بايعني... وأوّل من غدر... فهل استأثرتُ بمال أو بدلت حكمًا؟..

«فانفروا فمروا بالمعروف... وانهوا عن المنكر...
«فسامح إلى هذا الناس... وأجابوا... ورضوا...
«فقال الحسن: أيها الناس... إني غادٍ... فمن شاء منكم أن يخرج معي...
«فنفر معه... قريب من تسعة آلاف...
«وقيل: إن عدد من سار من الكوفة... اثنا عشر ألف رجل ورجل...
«قال أبو الطُّفيل: سمعتُ عليًّا يقول ذلك قبل وصولهم...
«فقعدت فأحصيتهم... فما زادوا رجلًا... ولا نقصوا رجلًا.»!!.

مرحباً... بأهل الكوفة؟!

«فقدموا على أمير المؤمنين... بذي قار...
«فلقيهم في ناس معه... فيهم ابن عباس... فرحب بهم... وقال:
«يا أهل الكوفة... أنتم قاتلتم ملوك العجم... وفضضتم جموعهم... حتى صارت إليكم مواريثهم... فمنعتم حوزتكم... وأعنتم الناس على عدوهم...
«وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة...
«فإن يرجعوا فذاك الذي نريد...
«وإن يلجّوا داويناهم بالرفق... حتى يبدأونا بظلم...
«ولم ندع أمرًا في صلاح إلّا آثرناه... على ما فيه الفساد إن شاء اللّه...
«واجتمعوا عنده بذي قار...»!!!.
أمير المؤمنين... يبسط الخطوط العريضة من سياسته الرشيدة...
وعلى الفور... بدأ التنفيذ...

عليّ... يرسل... القعقاع؟!

«فلما نزلوا بذي قار...
«دعا عليّ القعقاع... فأرسله إلى أهل البصرة... وقال:
«القَ هذين الرجلين...

«وكان القعقاع من أصحاب النبي... ﷺ...

«**فادعُهما إلى الألفة والجماعة...**

«**وعظّم عليهما الفُرقة...**

«**وقال له: كيف تصنع فيما جاءك منهما وليس عندك في وصاة مني؟...**

«قال: نلقاهم بالذي أمرتَ به... فإذا جاء منهم ما ليس عندنا منك فيه رأي اجتهدنا رأينا... وكلمناهم كما نسمع ونرى أنه ينبغي...

«**قال: أنت لها...»!!!.**

القعقاع... يحاور الثلاثة؟!

«فخرج القعقاع... حتى قدم البصرة...

«فبدأ بعائشة... فسلم عليها... وقال:

«**أي أُمّه... ما أشخصك... وماأقدمك هذه البلدة؟..**

«قالت: أي بُنيّ... الإصلاح بين الناس...

«قال: فابعثي إلى طلحة والزبير... حتى تسمعي كلامي وكلامهما...

«فبعثت إليهما... فجاءا...

«فقال لهما: إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها... فقالت الإصلاح بين الناس... فما تقولان أنتما... أمتابعان أم مخالفان؟..

«قالا: متابعان...

«قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟... فواللّه لئن عرفناه لنُصلحن.. ولئن أنكرناه لا نصلح...

«**قالا: قتلة عثمان... فإن هذا إن تُرك كان تركًا للقرآن...**

«قال: قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة... وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم... **قتلتم ستمائة رجل... فغضب لهم ستة آلاف... واعتزلوكم... وخرجوا من بين أظهركم...** وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة

آلاف... فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون... وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأُديلوا عليكم فالذي حذرتم... وقويتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون... وإن أنتم منعتم مضر وربيعة من هذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نُصرة لهؤلاء... كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير...»!!!.

الفريقان... يميلان... إلى الصلح؟!

«قالت عائشة: فماذا تقول أنت؟..

«قال: أقول: إن هذا الأمر دواؤه التسكين... فإذا سكن اختُلجوا...

«فإن أنتم بايعتمونا... فعلامة خير... وتباشير رحمة... ودرك بثأر...

«وإن أنتم أبيتم إلّا مكابرة هذا الأمر واعتسافه... كانت علامة شرّ وذهاب هذا المال...

«فآثروا العافية تُرزقوها...

«وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم...

«ولا تعرّضونا للبلاء... فتعرّضوا له... فيصرعنا وإياكم...

«وأيم اللّه... إني لأقول هذا القول وأدعوكم إليه!... وإني لخائف أن لا يتم حتى يأخذ اللّه حاجته من هذه الأمّة التي قلّ متاعها... ونزل بها ما نزل...

«فإن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يُقدّر...

«وليس كقتل الرجل الرجل... ولا النفر الرجل... ولا القبيلة الرجل...

«قالوا: قد أصبتَ وأحسنتَ... فارجع... فإن قدم عليّ وهو على مثل رأيك... صلح هذا الأمر...

«فرجع إلى عليّ... فأخبره... فأعجبه ذلك...

«وأشرف القوم على الصلح...

«ولا يخطر لهم قتالهم على بال...»!!!.

إن كلام القعقاع هنا... كلام نفيس... لا يصدر إلّا من رجل خبير بالحرب

والسياسة... إنه ينبههم أن الذي حدث يعتبر ثورة... شارك فيها... أقلية من أقطار عديدة...

ومحاولة قتل هؤلاء جميعًا... أمر يؤدي إلى زيادة اشتعال الثورة... لأنهم ليسوا مجرد أفراد... وإنما هم يمثلون اتجاهات عريضة في الأمة...

فقتلهم يؤدي إلى زيادة انفجارات القوى الثائرة!!!.

رأي عظيم... من قائد مجرّب عظيم...

كان له الأثر العميق في تفكير الطرفين!!!.

مؤامرة... يدبرها الثوار... سرًّا؟!

فلما أحس قتلة عثمان... أن المعسكرين أوشكوا على الصلح... رعبوا واجتمعوا يتناقشون ماذا يفعلون؟..

فلو وقع الصلح بين الطرفين المتنازعين كان هذا معناه أنهم سيتفقون على قتلهم... ثأرًا لعثمان...

قال الراوي:

«فاجتمع نفر منهم... فتشاوروا فقالوا: ما الرأي؟..

«وهذا عليّ... وهو والله أبصر بكتاب الله... ممن يطلب قتلة عثمان... وأقرب إلى العمل بذلك... وهو يقول ما يقول... ولم ينفر إليه سواهم والقليل من غيرهم... فكيف به إذا شامّ القوم وشامّوه... ورأوا قلتنا في كثرتهم... وأنتم والله ترادون وما أنتم بالحي من شيء!..

«فقال الأشتر: قد عرفنا رأي طلحة والزبير فينا... وأما عليّ فلم نعرف رأيه إلى اليوم... ورأي الناس فينا واحد... فإن يصطلحوا مع عليّ فعلى دمائنا...

«فهلمّوا بنا نثب على عليّ... فنلحقه بعثمان... فتعود فتنة يُرضى منا فيها بالسكون...»!!!.

هكذا بلغ تفكير الثوار؟!.. يُقتل عليّ كذلك... لينشغلوا به عنهم!

«فقال عبد الله بن السوداء: بئس الرأي رأيت... **أنتم يا قتلة عثمان بذي قار...**

ألفان وخمسمائة... وهذا طلحة وأصحابه في نحو خمسة آلاف... إلى أن يجدوا إلى قتالكم سبيلًا...»!!!.

وما زالوا يتداولون أمرهم... حتى انتهوا إلى قرار خطير...

«**يا قوم إن عزّكم في خلطة الناس... فإذا التقى الناس غدًا... فأنشبوا القتال... ولا تفرغوهم للنظر...**

«**ويشغل اللّه عليًا وطلحة والزبير... ومن رأى رأيهم عما تكرهون...**

«**فأبصروا الرأي... وتفرّقوا عليه... والناس لا يشعرون...»!!!.**

هذه هي المؤامرة التي دبرها قتلة عثمان... دفاعًا عن أنفسهم... أن يشعلوا الحرب... فينشغل الناس عنهم!!!.

عليّ... وطلحة... والزبير... يحاور بعضهم بعضًا؟!

«فلما تراءى الجمعان... خرج الزبير على فرس عليه سلاح...

«فقيل لعليّ: هذا الزبير...

«فقال: **أما إنّه أحرى الرجلين... إن ذُكّر باللّه تعالى أن يذكر...**

«وخرج طلحة... فخرج إليهما عليّ... حتى اختلفت أعناق دوابهم...

«فقال عليّ: **لعمري... قد أعددتما سلاحًا وخيلًا ورجالًا... إن كنتما أعددتما عند اللّه عذرًا... فاتّقيا اللّه ولا تكونا ﴿كالتي نَقَضَتْ غَزْلها مِنْ بعدِ قوةٍ أنكاثًا﴾...**

«**ألم أكن أخاكما في دينكما... تحرمّان دمي... وأحرّم دمكما... فهل من حدث أحلّ لكما دمي؟..**

«قال طلحة: أَلَّبْتَ على عثمان...

«قال عليّ: **﴿يَوْمَئذٍ يُوَفِّيهِمُ اللّهُ دينَهُمُ الحَقَّ﴾...**

«يا طلحة... تطلب بدم عثمان... فلعن اللّه قتلة عثمان!..

«يا طلحة... أجئت بعِرْس رسول اللّه... ﷺ... تقاتل بها... وخبأتَ عِرسَك في البيت؟!..

«أما بايعتني؟!..

«قال: بايعتك والسيف على عنقي...

«فقال عليّ للزبير: يا زبير... ما أخرجك؟..

«قال: أنتَ... ولا أراك لهذا الأمر أهلًا... ولا أولى به منّا...

«فقال له عليّ: ألستُ له أهلًا بعد عثمان؟!..

«قد كنّا نعدّك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنُك ابن السوء ففرّق بيننا...

«وذكّره أشياء... وقال له:

«تذكر يوم مررتَ مع رسول اللّه... ﷺ... في بني غنم... فنظر إليّ فضحك وضحكت إليه... فقلتَ له لا يدع ابن أبي طالب زهوه... فقال لك رسول اللّه... ﷺ... ليس به زهو... لتقاتلنه وأنت ظالم له...

«قال: اللهم نعم... ولو ذكرتُ ما سرت مسيري هذا... واللّه لا أقاتلك أبدًا...

«فانصرف عليّ إلى أصحابه فقال:

أمّا الزبير... فقد أعطى اللّه عهدًا أن لا يقاتلكم...»!!!.

شيء رائع... أن يرجع الزبير عن قتال أخيه... وموقف منه محمود!!

خشيتَ رايات... ابن أبي طالب... فجبُنتَ؟!

«ورجع الزبير إلى عائشة... فقال لها: ما كنتُ في موطن منذ عقلتُ إلّا وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا...

«قالت: فما تريد أن تصنع؟..

«قال: أريد أن أدعهم وأذهب...

«قال له ابنه عبد اللّه: جمعتَ بين هذين العارين... حتى إذا حدّد بعضهم لبعض... أردتَ أن تتركهم وتذهب... لكنك خشيتَ رايات ابن أبي طالب... وعلمتَ أنها تحملها فتية أنجاد... وأن تحتها الموت الأحمر فجبنت...

«فأحفظه ذلك... وقال: إني حلفتُ أن لا أقاتله...

«قال: كفِّرْ عن يمينك... وقاتِله...

«فأعتق غلامه مكحولًا...»!!!
وأفسد عبدالله... على الزبير اتجاهه... وردّه عن اتفاقه مع عليّ!!!.

الثوّار... يشعلون... النار؟!

«ولما خرج طلحة والزبير...
«نزلت مضر جميعًا وهم لا يشكّون في الصلح...
«ونزلت ربيعة فوقهم وهم لا يشكون في الصلح...
«ونزلت اليمن أسفل منهم ولا يشكون في الصلح...
«وعائشة في الحُدّان... والناس بالزابوقة على رؤسائهم هؤلاء... وهم ثلاثون ألفًا...
«وردّوا حكيمًا ومالكًا إلى عليّ... إننا على ما فارقنا عليه القعقاع...
«ونزل عليّ بحيالهم...
«فنزلت مضر إلى مضر...
«وربيعة إلى ربيعة...
«واليمن إلى اليمن...
«فكان بعضهم يخرج إلى بعض لا يذكرون إلّا الصلح...
«وكان أصحاب عليّ عشرين ألفًا...
«وخرج عليّ وطلحة والزبير... فتوافقوا...
«فلم يروا أمرًا أمثل من الصلح ووضع الحرب...
«فافترقوا على ذلك...
«فباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية التي أشرفوا عليها... والصلح...»!!!
هذا هو الجوّ الذي كان سائدًا بين المعسكرين... أخوة... ورغبة في الصلح!!!.
وهذا شيء لا يريده قتلة عثمان...
فتحركوا سريعًا... ونفّذوا جريمتهم الخبيثة... فماذا فعلوا؟!..
«وبات الذين أثاروا أمر عثمان... بشرّ ليلة... وقد أشرفوا على الهلكة...

«وباتوا يتشاورون...
«فاجتمعوا على إنشاب الحرب...
«فغَدَوا مع الغَلَس... وما يشعر بهم...
«فخرجوا متسلّلين وعليهم ظلمة...
«فقصد مضرهم إلى مضرهم...
«وربيعتهم إلى ربيعتهم...
«ويمنهم إلى يمنهم...
«فوضعوا فيهم السلاح...
«فثار أهل البصرة...
«وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين أتوهم...»!!!

ونجح قتلة عثمان في مخططهم... وأشعلوا الحرب بين الجميع!!!

عليّ يقول: ما هذا؟!

«وبعث طلحة والزبير إلى الميمنة... وهم ربيعة... أميرًا عليها... عبد الرحمٰن بن الحرث...

«وإلى الميسرة... عبد الرحمٰن بن عتّاب...

«وثبتا في القلب... وقالا: ما هذا؟!..

«قالوا: طرقنا أهلُ الكوفة ليلًا...

«فقالا: قد علمنا أن عليًا غير منته حتى يسفك الدماء... وأنه لن يطاوعنا...

«فسمع عليّ... وأهل الكوفة... الصوت...

«وقد وضع السبئية[1]... رجلًا قريبًا منه... يخبره بما يريد...

«فلما قال عليّ: ما هذا؟..

«قال ذلك الرجل: ما شعرنا إلّا وقوم منهم قد بيّتونا... فرددناهم فوجدنا القوم على رِجْل... فركبونا... وثار الناس...

---

(١) أتباع عبد الله بن سبأ...

«فأرسل عليّ... صاحب الميمنة إلى الميمنة... وصاحب الميسر إلى الميسرة وقال:

«لقد علمتُ أن طلحة والزبير... غير منتهيين حتى يسفكا الدماء... وأنهما لن يطاوعانا... والسبئية لا تفتر إنشابًا...

«ونادى عليّ في الناس: كفّوا فلا شيء...

إلّا أن النار كانت قد اشتعلت... ولم يبقَ إلّا أن تضطرم!!!

المعركة؟!

ونجح قتلة عثمان في تدبيرهم... والتحم الفريقان...

وقتل المسلمون... المسلمين...

وكان أمر اللّه... قدَرًا مقدورًا!!!

وإني أمسك عن سرد تفاصيل المعركة... رحمة بأعصاب الناس... حتى لا يفتتنوا...

فإن القوم قاتل بعضهم بعضًا... كأعنف ما يكون القتال...

وقاتلوا بين يدي جَمَل عائشة... وسقط الألوف من القتلى من الفريقين...

لماذا كل هذا...؟!!..

لا أدري... ولا أحد يدري... ولا حتى قادة المعركة يدرون؟!!!..

وإليك قطرات مما أورده الراوي عن تلك المعركة.

«وأقبل كعب بن سُور... حتى أتى عائشة فقال: أدركي فقد أبى القوم إلّا القتال... لعلّ اللّه أن يصلح بك...

فركبتْ... وألبسوا هوْدَجها الأدراع...

«فلما برزتْ من البيوت... وهي على الجمل... بحيث تسمع الغوغاء... وقفت...

«واقتتل الناس...

«وبينما عائشة واقفة... إذ سمعت ضجة شديدة... فقالت: ما هذا؟..

«قالوا: ضجّة العسكر...
«قالت: بخير أو بشرّ...
«قالوا: بشرّ...
«فما فجأها إلّا الهزيمة...»!!!
يكفي هذا عن المعركة... لأن ذكر تفاصيلها يسوء كل مؤمن ومؤمنة!!
وقُتل.. الزبير؟!!
وقُتل.. طلحة؟!!
في أي شيء قُتلا؟!.. اللّه أعلم!!!
قال الراوي:
«ما رأيتُ مثل يوم الجمل...
«ما ينهزم منّا أحد...
«وما نحن إلّا كالجبل الأسود...
«وما يأخذ بخطام الجمل أحد إلّا قُتِل...
«حتى ضاع الخطام...
«ونادى عليّ: اعقروا الجمل... فإنه إن عُقر تفرقوا...
«فضربه رجل فسقط...»!!!
ماذا كان حصاد... هذه المعركة؟!!
«وكان جميع القتلى... عشرة آلاف...
«نصفهم من أصحاب عليّ...
«ونصفهم من أصحاب عائشة...»!!!
عشرة آلاف قتيل... من خيرة فرسان الإسلام...
قُتل بعضهم بسيف بعض!!!
فأي فتنة... كانت تلكم الفتنة؟!!!.

أمير المؤمنين عليّ...
يكرّم...
أم المؤمنين عائشة...؟!

قال الراوي:

«فلما انهزموا أمر عليّ مناديًا فنادى:

«ألا لا تتبعوا مدبرًا...

«ولا تجهزوا على جريح...

«ولا تدخلوا الدورَ...»!!!

هذه أخلاق عليّ العليا... ما دام الغرض قد تحقق.. فينبغي معاملتهم كإخوة... من فرّ منهم فاتركوه.. ومن كان جريحًا فدعوه... ومن هرب إلى الدور فلا تتعقبوه!!!

أخلاق رفيعة... لا يفهمها أكثر الناس!!!.

ماذا صنع بأم المؤمنين... عائشة... رضي اللّه عنها؟!...

«وأمر عليّ نفرًا... أن يحملوا الهودج من بين القتلى...

«وأمر أخاها محمد بن أبي بكر... أن يضرب عليها قبة...

«وقال: انظر... هل وصل إليها شيء من جراحة؟..

«فأدخل رأسه في هودجها...

«فقالت: مَن أنت؟..

«فقال: أبغضُ أهلك إليك...

«قالت: ابن الخثعمية؟..

«قال: نعم...

«قالت:... الحمدللّه الذي عافاك!.».

هل وصل إليها شيء من جراحة؟..
هل جُرحت أم المؤمنين؟!...
سؤال كريم... يدل على خلق كريم!!!.

لستُ... لك... بأُمّ؟!

«وقيل: لما سقط الجمل... أقبل محمد بن أبي بكر إليه... ومعه عمّار... فاحتملا الهودج فنحياه...
«فأدخل محمد يده فيه...
«فقالت: مَن هذا؟...
«فقال: أخوك البَرّ...
«قالت: عُقَق!..
«قال: يا أُخيّة... هل أصابك شيء؟..
«قالت: ما أنت وذاك؟
«قال: فمن إذًا الضُّلال...؟
«قالت: بل الهداة...
«وقال لها عمّار: كيف رأيتِ ضرب بنيك اليوم يا أُمّاه؟..
«قالت: لستُ لك بأُمّ...
«قال: بلى وإن كرهت...
«قالت: فخرتم أن ظفرتم... **وأتيتم مثل الذي نقمتم...**
«**هيهات والله... لن يظفر من كان هذا دأبه!..»!!!.**

عليّ... يقول لعائشة... كيف أنت يا أُمّه؟!

«فأبرزوا هودجها...
«فوضعوها ليس قربها أحد...
«**وأتاها عليّ... فقال: كيف أنت يا أُمّه؟..**

«قالت: بخير...

«قال: يغفر اللّه لكِ...

«قالت: ولكَ...

«ثم أتى وجوه الناس عائشة... وفيهم القعقاع بن عمرو... فسلم عليها...

«فقالت: إني رأيت بالأمس رجلين اجتلدا وارتجزا بكذا... ذلك تعرف كوفيّك؟..

«قال: نعم... ذاك الذي قال: أعق أُمٍّ نعلم... وكذب... إنك لأبرُّ أمٍّ نعلم... ولكن لم تطاعي...

«قالت: واللّه لوددت أنّي متّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة...

«وخرج من عندها... فأتى عليّاً...

«فقال له عليّ: واللّه لوددتُ أنّي متّ من قبل اليوم بعشرين سنة..»!!.

عائشة تقول: نفس القول الذي قاله عليّ...

فما معنى هذا؟!...

معناه أن الفتنة اضطرتهم إلى ما يكرهون..

«وكان عليّ يقول ذلك اليوم... بعد الفراغ من القتال:

إليكَ أشكو عُجَري وبُجَري ومعشرًا أغشوا عليّ بصري

قتلتُ منهم مُضرًا بمُضري شفيتُ نفسي وقتلتُ مَعشري

«فلما كان الليل... أدخلها أخوها... محمد بن أبي بكر... البصرة...»!!!.

عليّ... يطوف... في القتلى؟!

«فأنزلها في دار عبداللّه بن خلف الخزاعي...

«على صفية بنت الحرث...

«وتسلّل الجرحى من بين القتلى ليلًا... فدخلوا البصرة...

«فأقام عليّ بظاهر البصرة ثلاثًا...

«وأذِنَ للناس في دفن موتاهم... فخرجوا إليهم فدفنوهم...

«وطاف عليّ... في القتلى...

«ومرّ على... طلحة بن عبيدالله... وهو صريع...

«فقال: لهفي عليك يا أبا محمد!.. إنا للّه وإنا إليه راجعون...

«واللّه لقد كنت أكره أن أرى قريشًا صرعى...

«أنت واللّه... كما قال الشاعر:

فتًى كان يُدنيه الغنى من صديقهِ إذا ما هو استغنى ويُبعدُه الفَقْرُ

«وجعل كلما مرّ برجل فيه خير قال: زعم من زعم أنّه لم يخرج إلينا إلّا الغوغاء... وهذا العابد المجتهد فيهم!..

«وصلّى عليّ... على القتلى من أهل البصرة والكوفة...

«وصلّى على قريش من هؤلاء وهؤلاء...

«وأمر فدُفنت الأطراف في قبر عظيم...

«وجمع ما كان في العسكر من شيء... وبعث به إلى مسجد البصرة...

«وقال: مَن عرف شيئًا فليأخذه... إلّا سلاحًا كان في الخزائن عليه سمة السلطان...»!!!.

هذه أخلاق عليّ...

صلّى على جميع القتلى... مَن كان معه... ومَن كان عليه...

وتأسف على قائد المعركة ضدّه... طلحة بن عبيداللّه...

وردّ السلاح إلى أصحابه... مَن عرف شيئًا فليأخذه...

وترك الجرحى يتسلّلون إلى البصرة... ولم يتعقبهم... وقد كانوا ألوفًا...

غاية الكرم... وغاية الرحمة!!!.

الجميع... يبايعون؟!

«ثم دخل عليّ... البصرة... يوم الاثنين... فبايعه أهلها على راياتهم... حتى الجرحى والمستأمنة...

«وأمّر عليّ على البصرة... ابن عباس... وولّى زيادًا على الخراج وبيت المال...»!!!.

يا عليّ... يا قاتل الأحبّة؟!

«ثم راح إلى عائشة...

«وهي في دار عبدالله بن خلف... وهي أعظم دار بالبصرة...

«فوجد النساء يبكين على عبدالله... وعثمان... ابني خلف...

«وكان عبدالله قُتل مع عائشة...

«وعثمان قُتل مع عليّ...

«وكانت صفية زوجة عبدالله مختمرة تبكي...

«فلما رأته قالت له: **يا عليّ!... يا قاتل الأحبّة... يا مفرّق الجمع!..**

«أيتم الله منك بنيك... كما أيتمت ولد عبدالله منه!..

«فلم يردّ عليها شيئًا...»!!!

موقف عجيب...

امرأة تسبّه... وتدعو عليه... وهو أمير المؤمنين... المنتصر... ولكنه يصمت ولا يتكلم!!!.

«ودخل على عائشة... فسلّم عليها وقعد عندها... ثم قال:

«جبهتنا صفيّة... أما أنّي لم أرها منذ كانت جارية...

«فلما خرج عليّ... أعادت عليه القول...

«فكفّ بغلته... وقال:

«لقد هممتُ أن أفتح هذا الباب...

«وأشار إلى باب في الدار...

«وأقتل من فيه...

«وكان فيه ناس من الجرحى... فأخبر عليّ بمكانهم... فتغافل عنهم... فسكت...

«وكان مذهبه... أن لا يقتل مدبرًا...

«ولا يُذفف على جريح...

«ولا يكشف سرّاً...

«ولا يأخذ مالًا...»!!!.

أعلى أخلاق... وأعلى مبادىء في حربه... مع الخارجين عليه!!.

وإليك أقصوصة خالدة... تكشف شيئًا من أخلاقه الرفيعة...

«ولما خرج عليّ... من عند عائشة... قال له رجل من أزد: **والله لا تغلبنا هذه المرأة!..**

«فغضب وقال:

«مه!.. لا تهتكنّ سترًا... ولا تدخلُن دارًا... ولا تهيجُن امرأة بأذى... وإن شتمن أعراضكم... وسَفّهن أمراءكم وصلحاءكم..

«فإن النساء ضعيفات...

«ولقد كنّا نؤمر بالكفّ عنهن وهن مشركات... فكيف إذا هنّ مسلمات؟...»!!!.

هذا رجل أخطأ... نَطق نُطق جاهلية... وعبّر تعبيرًا قبيحًا عن عائشة لا يليق...

فغضب عليّ غضبًا شديدًا...

وأعلن مبادئه السامية!!!.

وإليك ما هو أعجب...

«ومضى عليّ... فلحقه رجل... فقال له: يا أمير المؤمنين... قام رجلان على الباب... فتناولا من هو أمضّ شتيمة لك... من صفيّة؟...

«قال: **ويحك... لعلّها عائشة!..**

«قال: نعم... قال أحدهما: جُزيتِ عنا أُمَّنا عقوقًا... وقال الآخر: يا أُمّي توبي فقد أخطأتِ...

«فبعث القعقاع بن عمرو إلى الباب...

«فأقبل بمن كان عليه...

«فأحالوا على رجلين من أزد الكوفة... وهما: عجلان وسعد... ابنا عبداللّه...
«**فضربهما مائة سوط...**
«**وأخرجهما من ثيابهما...**»!!!

هذه هي الأقصوصة الخالدة... عليّ يأمر بجلد الرجلين... رغم أنهما من أنصاره... لأنهما قالا ما قالا لأم المؤمنين!!!.

وعائشة... تدعو لهؤلاء... وهؤلاء؟!

«وسألت عائشة يومئذ... عمّن قُتل من الناس معها... ومنهم عليها... والناس عندها...

«فكلّما نُعي واحد من الجميع... قالت: **يرحمه اللّه...**

فقيل لها: كيف ذلك؟!...

«قالت: كذلك قال رسول اللّه... ﷺ... فلان في الجنة... وفلان في الجنة...

«وقال عليّ: إنّي لأرجو أن لا يكون أحد... نقًّى قلبه للّه... من هؤلاء... إلّا أدخله اللّه الجنّة...»!!!.

هذا فقه عائشة...

وهذا فقه عليّ...

كل منهما يرجو الجنّة... لمَن قتل ممّن كان معه... أو ممّن كان عليه!!!.

أمير المؤمنين... يودّع... عائشة... أم المؤمنين؟!

«ثم جهز عليّ... عائشة... بكل ما ينبغي لها من مركب... وزاد ومتاع... وغير ذلك...

«وبعث معها كلّ من نجا ممّن خرج معها... إلّا مَن أحبّ المقام..
«واختار لها أربعين امرأة... من نساء البصرة المعروفات...
«وسيّر معها أخاها... محمد بن أبي بكر...
«فلمّا كان اليوم الذي ارتحلت فيه...

«أتاها عليّ... فوقف لها...

«وحضر الناس...

«فخرجت... وودعتهم وقالت:

«يا بَنيّ... لا يعتب بعضنا على بعض...

«إنه واللّه... ما كان بيني وبين عليّ... في القديم... إلّا ما يكون بين المرأة وبين أحمائها...

«وإنه على معتبتي لمن الأخيار...

«وقال عليّ: صدقتْ...

«واللّه... ما كان بيني وبينها إلّا ذاك... وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة...»!!!.

أخلاق هؤلاء العظماء... فوق التصور...

أم المؤمنين... تثني على أمير المؤمنين...

وأمير المؤمنين... يثني على أم المؤمنين!!!

صفاء تام... وتوقير تام... وتكريم تام!!!

والجماهير تقف إجلالًا وتعظيمًا... لأمّهم... وزوجة نبيّهم!!!

ولم يقف الأمر عند ذلك... بل ها هو عليّ... يأبى إلّا أن يسير مع موكبها أميالًا... زيادة في التكريم والحفاوة!!!.

«وخرجتْ يوم السبت... غرة رجب...

«وشيّعها أميالًا...

«وسرَّح بنيه معها... يومًا...

«فكان وجهها إلى مكة...

«فأقامت إلى الحج...

«ثم رجعت إلى المدينة...»!!!.

غاية التكريم... وغاية التوقير!!!

«وقال لها عمّار... حيث ودّعها: ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عُهد

إليك!...

«قالت: **والله... إنك ما علمتُ... لقوّال بالحقّ...**

«قال: الحمدللّه... الذي قضى على لسانك لي...»!!!.

* * *

عائشة...

في عهد...

معاوية...؟!

نحن في سنة أربعين...
في هذه السنة قُتل عليّ... في شهر رمضان... لسبع عشرة خلت منه...
وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر... وكان عمره ثلاثًا وستين سنة...

بيعة الحسَن بن عليّ؟!

وفي هذه السنة... سنة أربعين... بُويع الحسَن بن عليّ بعد قتل أبيه...

مبايعة معاوية بالخلافة؟!

وفيها بُويع معاوية بالخلافة ببيت المقدس...
وكان قبل ذلك يُدْعى بالأمير في بلاد الشام...
فلمّا قُتل عليّ... دُعي بأمير المؤمنين...
وكانت خلافة الحَسَن ستة أشهر...

تسليم الحسن بن عليّ الخلافة إلى معاوية؟!

فلما رأى الحسن تفرّق الأمر عنه كتب إلى معاوية وذكر شروطًا...
وتسلّم معاوية الأمر لخمس بقين من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين...
ولما اصطلحا... وبايع الحسنُ معاويةَ... دخل معاويةُ الكوفة وبايعه الناس...

ولحق الحسنُ بالمدينة... وأهل بيته وحشمهم...
وجعل الناس يبكون عند مسيرهم من الكوفة.

موقف عائشة... عند وفاة الحَسَن؟!

«ثم دخلت سنة تسع وأربعين...
«وفاة الحسَن بن عليّ بن أبي طالب... عليه السلام...
«في هذه السنة...
«توفي الحسن بن عليّ...
«ووصّى أن يُدفَن عند النبي... ﷺ...
«إلا أن تُخاف فتنة... فيُنقل إلى مقابر المسلمين...

عائشة تأذن أن يُدْفن الإمام الحَسَن عند النبيّ ﷺ؟!

«فاستأذن الحسينُ عائشةَ...
«فأَذِنَتْ له...
«فلمّا توفّي... أرادوا دفنه عند النبيّ... ﷺ...
«فلم يعرض إليهم سعيد بن العاص - وهو الأمير -
«فقام مروان بن الحَكَم... وجمع بني أميّة وشيعتَهم... ومنع عن ذلك...
«فأراد الحسين الامتناع...
«فقيل له: إنّ أخاك قال: إذا خفتم الفتنة ففي مقابر المسلمين...
وهذه فتنة...
«فسكت...
«وصلّى عليه سعيد بن العاص...
«فقال له الحسين: لولا أنّه سُنّة لما تركتُك تصلّي عليه.»!!!.

عائشة...

تنصح معاوية...

ألّا يَقْتُل...

حُجْرًا... وأصحابَه...؟!

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين...

مقتل حُجْر بن عديّ... وعمرو بن الحَمِق... وأصحابهما؟!

في هذه السنة... قُتل حُجر بن عَديّ وأصحابه...

- وها هي القصة -

لا تترك شتم عليّ؟!

وسبب ذلك أنّ معاوية استعمل المُغيرة بن شُعْبة على الكوفة سنة إحدى وأربعين، فلمّا أمّره عليها دعاه وقال له: أمّا بعدُ فإنّ لذي الحِلم قبل اليوم ما تُقْرع العصا، وقد يجزي عنك الحكيم بغير التعليم، وقد أردتُ إيصاءك بأشياء كثيرة أنا تاركها اعتمادًا على بصرك، ولستُ تاركًا إيصاءك بخصلة: لا تترك شتم عليّ وذمّه، والترحّم على عثمان والاستغفار له، والعيب لأصحاب عليّ والإقصاء لهم، والإطراء بشيعة عثمان والإدناء لهم. فقال له المغيرة: قد جَرّبتُ وجُرّبتُ، وعملتُ قبلك لغيرك فلم يذممني، وستبلو فتحمد أو تذمّ. فقال: بل نحمد إن شاءاللّه.

فأقام المغيرةُ عاملًا على الكوفة وهو أحسن شيء سيرة، غير أنّه لا يدع شتم عليّ والوقوع فيه والدعاء لعثمان والاستغفار له، فإذا سمع ذلك حُجْر بن عديّ قال: بل إيّاكم ذَمَّ اللّهُ ولعنَ! ثمّ قام وقال: أنا أشهد أنّ مَنْ تذمّون أحقّ بالفضل، ومن تزكّون

أولى بالذم. فيقول له المغيرة: يا حُجْر اتّقِ هذا السلطان وغضبه وسطوته، فإن غضب السلطان يُهْلك أمثالك، ثمّ يكفّ عنه ويصفح.

أصبحتَ مولعًا بذمّ أمير المؤمنين؟!!

فلمّا كان آخر إمارته قال في عليّ وعثمان ما كان يقوله، فقام حُجْر فصاح صيحةً بالمغيرة سمعها كلّ مَنْ بالمسجد وقال له: مرْ لنا أيّها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستّها عنّا وليس ذلك لك، وقد أصبحتَ مولعًا بذمّ أمير المؤمنين. فقام أكثر من ثُلثي الناس يقولون: صدق حُجْر وبَرّ، مُرْ لنا بأرزاقنا فإنّ ما أنت عليه لا يُجْدي علينا نفعًا! وأكثروا من هذا القول وأمثاله. فنزل المغيرة فاستأذن عليه قومُه ودخلوا وقالوا: علامَ تترك هذا الرجل يجترىء عليك في سلطانك ويقول لك هذه المقالة فيوهن سلطانك ويسخط عليك أمير المؤمنين معاوية؟ فقال لهم المغيرة: إنّي قد قتلته، سيأتي من بعدي أمير يحسبه مثلي فيصنع به ما ترونه يصنع بي فيأخذه ويقتله! إنّي قد قرب أجلي ولا أُحبّ أن أقتل خيار أهل هذا المصر فيسعدوا وأشقى ويعزّ في الدنيا معاوية ويشقى في الآخرة المغيرة.

ثم توفيّ المغيرة ووليَ زياد، فقام في الناس فخطبهم عند قدومه ثمّ ترحّم على عثمان وأثنى على أصحابه ولعن قاتليه. فقام حُجْر ففعل كما كان يفعل بالمغيرة. ورجع زياد إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حُرَيْث، فبلغه أنّ حجرًا يجتمع إليه شيعةُ عليّ ويُظهرون لعن معاوية والبراءةَ منه وأنّهم حصبوا عمرو بن حُرَيْث، فشخص زياد إلى الكوفة حتى دخلها فصعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه، وحُجْر جالسٌ، ثمّ قال: أمّا بعدُ فإن غبّ البغي والغيّ وخيمٌ، إنّ هؤلاء جمّوا[1] فأشِروا، وأمنوني فاجترؤوا على اللّه، لئن لم تستقيموا لأداوينّكم بدوائكم، ولستُ بشيء إن لم أمنع الكوفة من حُجْر وأدَعْه نَكالًا لمن بعده، ويل أمّك يا حُجْر سقط العَشاء بك على سِرْحانٍ.

وأرسل إلى حُجْر يدعوه وهو بالمسجد، فلمّا أتاه رسول زياد يدعوه قال أصحابه:

---

(١) جمّوا: اجتمعوا.

لا تأتِهِ ولا كرامة. فرجع الرسولُ فأخبر زيادًا، فأمر صاحب شُرطته، وهو شدّاد بن الهَيْثم الهلاليّ، أن يبعث إليه جماعةً ففعل، فسبّهم أصحابُ حجر، فرجعوا وأخبروا زيادًا، فجمع أهل الكوفة وقال: تشجّون بيدٍ وتأسون بأخرى!. أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الأحمق! هذا والله من دَحسكم[1]! والله ليظهرنّ لي براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودَكم وصَعَركم! فقالوا: معاذ الله أن يكون لنا رأي إلّا طاعتك وما فيه رضاك. قال: فليقمْ كلّ رجل منكم فليدعُ مَنْ عند حجر من عشيرته وأهله. ففعلوا وأقاموا أكثر أصحابه عنه. وقال زياد لصاحب شُرطته: انطلقْ إلى حُجر فإن تبعك فأتني به وإلّا فشدّوا عليهم بالسيوف حتى تأتوني به.

فأتاه صاحبُ الشّرطة يدعوه. فمنعه أصحابه من إجابته، فحمل عليهم، فقال أبو العمرّطة الكنديّ لحجر: إنّه ليس معك مَنْ معه سيف غيري وما يغني عنك سيفي، قمْ فالحقْ بأهلك يمنعك قومك. وزياد ينظر إليهم وهو على المنبر، وغشيهم أصحاب زياد، وضرب رجلٌ من الحمراء رأس عمرو بن الحَمِق بعموده فوقع، وحمله أصحابه إلى الأزد فاختفى عندهم حتى خرج، وانحاز أصحاب حجر إلى أبواب كندة، وضرب بعض الشّرطة يد عائذ بن حَمَلة التميمي وكسر نابه وأخذ عمودًا من بعض الشُّرط فقاتل به وحمى حُجْرًا وأصحابه حتى خرجوا من أبواب كندة، وأُتي حجر بغلته، فقال له أبو العمرّطة: اركبْ فقد قتلتنا ونفسك. وحمله حتى أركبه، وركب أبو العمرّطة فرسه، ولحقه يزيد بن طَريف المُسْليّ فضرب أبا العمرّطة على فخذه بالعمود، وأخذ أبو العمرّطة سيفه فضرب به رأسه فسقط، ثمّ برأ. وكان ذلك السيف أوّل سيف ضُرب به في الكوفة في اختلاف بين الناس.

ومضى حُجْر وأبو العمرّطة إلى دار حُجر واجتمع إليهما ناس كثير، ولم يأتِه من كِندة كثير أحد. فأرسل زياد، وهو على المنبر، مَذْحج وهَمدان إلى جبّانة كندة وأمرهم أن يأتوه بحُجْر، وأرسل سائر أهل اليمن إلى جبّانة الصائدين وأمرهم أن يمضوا إلى صاحبهم حُجْر فيأتوه به، ففعلوا، فدخل مذحج وهمدان إلى جبّانة كندة فأخذوا كلّ من وجدوا، فأثنى عليهم زياد.

---

(١) الدَّحس: الإفساد.

فلمّا رأى حُجْر قلّةَ مَنْ معه أمرهم بالانصراف وقال لهم: لا طاقة لكم بمن قد اجتمع عليكم وما أُحبّ أن تهلكوا. فخرجوا، فأدركهم مذحج وهمدان فقاتلوهم وأسروا قيس بن يزيد ونجا الباقون، فأخذ حُجْر طريقًا إلى بني حُوت فدخل دار رجل منهم يقال له سُلَيم بن يزيد، وأدركه الطلبُ فأخذ سُلَيم سيفه ليقاتل. فبكت بناته، فقال حُجْر: بئس ما أُدخلتُ على بناتك إذًا! قال: واللّه لا تؤخذ من داري أسيرًا ولا قتيلًا وأنا حيّ. فخرج حجر من خوخة في داره فأتى النَّخَع فنزل دار عبداللّه بن الحارث أخي الأشتر، فأحسن لقاءه. فبينما هو عنده إذ قيل له: إنّ الشُّرَط تسأل عنك في النَّخع. وسبب ذلك أنَّ أَمَةً سوداء لقيتهم فقالت: من تطلبون؟ فقالوا: حُجْر بن عديّ. فقالت: هو في النَّخع.

فخرج حجر من عنده فأتى الأزد فاختفى عند ربيعة بن ناجد.

زياد يهدد؟!

فلمّا أعياهم طلبه دعا زياد محمّدَ بن الأشعث وقال له: واللّه لتأتيني به أو لأقطعنّ كلّ نخلة لك وأهدم دورك ثمّ لا تسلم مني حتى أقطعك إربًا إربًا. فاستمهله، فأمهله ثلاثًا وأحضر قيسَ بن يزيد أسيرًا، فقال له زياد: لا بأس عليك، قد عرفتُ رأيك في عثمان وبلاءك مع معاوية بصِفّين وأنّك إنّما قاتلت مع حُجْر حميّةً وقد غفرتُها لك ولكن ائتني بأخيك عُمير. فاستأمن له منه على ماله ودمه، فآمنه، فأتاه به وهو جريح فأثقله حديدًا، وأمر الرجال أن يرفعوه ويلقوه، ففعلوا به ذلك مرارًا، فقال قيس بن يزيد لزياد: ألم تؤمنه؟ قال: بلى قد آمنته على دمه ولستُ أُهريق له دمًا. ثمّ ضمّنه وخلّى سبيله.

ومكث حجر بن عديّ في بيت ربيعة يومًا وليلة، فأرسل إلى محمد بن الأشعث يقول له ليأخذ له من زياد أمانًا حتى يبعث به إلى معاوية. فجمع محمد جماعةً، منهم: جرير بن عبداللّه، وحجر بن يزيد، وعبداللّه بن الحارث أخو الأشتر، فدخلوا على زياد فاستأمنوا له على أن يرسله إلى معاوية، فأجابهم، فأرسلوا حُجْر بن عديّ فحضر عند زياد، فلمّا رآه قال: مرحبًا بك أبا عبد الرحلمن، حربٌ أيّام الحرب،

وحربٌ وقد سالم الناس، على أهلها تَجْني بَراقشُ، فقال حُجْر: ما خلعتُ طاعةً، ولا فارقتُ جماعةً، وإنّي على بيعتي. فأمر به إلى السجن. فلمّا وَلّى قال زياد: واللّه لأحرصنّ على قطع خيط رقبته! وطلب أصحابه، فخرج عمرو بن الحَمِق حتى أتى الموصل ومعه رِفاعة بن شدّاد فاختفيا بجبل هناك، فرُفع خبرهما إلى عامل الموصل، فسار إليهما، فخرجا إليه، فأمّا عمرو فكان قد استسقى بطنه ولم يكن عنده امتناع، وأمّا رِفاعة فكان شابًّا قويًّا فركب فرسه ليقاتل عن عمرو، فقال له عمرو: ما ينفعني قتالك عني؟ انجُ بنفسك! فحمل عليهم، فأفرجوا له، فنجا، وأخذ عمرو أسيرًا، فسألوه: مَنْ أنت؟ فقال: مَنْ إن تركتموه كان أسلم لكم، وإن قتلتموه كان أضرّ عليكم؛ ولم يخبرهم. فبعثوه إلى عامل الموصل، وهو عبد الرحمن بن عثمان الثقفي الذي يُعرَف بابن أمّ الحكم، وهو ابن أخت معاوية، فعرفه فكتب فيه إلى معاوية. فكتب إليه: إنّه زعم أنّه طعن عثمان تسع طعنات بمشاقص معه، فاطعنه كما طعن عثمان. فأُخرج وطُعن، فمات في الأولى منهنّ أو الثانية.

واللّهِ لو شرَّحتني بالمواسي؟!

وجدّ زياد في طلب أصحاب حُجْر فهربوا، وأخذ من قدر عليه منهم. فأُتي بقَبيصة بن ضُبَيْعة العبسيّ بأمان فحبسه، وجاء قيس بن عُباد الشيبانيّ إلى زياد فقال له: إنّ امرأً منّا يقال له صيفي من رؤوس أصحاب حُجْر. فبعث زيادٌ فأُتي به، فقال: يا عدوّ اللّه ما تقول في أبي تُراب؟ قال: ما أعرف أبا تراب. فقال: ما أعرَفك به! أتعرف عليّ بن أبي طالب؟ قال: نعم. قال: فذاك أبو تراب. قال: كَلّا، ذاك أبو الحسن والحسين. فقال له صاحب الشُّرطة: يقول الأمير هو أبو تراب وتقول: لا! قال: فإن كذب الأمير أكذب أنا وأشهد على باطل كما شهد؟ فقال له زياد: وهذا أيضًا، عليّ بالعصا، فأُتي بها، فقال: ما تقول في عليّ؟ قال: أحسن قول. قال: اضربوه، حتى لصق بالأرض، ثمّ قال: أقلعوا عنه، ما قولك في عليّ؟ قال: واللّه لو شرَّحتني بالمواسي ما قلتُ فيه إلّا ما سمعتَ مني. قال: لتلعننّه أو لأضربنّ عنقك! قال: لا أفعل. فأوثقوه حديدًا وحبسوه.

قيل: وعاش قيس بن عباد حتى قاتل مع ابن الأشعث في مواطنه. ثمّ دخل الكوفة فجلس في بيته، فقال حَوْشب للحجّاج: إنّ هنا امرأً صاحب فتن لم تكن فتنة بالعراق إلّا وثب فيها، وهو تُرابيّ يلعن عثمان، وقد خرج مع ابن الأشعث حتى هلك، وقد جاء فجلس في بيته. فبعث إليه الحجّاج فقتله، فقال بنو أبيه لآل حوشب: سعيتم بصاحبنا! فقالوا: وأنتم أيضًا سعيتم بصاحبنا. يعني صيفيًّا الشيبانيّ.

وأرسل زياد إلى عبدالله بن خليفة الطائيّ، فتوارى، فبعث إليه الشُّرطَ فأخذوه، فخرجت أخته النَّوَارُ فحرّضت طيّئًا، فثاروا بالشُّرَط وخلّصوه. فرجعوا إلى زياد فأخبره، فأخذ عديّ بن حاتم وهو في المسجد فقال: ايتني بعبدالله! قال: وما حاله؟ فأخبروه، فقال: لا علم لي بهذا! قال: لتأتيني به. قال: لا آتيك به أبدًا، آتيك بابن عمّي تقتله! والله لو كان تحت قدميّ ما رفعتُهما عنه! فأمر به إلى السجن، فلم يبقَ بالكوفة يمنيّ ولا رِبعيّ إلّا كلّم زيادًا وقالوا: تفعل هذا بعديّ بن حاتم صاحب رسول الله، ﷺ؟ فقال: فإنّي أُخرجه على شَرط أن يُخْرج ابن عمّه عني فلا يدخل الكوفةَ ما دام لي سلطان. فأجابوه إلى ذلك، وأرسل عديّ إلى عبدالله يعرّفه ما كان وأمره أن يلحق بجبَليْ طيّئ، فخرج إليهما، وكان يكتب إلى عديّ ليشفع فيه ليعُود إلى الكوفة، وعديّ يُمنّيه.

تلفيق الاتهامات للأبرياء؟!!

قال: وجمع زياد من أصحاب عديّ اثني عشر رجلًا في السجن ثمّ دعا رؤساء الأرباع يومئذ، وهم: عمرو بن حُرَيْث على ربع أهل المدينة، وخالد بن عُرْفُطَة على ربع تميم وهَمْدان، وقيس بن الوليد على ربع ربيعة وكندة، وأبو بُرْدة بن أبي موسى على ربع مَذْحِج وأسد، فشهد هؤلاء أن حُجْرًا جمع إليه الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلّا في آل أبي طالب، ووثب بالمصر، وأخرج عامل أمير المؤمنين، وأظهر عُذر أبي تُراب والترحّم عليه والبراءة من عدوّه وأهل حَرْبه، وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس أصحابه على مثل رأيه وأمره. ونظر زياد في شهادة الشهود وقال: إنّي لأحبّ أن يكونوا أكثر

من أربعة، فدعا الناس ليشهدوا عليه، فشهد إسحاق وموسى ابنا طلحة بن عبيداللّه، والمنذر بن الزّبَير، وعُمارة بن عُقْبة بن أبي مُعَيط، وعمرو بن سعد بن أبي وقّاص، وغيرهم، وكتب في الشهود شُرَيْح بن الحارث القاضي وشُرَيْح بن هانىء، فأمّا شُرَيح بن هانىء فكان يقول: ما شهدتُ وقد لُمْتُهُ.

ترحيل المتهمين إلى معاوية؟!

ثمّ دفع زيادٌ حُجْرَ بن عديّ وأصحابه إلى وائل بن حُجْر الحضرميّ وكثَير بن شهاب، وأمرهما أن يسيرا بهم إلى الشام، فخرجوا عشيّة، فلمّا بلغوا الغَرِيَّيْنِ لحقهم شُرَيح بن هانئ وأعطى وائلًا كتابًا وقال: أبلغْهُ أمير المؤمنين، فأخذه، وساروا حتى انتهوا بهم إلى مرج عذراء عند دمشق، وكانوا: حُجْر بن عديّ الكندي، والأرقم بن عبداللّه الكنديّ، وشَريك بن شدّاد الحضرمي، وصيفي بن فَسيل الشيبانيّ، وقَبيصة ابن ضُبَيعة العبسيّ، وكريم بن عَفيف الخَثْعميّ، وعاصم بن عوف البجليّ، وورقاء ابن سُمَيّ البجليّ، وكدام بن حَيّان، وعبد الرحمٰن بن حسّان العَنَزيَّيْنِ، ومُحْرِز بن شهاب التميميّ، وعبداللّه بن حَويّة السعديّ التميميّ، فهؤلاء اثنا عشر رجلًا، وأتبعهم زياد برجلَين، وهما: عُتْبَة بن الأخنس من سعد بن بكر، وسعد بن نمران الهمدانيّ، فتمّوا أربعة عشر رجلًا.

فبعث معاويةُ إلى وائل بن حُجْر وكَثير بن شهاب، فأدخلهما وأخذ كتابهما فقرأه، ودفع إليه وائل كتاب شُرَيْح بن هانىء، فإذا فيه: بلغني أنّ زيادًا كتب شهادتي، وإنّ شهادتي على حُجْر أنّه ممّن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويديم الحجّ والعُمْرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حَرام الدم والمال، فإن شئتَ فاقتله وإن شئتَ فدَعْه. فقال معاوية: ما أرى هذا إلّا قد أخرج نفسه من شهادتكم وحبس القوم بمرج عَذْراء. فوصل إليهم الرجلان اللذان ألحقهما زياد بحجر وأصحابه، فلمّا وصلا سار عامر بن الأسود العجليّ إلى معاوية ليُعْلمه بهما، فقام إليه حُجْر بن عديّ في قيوده فقال له: أبلغْ معاوية أنّ دماءنا عليه حرام، وأخبره أنّا قد أُومنّا وصالحناه وصالحَنا، وأنّا لم نقتل أحدًا من أهل القبلة فيحلّ له دماؤنا.

معاوية يفرج عن بعض المتهمين؟!

فدخل عامر على معاوية فأخبره بالرجلَين، فقام يزيد بن أسد البجليّ فاستوهبه ابنَيْ عمّه، وهما: عاصم وورقاء، وكان جرير بن عبداللّه البجليّ قد كتب فيهما يزكّيهما ويشهد لهما بالبراءة ممّا شُهد عليهما، فأطلقهما معاوية، وشفع وائل بن حُجْر في الأرقم فتركه له، وشفع أبو الأعور السُّلَميّ في عُتْبَة بن الأخنس فتركه، وشفع حُمْرَة بن مالك الهمدانيّ في سعد بن نمران فوهبه له، وشفع حبيب بن مَسْلمة في ابن حَوِيّة فتركه له، وقام مالك بن هُبَيرة السَّكونيّ فقال: دَعْ لي ابن عمّي حُجْرًا. فقال له: هو رأس القوم وأخاف إن خَلّيتُ سبيله أن يُفْسد عليّ مصره فنحتاج أن نُشْخصك إليه بالعراق. فقال: واللّه ما أنصفتني يا معاوية! قاتلتُ معك ابن عمّك يومَ صِفّين حتى ظفرتَ وعلا كعبك ولم تخف الدوائر، ثمّ سألتك ابن عمّي فمنعتني! ثمّ انصرف فجلس في بيته.

قَتْل حُجْر ظُلْمًا؟!!

فبعث معاوية هُدْبَة بن فياض القُضاعيّ، والحُصَين بن عبداللّه الكلابي، وأبا شريف البدّيّ إلى حُجْر وأصحابه ليقتلوا مَنْ أُمروا بقتله منهم، فأتوهم عند المساء. فلمّا رأى الخثعميّ أحدهم أعور قال: يقتل نصفنا ويترك نصفنا، فتركوا ستّة وقتلوا ثمانية، وقالوا لهم قبل القتل: إنّا قد أُمرنا أن نعرض عليكم البراءة من عليّ واللعن له، فإن فعلتم تركناكم وإن أبيتم قتلناكم. فقالوا: لسنا فاعلي ذلك. فأمر فحُفرت القبور وأُحضرت الأكفان وقام حُجْر وأصحابه يصلّون عامّة اللّيل. فلمّا كان الغد قدّموهم ليقتلوهم فقال لهم حُجْر بن عديّ: اتركوني أتوضّأ وأصلّي فإنّي ما توضّأتُ إلّا صلّيتُ، فتركوه، فصلّى ثم انصرف منها وقال: واللّه ما صلّيتُ صلاةً قطّ أخف منها، ولولا أن تظنّوا فيّ جزعًا من الموت لاستكثرتُ منها. ثمّ قال: اللهمّ إنّا نستعديك[1] على أمّتنا! فإن أهل الكوفة شهدوا علينا، وإنّ أهل الشام يقتلوننا، أمَا

(١) نستعيذ بك.

واللّه لئن قتلتموني بها فإنّي لأوّل فارس من المسلمين هلك في واديها، وأوّل رجل من المسلمين نبحته كلابها! ثمّ مشى إليه هُدْبة بن فيّاض بالسيف فارتعد، فقالوا له: زعمتَ أنّك لا تجزع من الموت، فابرأ من صاحبك وندَعُك. فقال: وما لي لا أجزع وأرى قبرًا محفورًا، وكفنًا منشورًا، وسيفًا مشهورًا! وإنّي واللّه إن جزعتُ من القتل لا أقول ما يُسْخط الرّبّ. فقتلوه وقتلوا ستّة.

فقال عبد الرحمن بن حسّان العنزي وكَريم الخَثْعَميّ: ابعثوا بنا إلى أمير المؤمنين فنحن نقول في هذا الرجل مثل مقالته. فاستأذنوا معاوية فيهما، فأذن بإحضارهما. فلمّا دخلا عليه قال الخثعميّ: اللّهَ اللّهَ يا معاوية! فإنّك منقول من هذه الدار الزائلة إلى الدار الآخرة الدائمة، ثمّ مسؤول عمّا أردتَ بسفك دمائنا! فقال له: ما تقول في علي؟ قال: أقول فيه قولك. قال: أتبرأ من دين عليّ الذين يدين اللّه به؟ فسكت، وقام شَمِر بن عبداللّه من بني قُحافة بن خثعم فاستوهبه. فوهبه له على أن لا يدخل الكوفة، فاختار الموصل، فكان يقول: لو مات معاوية قدمتُ الكوفةَ، فمات قبل معاوية بشهر. ثمّ قال لعبد الرحمٰن بن حسّان: يا أخا ربيعة ما تقول في عليّ؟ قال: دعْني ولا تسألْني فهو خير لك. قال: واللّه لا أدعك. قال: أشهد أنّه كان من الذاكرين اللّه تعالى كثيرًا، من الآمرين بالحقّ والقائمين بالقِسْط والعافين عن الناس. قال: فما قولك في عثمان؟ قال: هو أوّل من فتح أبواب الظّلم، وأغلق أبواب الحقّ. قال: قتلتَ نفسك! قال: بل إيّاك قتلتُ؛ ولا ربيعة بالوادي، يعني ليشفعوا فيه، فردّه معاوية إلى زياد وأمره أن يقتله شرّ قتلة، فدفنه حيًّا.

الشهداء العظماء السبعة؟!

فكان الذين قُتلوا: حُجْر بن عديّ، وشريك بن شدّاد الحضرميّ، وصيفي بن فَسيل الشيباني، وقَبيصة بن ضُبَيعة العبسيّ، ومُحْرز بن شِهاب السعديّ التميميّ، وكدام بن حيّان العَنَزي، وعبد الرحمٰن بن حسّان العنزي الذي دفنه زياد حيًّا، فهؤلاء السبعة قُتلوا ودُفنوا وصُلّي عليهم.

قيل: ولما بلغ الحسنَ البصريّ قتْلُ حُجْر وأصحابه قال: صلّوا عليهم وكفّنوهم

ودفنوهم واستقبلوا بهم القِبلة؟ قالوا: نعم. قال: حجّوهم وربِّ الكعبة!.

وأمّا مالك بن هُبَيرة السَّكونيّ فحين لم يشفّعه معاوية في حُجْر جمع قومه وسار بهم إلى عذراء ليخلّص حُجْرًا وأصحابه، فلقيته قتلتُهم، فلمّا رأوه علموا أنّه جاء ليخلّص حُجْرًا، فقال لهم: ما وراءكم؟ قالوا: قد تاب القوم وجئْنا لنُخْبر أمير المؤمنين. فسكت وسار إلى عذراء، فلقيه بعض من جاء منها فأخبره بقتل القوم، فأرسل الخيل في إثر قتلتهم فلم يدركوهم، ودخلوا على معاوية فأخبروه، فقال لهم: إنّما هي حرارة يجدها في نفسه وكأنّها طَفئت، وعاد مالك إلى بيته ولم يأتِ معاوية، فلمّا كان الليل أرسل إليه معاويةُ بمائة ألف درهم وقال: ما منعني أن أشفِّعك إلّا خوفًا أن يُعيدوا لنا حربًا فيكون في ذلك من البلاء على المسلمين ما هو أعظم من قتل حُجْر. فأخذها وطابت نفسه.

عائشة تشفع في المظلومين؟!

ولما بلغ خبرُ حُجْر عائشةَ أرسلت عبد الرحمٰن بن الحارث إلى مُعاوية فيه وفي أصحابه، فقدم عليه وقد قتلهم، فقال له عبد الرحمٰن: أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟ قال: حين غاب عني مثلك من حلماء قومي وحمَّلني ابن سُمَيّة فاحتملتُ.

وقالت عائشة: لولا أنّا لم نُغَيّر شيئًا إلّا صارت بنا الأمور إلى ما هو أشدّ منه لغيّرنا قتل حُجْر، أمَا والله إن كان ما علمت لمسلمًا حجّاجًا معتمرًا.

وقال الحسن البصريّ: أربع خصال كنّ في معاوية، لو لم تكن فيه إلّا واحدة لكانت مُوبقة: انتزاؤه على هذه الأمّة بالسيف حتى أخذ الأمر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده ابنه سكّيرًا خمّيرًا يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادِّعاؤه زيادًا، وقد قال رسول الله، ﷺ: الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقتله حُجْرًا وأصحاب حُجْر، فيا ويلًا له من حُجْر! ويا ويلًا له من حُجْر وأصحاب حُجْر!

قيل: وكان الناس يقولون: أوّل ذُلّ دخل الكوفة موت الحسن بن عليّ، وقتل حُجْر، ودعوة زياد؛ وقالت هند بنت زيد الأنصارية ترثي حُجْرًا، وكانت تتشيّع:

تَـرَفّـعْ أيّـهـا الـقَـمَـرُ الـمُـنِـيـرُ تَبَصّرْ هل تـرَى حُجْرًا يَسيـرُ
يَسيـرُ إلى معاويةَ بنِ حَرْبٍ لـيَـقـتـلَـهُ كَـمـا زَعَـمَ الأمـيـرُ
تـجَـبّـرَتِ الـجـبـابـرُ بَـعْـد حُـجْـرٍ وطـابَ لـهـا الـخَـوَرْنَـقُ والـسّـديـرُ
وأصـبَـحَـتِ الـبـلادُ لـهُ مُـحُـولاً كـأنْ لـم يُـحْـيِـهـا مُزْنٌ مَـطِـيـرُ
ألا يا حُجْرُ حُجْرَ بني عَديّ تـلَـقّـتْـكَ الـسّـلامـةُ والـسّـرُورُ
أخـافُ علَـيـكَ ما أرْدى عـدِيّاً وشَـيْـخًـا فـي دِمَـشْـقَ لـهُ زَئِـيـرُ
فـإنْ تَـهـلِـكْ فـكُـلُّ زَعـيـمِ قَـوْمٍ مـنَ الـدّنْـيـا إلـى هُـلْـكٍ يَـصِـيـرُ

قصة حُجْر في رواية أخرى

وقد قيل في قتله غير ما تقدّم: وهو أنّ زيادًا خطب يوم جُمْعَة فأطال الخطبة وأخّر الصلاة، فقال له حُجْر بن عديّ: الصلاة. فمضى في خطبته. فقال له: الصلاة. فمضى في خطبته. فلمّا خشي حُجْرُ بنُ عديّ فوتَ الصلاة ضرب بيده إلى كفّ من حصى وقام إلى الصلاة وقام الناس معه. فلمّا رأى زياد ذلك نزل فصلّى بالناس وكتب إلى معاوية وكثّر عليه، فكتب إليه معاوية ليشدّه في الحديد ويرسله إليه. فلمّا أراد أخذه قام قومه ليمنعوه، فقال حُجْر: لا ولكن سمعًا وطاعة. فشُدّ في الحديد وحُمل إلى معاوية. فلمّا دخل عليه قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين! فقال معاوية: أأمير المؤمنين أنا؟ والله لا أقيلك ولا أستقيلك! أخرجوه فاضربوا عنقه! فقال حُجْر للذين يلون أمره: دعوني حتى أصَلّي ركعتين. فقالوا: صلّ، فصلّى ركعتين خفّف فيهما، ثمّ قال: لولا أن تظنّوا بي غير الذي أردتُ لأطلتهما، وقال لمن حضره من قومه: لا تُطْلِقوا عني حديدًا ولا تغسلوا عنّي دمًا، فإنّي لاقٍ معاوية غدًا على الجادّة؛ وضُربتْ عنقه. قال: فلقيتْ عائشةُ معاوية فقالت له: أين كان حِلْمك عن حُجْر؟ فقال: لم يحضرني رشيد. قال ابن سيرين: بلغَنا أن معاوية لما حضرتْه الوفاةُ جعل يقول: يومي منك يا حُجْر طويل!

أقول... هذه ملحمة مقتل حُجْر بن عديّ... ورفاقه الستة...

سبعة يقتلهم معاوية... وعلى رأسهم... حُجْر بن عديّ!!!.
ولقد كتبت أم المؤمنين... عائشة... إلى معاوية في حُجْر وأصحابه...
ولكن هيهات هيهات!!!.

معاوية يأخذ البيعة...
لابنه يزيد...
وموقف عائشة...
من معاوية...؟!

قال ابن الأثير:

«ثم دخلت سنة ست وخمسين...

البيعة ليزيد بولاية العهد؟!

«وفي هذه السنة بايع الناس... يزيد بن معاوية... بولاية عهد أبيه...

المُغيرة يغري معاوية وابنه؟!

«وكان ابتداء ذلك وأوّله من المُغيرة بن شُعْبَة، فإنّ معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عِوضه سعيد بن العاص، فبلغه ذلك فقال: الرأي أن أشخص إلى معاوية فأستعفيه ليظهر للناس كراهتي للولاية. فسار إلى معاوية وقال لأصحابه حين وصل إليه: إن لم أكسبكم الآن ولاية وإمارة لا أفعل ذلك أبدًا.

ومضى حتى دخل على يزيد وقال له: إنّه قد ذهب أعيان أصحاب النبيّ، ﷺ، وآله وكبراء قريش وذوو أسنانهم، وإنّما بقي أبناؤهم وأنتَ من أفضلهم وأحسنهم رأيًا وأعلمهم بالسنّة والسياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة. قال: أوَترى ذلك يتِمّ؟ قال: نعم.

فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المغيرة، فأحضر المغيرة وقال له ما يقول يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيتَ ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد

عثمان، وفي يزيد منك خلَف، فاعقدْ له فإن حدث بك حادثٌ كان كهفًا للناس وخلفًا منك ولا تُسْفَك دماء ولا تكون فتنة. قال: ومَنْ لي بهذا؟ قال: أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زيادُ أهلَ البصرة وليس بعد هذَيْنِ المصرَيْن أحد يخالفك. قال: فارجعْ إلى عملك وتحدّث مع من تثق إليه في ذلك وترى ونرى. فودّعه ورجع إلى أصحابه. فقالوا: مَهْ؟ قال: لقد وضعتُ رِجْل معاوية في غرْز بعيد الغاية على أمّة محمّد وفتقتُ عليهم فتقًا لا يُرتق أبدًا؛ وتمثّل:

بمثلي شاهدي النّجوَى وغالي بيَ الأعداءَ والخصم الغِضابَا

وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق إليه ومَنْ يعلم أنّه شيعة لبني أميّة أمرَ يزيد، فأجابوا إلى بيعته، فأوفد منهم عشرة، ويقال أكثر من عشرة، وأعطاهم ثلاثين ألف درهم، وجعل عليهم ابنَه موسى بن المغيرة، وقدموا على معاوية فزيّنوا له بيعَة يزيد ودعوه إلى عقدها. فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم. ثمّ قال لموسى: بِكَمِ اشترى أبوك من هؤلاء دينَهم؟ قال: بثلاثين ألفًا. قال: لقد هان عليهم دينهم.

وقيل: أرسل أربعين رجلًا وجعل عليهم ابنَه عُرْوَة، فلمّا دخلوا على معاوية قاموا خطباء فقالوا: إنّما أشخصهم إليه النظر لأمّة محمّد، ﷺ، وقالوا: يا أمير المؤمنين كبرت سنّك وخفنا انتشارَ الحبل فانصبْ لنا عَلَمًا وحُدّ لنا حدّاً ننتهي إليه. فقال: أشيروا عليّ. فقالوا: نشير بيزيد ابن أمير المؤمنين. فقال: أوَقد رضيتموه؟ قالوا: نعم. قال: وذلك رأيكم؟ قالوا: نعم، ورأي مَنْ وراءنا. فقال معاوية لعُرْوَة سرّاً عنهم: بكَمِ اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بأربعمائة دينار. قال: لقد وجد دينَهم عندهم رخيصًا. وقال لهم: ننظر ما قدمتم له ويقضي اللّه ما أراد، والأناة خير من العجلة. فرجعوا.

عزم معاوية على البيعة لابنه؟!

وقوي عزمُ معاوية على البيعة ليزيد، فأرسل إلى زياد يستشيره، فأحضر زياد عُبَيد ابن كعب النُّمَيريّ وقال له: إنّ لكلّ مستشير ثقة، ولكلّ سرّ مستودع، وإنّ الناس قد

أبدع بهم خصلتان: إذاعة السرّ وإخراج النصيحة إلى غير أهلها، وليس موضع السرّ إلّا أحد رجلَين: رجل آخرة يرجو ثوابها، ورجل دنيا له شرف في نفسه وعقل يصون حسبه، وقد خبرتهما منك، وقد دعوتُك لأمرٍ اتّهمتُ عليه بطون الصحف، إنّ أمير المؤمنين كتب يستشيرني في كذا وكذا، وإنّه يتخوّف نفرة الناس ويرجو طاعتهم، وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رَسْلة وتهاون مع ما قد أُولع به من الصيد، فالقَ أمير المؤمنين وأدِّ إليه فعلات يزيد وقلْ له رويدك بالأمر، فأحرى أن يتمّ لك ما تريد، لا تعجلْ فإنّ دَرَكًا في تأخير خيرٌ من فوت في عجلة.

فقال له عُبَيْد: أفلا غير هذا؟ قال: وما هو؟ قال: لا تُفْسدْ على معاوية رأيه، ولا تبغّض إليه ابنَه، وألقى أنا يزيد فأخبره أنّ أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في البيعة له، وأنّك تتخوّف خلاف الناس عليه لهنات ينقمونها عليه، وأنّك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجّة على الناس ويتمّ ما تريد فتكون قد نصحتَ أمير المؤمنين وسلمتَ ممّا تخاف من أمر الأمّة. فقال زياد: لقد رميتَ الأمرَ بحجره، اشخَص على بركة اللّه، فإن أصبتَ فما لا ينكر، وإن يكن خطأً فغير مُسْتَغَشّ، وتقول بما ترى، ويقضي اللّه بغيب ما يعلم.

فقدم على يزيد فذكر ذلك له، فكفّ عن كثير ممّا كان يصنع، وكتب زياد معه إلى معاوية يشير بالتّؤدة وأن لا يعجل، فقبل منه.

فلمّا مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد، فأرسل إلى عبداللّه بن عمر مائة ألف درهم، فقبلها، فلمّا ذكر البيعة ليزيد قال ابن عمر: هذا أراد أنَّ ديني عندي إذْن لرخيص. وامتنع.

ثمّ كتب معاوية بعد ذلك إلى مروان بن الحكَم: إنّي قد كبرتُ سنّي، ودقّ عظمي، وخشيتُ الاختلاف على الأمّة بعدي، وقد رأيتُ أن أتخيّر لهم مَنْ يقوم بعدي، وكرهتُ أن أقطع أمرًا دون مشورة مَنْ عندك، فاعرضْ ذلك عليهم وأعلمْني بالذي يردّون عليك. فقام مروان في الناس فأخبرهم به، فقال الناس: أصاب ووُفّق، وقد أحببنا أن يتخيّر لنا فلا يألو.

فكتب مروان إلى معاوية بذلك، فأعاد إليه الجواب يذكر يزيد، فقام مروان فيهم

وقال: إنّ أميرَ المؤمنين قد اختار لكم فلم يألُ، وقد استخلف ابنَه يزيدَ بعده...

تريدون أن تجعلوها هِرَقْلية؟!

فقام عبد الرحمٰن بن أبي بكر فقال: كذبتَ واللّه يا مروان وكذب معاوية! ما الخيار أردتما لأمّة محمّد، ولكنّكم تريدون أن تجعلوها هِرَقْليّة كلّما مات هِرَقل قام هِرَقل. فقال مروان: هذا الذي أنزل اللّه فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾ الآية.

عائشة تتكلم من وراء حجاب؟!

فسمعت عائشة مقالتَه فقامت من وراء الحجاب وقالت: يا مروان يا مروان! فأنصت الناس وأقبل مروان بوجهه. فقالت: أنت القائل لعبد الرحمٰن إنّه نزل فيه القرآن؟ كذبتَ! واللّه ما هو به ولكنّه فلان بن فلان، ولكنّك أنت فضضٌ[1] من لعنة نبيّ اللّه.

قادة الأمّة يعارضون؟!

وقام الحسين بن عليّ فأنكر ذلك، وفعل مثله ابن عمر وابن الزّبَير، فكتب مروان بذلك إلى معاوية، وكان معاوية قد كتب إلى عُمّاله بتقريظ يزيد ووصفه وأن يوفدوا إليه الوفود من الأمصار، فكان فيمن أتاه محمد بن عمرو بن حَزْم من المدينة، والأحنف بن قيس في وفد أهل البصرة، فقال محمد بن عمرو لمعاوية: إنّ كلّ راعٍ مسؤول عن رعيته، فانظرْ مَنْ تولّي أمرَ أمّة محمّد. فأخذ معاويةَ بُهْرٌ حتى جعل يتنفّس في يوم شاتٍ ثمّ وصله وصرفه، وأمر الأحنفَ أن يدخل على يزيد، فدخل عليه، فلمّا خرج من عنده قال له: كيف رأيتَ ابن أخيك؟ قال: رأيتُ شبابًا ونشاطًا وجَلَدًا ومزاحًا.

---

(١) أي قطعة.

ثمّ إنّ معاوية قال للضحّاك بن قيس الفِهريّ، لما اجتمع الوفود عنده: إنّي متكلّم فإذا سكتُّ فكن أنت الذي تدعو إلى بيعة يزيد وتحثّني عليها. فلمّا جلس معاويةُ للناس تكلّم فعظّم أمرَ الإسلام وحرمةَ الخلافة وحقّها وما أمر اللّه به من طاعة وُلاة الأمر، ثمّ ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرّض ببيعته، فعارضه الضحّاك فحمداللّه وأثنى عليه ثمّ قال: يا أمير المؤمنين إنّه لا بدّ للناس من والٍ بعدك. وقد بلونا الجماعة والأُلفة فوجدناهما أحقن للدماء، وأصلح للدهماء، وآمن للسبل، وخيرًا في العاقبة، والأيّام عُوج رواجع، واللّه كلّ يوم في شأن، ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هديه وقصد سيرته على ما علمت، وهو من أفضلنا علمًا وحلمًا، وأبعدنا رأيًا، فولّه عهدك واجعله لنا عَلَمًا بعدك ومفزعًا نلجأ إليه ونسكن في ظلّه.

وتكلّم عمرو بن سعيد الأشدق بنحو من ذلك. ثمّ قام يزيد بن المقنّع العُذْري فقال: هذا أمير المؤمنين، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ومَنْ أبَى فهذا، وأشار إلى سيفه. فقال معاوية: اجلسْ فأنتَ سيّد الخطباء. وتكلّم من حضر من الوفود.

فقال معاوية للأحنف: ما تقول يا أبا بحر؟ فقال: نخافكم إن صدقنا، ونخاف اللّه إن كذبنا، وأنتَ يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسرّه وعلانيته ومدخله ومخرجه، فإن كنتَ تعلمه للّه تعالى وللأمّة رضى فلا تشاورْ فيه، وإن كنتَ تعلَم فيه غير ذلك فلا تزوّده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، وإنّما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا. وقام رجل من أهل الشام فقال: ما ندري ما تقول هذه المعديّة العراقيّة وإنّما عندنا سمع وطاعة وضرب وازدلاف.

معاوية يهدد بالمدينة؟!

فتفرّق الناس يحكون قول الأحنف، وكان معاوية يُعْطي المُقارب ويداري المُباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس وبايعه. فلمّا بايعه أهل العراق والشام سار إلى الحجاز في ألف فارس، فلمّا دنا من المدينة لقيه الحسين بن عليّ أوّل الناس، فلمّا نظر إليه قال: لا مرحبًا ولا أهلًا! بدنة يترقْرق دمها واللّه مهريقه! قال:

مهلًا فإنّي واللّه لستُ بأهل لهذه المقالة! قال: بلى ولشرّ منها. ولقيه ابن الزّبَير: فقال: لا مرحبًا ولا أهلًا! خبٌّ ضبٌّ تلعة، يُدْخل رأسه ويضرب بذنبه ويوشك واللّه أن يُؤخذ بذنَبه ويُدَقّ ظهره، نحّياه عنّي، فضرب وجه راحلته. ثمّ لقيه عبد الرحمٰن ابن أبي بكر، فقال له معاوية: لا أهلًا ولا مرحبًا! شيخ قد خرف وذهب عقله؛ ثمّ أمر فضُرب وجه راحلته، ثمّ فعل بابن عمر نحو ذلك، فأقبلوا معه لا يلتفت إليهم حتى دخل المدينة، فحضروا بابه، فلم يؤذن لهم على منازلهم ولم يروا منه ما يحبّون، فخرجوا إلى مكّة فأقاموا بها، وخطب معاويةُ بالمدينة فذكر يزيد فمدحه وقال: مَنْ أحقّ منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه؟ وما أظنّ قومًا بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتثّ أصولهم، وقد أنذرتُ إن أغنت النُّذُر؛ ثم أنشد متمثّلًا:

قد كنتُ حذّرْتُك آل المصطلِقْ وقلتُ يا عمرو أطِعْني وانطلِقْ
إنّكَ إنْ كلّفتَني ما لم أُطِقْ ساءكَ ما سرّكَ منّي من خُلُقْ
دونَكَ ما استسقيتَه فاحسُ وذُقْ

معاوية يشكو إلى عائشة؟!

ثمّ دخل على عائشة، وقد بلغها أنّه ذكر الحسين وأصحابه، فقال: لأقتلنّهم إن لم يبايعوا، فشكاهم إليها، فوعظتْه وقالت له: بلغني أنّك تتهدّدهم بالقتل، فقال: يا أُمَّ المؤمنين هم أعزّ من ذلك ولكنّي بايعتُ ليزيد وبايعه غيرُهم، أفترين أن أنقض بيعة قد تمّت؟ قالت: **فارفقْ بهم فإنّهم يصيرون إلى ما تحبّ إن شاء اللّه**. قال: أفعلْ. وكان في قولها له: ما يؤمنك أن أُقعد لك رجلًا يقتلك وقد فعلتَ بأخي ما فعلتَ؟ تعني أخاها محمّدًا. فقال لها: كَلّا يا أمّ المؤمنين، إنّي في بيت أمن. قالت: أجل...

معاوية يأخذ البيعة قهْرًا؟!

ومكث بالمدينة ما شاء اللّه ثمّ خرج إلى مكّة فلقيه الناس، فقال أولئك النفر: نتلقّاه فلعلّه قد ندم على ما كان منه، فلقوه ببطن مَرّ، فكان أوّل من لقيه الحسينُ،

فقال له معاوية: مرحبًا وأهلًا يابن رسول اللّه وسيّد شباب المسلمين! فأمر له بدابّة فركب وسايره، ثمّ فعل بالباقين مثل ذلك وأقبل يسايرهم لا يسير معه غيرهم حتى دخل مكّة، فكانوا أوّل داخل وآخر خارج، ولا يمضي يوم إلّا ولهم صلة ولا يذكر لهم شيئًا، حتى قضى نسكه وحمل أثقاله وقرب مسيره، فقال بعض أولئك النفر لبعض: لا تُخْدَعوا فما صنع بكم هذا لحبّكم وما صنعه إلّا لما يريد. فأعدّوا له جوابًا فاتّفقوا على أن يكون المخاطب له ابن الزّبير.

فأحضرهم معاويةُ وقال: وقد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم وحملي ما كان منكم، ويزيد أخوكم وابن عمّكم وأردتُ أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتُؤمّرون وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم في شيء من ذلك. فسكتوا. فقال: ألا تجيبون؟ مرّتين.

ثمّ أقبل عليّ بن الزّبير، فقال: هات لعمري إنّك خطيبهم. فقال: نعم، نخيّرك بين ثلاث خصال. قال: اعرضهن. قال: تصنع كما صنع رسول اللّه، ﷺ، أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر. قال معاوية: ما صنعوا؟ قال: قُبض رسول اللّه، ﷺ، ولم يستخلف أحدًا فارتضى الناس أبا بكر. قال: ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف. قالوا: صدقتَ فاصنع كما صنع أبو بكر فإنّه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه، وإن شئتَ فاصنعْ كما صنع عمر، جعل الأمر شورى في ستّة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه. قال معاوية: هل عندك غير هذا؟ قال: لا. ثمّ قال: فأنتم؟ قالوا: قولنا قوله. قال: فإنّي قد أحببتُ أن أتقدّم إليكم، إنّه قد أعذر من أنذر، إنّي كنتُ أخطب فيكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذّبني على رؤوس الناس فأحمل ذلك وأصفح، وإنّي قائم بمقالة فأقسم باللّه لئن ردّ عليّ أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يُبقينّ رجل إلّا على نفسه.

ثمّ دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال: أقمْ على رأس كلّ رجل من هؤلاء رجلين ومع كلّ واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم يردّ عليّ كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما. ثمّ خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر فحمد اللّه وأثنى

عليه ثمّ قال: إنّ هؤلاء الرّهط سادة المسلمين وخيارهم لا يُبَتُّ أمر دونهم ولا يُقضى إلّا عن مشورتهم، وإنّهم قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم اللّه! فبايع الناس، وكانوا يتربّصون بيعة هؤلاء النفر، ثمّ ركب رواحله وانصرف إلى المدينة، فلقي الناس أولئك النفر فقالوا لهم: زعمتم أنكم لا تبايعون فلِمَ أُرضيتم وأُعطيتم وبايعتم؟ قالوا: واللّه ما فعلنا. فقالوا: ما منعكم أن تردّوا على الرجل؟ قالوا: كادنا وخفنا القتل.

وبايعه أهلُ المدينة، ثمّ انصرف إلى الشام وجفا بني هاشم، فأتاه ابنُ عبّاس فقال له: ما بالك جفَوْتَنا؟ قال: إنّ صاحبكم لم يبايع ليزيد فلم تُنْكروا ذلك عليه. فقال: يا معاوية إنّي لخليق أن أنحاز إلى بعض السواحل فأقيم به ثمّ أنطق بما تعلم حتى أدع الناس كلّهم خوارج عليك. قال: يا أبا العبّاس تُعطون وترضون وتُرادون!!!.

* * *

أقول... كانت هذه الأحداث تجري بالمدينة على مقربة... من أمِّ المؤمنين عائشة...

وكانت تتألم مما يجري حولها من ألاعيب السياسة...
إلّا أنَّ الأمور قد ذهبت إلى أيدي بني أمية...
وأصبحت أم المؤمنين... لا تملك إلا الإنكار...
وإن الأنكار لا يُغَيِّر من الأمر شيئًا!!!.

وفاة...
أمّ المؤمنين...
عائشة...
عليها السلام...؟!

قال ابن الأثير:

«ثم دخلت سنة ثمان وخمسين...

«وفيها تُوفّيت عائشة... عليها السلام.».

* * *

وقال صاحب «أُسْد الغابة... في معرفة الصحابة»:

«وتوفيت عائشة سنة سبع وخمسين...

«وقيل: سنة ثمان وخمسين...

«ليلة الثلاثاء... لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان...

«وأمرت أن تدفن بالبقيع ليلاً...

«فدُفنت... وصلى عليها أبو هريرة...

«ونزل في قبرها خمسة... عبدالله... وعروة ابنا الزبير... والقاسم بن محمد بن أبي بكر... وعبد الله بن محمد بن أبي بكر... وعبدالله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر...».

كانت...

من أكبر...

فقهاء الصحابة...؟!

عن عائِشةَ[١]...

«أمِّ المؤمنينَ... رضي الله عنها...

«أنَّ الحَرِثَ بنَ هِشامٍ... رضي الله عنه...

«سَألَ رسولَ الله... ﷺ... فقالَ:

«يا رسولَ اللهِ... كيفَ يأْتِيكَ الْوَحْيُ؟...

«فقالَ رَسولُ اللهِ... ﷺ:

«أحْيانًا يأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ... وهُوَ أشَدُّهُ عَلَيَّ...

فَيفْصَمُ عنِّي وقد وَعَيْتُ عنه ما قال...

«وأحْيانًا يتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا... فيُكَلّمني... فأَعِي ما يَقُولُ...

«قالَتْ عائشةُ رضي الله عنها:

ولَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عليهِ الوَحْيُ في اليَوْمِ الشَّدِيدَ البَرْدِ... فيَفْصِمُ عنهُ وإنَّ جَبِينَهُ لَيتَفَصَّدُ عَرَقًا».

[أخرجه البخاري]

«عائشة» وحكي... عيشة... لغة فصيحة...

تزوجها رسول الله... ﷺ... بمكة قبل الهجرة بسنتين... وقيل بثلاث... وقيل

---

(١) نستفتح بهذا الحديث ما اخترناه من صحيح البخاري وما اقتبسناه من شرح الإمام العيني للأحاديث المختارة.

بسنة ونصف أو نحوها في شوال[1]...

وبنى بها في شوال أيضًا بعد وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة...

أقامت في صحبته ثمانية أعوام... وخمسة أشهر...

وتوفي عنها وهي بنت ثماني عشرة... وعاشت خمسًا وستين سنة...

من أكبر فقهاء الصحابة؟!

وكانت من أكبر فقهاء الصحابة...

وأحد الستة الذين هم أكثر الصحابة رواية...

٢٢١٠ أحاديث؟!

روي لها... ألفا حديث... ومائتا حديث... وعشرة أحاديث...

اتفق البخاري ومسلم على مائة وأربعة وسبعين حديثًا...

وانفرد البخاري بأربعة وخمسين... ومسلم بثمانية وخسمين...

روى عنها جماعات من الصحابة؟!

روت عن خَلْق من الصحابة...

وروى عنها جماعات من الصحابة والتابعين...

قريب من المائتين...

ماتت بعد الخمسين... إمّا سنة خمس أو ست أو سبع أو ثمان... في رمضان...

وأمرت أن تدفن ليلًا بعد الوتر... بالبقيع... وصلى عليها أبو هريرة... رضي اللّه تعالى عنه...

---

(١) لاحظ هنا الاختلاف في تاريخ خطبة عائشة وسيأتي بعد سطور الخلاف في سنّها عند الوفاة... وهذا يؤيد رأي العقاد أنها كانت قد قاربت الرابعة عشرة عند زفافها.

هل هي أفضل أم خديجة؟!

وهل هي أفضل من خديجة بنت خويلد؟...

فيه خلاف...

فقال بعضهم: عائشة أفضل...

وقال آخرون: خديجة أفضل...

وبه قال القاضي... والمتولي... وقطع ابن العربي المالكي وآخرون...

وهو الأصح...

هل هي أفضل أم فاطمة؟!

وكذلك الخلاف موجود...

هل هي أفضل أم فاطمة؟...

والأصح أنها أفضل من فاطمة...

وسمعت بعض أساتذتي الكبار... أن فاطمة أفضل في الدنيا... وعائشة أفضل في الآخرة... والله أعلم...

هل يقال فيهنَّ أُمَّهات المؤمنات؟

فإن قلتَ: ما أصل قولهم في عائشة وغيرها من أزواج النبي عليه الصلاة والسلام... أم المؤمنين؟...

قلتُ: أخذوه من قوله تعالى ﴿وأَزْواجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾...

وقرأ مجاهد: وهو أبٌ لهم...

وهُنَّ أُمَّهات في وجوب احترامهن وبرِّهن... وتحريم نكاحهن...

لا في جواز الخلوة والمسافرة وتحريم نكاح بناتهن... وكذا النظر في في الأصح...

وهل يقال لإخوتهن أخوال المسلمين... ولأخواتهنّ خالات المؤمنين...

ولبناتهن أخوات المؤمنين؟...

فيه خلاف عند العلماء... والأصح المنع لعدم التوقيف...

قالوا: ولا يقال آباؤهن وأمهاتهن أجداد المؤمنين وجداتهم...

وهل يقل فيهن أمهات المؤمنات؟...

فيه خلاف... والأصح أنه لا يقال... بناء على الأصح أنهن لا يدخلن في خطاب الرجال... وعن عائشة رضي اللّه عنها أنها قالت: أنا أمّ رجالكم لا أمّ النساء...

هَوَ كأبينا؟!

وهل يقال للنبي عليه السلام... أبو المؤمنين؟..

فيه وجهان...

والأصح الجواز... ونص عليه الشافعي أيضًا... أي فِي الحرمة..

ومعنى قوله تعالى ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ﴾ لصُلْبه...

وعن الأستاذ أبي إسحاق أنه لا يقال أبونا... وإنما يقال هو كأبينا...

لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إنَّما أنا لكم كالوالد»...

مِنْ علامات...

عبقرية...

عائشة...؟!

عنْ عائِشَةَ... قالَتْ:

«كانَ رسولُ اللّهِ... ﷺ...

«إذَا أَمَرَهُمْ أمَرَهُمْ مِنَ الأعمالِ بما يُطيقُونَ...

«قَالُوا: إنَّا لسْنا كَهيئَتِكَ يا رسولَ اللّهِ... إنَّ اللّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ...

«فَيَغْضَبُ حتى يُعْرَف الغَضَبُ في وَجْهِهِ... ثمَّ يقُولُ: إنَّ أتْقَاكُمْ وأعْلَمَكُمْ باللّهِ أَنَا.»».

[أخرجه البخاري]

«**إذا أَمَرَهُم أَمَرَهُم من الأعمالِ**» أي إذا أمر الناس بعمل أمرهم بما يطيقون... ظاهره أنه كان يكلفهم بما يطاق فعله...

لكن السياق دلَّ علَى أن المراد أنه يكلفهم بما يطاق الدوام على فعله...

فإن قلتَ: النبي... ﷺ... معصوم عن الكبائر والصغائر... فما ذنبه الذي غفر له؟...

قلتُ: المراد منه ترك الأولى والأفضل... بالعدول إلى الفاضل وترك الأفضل... كأنه ذنب لجلالة قدر الأنبياء عليهم السلام...

ويقال: المراد منه ذنب أمته...

«**أتْقَاكُم**» إشارة إلى كمال القوة العملية...

«**وأعْلَمَكُم**» إلى كمال القوة العلمية...

ولما كان عليه السلام... جامعًا لأقسام التقوى... حاويًا لأقسام العلوم...

ما خصّص التقوى ولا العلم وأطلق...

وهذا قريب مما قال علماء المعاني قد يقصد بالحذف إفادة العموم والاستغراق...

ويعلم منه أن رسول اللّه... ﷺ... كما أنه أفضل من كل واحد... وأكرم عند اللّه وأكمل...

لأن كمال الإنسان منحصر في الحِكمَتين العلمية والعملية...

وهو الذي بلغ الدرجة العليا... والمرتبة القصوى منهما... يجوز أن يكون أفضل وأكرم وأكمل من الجميع...

حيث قال: ﴿أتقاكم وأعْلَمَكُم﴾ خطابًا للجميع...

استنباط الفوائد؟!

وهو على وجوه..

الأول: إن الأعمال الصالحة ترقي صاحبها إلى المراتب السنية من رفع الدرجات ومحو الخطيئات... لأنه عليه السلام لم ينكر عليهم استدلالهم من هذه الجهة بل من جهة أخرى...

الثاني: إن العبادة الأَوْلى فيها القصد وملازمة ما يمكن الدوام عليه...

الثالث: إن الرجل الصالح ينبغي أن لا يترك الاجتهاد في العمل اعتمادًا على صلاحه...

الرابع: إن الرجل يجوز له الإخبار بفضيلته إذا دعت إلى ذلك حاجة...

الخامس: إنه ينبغي أن يحرص على كتمانها فإنه يخاف من إشاعتها زوالها...

السادس: فيه جواز الغضب عند رد أمر الشرع... ونفوذ الحكم في حال الغضب والتغير...

السابع: فيه دليل على رفق النبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... بأمّته... وأن الدين يسر... وأن الشريعة حنيفية سمحة...

الثامن: فيه الإشارة إلى شدة رغبة الصحابة في العبادة... وطلبهم الازدياد من الخير...

* * *

أقول...

التاسع: فيه عبقرية عائشة... وقوة ملاحظتها... وتوقد ذكائها...

فَهِمَتْ المراد من توجيه رسول اللّه... ﷺ...

وأشارت إلى ذلك بقولها:

«إذا أَمَرَهُم... أَمَرَهُم من الأعمال بما يُطيقون»!!!.

إنها شربت من الكأس المقدسة...

شربت شرابًا طهورًا...

إنها تفهم سريعًا... عن رسول اللّه... ﷺ...

بما آتاها اللّه من استعداد عظيم...

وبما أفاض عليها الرسول العظيم... ﷺ... من أنوار وأسرار!!!.

مَنْ هذِه...

يا عائشة...؟!

عَنْ هِشَام... قال:

«أَخْبَرَنِي أَبِي... عَنْ عائِشَةَ...

«أن النبيَّ... ﷺ... دَخَلَ عَلَيْها... وعِنْدَها امرأةٌ...

«قالَ: مَنْ هَذِهِ؟...

«قالَتْ: فُلَانَةُ...

«تَذْكُرُ مِن صَلَاتِها...

قالَ: مَهْ... عَلَيْكُمْ بِما تُطِيقُونَ...

«فَوَاللّهِ لا يَمَلُّ اللّهُ حتَّى تَمَلُّوا...

«وكانَ أحَبَّ الدِّينِ إلَيْهِ ما دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ.».

[أخرجه البخاري]

أخرجه البخاري أيضًا في كتاب الصلاة وقال فيه: «كانت عندي امرأة من بني أسد»...

وسماها مسلم... لكن قال فيه... إن الحولاء بنت تويت بن حبيب بن أسد بن عبد العزى... مرّت بها... وعندها رسول اللّه... ﷺ... فقال: هذه الحولاء بنت تويت وزعموا أنها لا تنام الليل... فقال عليه الصلاة والسلام: «خذوا من العمل ما تطيقون فواللّه لا يسأم اللّه حتى تسأموا»...

وذكره مالك في الموطأ وفيه «فقيل له: هذه الحولاء... لا تنام الليل»... فكره ذلك رسول اللّه... ﷺ... حتى عرفت الكراهية في وجهه»...

«**فُلانَةُ**» أي الحولاء الأسدية...

«**مَهْ**» ومعناه اكفف...

«**عليكم**» أي الزموا من الأعمال ما تطيقون الدوام عليه...

«**لا يملُّ اللّهُ**» من الملالة وهي السآمة والضجر...

«**أحَبَّ الدينِ**» أي أحب الطاعة...

«**داوَمَ**» من المداومة وهي المواظبة.

المعاني؟!

قوله «**مَهْ**» زجر... ولكن يحتمل أن يكون لعائشة... والمراد نهيها عن مدح المرأة...

ويحتمل أن يكون المراد النهي عن تكلف عمل لا يطاق به... ولهذا قال بعده: «عليكم من العمل ما تطيقون»...

وقال ابن التين: لعل عائشة أمنت عليها الفتنة... فلذلك مدحتها في وجهها...

قلت: جاء في رواية حماد بن سلمة عن هشام في هذا الحديث ما يدل على أنها إنما ذكرت ذلك بعد أن خرجت المرأة... أخرجها الحسن بن سفيان في مسنده من طريقه ولفظه:

«كانت عندي امرأة... فلما قامت قال رسول اللّه... ﷺ: مَن هذه يا عائشة؟...

«قلت: يا رسول اللّه... هذه فلانة... وهي أعبد أهل المدينة»...

قوله «**من العمل**» يحتمل أن يريد به صلاة الليل... لوروده على سببه...

ويحتمل أن يحمل على جميع الأعمال...

قوله: ﴿**فواللّهِ لا يَمَلُّ اللّهُ حتَّى تَمَلُّوا**﴾ أي لا يترك الثواب على العمل ما لم يذكر العمل...

أو: لا يمل إذا مللتم...

أو: إن اللّه لا يمل أبدًا... مللتم أنتم... أو لم تملوا...

استنباط الأحكام؟!

فيه فضيلة الدوام على العمل... والحث على العمل الذي يدوم... والعمل القليل الدائم خير من الكثير المنقطع... لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على اللّه سبحانه وتعالى... ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافًا كثيرة...

وفيه بيان شفقة النبي... ﷺ... ورأفته بأمّته... لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم... وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقّة... لأن النفس تكون فيه أنشط... ويحصل منه مقصود الأعمال... وهو الحضور فيها... والدوام عليها... بخلاف ما يشق عليه... فإنه تعرض لأن يترك كله أو بعضه... أو يفعله بكلفة فيفوته الخير العظيم...

وفيه دليل للجمهور على أن صلاة جميع الليل مكروهة...

* * *

أقول... وفيه دليل على أن أمّ المؤمنين عائشة كانت تَتَزَكَّى من أنوار رسول اللّه... ﷺ... رأسًا... بلا واسطة أو حجاب...

يقول لها: مَن هذه ياعائشة؟...

فتقول: هذه فُلانة... وهي أعبد أهل المدينة...

إن عائشة تمتدح الحولاء الأسدية... أنَّها لا تنام الليل...

هذا تصوّر عائشة...

لكن انظر إلى عظمة رسول اللّه... ﷺ... حين سمع ما قالت!!!

«فَكَرِهَ ذلك رسول اللّه... ﷺ... حتى عرفت الكراهية في وجهه»!!!.

ها هنا النبوة... أعلى نبوة!!!

ها هنا الميزان... أدقّ ميزان!!!

«مَهْ...

«عليكُمْ بما تُطيقُونَ...

«فَواللّهِ... لا يَمَلُّ اللّهُ حتَّى تَمَلُّوا...»!!!
وتلقت عائشة التوجيه الشريف... من فمه الشريف...
وعَلِمَتْ ما لم تكن تعلم...
أنَّ قيام الليل كله في عبادة اللّه... ليس مطلوبًا...
وإنما بعض الليل للعبادة!!!
وبعضة لراحة البدن!!!
وبعضه لحقّ الزوج!!!
هنالك تعلمت عائشة رأسًا من رسول اللّه... ﷺ...
لتتعلم مِن بعدها... الأُمَّة كلها... إلى يوم القيامة!!!.

عائشة تُصَلِّي...
صلاةَ الكسوف...
خَلْف رسول اللّه...
صلى اللّه عليه وسلم...؟!

إذا سأل سائل:

مِن أين لعائشة... هذا المستوى الرفيع... الذي كانت عليه... فقْهًا... وعِلمًا... وخُلُقًا... وذَوْقًا؟!

كان الجواب: مِن رسول اللّه... ﷺ... رأسًا بلا حجاب!!!.

وإليك مشهدًا جميلًا... شهدته مع رسول اللّه... ﷺ...

لتتعلم منه كيف كانت عائشة تصبر نفسها على الطاعات... وتحرص عليها!!!.

«عن فاطمةَ...

«عنْ أسْماءَ... قالَتْ:

«أَتَيتُ عائشةَ وهِيَ تُصَلِّي...

«فقُلْتُ: ما شأنُ الناسِ؟...

«فأشارَتْ إلى السماءِ...

«فإذا الناسُ قِيامٌ...

«فقالتْ: سُبحانَ اللّهِ...

«قُلْتُ: آيَةٌ؟...

«فأشارَتْ برَأْسِها... أَيْ نَعَمْ...

«فقُمْتُ حتَّى تَجَلَّانِي الغَشْيُ...

فَجَعَلْتُ أصُبُّ على رأسِي الماءَ...

«فحَمِدَ اللّهَ عزَّ وجَلَّ... النبيُّ ﷺ... وأثنى عليْهِ... ثمَّ قالَ:

«ما مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيْتُهُ إلّا رَأَيْتُهُ في مَقامِي... حتَّى الجنَّةُ والنارُ...

«فأُوْحيَ إلَيَّ أنَّكُمْ تُفْتَنُونَ في قُبُورِكُمْ مِثْلَ... أوْ قَرِيبَ...

«لا أَدْرِي أيَّ ذَلِكَ قالَتْ أسْمَاءُ؟...

«مِنْ فِتْنَةِ المسيحِ الدجَّالِ...

«يُقالُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟...

«فأمَّا المؤمِنُ... أو المُوقِنُ...

«لا أدْرِي بِأيِّهما قالَتْ أسْمَاءُ؟...

«فيقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رسولُ اللّهِ... جاءَنا بالبيِّناتِ والهُدَى... فأجَبْنا واتَّبَعْنا...

«هُوَ مُحَمَّدٌ... ثَلاثًا...

«فيُقَالُ: نَمْ صَالِحًا... قَدْ عَلِمْنا إنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا بِهِ...

«وأمَّا المُنَافِقُ... أو المُرْتابُ...

«لا أدْرِي أيَّ ذَلِكَ قالَتْ أسْمَاءُ؟...

«فيقولُ: لا أدْرِي... سَمِعْتُ الناسَ يقولونَ شَيْئًا فقُلْتُهُ.».

[أخرجه البخاري]

«حتى تَجَلَّاني الْغَشْيُ» بمعنى الغشاوة... وذلك لطول القيام وكثرة الحر... ولذلك قالت فجعلت أصب على رأسي أو على وجهي من الماء..

«تُفْتَنُونَ» تمتحنون...

«المسيحِ الدَّجالِ» من الدجل وهو الكذب والتمويه وخلط الحقِ بالباطل... وكل كذّاب دجّال...

«فقالَتْ» أي عائشة..

«سُبحَانَ اللّهِ» أنزهه من النقائص وصفات المخلوقين...

«آيَةٌ؟» بهمزة الاستفهام...

«في مَقَامِي» بمعنى المكان...

«**حتى الجنةُ والنارُ**» حتى الجنة مرئية والنار...

«**أو المُوقِنُ**» شك من الراوي... وهي فاطمة...

«**قولا ثلاثًا**» أي ثلاث مرات... مرتين بلفظ محمد... ومرة بصفته وهو رسول اللّه... عليه الصلاة والسلام... هو محمد... هو محمد... رسول اللّه...

المعاني؟!

«**ما شأْنُ الناسِ؟**» أي قائمين مضطربين فزعين؟...

«**فأشارت**» **أي عائشة... رضي اللّه عنها...** إلى السماء... تعني انكسفت الشمس... فإذا الناس قيام أي لصلاة الكسوف...

«**آيةٌ**» أي علامة لكون الشمس مخلوقة... داخلة تحت النقص... مسخرة لقدرة اللّه تعالى... ليس لها سلطنة على غيرها... بل لا قدرة لها على الدفع عن نفسها...

«**وأثنى عليه**» الثناء أعم من الحمد... والشكر والمدح أيضًا...

«**ما مِن شيءِ لم أكُنْ أُريتُه إلا رَأيْتُهُ**»

قال العلماء:

يحتمل أن يكون قد رأى رؤية عين... بأن كشف اللّه تعالى له مثلاً عن الجنة والنار... وأزال الحجب بينه وبينها...

وأن يكون رؤية عِلْم ووَحْي بإطلاعه وتعريفه من أمورهما تفصيلاً ما لم يعرفه قبل ذلك...

وقال القرطبي:

ويجوز على هذا القول أن اللّه تعالى مَثَّلَ له الجنة والنار وصوَّرَهما له في الحائط كما تُمَثَّل المرئيات في المرآة...

ويعضده ما رواه البخاري من حديث أنَس في الكسوف... فقال عليه الصلاة والسلام «الجنة والنار ممثلتين في قبلة هذا الجدار»...

وفي مسلم «إني صورت لي الجنة والنار فرأيتهما بدور هذا الحائط»!!!.

التليفزيون قرَّبَ تلك المعجزة للعقول؟!

أقول... ولا حول ولا قوة إلا باللّه...

كانوا حائرين... العلماء الأقدمون...

في تفسير قوله ﷺ: «ما مِنْ شَيءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيتُهُ إلَّا رَأَيْتُهُ في مَقامِي حتَّى الجنَّةُ والنَّارُ»!!!.

فجعلوا يجتهدون في حدود عصورهم... حيث لم يكن هناك راديو ولا تليفزيون... ولا ڤيديو... ولا لاسلكي... ولا أقمار صناعية...

ولو وُجدت هذه الأشياء في عصرهم ليسَّرت عليهم تفهيم الناس ما أخبر به رسول اللّه ﷺ... من أنه رأى الجنة والنار في عرض الحائط... بل وما شاء اللّه له أن يرى من الأكوان والمخلوقات!!!.

أمَّا الآن... في هذا الزمان... الذي مَنَّ اللّه فيه على الإنسان... وعلَّمه ما لم يكن يعلم هو ولا آباؤه...

حيث أصبح التليفزيون ينقل إليك عن الأقمار الصناعية... المناظر بصورها وألوانها وأصواتها... من أي مكان من العالم... أو من الفضاء...

فقد أصبح فَهم ما أخبر به النبي ﷺ ميسورًا... وقريبًا جدًا من عقول اليوم!!!.

إن الإنسان المعاصر... الذي يشهد رائد الفضاء وهو يتجول على سطح القمر... على شاشة التليفزيون وهو في بيته يتمطى ويتثاءب!!!

إن إنسان اليوم لا يجد صعوبة في التصديق بمثل هذه المعجزات... لأنه يشهد ما يُقَرِّب إليه هذه الخوارق!!!.

أمَّا الأقدمون... فإنهم أخذوها تسليمًا وإيمانًا... وجعلوا يقربونها الى العقول ما استطاعوا...

ما أسعد إنسان اليوم!!!

إنَّ العلم وضع بين يديه... وتحت عينيه... ما كان حُلْمًا عندَ الأَقدمين!!!.

* * *

«**بهذا الرجل؟**» ما عِلْمُك بهذا الرجل؟... أي بمحمد عليه الصلاة والسلام...

فإن قلتَ: لم لا يقولان رسول اللّه؟...

قلتُ: لئلا يتلقن المقبور منهما إكرام الرسول ورفع مرتبته فيعظمه تقليدًا لهما لا اعتقادًا...

«**جاءنا بالبينات**» أي بالمعجزات الدالة على نبوته...

«**فأجَبْنا**» أي قبلنا نبوته... معتقدين حقيتها... معترفين بها... واتبعناه فيما جاء به إلينا...

ويقال: الإجابة تتعلق بالعلم... والاتباع بالعمل...

«**صالحًا**» أي منتفعًا بأعمالك وأحوالك...

«**إن كُنْتَ لمُوقِنًا**» إنك مؤمن...

«**وأما المنافق**» أي غير المصدق بقلبه لنبوته...

«**أو المرتاب**» أي الشاك...

استنباط الأحكام؟!

الأول:

فيه كون الجنة والنار مخلوقتين اليوم... وهو مذهب أهل السُنَّة... ويدل عليه الآيات والأخبار المتواترة... وليس للجنّة سماء إلا ما جاء في الصحيح... يعني قوله: «سقفها عرش الرحمن»...

الثاني:

فيه إثبات عذاب القبر... مع غيره من الأدلة... وهو مذهب أهل السّنّة والجماعة...

وإحياء الميت... تواترت الأخبار بذلك... وباستعاذة النبي ﷺ من عذاب القبر...

الثالث:

فيه سنّـيّة صلاة الكسوف... وتطويل القيام فيها...

الرابع:

فيه مشروعية هذه الصلاة للنساء...

الخامس:

فيه جواز حضورهن وراء الرجال في الجماعات...

السادس:

فيه جواز التسبيح للنساء في الصلاة...

وفيما نحن فيه القصة جرت بين الأختين...

والمقصود من تخصيص التصفيق بهن أن لا يسمع الرجال صوتهن...

سؤال وجواب؟!

هل فيه دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام... رأى في هذا المقام... ذات اللّه سبحانه وتعالى؟...

أجيب: نعم... إذ الشيء يتناوله... والعقل لا يمنعه... والعرف لا يقتضي إخراجه!!!.

أقول... هذا الحديث الجميل مفتاح رائع من مفاتيح عظمة الشخصية...

ذلك أن عائشة خَلْف رسول اللّه... ﷺ...

تصلي خلفه صلاة طويلة... في حرٍّ شديد...

ثم تستمع إلَيه وهو يعلن عجائب المعجزات التي عُرضت عليه!!!

ما مِن شيء... لم أكن أُريتُهُ... إلا رأيتُهُ... في مقامي... حتى الجنةُ والنارُ!!!

إنها تتعلم عمليًا صلاة الكسوف...

ثم تتعلم علميًّا عجائب العلوم... وغرائب الغيوب... وهي تسمعه يقول ما يقول... وما أعظم ما يقول!!!.

من هنا... من مثل هذه المشاهد... وهذه المسامع...

كانت تتكون شخصية الصدِّيقة بنت الصِّديق...
لأنها سوف تجلس في مقام الإمامة بعد وفاة النبيّ... ﷺ...
تُعلِّم الأجيال إلى يوم القيامة!!!.

عائشةِ...

كانَتْ لا تَسْمَعُ شيْئًا لا تَعْرِفُهُ...

إلا راجَعَتْ فِيهِ...؟!

وهذه صفة عليا... من صفات عائشة... تدل على أنها كانت حريصة على التعلم...

«حدّثني ابنُ أبي مُلَيْكَةَ...

«أن عائِشَةَ... زَوْجَ النبيِّ... ﷺ...

«كانَتْ لا تَسْمَعُ شَيْئًا لا تَعْرِفُهُ... إلّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ...

«وأنَّ النبيَّ... ﷺ... قالَ:

«مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ...

«قالَتْ عائشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَ لَيْسَ يَقُولُ اللّهُ تعالَى فسوفَ يُحاسَبُ حِسابًا يَسِيرًا؟...

«قالَتْ: فقالَ: إنَّمَا ذَلِكَ العَرْضُ...

«وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكْ».

[أخرجه البخاري]

«زَوْج النبيِّ» ﷺ... زوج الرجل امرأته... وزوج المرأة بعلها... قال اللّه تعالى ﴿اسكُنْ أنتَ وَزَوْجُكَ الجنَّةَ﴾... ويقال أيضا هي زوجته... والأول هو الأفصح...

«العَرْضُ» عرضت له الشيء... أي أظهرته وأبرزته إليه...

«مَن نُوقِشَ» من المناقشة... وهي الاستقصاء في الحساب... حتى لا يترك منه شيء...

«قالَتْ» أي عائشة...

«**فقالَ**» أي النبي عليه الصلاة والسلام...

«**عُذِّبَ**» له معنيان... أحدهما أن نفس مناقشة الحساب يوم عرض الذنوب... والتوقيف على قبيح ما سلف له تعذيب وتوبيخ... والآخر أنه مفض إلى استحقاق العذاب إذ لاحسنة للعبد يعملها إلا من عند الله وبفضله وإقداره له عليها... وهدايته لها... وإن الخالص لوجهه تعالى من الأعمال قليل... ويؤيده قوله «**يَهْلِكْ**» مكان عُذِّبَ...

«**يَسِيرًا**» أي سهلًا هيّنًا... لا يناقش فيه... ولا يتعرض بما يشق عليه... كما يناقش أصحاب الشمال...

فإن قلتَ: ما وجه المعارضة ها هنا... أعني بين الحديث والآية؟...

قلتُ: وجهها أن الحديث عام... في تعذيب من حوسب... والآية تدل على عدم تعذيب بعضهم... وهم أصحاب اليمين...

وجوابها... أن المراد من الحساب في الآية العرض... يعني الإبراز والإظهار...

وعن عائشة... رضي الله عنها... هو أن يعرف ذنوبه ثم يتجاوز عنه...

«**مَن نُوقِشَ**» المعنى أن التقصير غالب على العباد... فمن استقصي عليه ولم يسامح هلك... وأدخل النار... ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن شاء...

وقيل... إن المناقشة في الحساب نفسها هو العذاب...

لما روي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من يحاسب يعذب... فقيل: يا رسول الله فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا... قال: ذلكم العرض... من نوقش في الحساب عُذب» - وفيه نظر -

استنباط الأحكام؟!

الأول:

فيه بيان فضيلة عائشة... رضي الله عنها...

وحرصها على التعلم والتحقيق...

فإن رسول اللّه... ﷺ... ما كان يتضجر من المراجعة إليه...
الثاني:
فيه إثبات الحساب والعرض...
الثالث:
فيه إثبات العذاب يوم القيامة...
الرابع:
فيه جواز المناظرة... ومقابلة السُنَّة بالكتاب...
الخامس:
فيه تفاوت الناس في الحساب...

* * *

أقول... وهذه صفة عليا من صفات شخصية عائشة...
صفة تتبع الحقائق للوصول إلى العِلْم الصحيح من الأمور!!!.

رسولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم...
يقول لعائشةَ رضي اللّه عنها...:
«إِنَّكُنَّ صَواحِبُ يُوسُفَ...
مُرُوا أبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ»...؟!

قال الأسْوَدُ:

«كُنَّا عِنْدَ عائِشةَ... رضي اللّهُ عنها...

«فَذَكَرْنا المُواظَبَةَ على الصلاةِ والتعظيمَ لَهَا...

«قالَتْ: لمَّا مَرِضَ رسولُ اللّه... ﷺ... مَرَضَهُ الَّذِي ماتَ فِيهِ...

«فَحَضَرَتِ الصَّلاةُ... فَأُذِّنَ...

«فقالَ: مُرُوا أبا بَكْر فَلْيُصَلِّ بالناسِ...

«فقيلَ لَهُ: إنَّ أبا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ... إذا قامَ في مَقَامِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يُصَلِّيَ بالناس...

«وأعادَ...

«فأعادُوا لَهُ...

«فأعادَ الثالثَةَ...

«فقالَ: إنَّكُنَّ صَواحِبُ يُوسُفَ...

مُرُو أبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ...

«فخَرَجَ أبُو بَكْرٍ فصَلَّى...

«فوَجَدَ النبيُّ... ﷺ... مِن نَفْسِهِ خِفَّةً...

«فَخَرَجَ يُهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ... كأنِّي أَنظُرُ رِجْلَيْهِ تَخُطَّانِ الأرضَ مِنَ الوَجَعِ...

«فأرادَ أبو بَكْرٍ أن يَتَأَخَّرَ...
«فأوْمأ إليْهِ النبيُّ... ﷺ... أنْ مَكَانَكَ...
«ثُمَّ أُتِيَ بِهِ...
«حتَّى جَلَسَ إلَى جَنْبِهِ...
«قيلَ للأَعْمَشِ: وكانَ النبيُّ... ﷺ... يُصَلِّي وأبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِصَلاتِهِ... والنَّاسُ يُصَلُّونَ بصَلَاةِ أبي بَكْرٍ...
«فقالَ برَأْسِهِ نَعَمْ».

[أخرجه البخاري]

«مرضَهُ الذي ماتَ فيهِ» ذلك كان بعد أن اشتد به المرض... واستقرَّ في بيت عائشة...

«فأُذِّنَ» على صيغة المجهول من التأذين...

«مُرُوا» هذا أمر من رسول اللّه... ﷺ... لأبي بكر...

«فليُصَلِّ بالناسِ» تقديره فقولوا له قَوْلي فليُصَلِّ...

«فقِيلَ لَهُ» قائل ذلك عائشة... كما جاء في بعض الروايات...

«أَسِيفٌ» من الأسف وهو شدة الحزن...

والمراد أنه رقيق القلب... سريع البكاء... ولا يستطيع لغلبة البكاء وشدة الحزن...

والأسف عند العرب شدة الحزن والندم...

ومنه قول يعقوب عليه الصلاة والسلام (يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ) يعني واحزناه... واجزعاه... تأسفًا وتوجعًا لفقده...

ومن حديث ابن عمر في هذه القصة «فقالت له عائشة إنه رجل رقيق القلب إذا قرأ غلبه البكاء»...

ومن رواية مالك عن هشام عن أبيه عنها بلفظ قالت عائشة «قلت: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء... فمُر عمر رضي اللّه تعالى عنه»...

«وأعادَ» أي رسول اللّه... ﷺ... مقالته في أبي بكر بالصلاة...

«**فأعادوا له**» أي مَن كان في البيت... يعني الحاضرون له مقالتهم في كون أبي بكر أسيفًا...

فإن قلْتَ: الخطاب لعائشة كما ترى فما وجه الجمع؟...

قلتُ: جَمَعَ لأنهم كانوا في مقام الموافقين لها على ذلك...

ووقع في حديث أبي موسى بالإفراد... ولفظه فعادت...

وفي رواية ابن عمر فعاودته...

«**فأعاد الثالثة**» أي فأعاد عليه الصلاة والسلام المرة الثالثة في مقالته تلك...

وفي رواية أخرى «فراجعته مرتين أو ثلاثًا»...

وفي اجتهاد عائشة في أن لا يتقدم والدها وجهان...

أحدهما: ما هو مذكور في بعض طرقه...

(قالت) وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس من بعده رجلًا قام مقامه أبدًا...

وكنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلّا تشاءم الناس به... فأردت أن يعدل ذلك رسول اللّه... ﷺ... عن أبي بكر...

الوجه الثاني:

أنها علمت أن الناس علموا أن أباها يصلح للخلافة... فإذا رأوه استشعروا بموت رسول اللّه... ﷺ... بخلاف غيره...

«**إِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ**» أي مثل صواحبه... في التظاهر على ما يردن من كثرة الإلحاح فيما يمكن إليه...

وذلك لأن عائشة وحَفْصَة بالغتا في المعاودة إليه في كونه أسيفًا لا يستطيع ذلك...

والصواحب جمع صاحبة...

وقيل يراد بها امرأة العزيز وحدها... وإنما جمعها كما يقال فلان يميل إلى النساء وإن كان مال إلى واحدة...

وعن هذا قيل: إن المراد بهذا الخطاب عائشة وحدها...

كما أن المراد زليخا وحدها في قصة يوسف...

«يُهادَى بين رجُلَيْن» يهادى بين اثنين... إذا كان يمشي بينهما معتمدًا عليهما من ضعفه... متمايلًا إليهما في مشيه من شدة الضعف... والرجلان هما العباس ابن عبد المطلب... وعليّ بن أبي طالب... رضي اللّه تعالى عنهما...

«تَخُطَّانِ الأرضَ» أي لم يكن يقدر على رفعهما من الأرض...

«أنْ مكانَك» إلزم مكانك...

«ثم أُتِيَ به» أي أُتي برسول اللّه... ﷺ... حتى جلس إلى جنبه... وَبيَّن ذلك في رواية الأعمش: حتى جلس عن يسار أبي بكر...

ما يستفاد من هذه القصة؟!

الأول:

فيه الإشارة إلى تعظيم الصلاة بالجماعة.

الثاني:

فيه تقديم أبي بكر وترجيحه على جميع الصحابة...

الثالث:

فيه فضيلة عمر بن الخطاب بعده...

الرابع:

فيه ملاطفة النبي... ﷺ... لأزواجه...

وخصوصًا لعائشة!!!

الخامس:

فيه جواز مراجعة الصغير للكبير.

السادس:

فيه المشاورة في الأمر العام.

السابع:

فيه الأدب مع الكبير حيث أراد أبو بكر التأخر عن الصف...

الثامن:

البكاء في الصلاة لا يبطلها وإن كثر... وذلك لأنه... ﷺ... علم حال أبي بكر في رقة القلب وكثرة البكاء ولم يعدل عنه ولا نهاه عن البكاء.

التاسع:

تأكيد أمر الجماعة والأخذ فيها بالأشد وإن كان المرض يرخص في تركها...

اختلفت الروايات:

هل كان النبي ﷺ... الإمام أو أبو بكر الصديق؟...

فجماعة قالوا الذي رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة صريح في أن النبي ﷺ... كان الإمام إذ جلس عن يسار أبي بكر... ولقوله «فكان رسول الله... ﷺ... يصلي بالناس جالسًا... وأبو بكر قائمًا يقتدي به»... وكان أبو بكر مبلغًا لأنه لا يجوز أن يكون للناس إمامان...

وجماعة قالوا: كان أبو بكر هو الإمام...

لما رواه شعبة عن الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة أن النبي ﷺ صلّى خلف أبي بكر»...

وقال البيهقي: لا تعارض في أحاديثها... فإن الصلاة التي كان فيها النبي... ﷺ... إمامًا هي صلاة الظهر يوم السبت أو يوم الأحد... والتي كان فيها مأمومًا هي صلاة الصبح من يوم الاثنين...

وهي آخر صلاة صلّاها ﷺ... حتى خرج من الدنيا...

وقال نعيم بن أبي هند: الأخبار التي وردت في هذه القصة كلها صحيحة... وليس فيها تعارض... فإن النبي... ﷺ... صلّى في مرضه الذي مات فيه صلاتين في المسجد... في إحداهما كان إمامًا... وفي الأخرى كان مأمومًا...

* * *

أقول... وشرفت عائشة شرفًا عظيمًا...

حينِ قال لها النبي... ﷺ... ولغيرها:
«إِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ...
«مُرُوا أبا بَكْرٍ...
«فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ.»!!!
وفي رواية:
«قالت عائشة:
«إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء... فمُر عمر فليصل بالناس...
«ففعلت حَفْصَةُ...
«فقال: مَهْ... إنَّكُنَّ لأَنْتُنَّ صواحبُ يُوسُفَ... مُرُوا أبا بكرٍ فَلْيُصَلِّ بالناسِ...
«فقالت لعائشة: ما كنتُ لِأُصِيبَ مِنْكِ خَيْرًا.»!!!
وذهبت عائشة بذلك الشرف العظيم!!!.
وأيّ شَرَف هو أعظم مِن أَنْ تُبدي رأْيًا أمام رسول اللّه ﷺ... ثم هو عليه السلام يوجّهها إلى الوجهة المُثلى؟!!.

كانَ يَكُونُ...
في مِهْنَةِ...
أهْلِهِ...؟!

عَنِ الأَسْوَدِ... قالَ:
«سَأَلْتُ عائِشَةَ...
«ما كانَ النبيُّ... ﷺ... يَصْنَعُ في بَيْتِهِ؟...
«قالَتْ: كانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ...
«تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ...
«فإذا حَضَرَت الصَّلَاةُ خَرَجَ إلى الصَّلَاةِ.».

[أخرجه البخاري]

«ما كانَ» كلمة للاستفهام...

«كانَ يكُونُ» فائدة تكرير الكون الاستمرار وبيان أنه ﷺ... كان يداوم عليها...

«في مِهْنَةِ أَهْلِهِ» فسرها في نفس الحديث بقوله: «تعني خدمة أهله»... والمهنة الحذق بالخدمة والعمل... وفي رواية في مهنة بيت أهله...

وقد وقع المهنة مفسرة في الشمائل للترمذي... من طريق عمرة... عن عائشة بلفظ:
«ما كان إلّا بشرًا من البشر...
«يحلب شاته...
«ويخدم نفسه.».

ولأحمد... وابن حبان... من رواية عروة عنها:
«يخيط ثوبه... ويخصف نعله»...

وزاد ابن حبان: «**ويرقع دلوه**»...

وزاد الحاكم في الإكليل: «**وما رأيته ضرب بيده امرأة ولا خادمًا**».

* * *

أقول... من هنا... من هذه الزاوية... زاوية أن عائشة زوج النبي... ﷺ... التي تعاشره وتخالطه في حياته الخاصة... ويتيسر لها أن ترى وتسمع ما ترى الزوجة وتسمع من زوجها...

فإذا تحدثت عنه ﷺ... نقلت إلينا أمورًا لا تتيسر إلّا لزوج النبي ﷺ... بحُكم المعاشرة... والمخالطة...

وهذا التفوق يبقى خاصًا بعائشة... رضي اللّه عنها... لسببين:

أنّها زوج النبي... ﷺ...

وأنّها التي عندها استعداد لأداء هذا الدور بالنسبة إلى الأُمّة كلها من بعد حياة النبي ﷺ!!!.

حَفْصَةُ تقولُ...

لعائشةَ...

«ما كُنْتُ لِأُصِيبَ مِنْكِ خَيْرًا»...؟!

عَنْ عائِشَةَ... أُمِّ المؤمنينَ... رضيَ اللّهُ عَنها... أنَّها قالَتْ:

«إنَّ رسُولَ اللّهِ... ﷺ... قالَ في مَرَضِهِ:

«مُرُوا أبَا بَكْر فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ...

«قالَتْ عائِشةُ: قُلْتُ: إنَّ أبا بَكْرٍ إذا قامَ في مَقامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ البُكاءِ... فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ...

«فقالَتْ عائِشةُ: فقُلْتُ لِحَفْصَةَ:

قُولِي لَهُ إنَّ أبا بَكْرٍ إذا قامَ في مقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ الناسَ مِنَ البُكاءِ... فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ بالناسِ...

«فَفَعَلَتْ حَفْصَةُ...

«فقالَ رسولُ اللّه... ﷺ:

«مَهْ... إنكُنَّ لأَنْتُنَ صَوَاحِبُ يُوسُفَ... مُرُوا أبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ...

«فقالَتْ حَفْصَةُ لِعَائِشَةَ: ما كُنْتُ لِأُصِيبَ مِنْكِ خَيْرًا.».

[أخرجه البخاري]

«مَهْ» معناه اكفف لأنه زجر... فإن وصلت نونت وقلت مهٍ مه...

«إنكُنَّ» ويروى «فإنكن» أي أن هذا الجنس هن اللاتي شوشن على يوسف عليه الصلاة والسلام... وكدرنه... وأوقعنه في الملامة...

* * *

أقول... مشهد على الغاية من الجمال...

أم المؤمنين عائشة تقول لأم المؤمنين حَفْصَة...

- وكان ذلك في حجرة عائشة -

:«قُولِي لهُ... إِنَّ أبا بَكْرٍ إذا قامَ في مَقامِكَ لم يُسْمِعِ النَّاسَ من البُكاءِ... فَمُرْ عُمَرَ... فَلْيُصَلِّ بالناسِ»!!.

فماذا كان من حَفْصة... رضي الله عنها؟!

أطاعت عائشة... وقالت مِثل ما قيل لها!!!

فماذا قال سيد الخَلْق... ﷺ؟!

«مَهْ...

«إِنكُنَّ... لَأَنْتُن صَوَاحِبُ يُوسُفَ... مُرُوا أبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ للناسِ»!!!

قُضِيَ الأمر... وأَمَرَ ﷺ بالحَقِّ!!!

فماذا كان من حَفْصة؟!

«فقالَتْ حَفْصَةُ لعائِشة:

«ما كُنْتُ لِأُصيبَ مِنْكِ خَيْرًا»!!!

فما هو الإشعاع الذي يتشعشع من ذلك المشهد؟!

يتشعشع منه أن عائشة حين قالت لحفصة ما قالت... أطاعتها حفصة... فلمّا كرّر النبي ﷺ... أمره «مُرُوا أبا بَكْرٍ...»...

أدركت حَفْصَةُ أنه ما كان ينبغي لها أن تقول ما قالت...

وجعلت تعتب على عائشة «ما كُنْتُ لِأُصِيبَ مِنْكِ خَيْرًا»!!!.

وواضح من المشهد أنَّ عائشةَ تُوَجِّه حَفْصَةَ إلى ما تريد...

وليست حفصة التي تُوَجِّه عائشةَ...

وهذا يشير إلى أن أُمّ المؤمنين عائشة كان معترَفًا لها بمقامها ذاك... مقام الإمامة!!!.

أُمُّ المؤمنينَ عائشةُ...
تتحدَّث عن مَرَضِ...
رسولِ اللّهِ... ﷺ...
بالتفصيل...؟!

لوْ لَمْ يكن من مشاهد حياتها... مع رسول اللّه... ﷺ... إلا هذا المشهد... لكان حَسْبها شرَفًا وخلودًا...

ها هي تتحدث عن سيد الخَلْق في مرضه... مرض الموت...

ها هي تروي كيف أُغمي عليه... ﷺ... ثلاث مرّات...

وفي كل مَرَّة يسأل: أَصَلَّى الناسُ؟!

إلى آخر تلك المشاهد العُلَى...

لَوْ لَمْ يكن من أمرها رضي اللّه عنها... إلا هذا الحديث الجميل الجليل... لكان كافيًا أن ترتفع إلى أعلى الدرجات...

وها هو الحديث الجميل...

«عَنْ عُبَيْدِ اللّهِ... بنِ عبدِاللّهِ... بنِ عُتْبَةَ... قالَ:

«دخَلْتُ على عائِشةَ فقُلْتُ:

«ألا تُحَدِّثيني عَنْ مَرَضِ رسولِ اللّهِ... ﷺ؟...

قالَتْ: بَلَى... ثَقُلَ النبيُّ... ﷺ...

فقالَ: أَصَلَّى الناسُ؟...

«قُلْنا: لَا... هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ...

«قالَ: ضَعُوا لِي ماءً في المِخْضَبِ...

«قالَتْ: فَفَعَلْنَا... فاغْتَسَلَ...

فَذَهَبَ لِيَنُوءَ... فأُغْمِيَ عَلَيْهِ... ثمَّ أفاقَ...
«فقال ﷺ: أصلَّى النَّاسُ؟...
«قُلْنا: لَا... هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يا رسولَ اللّه...
«قال: ضَعُوا لِي ماءً في المِخْضَبِ...
«قالَتْ: فَقَعَدَ فَاغْتَسَلَ... ثمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ... فأُغْمِيَ عَلَيْهِ...
«ثُمَّ أفَاقَ... فقالَ: أَصَلَّى الناسُ؟...
«فقُلْنا: لَا... وهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يا رسولَ اللّهِ...
«فقالَ: ضَعُوا لِي ماءً في المِخْضَبِ...
«فَقَعَدَ فاغْتَسَلَ... ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فأُغْمِيَ عَلَيْهِ...
«ثُمَّ أفاقَ... فقالَ: أَصَلَّى الناسُ؟...
«فقُلْنا: لَا... هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يا رسولَ اللّهِ...
«والنَّاسُ عُكُوفٌ في المسْجِدِ...
يَنْتَظِرُونَ النبيَّ... ﷺ... لِصلاةِ العِشاءِ الآخِرَةِ...
«فأرْسَلَ النبيُّ... ﷺ... إلى أبي بَكْر بأَن يُصَلِّي بالناسِ...
«فأتاهُ الرسولُ فقال: إنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ... يأْمُرُكَ أنْ تُصَلِّي بالنَّاسِ...
«فقالَ أبُو بَكْر... وكانَ رَجُلًا رَقِيقًا!
يا عُمَرُ صَلِّ بالنَّاس...
«فقالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ...
«فَصَلَّى أبو بَكْرٍ تِلْكَ الأيامَ...
«ثُمَّ إِنَّ النبيَ... ﷺ... وَجَدَ مِنْ نَفَسِهِ خِفَّةً فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ أحَدُهُما العبَّاسُ لِصلاةِ الظُّهْرِ...
وأبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بالنَّاسِ...
«فلَمَّا رَآهُ أبُو بَكرٍ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ...
«فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النبيُّ... ﷺ... بأنْ لا يَتَأخَّرَ...
«قالَ: أَجْلِسَاني إلَى جَنْبِهِ...

«فأَجْلَسَاهُ إلَى جَنْبِ أبي بَكْرٍ...
«قالَ: فَجَعَلَ أبُو بَكْرٍ يُصَلِّي...
«وهُوَ يَأْتَمُّ بصَلَاةِ النَّبِيِّ... ﷺ...
«والناسُ بصَلَاةِ أبِي بَكْرٍ...
«والنبيُّ ﷺ... قاعِدٌ...
«قالَ عُبَيْدُ اللّه: فَدَخَلْتُ عَلَى عَبْداللّهِ بنِ عَبَّاسٍ فقُلْتُ لَهُ: ألَا أَعْرِضُ عَلَيْكَ ما حَدَّثَتْنِي عائِشَةُ عَنْ مَرَضِ النبيِّ... ﷺ؟...
«قالَ: هَاتِ...
«فعَرَضْتُ عليهِ حدِيثَهَا...
«فمَا أَنْكَرَ مِنْهُ شيئًا... غيْرَ أنَّهُ قالَ: أَسَمَّتْ لَكَ الرَّجُلَ الذي كانَ مَعَ العَبَّاسِ؟...
«قلتُ: لا...
«قالَ: هُوَ عَلِيٌّ.».

[أخرجه البخاري]

«بلى» بمعنى نعم... أحدثك...
«لمَّا ثَقُل» يعني لما اشتد مرضه.
«في المِخْضَب» وهو المركن...
«ليَنُوءَ» أي لينهض بجهد...
«فأُغْمِيَ» فيه أن الإغماء جائز على الأنبياء لأنه شبيه بالنوم... وقال النووي: لأنه مرض من الأمراض... بخلاف الجنون فإنه لم يجز عليهم لأنه نقص...
قلتُ: العقل في الإغماء يكون مغلوبًا... وفي المجنون يكون مسلوبًا...
«قلنا: لا» يعني لم يُصَلُّوا...
«عُكُوف» جمع العاكف أي مجتمعون...
«تلك الأيامَ» أي التي كان رسول اللّه... ﷺ... فيها مريضًا غير قادر على الخروج...

«**الصلاةِ الظهرِ**» هو صريح في أن الصلاة المذكورة كانت صلاة الظهر...

«**وهو يَأْتَمُّ بصلاة النبي عليه الصلاة السلام**» ورواية الأكثرين «فجعل أبو بكر يصلي وهو قائم» من القيام...

«**بصلاة النبي ﷺ**» وقد قال الشافعي بأنه عليه الصلاة والسلام لم يصلّ بالناس في مرض موته في المسجد إلا مرة واحدة وهي هذه التي صلّى فيها قاعدًا... وكان أبو بكر فيها إمامًا ثم صار مأمومًا يسمع الناس التكبير...

* * *

أقول:

عُبَيْد اللّه يسألها: ألا تُحَدِّثيني عن مرض رسول اللّه ﷺ؟...

فانطلقت أم المؤمنين عائشة تروي المشهد المقدَّس في أمانة وصدق وحُبٍّ... وتُفَصِّله تفصيلًا!!!

مِن أين لها هذه الرواية التفصيلية... لحظةً لحظة... وكلمةً كلمة؟!!

مِن أنَّ المشهد كان في حجرتها... حيث كان يُمَرَّض رسول اللّه... ﷺ... مرضه الأخير...

وأعجب ما في الأمر أن عائشة تحكي ما حدث مشهدًا مشهدًا... في ترتيب وتتابع وتسلسل...

مثال ذلك أنها قالت في أربع مرات:

الأولى: «أصَلَّى الناسُ؟... قلنا: لا هم ينتظرونك»...

والثانية: «أصَلَّى الناسُ؟... قلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول اللّه»...

وفي الثالثة: «أصلّى الناس؟... فقلنا: لا وهم ينتظرونك يا رسول اللّه!!!

وفي الرابعة: «أصلّى الناس؟... فقلنا: لا... هم ينتظرونك يا رسول اللّه...

أربع مشاهد متتابعة تسجلها كما حدثت بحوارها وألفاظها وتتابعها...

غاية في الإتقان... وغاية في الصدق... وغاية في الذكاء... وقوة الحافظة...

رغم ما هو معلوم عن النساء غالبًا من كثرة النسيان...

إلا أنَّ عائشة لم تنسَ منظرًا واحدًا من المناظر... وإنما سجلتها بتمامها... وصوَّرتها بكمالها...

وهذه خصيصة اختص اللّه بها عائشة رضي اللّه عنها... لتكون خزانة لعلوم الشريعة تختزنها في حياة النبي... ﷺ... ثم تستخرجها بعد وفاته ﷺ... لتنتفع بها الأمَّة كلها إلى يوم القيامة...

ودليل ذلك أنَّ عُبَيد اللّه ذهب يعرض ما حَدَّثت عائشة على عبداللّه بن عبَّاس... فشهد ترجمان القرآن بِصدْقها في جميع ما رَوت...

«قال عُبَيد اللّه: فدخلت على عبداللّه بن عباس... فقلت له: ألا أعرض عليك ما حدثتني عائشة عن مرض النبي ﷺ؟...

«قال: هات...

«فعرضتُ عليه حديثها...

«فما أنكر منه شيئًا...!!!.

فما معنى هذا؟!

معناه أن اللّه أعطى عائشة استعدادًا خاصًا... يجعلها تحفظ ما تسمع... وتعي ما تشهد... ثم تؤديه في صدق تام... إلى السائلين... والمستفسرين...

وهذه خصيصة نادرة في النساء...

فما أكثر ما ينسين وتختلط عليهن الأمور!!!.

رضي اللّه تعالى عن الصدِّيقة بنت الصدِّيق!!!.

عائشة تسأل...

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم...

عن الالتفات في الصلاة...؟!

عَنْ عائشةَ... رضي اللّه عنها... قالَتْ:
«سَأَلْتُ رسولَ اللّهِ... ﷺ... عَنِ الالْتِفاتِ في الصلاة...
«فقال: هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطانُ مِنْ صَلَاةِ العَبْدِ.»».

[أخرجه البخاري]

«هو اختلاسٌ» وهو الاختطاف بسرعة...

«يختلسه الشيطانُ» والمعنى أن المصلّي إذا التفت يمينًا وشمالًا يظفر به الشيطان في ذلك الوقت... ويشغله عن العبادة...

فربما يسهو أو يغلط لعدم حضور قلبه... باشتغاله بغير المقصود... ولما كان هذا الفعل غير مرضى عنه نسب إلى الشيطان...

وعن هذا قال العلماء بكراهة الالتفات في الصلاة...

وقال الطيبي: المعنى من التفت ذهب عنه الخشوع... فاستعير لذهابه اختلاس الشيطان تصويرًا لقبح تلك الفعلة...

أو أن المصلّي مستغرق في مناجاة ربّه وأنه تعالى يقبل عليه... والشيطان كالراصد ينتظر فوات تلك الحالة عنه... فإذا التفت المصلّي اغتنم الفرصة... فيختلسها منه...

وقيل: أضيف إلى الشيطان لأن فيه انقطاعًا من ملاحظة التوجه إلى الحق سبحانه وتعالى...

ثم إن الإجماع على أن الكراهية فيه للتنزيه...

وقال مالك: الالتفات لا يقطع الصلاة...

وقال ابن القاسم: فإن التفت بجميع بدنه لا يقطع الصلاة... ووجه أنه صلى اللّه تعالى عليه وسلم لم يأمر منه بالإعادة حين أخبر أنه اختلاس من الشيطان... ولو وجبت فيه الإعادة لأمرنا بها لأنه نُصب معلمًا...

وممن كان لا يلتفت فيها الصدِّيق والفاروق...

وقال ابن مسعود: إن اللّه لا يزال ملتفتًا إلى العبد ما دام في صلاته ما لم يحدث أو يلتفت...

* * *

أقول... إنَّ عائشة هنا تسأل رسول اللّه... ﷺ... رأسًا...

وها هنا المقام الرفيع الذي نالته أمّ المؤمنين...

إذا أرادت أن تتعلم سألت رسول اللّه... ﷺ... رأسًا!!!.

تقول: سألتُ رسول اللّه ﷺ عن الالتفات في الصلاة...

فقال: «هو اختلاسٌ... يختلسُهُ الشيطان من صلاةِ العبد.».

كلمات معدودات نقلتها إلينا أم المؤمنين... عن رسول اللّه... ﷺ... رأسًا...

لتصبح تلك المعدودات بعد ذلك بابًا عريضًا من أبواب الفقه... فيه يصطرع الفقهاء... ويختلف العلماء...

وكُلّ هذا الخير... يترقرق من كلماتٍ معدودات قالها ﷺ... إجابة لسؤال زوجه رضي اللّه عنها!!!

فكيف لا تكون عائشة بعد ذلك فاتحة خير عميم للأمّة كلها...

وهي تنقل إليهم في أمانة... وإتقان... ما سمعت أو رأت منه ﷺ؟!!.

عائشة تقول:

«فأقامَنِي وَرَاءَهُ...
خَدِّي عَلَى خَدِّهِ»...؟!

عَنْ عائِشةَ... قالَتْ:

«دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللّهِ.... ﷺ...

«وعِنْدِي جارِيَتانِ تُغَنِّيانِ بِغِناءِ بُعَاثَ...

«فَاضْطَجَعَ عَلَى الفِراشِ...

«وَحَوَّلَ وَجْهَهُ...

«وَدَخَلَ أبُو بَكْرٍ... فانْتَهَرَنِي وقالَ:

مِزْمَارَةُ الشيطانِ عِنْدَ النبيِّ... ﷺ؟...

«فأقْبَلَ عَلَيْهِ رسولُ اللّهِ... ﷺ... فقالَ:

«دَعْهُمَا...

«فَلَمَّا غَفَلَ غَمَزْتُهُما فَخَرَجَتَا...

«وكانَ يَوْمَ عِيدٍ... يَلْعَبُ السُّودَانُ بالدَّرَقِ والحِرَابِ...

«فَإِمَّا سَأَلْتُ النبيَّ ﷺ...

«وإِمَّا قَالَ: أَتَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ؟...

«فقُلْتُ: نَعَمْ...

«فأقامَنِي وَرَاءَهُ... خَدِّي عَلَى خَدِّهِ...

«وَهُوَ يَقُولُ: دُونَكُمْ يا بَنِي أَرْفِدَةَ...

«حتَّى إِذَا مَلِلْتُ قال: حَسْبُكِ...

«قُلْتُ: نَعَمْ...

«قال: فَاذْهَبِي.».

[أخرجه البخاري]

«**دخَلَ عَلَيَّ رسولُ اللّهِ** ﷺ» في رواية الزهري «في أيام مِنى»...

«**جاريتانِ**» والجارية في النساء كالغلام في الرجال... وفي الباب الذي بعده من جواري الأنصار...

«**تُغنِّيانِ**» وفي رواية الزهريّ «تدفِّفان» أي تضربان بالدف... وفي رواية مسلم «تغنيان بدُفّ»... وفي رواية النسائي «بدُفَّيْن» والدُّف هو الذي لا جلاجل فيهِ... فإن كانت فيه فهو المزهر...

«**تغنيان بغناءِ بُعاثَ**» بما تقاولت الأنصار يوم بُعاث... أي قال بعضهم لبعض من فخر وهجاء...

«**بِغناء بُعاثَ**» هو اسم حصن للأوس... ويوم بعاث يوم مشهور من أيام العرب... كانت فيه مقتلة عظيمة للأوس على الخزرج... وبقيت الحرب مائة وعشرين سنة إلى الإسلام!...

«**فاضطَجَعَ على الفِراشِ**» وفي رواية الزهري «أنه تغشى بثوبه»... وفي رواية لمسلم «تسجى» أي التفّ بثوبه...

«**ودخَلَ أبو بكرٍ**» قلت: يمكن أن يكون مجيئه لمنعه الجاريتين المذكورتين عن الغناء...

«**فانتهرني**» أي زجرني... وفي رواية الزهري «فانتهرهما»... أي الجاريتين... والتوفيق بينهما أنه **نهر عائشة لتقريرها ذلك**... ونهرهما لفعلهما ذلك في بيت النبي... ﷺ...

«**مِزمارةُ الشيطان**» يعني الغناء أو الدُّف... وهي مشتقة من الزمير وهو الصوت الذي له صفير... وسميت به الآلة المعروفة التي يزمر بها... وإضافتها إلى الشيطان من جهة أنها تلهي وتشغل القلب عن الذكر... وفي رواية حماد عند أحمد. «فقال: يا عباد اللّه المزمور عند رسول اللّه ﷺ»؟!...

«**فأقبَلَ عليهِ**» أي على أبي بكر رضي اللّه تعالى عنه... وفي رواية الزهري «فكشف النبي... ﷺ... عن وجهه»...

«**فقال دَعْهُمَا**» أي فقال النبي... ﷺ... لأبي بكر دع الجاريتين... أي

اتركهما... وفي رواية هشام «يا أبا بكر إن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا»...

هذا تعليل لنهيه ﷺ إياه بقوله «دعهما»... وبيان لخلاف ما ظنه أبو بكر من أنهما فعلتا ذلك بغير علمه... لكونه دخل فوجد النبي ﷺ مغطى بثوبه نائمًا... ولا سيما كان المقرر عنده منع الغناء واللهو... فبادر إلى إنكار ذلك قيامًا عن النبي ﷺ... فأوضح ﷺ الحال وبيّنه بقوله: «إن لكل قوم عيدًا»... أي إن لكل طائفة من الملل المختلفة عيدًا... وإن هذا اليوم يوم عيدنا... وهو يوم سرور شرعي فلا ينكر مثل هذا...

على أن ذلك لم يكن بالغناء الذي يهيج النفوس إلى أمور لا تليق...

«**غَمَزْتُهُما**» الغمز الإشارة بالعين والحاجب... أو اليد... والرمز كذلك...

«**كان يَوْمَ عيدٍ**» أي كان ذلك اليوم يوم عيد... **وكان القائل بذلك عائشة رضي الله تعالى عنها**... ويدل عليه ما وقع في رواية الجوزقي في هذا الحديث «وقالت عائشة كان يوم عيد»...

«**فإمَّا سألتُ**» أي التمست من رسول الله... ﷺ النظر إليهم...

وكلمة إمَّا فيه تدل على ترددها فيما كان وقع منها... هل كان ﷺ أذن لها في ذلك ابتداء منه من غير سؤال منها... أو كان عن سؤال منها إياه في ذلك؟...

«**أتشتهينَ تَنْظُرِينَ؟**» أتشتهين النظر إلى السودان؟...

وقد اختلفت الروايات عنها في ذلك...

ففي رواية النسائي: «سمعنا لغطًا وصوت صبيان فقام النبي ﷺ فإذا حبشية تزفن» أي ترقص... «والصبيان حولها فقال يا عائشة تعالي فانظري»...

فهذا يدل على أنه سألها...

وفي رواية عند مسلم «أنها قالت... وددت أني أراهم»...

ففي هذا يحتمل أن يكون السائل هو النبي ﷺ... وأن تكون عائشة – لا كما جزم به البعض – أنها سألته...

ورواية للنسائي من طريق أبي سلمة عنها:

«دخل الحبشة المسجد يلعبون فقال لي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم:

يا حميراء تحبين أن تنظري إليهم؟... فقلت: نعم»...

إسناده صحيح... قال بعضهم: ولم أرَ في حديث صحيح ذكر الحميراء إلا في هذا...

«**خَدِّي على خَدِّه**»... وقد اختلفت الروايات في هذا اللفظ...

ففي رواية مسلم ««**فوضعت رأسي على منكبيه**»...

وفي رواية أبي سلمة «**فوضعت ذقني على عاتقه... وأسندت وجهي إلى خدِّه**»...

وفي رواية عبيد بن عمير عنها «**أنظر بين أذنيه وعاتقه**»...

وفي رواية الزهري «**فيسترني وأنا أنظر**»...

«**وهو يقول: دُونَكُمْ**» أي الزموا ما أنتم فيه... وعليكم به...

«**يا بَني أرْفِدَةَ**» وهو لقب للحبشة... أو اسم أبيهم الأقدم... وقيل جنس منهم...

وفي رواية الزهري عن عروة «فزجرهم عمر رضي اللّه عنه فقال النبي ﷺ أمْنًا بني أرفدة» أي ائمنوا أمنًا ولا تخافوا...

«**حتى إذا مَلِلْتُ**» من الملل وهو السآمة...

وفي رواية الزهري «حتى أكون أنا الذي أسأم»...

ولمسلم من طريقه «**حتى أكون أنا الذي انصرف**»...

وفي رواية عند النسائي «**أما شبعتِ؟... أما شبعتِ؟... قالت: فجعلتُ أقول لا... لأنظر منزلتي عنده**»...

وله من رواية أبي سلمة عنها:

«**قلت: يا رسول اللّه... لا تعجل...**

«**فقام لي...**

«**ثم قال: حسبُكِ...**

«**قلت: لا تعجل...**

«**قلت: وما بي حُبّ النظر إليهم...**

«ولكن أحببت أن تبلغ النساء مقامه لي...
«ومكانه مني»...
قوله «حَسْبُكِ» أي أحَسْبُكِ؟... أي أكافيك هذا القدر؟...

ما يستفاد منه؟!

في رواية ابن حبان أن ذلك وقع لما قدم وفد الحبشة... وكان قدومهم سنة سبع... فيكون عمرها حينئذ خمس عشرة سنة...
فيه مشروعية التوسعة على الأولاد في أيام الأعياد بأنواع ما يحصل لهم به بسط النفس وترويح البدن من كلف العبادة...
فيه أن إظهار السرور في الأعياد من شعائر الدين...
فيه الرفق بالمرأة واستجلاب مودتها...
فيه بيان أخلاق النبي... ﷺ... الحسنة... ولطفه... وحسن شمائله ﷺ....

* * *

أقول... حديث رائع... فيه جمال عجيب!!!.
الكلام عنه لا يُغني عن التأمل فيه... وكيف كانت أم المؤمنين عائشة؟!
وكيف كانت أخلاق النبي... ﷺ...؟!
وأترك للقارىء بعد ذلك أن يَفْهم ما شاء اللّه له أن يَفْهم!!!.

عائِشةُ تقول:
«فإِنْ كُنْتُ يَقْظَى...
تَحَدَّث مَعِي»...؟!

عنْ عائِشَةَ... أُمِّ المُؤمنينَ... رضي اللّهُ عنها...
«أنَّ رسولَ اللّه... ﷺ... كانَ يُصَلِّي جالِسًا... فيقْرَأُ وهُوَ جالِسٌ...
«فإِذَا بَقِيَ مِنْ قِرَاءَتِهِ نَحْوٌ مِنْ ثَلَاثِينَ أوْ أرْبعينَ آيَةً... قامَ فَقَرَأَها وهُوَ قائِمٌ...
«ثُمَّ رَكَعَ ثُمَّ سَجَدَ...
«يَفْعَلُ فِي الرَّكْعةِ الثانيةِ مِثْلَ ذَلِكَ...
«فإِذَا قَضَى صَلَاتَهُ نَظَرَ...
«فَإِنْ كُنْتُ يَقْظَى تَحَدَّثَ مَعِي...
«وَإِنْ كُنْتُ نائِمَةً اضْطَجَعَ.».

[أخرجه البخاري]

هذا طريق آخر من حديث عائشة...

وقال الترمذي عن أحمد وإسحاق... من أن حديثي عائشة معمول بهما... وهو قول الجمهور... وبقية الأئمة الأربعة وغيرهم... خلافًا لمن منع الانتقال من القيام إلى القعود عند عدم الضرورة لذلك وهو غلط...

وروى الترمذي أيضًا «عن عائشة رضي اللّه تعالى عنها قال: سألتها عن صلاة النبي ﷺ... **عن تطوعه**... قالت: كان يصلّي ليلًا طويلًا قائمًا... وليلًا طويلًا قاعدًا... فإذا قرأ وهو قائم ركع وسجد وهوَ قائم... وإذا قرأ وهو جالس ركع وسجد وهو جالس»...

«عن أبي سلمة... عن أم سلمة قالت: والذي نفسي بيده ما مات رسول اللّه

ﷺ حتى كان أكثر صلاته قاعدًا إلا المكتوبة»...

* * *

أقول... تقول أم المؤمنين رضي اللّه عنها:

«فإذا قَضَى صلاتَهُ نَظَرَ...

«فإنْ كُنْتُ يَقْظَى تحدَّثَ مَعِي...

«وإنْ كُنْتُ نائِمَةً اضْطَجَعَ.»!!!.

ما أسعدها في تلك اللحظات!!!

حين يتحدَّث معها!!!

أو حين يضطجع وهي إلى جواره!!!.

يا عائِشَةُ...

إِنَّ عَيْنَيَّ تنَامَانِ...

وَلَا يَنَامُ قَلْبِي...؟!

عنْ أبي سَلَمَةَ بنِ عبدِ الرحمٰنِ أنَّهُ أخبرهُ...

«أنَّهُ سَأَلَ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها:

«كيْفَ كانَتْ صَلَاةُ رسولِ اللّهِ... ﷺ... في رَمَضَانَ؟...

«فقالَتْ: ما كانَ رسُولُ اللّهِ... ﷺ... يَزيدُ في رَمَضَانَ... وَلَا فِي غَيْرِهِ... عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً...

«يُصَلِّي أَرْبَعًا... فَلَا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ...

«ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا... فَلَا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وطُولِهِنَّ...

«ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا...

«قالَتْ عائِشَةُ: فقُلْتُ: يا رسولَ اللّهِ أَتنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ؟...

«فقالَ: يا عَائِشَةُ... إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ... وَلَا يَنَامُ قَلْبِي.».

[أخرجه البخاري]

«في رمضانَ» أي في ليالي رمضان...

«فلا تَسَلْ عن حُسْنِهِنَّ» معناه هنّ في نهاية من كمال الحسن والطول... مستغنيات لظهور حسنهن وطولهن عن السؤال عنهن والوصف...

«أرْبَعًا» أي أربع ركعات...

«أتنامُ» الهمزة فيه للاستفهام على سبيل الاستخبار والاستعلام...

«ولا ينامُ قَلْبِي» ليس فيه معارضة لما مضى في باب الصعيد الطيب وضوء المسلم... أنه ﷺ نام حتى فاتت صلاة الصبح وطلعت الشمس... لأن طلوع الشمس متعلق بالعين لا بالقلب... إذ هو من المحسوسات لا من المعقولات...

ما يستفاد منه؟!

فيه أن عمله ﷺ... كان ديمة... في شهر رمضان وغيره... وأنه كان إذا عمل عملًا أثبته وداوم عليه...

وفيه تعميم الجواب عند السؤال عن شيء... لأن أبا سلمة إنما سأل عائشة رضي اللّه تعالى عنها... عن صلاة رسول للّه ﷺ... في رمضان خاصة...

فأجابت عائشة بأعم من ذلك... وذلك لئلا يتوهم السائل أن الجواب مختص بمحل السؤال...

وفيه أنه ﷺ... لا ينتقض وضوؤه بالنوم... لكون قلبه لا ينام...

وهذا من خصائص الأنبياء... عليهم الصلاة والسلام...

كما ثبت في الصحيح من قوله: «وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم»...

وفيه أن صلاته ﷺ... كانت متساوية في جميع السنة... بين ما يستفتح به الصلاة وما بعد ذلك...

الأسئلة والأجوبة؟!

منها أنه ثبت في الصحيح من حديث عائشة أنه ﷺ «كان إذا دخل العشر الأواخر يجتهد فيه ما لا يجتهد في غيره»...

وفي الصحيح أيضًا من حديثها «كان إذا دخل العشر... أحيى الليل... وأيقظ أهله... وجدّ وشدّ المئزر»...

وهذا يدل على أنه كان يزيد في العشر الأخير على عادته...

فكيف يجمع بينه وبين حديث الباب؟...

فالجواب: إن الزيادة في العشر الأخير... تُحمل على التطويل دون الزيادة في العدد...

ومنها... أن الروايات اختلفت عن عائشة في عدد ركعات صلاة النبي... ﷺ... بالليل... وفي مقدار ما يجمعه منها بتسليم...

والجمع بين هذا الاختلاف... أنه ﷺ... فعل جميع ذلك في أوقات مختلفة....

ومنها... أنه اختلفت أيضًا الأحاديث الواردة في هذا الباب... في عدد صلاته...

الجواب: بأن ذلك بحسب ما شاهد الرواة كذلك...

فربما زاد... وربما نقص... وربما فرق قيام الليل مرتين... أو ثلاثًا...

ومن عد ذلك تسعًا أسقط ركعة الوتر...

ومن زاد على ثلاث عشرة ركعة... فيكون قد عدّ سنة العشاء... أو ركعتي الفجر... أو عدّهما جميعًا!!!.

* * *

أقول... روايات عديدة مستفيضة... عن عائشة رضي اللّه عنها... في كيفية صلاة رسول اللّه... ﷺ... بالليل... في رمضان... وفي غير رمضان...

والعلماء يفيضون في شرحها... وتأويلها... واستنباط الأحكام الفقهية منها...

فأي ثروة هي أعظم؟!

وأي بحر هو أوسع؟!

مما تركت عائشة زوج رسول اللّه... ﷺ... للأُمَّة كلها؟!... أمَّا العلماء فمن أقوالها يستنبطون... وأمَّا سائر الناس... فإنهم يَتَّبعون ويهتدون!!!.

عندما كَشَفَ أبو بَكْرٍ...
عن وجههِ صلى اللّه عليه وسلم...
ثُمَّ قَبَّلَهُ بَيْنَ عَيْنَيْه...
ثُمَّ بَكَى...؟!!

أين كان هذا المشهد المقدّس؟!

كان في حجرة عائشة!!!.

تلك الحجرة الخالدة الشريفة... التي أراد اللّه لها أن تبقى إلى يوم القيامة... شاهدًا على أحداث تتصل بحياة النبي... ﷺ... ومرضه... وموته... ودفنه!!!.

«أخبرني أبُو سَلَمَةَ...

«أنَّ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها... زَوْجَ النَّبِيِّ... ﷺ... أخْبَرَتْهُ... قالَتْ:

«أقْبَلَ أبُو بَكْرٍ... رضي اللّه عنه... عَلَى فَرَسِهِ مِنْ مَسْكَنِهِ بالسُّنْحِ...

«حتَّى نَزَلَ... فَدَخَلَ المسجِدَ... فلَمْ يُكَلِّم الناسَ حتَّى دَخَلَ عَلَى عائِشَةَ رضي اللّه تعالى عنها...

«فتَيَمَّمَ النبيَّ ﷺ... وهُوَ مُسَجًّى ببُرْدِ حِبَرَةٍ...

«فكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ...

«ثُمَّ أكَبَّ عَلَيْهِ فقَبَّلَهُ...

«ثُمَّ بَكَى... فقَالَ:

«بِأبِي أنْتَ يا نَبِيَّ اللّهِ... لا يَجْمَعُ اللّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ... أمَّا المَوْتَةُ التي كَتَبَ اللّهُ عَلَيْكَ فقَدْ مُتَّهَا...».

[أخرجه البخاري]

«**بالسُّنْح**» وهو منازل بني الحارث بن الخزرج... بينها وبين منزل رسول اللّه... ﷺ... ميل...

«**فتيَمَّم**» أي قصد النبي... ﷺ...

«**وهو مُسَجًّى**» معنى مسجّى هنا مغطّى...

«**ببُرْدِ حِبَرَة**» هو نوع من الثياب... ثوب يماني يكون من قطن أو كتان مخطط...

«**ثم أكبَّ عليه فقَبّلَهُ**» أي بين عينيه... وقد ترجم عليه النسائي... وأورده صريحًا حيث قال تقبيل الميت وأين يُقَبّل منه...

قال... عن عروة «**عن عائشة أن أبا بكر قَبّلَ بين عيني النبي ﷺ... وهو ميّت**»...

«**بأبي أنتَ**» أي أنت مفدى بأبي...

«**لا يجمع اللّه عليك موتَتَيْنِ**» لم يجمع اللّه عليك شدة بعد هذا الموت... لأن اللّه تعالى قد عصمك من أهوال القيامة...

«**التي كَتَبَ اللّهُ**» أي قدّر اللّه...

«**مِتَّهَا**» بضم الميم وكسرها...

ما يستفاد منه؟!

فيه استحباب تسجية الميت...

وفيه جواز تقبيل الميت لفعل أبي بكر... رضي اللّه تعالى عنه... وكان أبو بكر في تقبيله النبي ﷺ... لم يفعله إلا قدوة به عليه الصلاة والسلام... لما روى الترمذي مصححًا «أن رسول اللّه ﷺ... دخل على عثمان بن مظعون وهو ميت... فأكب عليه وَقَبّلَه... ثم بكى... حتى رأيت الدموع تسيل على وجنتيه»...

وفيه جواز البكاء على الميت من غير نوح...

وفيه أن الصّدّيق أعلم من عمر...

وهذه إحدى المسائل التي ظهر فيها ثاقب علمه... وفضل معرفته... ورجاحة رأيه... وبارع فهمه... وحسن إسراعه بالقرآن... وثبات نفسه...

وفي اهتمام عائشة رضي اللّه تعالى عنها... بأمر الشريعة...

وأنها لم يشغلها ذلك عن حفظها ما كان من أمر الناس في ذلك اليوم...

وفيه الدخول على الميت بغير استئذان... ويجوز أن يكون عند عائشة غيرها... فصار كالمحفل لا يحتاج الداخل إلى إذن... وروي أنه استأذن فلما دخل أذن للناس...

* * *

أقول... حافظة عجيبة... وعقل رفيع المستوى...

المشهد مشهد تذوب له القلوب حُزنًا...

مشهد وفاة النبي... ﷺ...

زوجها... وفي حجرتها... وجسده الشريف مسجًّى بجوارها...

والداخل أبوها... أبو بكر... أكَبَّ على النبي... ﷺ... فَقَبَّلَه... بين عينيه... ثم بكى...

والناس جميعًا في ذهول وحزن يعقل العقول... وعلى رأسهم عُمر بن الخطاب...

ومع هذه الأحزان كلها... وهذه الشدائد كلها... لم تفقد عائشة توازنها بسبب الحُزن... على أحبِّ الخَلْق إليها...

وإنما هي ثابتة واعية... تسجل حافظتها كل صغيرة وكبيرة...

حتى نقلتها إلينا نقلًا أمينًا!!!

عائشة...

تُصَحِّح رواية...

رُوِيَتْ عن رسول اللّه...

صلى اللّه عليه وسلم...؟!

فَلَمَّا أُصِيبَ عُمَرُ...

«دَخَلَ صُهَيْبٌ يَبْكِي يَقُولُ: وَاأَخَاهُ... وَاصاحِبَاهُ...

«فقال عُمَرُ رضي اللّه عنهُ:

يا صُهَيْبُ أَتَبْكِي عَلَيَّ... وقَدْ قالَ رسولُ اللّهِ... ﷺ:

إِنَّ الميّتَ يُعَذَّبُ بِبَعْضِ بُكاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ؟!...

«قال ابنُ عبّاسٍ... رضي اللّه عنهما: فلَّما مَاتَ عُمَرُ رضي اللّه عنه...

«ذَكَرْتُ ذلِكَ لِعَائِشَةَ... رضي اللّهُ عَنْها... فقالَتْ:

«رَحِمَ اللّهُ عُمَرَ...

«واللّهِ مَا حَدَّثَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... إنَّ اللّهَ لَيُعَذِّبُ المُؤْمِنَ ببُكاءِ أهْلِهِ عَلَيْهِ... ولَكِنَّ رسولَ اللّهِ... ﷺ... قالَ: إِنَّ اللّهَ لَيَزِيدُ الكافِرَ عَذَابًا بِبُكاءِ أهْلِهِ عَلَيْهِ...

«وقالَتْ: حَسْبُكُمُ القُرْآنُ... وَلَا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...

«قَال ابنُ عَبّاسٍ... رضي اللّه عنهما... عِنْدَ ذَلِكَ... واللّهُ هُوَ أضْحَكَ وأبْكَى...».

[من حديث أخرجه البخاري]

وقد مال إلى قول عائشة... الشافعي... فيما رواه البيهقي في سننه عنه فقال:

«وما رَوَت عائشة... عن رسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... أشبه أن يكون محفوظًا عنه... عليه الصلاة والسلام...

«بدلالة الكتاب... ثم السُنّة...

«أما الكتاب فقوله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾... وقوله تعالى ﴿وَأَن لَّيسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾...

وقوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾... وقوله تعالى ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾...

«وأَمَّا السُنَّة... فقوله ﷺ لرجل: هذا ابنك؟... قال: نعم... قال: أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه...

«فأعلم رسول اللّه ﷺ مثل ما أعلم اللّه من أن جناية كل امرىء عليه... كما عمله لا لغيره...

وأمَّا قول من حمل ذلك على الوصية بذلك... نقله النووي عن الجمهور أنهم تأولوا ذلك على من وصى أن يبكى عليه ويناح بعد موته فنفذت وصيته...

«فلمَّا أُصيبَ عُمَرُ» يعني بالجراحة التي جرح بها... والتي مات فيها.

«أتبكي عليَّ»؟!.. الهمزة للاستفهام على سبيل الإنكار...

«رَحِمَ اللّهُ عُمَرَ» من الآداب الحسنة... على منوال قوله تعالى ﴿عفا اللّه عنك لم أذنت لهم﴾...

فاستغربت من عمر ذلك القول... فجعلت قولها رحم اللّه عمر تمهيدًا ودفعًا لما يوحش من نسبته إلى الخطأ...

«واللّه ما حدَّث رسُول اللّهِ ﷺ» وجه جزم عائشة بذلك أنها لعلها سمعت صريحًا من رسول اللّه... ﷺ... اختصاص العذاب بالكافر... أو فهمت الاختصاص بالقرائن...

«حَسْبُكُمْ» أي كافيكم من القرآن أيها المؤمنون هذه الآية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾...

«قال ابن عباس عند ذلك» أي عند انتهاء حديثه عن عائشة قال: «واللّه هو

أضحك وأبكى»... أي أن العَبْرة لا يملكها ابن آدم... ولا تسبب له فيها... فضلًا عن الميت... فكيف يُعاقب عليها؟!

والحاصل أن العلماء ذكروا في قوله صلى اللّه تعالى عليه وسلم: «إن الميت يعذب ببكاء أهله» ثمانية أقوال...

أصحّها... وهو تأويل الجمهور... على أنه محمول على من أوصى به... وإليه ذهب البخاري...

* * *

أقول... ها هي عائشة... التي أعطاها اللّه استعدادًا عاليًا لتفقه... وتفهم... وتبدي رأيها في قضية خطيرة!!!.

وتقطع وتجزم فتقول:

«واللّه ما حَدَّثَ رسول اللّه... ﷺ... إنَّ اللّهَ لَيُعَذِّبُ المؤمِنَ بِبُكاءِ أهْلِهِ عَلَيْهِ...

«ولكِنَّ رسولَ اللّه... ﷺ قال: إنَّ اللّهَ لَيَزِيدُ الكافِرَ عذابًا بِبُكاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ...»!!!.

ما هذا الفِقْهَ... وما هذا الفَهْم الرفيع المستوى؟!!.

إنها ابنة أبي بكر!!!.

كانت...

عائشة...

مِن أجود الناس...؟!

عَنْ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها... قالَتْ:
«دَخلَتِ امرأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُ...
«فلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا...
«غَيْرَ تَمْرَةٍ...
«فأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا...
«فَقَسَمَتْها بَيْنَ ابْنَتَيْهَا... وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا...
«ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ...
«فَدَخَلَ النبيُّ... ﷺ... علَيْنا... فأَخبَرْتُهُ...
«فقالَ: مَن ابْتُلِيَ مِنْ هٰذِهِ البَنَاتِ بِشيءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ».

[أخرجه البخاري]

«**مِنْ هذِهِ البناتِ**» الظاهر أنها إشارة إلى أمثال المذكورات من أصحاب الفقر والفاقة...

ويحتمل أن يراد به الإشارة إلى جنس البنات مطلقًا...

وإنما قال سترًا ولم يقل أستارًا... لأن المراد الجنس فيتناول القليل والكثير...

«**بِشَيْءٍ**» أي أحوال البنات... أو من نفس البنات...

أي من ابتلي منهن بأمر من أمورهن... أو... من ابتلي ببنت منهن...

سماه ابتلاء لموضع الكراهة لهن... كما أخبر اللّه تعالى...

وفيه حضّ على الصدقة بالقليل...

وإعطاء عائشة التمرة لئلا ترد السائل خائبًا... وهي تجد شيئًا...
وروي أنها أعطت سائلًا حبّة عنب... فجعل يتعجب!...
فقالت: كم ترى فيها مثقال ذرّة؟...
ومثله قوله ﷺ لأبي تميمة الهجيمي «لا تحقرن شيئًا من المعروف ولو أن تضع من دلوك في إناء المستسقي»...
وفي قسمة المرأة التمرة بين ابنتيها... لما جعل اللّه في قلوب الأمهات من الرحمة...
وفيه أن النفقة على البنات والسعي عليهن من أفضل أعمال البرّ المنجية من النار...
وكانت عائشة... رضي اللّه تعالى عنها... من أجود الناس...
أعطت في كفارة يمين أربعين رقبة...
وقيل فعلت ذلك في نذر مبهم...
وكانت ترى أنها لم توفِ بما يلزمها فيه...
وأعانت المنكدر في كتابته بعشرة آلاف درهم!!!.

عائشة تقول:
«طَيَّبْتُ رسولَ اللّهِ... ﷺ... بأطيبِ ما أجِد»...؟!

عنْ عائِشةَ... رضي اللّه عنها... قالَتْ:
«كَأَنِّي أنظُرُ إلى وَبِيصِ الطِّيبِ في مَفَارِقِ رسولِ اللّه... ﷺ... وَهُوَ مُحْرِمٌ.».

[أخرجه البخاري]

أخرجه الطحاوي من ثمانية عشر طريقًا عن الأسود عن عائشة مثل رواية البخاري... غير أن لفظه في مفرق رسول اللّه ﷺ...

وعن عبد الرحمٰن بن الأسود عن أبيه عن عائشة... **أنها كانت تطيب النبي صلى اللّه تعالى عليه وسلم بأطيب ما تجد من الطيب... قالت: حتى أرى وبيص الطيب في رأسه ولحيته...**

وعن عروة عن عائشة قالت:

طيّبت رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم بأطيب ما أجد...

وعن القاسم عنها قالت: **طيّبت رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم بيدي لإحرامه قبل أن يحرم...**

وعن ابن عمر عنها قالت: **كنت أطيّب رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم بالغالية الجيدة عند إحرامه...**

وعن القاسم عنها قالت: **طيّبت رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم لحرمه حين أحرم...**

وعن عطاء عنها: **طيبت رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم للحل والإحرام...**

«**كأنّي أنظُرُ**» أرادت بذلك قوة تحققها لذلك بحيث أنها لشدة استحضارها له كأنها ناظرة إليه...

«**إلى وَبِيصِ**» وهو البريق... والمراد أثر الطيب لا جرمه... وقيل: الوبيص زيادة على البريق والمراد به التلألؤ...

«**في مفارق**» جمع مفرق وهو وسط الرأس.

ما يستفاد منه؟!

احتج به أبو حنيفة... وأبو يوسف... وزفر... في أن المحرم إذا تطيّب قبل إحرامه بما شاء، الطيب مسكًا كان أو غيره، فإنه لا بأس به... ولا شيء عليه... سواء كان مما يبقى عليه بعد إحرامه أوْ لا... ولا يضره بقاؤه عليه...

وبه قال الشافعي وأصحابه... وأحمد... والثوري... والأوزاعي...

وهو قول عائشة... راوية الحديث، وسعد بن أبي وقاص... وابن عباس... وابن الزبير... وابن جعفر... وأبي سعيد الخدري... وجماعة من التابعين بالحجاز والعراق... الخ...

* * *

أقول... ليس الذي يعنينا في هذا الكتاب الأحكام الشرعية التي أسسها الفقهاء على حديث عائشة حتى قال أبو عمر:

«حديث عائشة هذا حديث صحيح... ثابت... لا يختلف أهل العلم في صحته وثبوته... وقد روي عن عائشة من وجوه»...

أقول... لا يعنينا في هذا الكتاب عظمة الأحكام الشرعية التي استنبطت من الحديث... رغم أهميتها بالنسبة للأمّة كلها في أحكام فريضة الحج...

وإنما الذي يعنينا ونركّز عليه هو دلالة الحديث على شدة حُبِّ عائشة للنبي صلى اللّه تعالى عليه وسلم...

استمع:

«كأنِّي أنظُرُ إلى وَبِيص الطِّيبِ في مفارِق رسولِ اللّه... ﷺ... وهوَ مُحْرِمٌ.»!!!.

وفي رواية «طيَّبْت رسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... بيدي لإحرامه قبل أن يحرم»!!!.

وفي رواية: «كنتُ أطيِّب رسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... بالغالية الجيدة عند إحرامه»!!!.

وفي رواية: «طيّبت رسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... بأطيب ما أجد»!!!.

أنظر إلى التعبير «كأني أنظر إلى وبيص الطيب في مفارق رسول اللّه ﷺ»!!!.

إنَّ عينيها دائمة النظر إلى وجهه الشريف... من شدة حُبِّها... وشدة حنانها!!!.

إنها تروي المشهد بعد سنين من وقوعه... ولكنها تذكره جيدًا... وتستعيده كأنها تراه الآن أمامها...

إنَّه الحُبُّ...

حُبُّ عائشة للنبي... ﷺ... الحبيب... أغلى حبيب!!!.

الذي ليس كمثله حبيب!!!

أو أنظر إلى قولها: «بِيَدِي»...

كأنها تعلن إلى العالم كله إلى يوم القيامة... أن كان لها أعظم الشرف حين طيَّبْته ﷺ بيدِها!!!

أو أنظر إلى قولها: «بالغالية الجيدة»...

إنها تريد أن تطيّبه بأغلى الطيب... أغلى ما يتصور ويستطاع لها!!!.

كما قالت: «بأطيب ما أجد»!!!

فما معنى هذا كله؟!!

معناه أن حُبَّ عائشة للنبي ﷺ... فاق كل تصوُّر... وبلغ غاية ليس وراءها غاية!!!.

تلمس ذلك في كلماتها وهي تروي وتصور ذلك المشهد المقدس... مشهد تطييب رسول اللّه... ﷺ... بيدها!!!.

عائشة...

تطوف بالبيت...

وتجاور بمكة...؟!

أخبَرَني عَطَاءٌ...

«إذْ مَنَعَ ابنُ هِشَامٍ النِّسَاءَ الطَّوَافَ مَعَ الرِّجَالِ...

«قالَ: كَيْفَ تَمْنَعُهُنَّ؟!... وَقَدْ طَافَ نِسَاءُ النبيِّ... ﷺ... مَعَ الرِّجَالِ؟...

«قُلْتُ: أَبَعْدَ الحِجَابِ؟... أوْ قَبْلُ؟...

«قالَ: إي لَعَمْرِي لَقَدْ أَدْرَكْتُهُ بَعْدَ الحِجَاب...

«قُلْتُ: كَيْفَ يُخَالِطْنَ الرِّجَالَ؟...

«قالَ: لَمْ يَكُنَّ يُخَالِطْنَ...

«كانَتْ عائِشَةُ... رضي الله عنها... تَطُوفُ حَجْرَةً مِنَ الرِّجَالِ... لا تُخَالِطُهُمْ...

«فقالَتْ امرَأَةٌ: انْطَلِقِي نَسْتَلِمْ يا أُمَّ المُؤْمِنِينَ...

«قالَتْ: عَنْكِ...

«وَأَبَتْ...

«فَكُنَّ يَخْرُجْنَ مُتَنَكِّرَاتٍ بالليْلِ فَيَطُفْنَ مَعَ الرجال...

«ولكِنَّهُنَّ كُنَّ إذَا دَخَلْنَ البيْتَ قُمْنَ حَتَّى يَدْخُلْنَ... وأُخْرِجَ الرِّجالُ...

«وكُنْتُ آتِي عائِشَةَ أنا... وعُبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ... وهِيَ مُجَاوِرَةٌ في جَوْفِ ثَبِيرٍ...

«قُلْتُ: وَمَا حِجَابُهَا؟...

«قالَ: هِيَ في قُبَّةٍ تُرْكِيَّةٍ لَهَا غِشَاوَةٌ... وما بَيْنَنا وبَيْنَها غَيْرُ ذَلِكَ... وَرَأَيْتُ عَلَيْهَا دِرْعًا مُوَرَّدًا.».

[أخرجه البخاري]

«**إذْ مَنَعَ**» أي حين منع ابن هشام... وابن هشام هو والي المدينة...
«**أبَعْدَ الحِجَابِ؟**» بعد آية الحجاب...
«**إي لَعَمْرِي**» بمعنى نعم...
«**حَجْرَةً**» معتزلة... وقيل بمعنى محجورًا بينها وبين الرجال بثوب...
«**فقالت امْرَأَةٌ**» كانت تطوف مع عائشة بالليل...
«**وأَبَتْ**» أي منعت عائشة الاستلام...
«**مُتَنَكِّراتٍ**» مستترات...
«**إذا دَخَلْنَ البَيْتَ قُمْنَ حتَّى يَدْخُلْنَ**» أي إذا أردن الدخول وقفن قائمات... حتى يدخلن حال كون الرجال مخرجين...
«**وكنتُ آتي عائشة**» أي قال كنت أجيء الى عائشة أنا وعُبَيْد بنُ عُمَيْر الليثي الحجازي... قاضي مكة... ولد في زمن النبي صلى اللّه تعالى عليه وسلم...
«**وهي مجاوِرَةٌ**» أي مقيمة...
«**ثَبِيرٍ**» هو جبل عظيم بالمزدلفة على يسار الذاهب منها إلى مِنى... وعلى يمين الذاهب من مِنى إلى عرفات...
«**هي في قُبَّةٍ**» أي عائشة في قبة... وهي خيمة...
«**ورأيتُ عَلَيْها**» أي على عائشة...
«**دِرْعًا مُوَرَّدًا**» أي قميصًا لونه لون الوَرْد...

ما يستفاد منه؟!

فيه طواف النساء متنكرات...
وفيه طواف الليل...
وفيه ستر نساء النبي ﷺ بعد ذلك وحجبهن...
وفيه المجاورة بمكة وهو نوع من الاعتكاف...
وهو ضربان... مجاورة ليلًا ونهارًا... ومجاورة نهارًا فقط...
وفيه جواز المجاورة في الحَرَم كله... وإن لم يكن في المسجد الحرام...

وفيه نظر لأن ثبيرًا خارج من مكة...

وفيه طواف النساء من وراء الرجال...

* * *

أقول... كان هذا المشهد بعد وفاة النبي ﷺ... وفي عهد بني أميّة...

وكانت أم المؤمنين عائشة... وهي بمكة تعتكف في قُبّتِها في جوف جبل ثبيرٍ... تعبد اللّه تعالى...

فإذا أرادت الطواف بالبيت... طافت حَجْرَةً... أي معتزلة...

فما معنى هذا؟!

معناه أن أم المؤمنين عائشة... كانت على أعلى مستوى من عبادة اللّه تعالى بعد وفاة النبي... ﷺ...

كما كانت في حياته ﷺ!!!.

عبقرية عائشة...

في تفسير وتأويل...

آيات القرآن العظيم...؟!

قال عُرْوَةُ:

«سَأَلتُ عائِشَةَ... رضي الله عنها... فقُلْتُ لَهَا:

«أرَأيْتِ قَوْلَ اللّهِ تعالى...

إِنَّ الصَّفَا وَالمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَفَ بِهِمَا...

«فوَاللّه ما عَلَى أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لَا يَطَّوَفَ بالصَّفَا والمَرْوَةِ؟...

«قالَتْ:

«بِئْسَ مَا قُلْتَ ياابْنَ أُخْتِي!...

«إِنَّ هَذِهِ لَوْ كَانَتْ كَمَا أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ... كانَتْ لَا جُنَاحَ علَيْهِ أَنْ لَا يَتَطَوَّفَ بِهِمَا...

«وَلَكِنَّهَا أُنزِلَتْ في الأنْصَارِ... كانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمنَاة الطَّاغِيَةِ التِي كانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ المُشَلَّلِ...

«فكانَ مَنْ أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بالصَّفَا والمَرْوَةِ...

«فلمَّا أَسْلَمُوا سألُوا رسولَ اللّهِ... ﷺ... عَنْ ذَلِكَ...

«قالُوا: يا رَسُولَ اللّهِ... إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ... فأَنْزَلَ اللّهُ تعالى... ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللّهِ﴾... الآية...

«قالَتْ عائِشَةُ رضي الله عنها:

وَقَدْ سَنَّ رسولُ اللّهِ... ﷺ... الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا... فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَن يَتْرُكَ

الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا...

«ثُمَّ أَخْبَرْتُ أبا بَكْرِ بنَ عبدِ الرحمٰنِ... فقال:

«إِنَّ هَذَا لَعِلْمٌ... ما كُنْتُ سَمِعْتُهُ...

«وَلَقَدْ سَمِعْتُ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ يَذْكُرُونَ أَنَّ الناسَ... إِلَّا مَنْ ذَكَرَتْ عائِشَةُ... مِمَّنْ كانَ يُهِلُّ بمَنَاةَ... كانُوا يَطُوفُونَ كُلُّهُمْ بالصَّفَا والْمَرْوَةِ...

فلمَّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى الطَّوَافَ بالبيْتِ ولَمْ يَذْكُر الصَّفَا والْمَرْوَةَ فِي القرآنِ... قالُوا: يا رسولَ اللّهِ... كُنَّا نَطَّوَّفُ بالصَّفا والَمَرْوَة... وإِنَّ اللّهَ أنْزَلَ الطَّوَافَ بالبَيْتِ فلَمْ يَذْكُرِ الصَّفَا... فَهَلْ علينا مِنْ حَرَجٍ أنْ نَطَّوَّفَ بالصَّفا والْمَرْوَةِ؟...

«فأنزَلَ اللّهُ تعالَى... ﴿إِنَّ الصَّفَا والمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللّهِ﴾... الآيةَ...

«قالَ أبو بَكْرٍ: فأَسْمَعُ هذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِما... في الَّذِينَ كانوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطُوفُوا بالجاهليةِ بالصَّفا والْمَرْوَة... والَّذينَ يطوفُونَ ثُمَّ تَحَرَّجُوا أن يَطُوفُوا بِهما في الإِسْلام... مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللّهَ تعالى أَمَرَ بالطَّوَافِ بالبَيْتِ... ولَمْ يَذْكُرِ الصَّفَا... حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ بَعْدَ ما ذَكَرَ الطَّوَافَ بالبَيْتِ.».

[أخرجه البخاري]

«أَرَأَيْتِ» أخبريني عن مفهوم هذه الآية... إذ مفهومها عدم وجوب السعي بين الصفا والمروة... إذ فيه عدم الإثم على الترك؟...

فقالت عائشة... رضي اللّه تعالى عنها: مفهومها ليس ذلك... بل عدم الإثم على الفعل... ولو كان على الترك لقيل أن لا يَطَّوَّف... بزيادة لا...

والتحقيق هنا أنّ عروة رضي اللّه تعالى عنه أوّلَ الآية بأن لا شيء عليه في تركه... لأن هذا اللفظ أكثر ما يستعمل في المباح دون الواجب...

وأن عائشة رضي اللّه تعالى عنها... أجابت بأن الآية ساكتة عن الوجوب وعدمه... لأنها ليست بنصّ في سقوط الواجب... ولو كانت نصّاً لكان يقول... فلا جناح عليه أن لا يَطّوّف بهما... لأن هذا يتضمن سقوط الإثم عمن ترك الطواف...

«يُهِلُّونَ» أي يحجون...

«**لِمنَاة**» اسم صنم كان في الجاهلية... وسميت مناة لأن النسائك كانت تُمنى بها أي تُراق...

«**الطاغية**» صفة لمناة...

«**عند المُشَلَّل**» موضع قريب من قديد من جهة البحر...

«**يَتَحَرَّجُ**» أي يحترز من الحرج ويخاف الإثم...

«**فلمَّا أَسْلَمُوا**» أي الأنصار...

«**إنَّا كنَّا نَتَحَرَّجُ**» إلى آخره... وفي رواية مسلم... أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا هم وغسان يُهلُّون لمناةَ... فتحرَّجوا أن يطوفوا بين الصفا والمروة... وكان ذلك سُنَّة في آبائهم مَن أحرم لمناةَ لم يطف بين الصفا والمروة... وإنما كان ذلك لأن الأنصار كانوا يهلون في الجاهلية لصنمين على شط البحر يقال لهما إساف ونائلة... ثم يجيئون فيطوفون بين الصفا والمروة... ثم يحلقون... فلما جاء الإسلام كرهوا أن يطوفوا بينهما للذي كانوا يصنعونه في الجاهلية... فأنزل اللّه تعالى الآية...

«**وقَدْ سَنَّ رسولُ اللّه** ﷺ» أي شرع... وجعل رُكنًا...

وقال بعضهم: أي فرضه بالسُّنَّة...

وليس مراد عائشة نفي فرضيتها... ويؤيده قولها... لم يتم اللّه حجّ أحد ولا عمرته لم يطف بينهما...

«**إنَّ هذا لَعِلْمٌ**» بفتح اللام التي هي للتأكيد...

وفي رواية الأكثرين: إنَّ هذا العِلْم...

أشار به إلى كلام عائشة...

ما يستفاد منه؟!

احتجت بها الحنفية على أن السعي بين الصفا والمروة واجب...

لأن قول عائشة رضي اللّه تعالى عنها...

وقد سَنَّ رسول اللّه... ﷺ... **الطواف بينهما... فليس لأحد أن يترك**

الطواف بينهما... يدل على الوجوب.

ورفع الجناح في الآية والتخيير... ينفي الفرضية... لا سيما من مذهب عائشة...

وما ذهب إليه الحنفية هو مذهب الحسن وقتادة والثوري... حتى يجب بتركه دم...

وقال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وداود... هو فرض لا يصح الحجّ إلّا به...

* * *

أقول... وهكذا تلألأت عبقرية أُمّ المؤمنين عائشة رضي اللّه تعالى عنها!!!.

عُرْوَة فَهِم فَهْمًا في الآية...

وعلى الفور... توقَّدَت قريحة عائشة... وتشعشعت أنوارها...

«بِئْسَ ما قُلْتَ!!!

«يَا ابنَ أُخْتِي!!!

«إنَّ هذهِ لو كانَتْ كما أَوَّلْتَها عليهِ...

«كَانَتْ لا جُنَاحَ عليْهِ أنْ لا يَتَطَوَّفَ بهما...

«وَلَكِنَّها أُنزِلَتْ في الأنصارِ...» الخ...

ما هذا؟!!!

هذه عبقرية عائشة... إنها تُصَحِّح لعُرْوَة تأويله للآية... وتبيّن له أنه عَكَسَ معناها...

ثم تُفتي فتواها الخالدة...

التي صارت حُكْمًا بعد ذلك... يتناقله الفقهاء والعلماء... فتقول:

«وقَدْ سَنَّ رسولُ اللّهِ... ﷺ... الطَّوَافَ بينَهُما...

«فلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ الطَّوَافَ بَيْنَهُما.»!!!.

ما هذا؟!!

هذا مقام أم المؤمنين عائشة!!!
هذا مقام زوج رسول اللّه... ﷺ!!!
هذا مقام عبقرية الصدِّيقة بنت الصدِّيق...
شفافية... ذكاء... سرعة فَهْم... مقدرة على التأويل والإفتاء!!!
فهي تُصَحِّح لعُرْوَة ما فَهِمَهُ من الآية...
ثم تُلقي إليه وإلى جميع الأُمَّة... الحُكْم النهائي... في القضية...
ثم يجلس الفقهاء والأئمة الأعلام بعد ذلك منها مجلس التلاميذ...
يحتجون بحديثها في وجوب السعي بين الصَّفَا والمَرْوَة!!!.

افْعَلِي...
كَمَا يَفْعَلُ الحَاجُّ...
غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفي بِالْبَيْتِ...
حَتَّى تَطْهُري...؟!

عَنْ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها...
أنَّهَا قالَتْ:
«قَدِمْتُ مَكَّةَ وَأَنَا حائِضٌ...
«وَلَمْ أَطُفْ بالبَيْتِ... ولَا بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَةِ...
«قالَتْ: فَشَكَوْتُ ذَلِكَ إلَى رسولِ اللّهِ... ﷺ...
«قالَ: افْعَلِي كَمَا يَفْعَلُ الحاجُّ... غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بالْبَيْتِ حَتَّى تَطْهُرِي.»
[أخرجه البخاري]

وأخرجه أيضًا في باب كيف كان بدء الحيض «سمعت عائشة رضي اللّه عنها تقول خرجنا لا نرى إلا الحج»...

«**حتَّى تَطْهُرِي**» حتى تغتسلي وتطهري بالغسل... ويؤيده أن في رواية مسلم «حتى تغتسلي»...

والعلماء مجمعون أن الحائض تشهد المناسك كلها غير الطواف بالبيت...

وقيل: إنما منعت الحائض من الطواف على غير طهارة تنزيهًا للمسجد عن النجاسات...

ولأمره ﷺ الحُيَّض في العيدَيْن بالاعتزال...

وقول عائشة «لم أطف بالبيت» تريد أن طواف العمرة منعها منه حيضها...

أقول... شكت عائشة إلى رسول اللّه... ﷺ...

فقال: افْعَلِي كما يَفْعَلُ الحاجُّ... غيرَ أَن لا تَطُوفي بالبيتِ حتَّى تَطْهُرِي...
فأصْبَح ذلك حُكْمًا إلى يوم القيامة... وَبوَّبَ عليه العلماء... واستنبط منه الفقهاء!!!.

وقال البخاريّ: «تَقْضِي الحائضُ المناسِكَ كُلّها إلا الطَّوافَ بالبَيْتِ»...
وأجمَعَ العلماء أن الحائض تشهد المناسك كلها غير الطواف بالبيت!!!.

عائشة تقول:
وددتُ أني كُنتُ...
أستأذنتُ رسولَ اللّهِ... ﷺ...
كما استأذنَته سَوْدَةُ...؟!

عَنْ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها... قالَتْ:

«نَزَلْنا المُزْدَلِفَةَ...

«فاستَأْذَنَتِ النبيّ... ﷺ... سَوْدَةُ...

«أَن تَدْفَعَ قبْلَ حَطْمَةِ الناسِ...

«وكانَتِ امْرَأَةً بَطِيئَةً...

«فأذِنَ لَهَا...

«فَدَفَعَتْ قَبْلَ حَطْمَةِ النَّاسِ...

«وأقَمْنا حتَّى أصْبَحْنا نَحنُ... ثُمَّ دَفَعْنا بدَفْعِهِ...

«فَلأَنْ أكُونَ اسْتَأْذَنْتُ رسولَ اللّهِ... ﷺ... كمَا اسْتَأْذَنَتْ سَوْدَةُ... أحَبُّ إلَيَّ مِنْ مَفرُوحٍ بِهِ.».

[أخرجه البخاري]

«**أن تَدْفَعَ**» أي تتقدم قبل حَطْمة الناس والحَطمة بالفتح الزحمة...

«**ثم دَفَعْنا بدَفْعِه**» أي بدفع رسول اللّه... ﷺ...

«**مِن مَفرُوحٍ بِهِ**» أي من ما يفرح به من كل شيء...

وسَوْدَةُ أم المؤمنين رضي اللّه تعالى عنها...

وفي حديث مسلم:

«عن عائشة رضي اللّه تعالى عنها قالت:

«وددت أني كنت استأذنت رسول اللّه... ﷺ... كما استأذنته سَوْدَة...
«فأصلي الصبح بمِنى...
«فأرمي الجمرة قبل أن يأتي الناس...
«فقيل لعائشة: فكانت سَوْدَة استأذنته؟...
«قالت: نعم... كانت امرأة ثقيلة ثبطة... فاستأذنت رسول اللّه... ﷺ... فأذن لها»...

«ثَبِطَة» أي بطيئة الحركة...

وفيه جواز الرمي قبل طلوع الشمس بعد طلوع الفجر للذين يتقدمون قبل الناس...

وقال عياض: مذهب الشافعي رمي الجمرة من نصف الليل...

ومذهب مالك أنَّ الرمي يحل بطلوع الفجر... الخ...

* * *

أقول... تفصيل هذه الأحكام الجليلة يُرجع فيه إلى السادة الفقهاء...

وإنما اللطيفة التي نلتقطها في موضوع الكتاب...

أنَّ عائشة كانت هناك...

وأنَّها مع النبي... ﷺ... بالمزدَلِفَة...

وأنها شهدت سَوْدَةَ... أم المؤمنين... وهي تستأذن رسول اللّه... ﷺ... أن تدفع بالليل قبل زحمة الناس وهم يتدافعون إلى مِنى... فأذن لها...

وأنَّ عائشة بقيت حتى أصبحت مع رسول اللّه... ﷺ... ثم دفعت بدَفْعه إلى مِنى...

وأنها وَدَّت حين عاينت الزحام لو فعلت كما فعلت سَوْدَة...

فاستأذنت رسول اللّه... ﷺ... كما استأذنته سودة...

فتقول: «وددتُ أني كنتُ استأذنتُ رسولَ اللّه... ﷺ... كما استأذَنَتْه سَوْدة...

«فأصلي الصبح بمِنى...

«فأرمي الجمرة قبل أن يأتي الناس...»!!!.
وهكذا كانت عائشة هناك... تشهد وتشارك...
ثم تروي ما رأت وما سمعت... في دقَّة وصِدْق...
فيأخذ عنها الفقهاء والعلماء... ويستنبطون... ويستخرجون بدائع الأحكام!!!.

عائشةُ تقولُ:
لَيْسَ كَمَا قَالَ...
ابْنُ عَبَّاسٍ...؟!

عَنْ عَمْرَةَ بنْتِ عبدِ الرحمٰنِ... أنَّها أَخْبَرَتْهُ أنَّ زِيَادَ بنَ أبي سُفيانَ...
«كَتَبَ إلى عائشةَ... رضي اللّه عنها...
«أن عَبْدَ اللّهِ بنَ عبَّاسٍ... رضي اللّه عنهما... قال:
«مَنْ أهْدَى هَدْيًا حَرُمَ عَلَيْهِ ما يَحْرُمُ عَلَى الحاجِّ حتى يُنْحَرَ هَدْيُهُ...
«قالَتْ عَمْرَةُ: فقالَتْ عائِشَةُ رضي اللّه عنها: لَيْسَ كَمَا قَالَ ابنُ عبَّاسٍ...
«أنَا فَتَلْتُ قَلائدَ هَدْيِ رسولِ اللّهِ... ﷺ... بِيَدَيَّ...
«ثُمَّ قَلَّدَها رسولُ اللّهِ... ﷺ... بِيَدَيْهِ...
«ثُمَّ بَعَثَ بِهَا مَعَ أبِي...
«فلَمْ يَحْرُمْ عَلَى رسولِ اللّهِ... ﷺ... شيءٌ أَحَلَّهُ اللّهُ... حتَّى نُحِرَ الْهَدْيُ.».

[أخرجه البخاري]

«أنَّ زِيادَ بنَ أبي سُفْيانَ» استلحقه معاوية... وأَمَّرَه على العراقين البصرة والكوفة... جمعهما له... ومات في خلافة معاوية سنة ثلاث وخمسين...
«مَنْ أَهْدَى» أي من بعث الهَدْي إلى مكة...
«قالت عَمْرَةُ» أي عمرة بنت عبد الرحمٰن المذكورة في السند...
«ثم بعث بها» أي ثم بعث رسول اللّه ﷺ بالهَدْي...
«مع أبي» وهو أبو بكر الصدِّيق... رضي اللّه تعالى عنه... وكان بعثه ﷺ بهَدْيه مع أبي بكر سنة تسع... عام حجَّ أبو بكر بالناس...
«حتى نُحِرَ الْهَديُ» أي حتى نَحَرَ أبو بكر الهَدْي...

قالوا:

خالف ابن عباس... رضي اللّه تعالى عنه في هذا جميع الفقهاء...

واحتجت عائشة بفعل رسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم...

وما روته في ذلك يجب أن يُصار إليه...

ولعل ابن عباس... رضي اللّه تعالى عنه رجع عنه...

وفيه ردّ بعض العلماء على بعض...

وفيه رد الاجتهاد بالنصّ...

وفيه أن الأصل في أفعال النبي... ﷺ... التأسي حتى تثبت الخصوصية...

والهَدْي اسم لما يُهْدَى إلى الحرم... من الإبل والبقر والغنم... ذكورها وإناثها...

* * *

أقول... كتب زياد أمير البصرة والكوفة... إلى أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها... يسألها فيما ذهب إليه عبداللّه بن عباس... رضي اللّه عنهما...

فماذا كان جوابها؟!

«ليسَ كما قالَ ابنُ عبَّاسٍ»!!!

ولم تقف عند هذا... ولكن بَيَّنَت أحسن بيان عملي:

«أنا فَتَلْتُ قلائِدَ هَدْيِ رسول اللّه ﷺ بِيَدَيَّ»!!!

ثم ماذا؟!

«ثُمَّ قَلَّدَها رسول اللّه ﷺ بيدَيْهِ»...

ثم ماذا؟!

«ثم بَعَثَ بها مع أبي»...

ثم ماذا؟!

ثم أصدرت أم المؤمنين حُكْمها في القضية:

«فَلَمْ يحْرُمْ على رسولِ اللّه... ﷺ... شيءٌ أحَلَّهُ اللّه... حتّى نُحِرَ الهَدْيُ»!!!

كل ذلك كان من أُمِّ المؤمنين... في كمال وأخلاق رفيعة...

لم تزد على أن قالت: «ليْسَ كما قالَ ابنُ عبّاسٍ»!!!

يَا أُمَّاهُ...
يا أُمَّ المُؤْمِنِينَ...
ألَا تَسْمَعِينَ...؟!

عنْ مُجاهِدٍ... قالَ:

«دَخَلْتُ أنَا وعُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ المَسْجِدَ...

«فإذَا عَبْدُ اللّهِ بنُ عُمَرَ... رضي الله عنهما... جالِسٌ إلَى حُجْرَةِ عائِشَةَ...

«وإذَا أُناسٌ يُصَلُّونَ في المَسْجِدِ صَلَاةَ الضُّحَى...

«قَالَ: فَسَأَلْنَاهُ عَنْ صَلَاتِهِمْ؟...

«فقالَ: بِدْعَةٌ...

«ثُمَّ قالَ لَهُ: كَم اعْتَمَرَ رسولُ اللّهِ... ﷺ؟...

«قالَ: أرْبَعٌ... إحْدَاهُنَّ في رَجَبٍ...

«فكَرِهْنا أن نَرُدَّ عَلَيْهِ...

«قالَ: وسَمِعْنا اسْتِنَانَ عائِشَةَ أُمِّ المؤمنينَ في الحُجْرَةِ...

«فقال عُرْوَةُ: يا أُمَّاهُ...

يا أُمَّ المُؤْمِنِينَ... ألَا تَسْمَعِينَ ما يقولُ أبُو عَبْدِ الرحمٰنِ؟!...

«قالَتْ: ما يَقُولُ؟...

«قال: يَقُولُ إنَّ رسولَ اللّهِ... ﷺ... اعْتَمَرَ أرْبَعَ عُمُرَاتٍ... إحْدَاهُنَّ في رَجَبٍ!...

«قالَتْ: يَرْحَمُ اللّهُ أبَا عَبْدِ الرحمٰنِ... ما اعْتَمَرَ عُمْرَةً إلَّا وهُوَ شاهِدُهُ... وما اعْتَمَرَ في رَجَبٍ قَطُّ.».

[أخرجه البخاري]

«المَسْجِدَ» يعني مسجد المدينة النبوية...

«**فسألناهُ عَنْ صلاتِهِم**» أي فسألنا ابن عمر عن صلاة هؤلاء الذين يصلون في المسجد...

«**بِدْعَةٌ**» أي صلاتهم بدعة... وإنما قال بدعة... وإنما البدعة إحداث ما لم يكن في عهد رسول اللّه... ﷺ... وقد ثبت أنه صلى اللّه عليه وسلم... صلى صلاة الضحى في بيت أم هانىء... وقيل أراد أن إظهارها في المسجد والاجتماع لها هو البدعة... لا أن نفس تلك الصلاة بدعة...

«**أرْبَعٌ**» أربَعُ عُمَر...

«**استنان عائشة**» استنهانها سواكها... وقيل استعمالها الماء... سننت الماء على وجهي: إذا أرسلته إرسالًا...

«**يا أُمَّاهُ**» فإن قلتَ: ما فائدة قوله...

«**يا أُمَّ المؤمنين**» بعد أن قال: «يا أُمّاه»؟...

قلتُ: أراد بقوله: «يا أمَّاهُ» المعنى الأخص لكون عائشة خالته... وأراد بقوله: «يا أمّ المؤمنين» المعنى الأعم... لكونها أم المؤمنين...

«**أبو عبد الرحمن**» هو كنية عبداللّه بن عمر...

«**عُمُرَاتٍ**» يجوز ضم الميم فيها وسكونها...

«**إحداهن في رجب**» أي إحدى العمرات كانت في شهر رجب...

«**يَرْحَمُ اللّهُ أبا عَبْدِ الرحمنِ**» ذكرته بكنيته تعظيمًا له...

«**ما اعْتَمَرَ**» أي النبي... ﷺ... عُمْرَةً... قَطُّ... إلا وهو... أي ابن عمر... شاهدُه... أي حاضر معه...

وقالت ذلك مبالغة في نسبته إلى النسيان...

ولم تنكر عائشة على ابن عمر إلا قوله «إحداهُنَّ في رَجَبٍ»...

قال المحب الطبري: «إن الثلاث كانت في ذي القعدة... وأما العُمْرة الرابعة فهي التي مع حجته صلى الله عليه وسلّم... وكانت أفعالها في الحجة بلا خلاف...

* * *

أقول... فزع مجاهد وعُرْوَةُ... إلى عائشة أم المؤمنين...

وقال عُرْوَة:

«ياأُمَّاهُ...

«يا أُمَّ المؤمنينَ...

«ألا تَسمعينَ ما يقولُ أبو عبد الرحمٰن»؟!

قالتْ: ما يقولُ؟...

قال: يقولُ إنَّ رسولَ اللّهِ... ﷺ... اعتَمَرَ أرْبَعَ عُمُرَاتٍ إحداهُنَّ في رَجَبٍ!!...

فماذا كان قول أم المؤمنين؟!

كان قولاً غاية في الكمال.. وغاية في رعاية حقوق أصحاب رسول اللّه... ﷺ...

«يَرْحَمُ اللّهُ أبا عبدِ الرحمٰنِ...

«ما اعتَمَرَ عُمْرَةً إلَّا وهو شاهِدُهُ...

«وما اعْتَمَرَ في رَجَبٍ قَطُّ».!!!

وهكذا صَحَّحتِ أم المؤمنين ما قال عبداللّه بن عُمَر... رضي اللّه عنهما...

ولكن في قَوْلٍ حَسَن!!!

وأدب هو غاية الأدب!!!

فَدَخَلَ عَلَيَّ...
النبيُّ ﷺ...
وأنَا أبْكِي...؟!

عنْ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها... قالَتْ:

«خَرَجْنَا مُهلِّينَ بالحَجِّ في أشهُرِ الحَجِّ... وفي حُرُمِ الحَجِّ...

«فَنَزَلْنا بسَرِفَ...

«فقال النبيُّ... ﷺ... لأصحابِهِ:

«مَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ هَدْيٌ فأحَبَّ أنْ يَجْعَلَها عُمْرَةً فَلْيَفْعَلْ...

«ومَنْ كانَ مَعَهُ هَدْيٌ فَلَا...

«وكانَ مَعَ النبيِّ... ﷺ... ورجِالٌ مِنْ أصحابِهِ ذَوِي قُوَّةِ الْهَدْيُ...

«فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُمْرَةً...

«فَدَخَلَ عَلَيَّ النبيُّ ﷺ... وَأَنَا أبْكي...

«فقالَ: ما يُبْكِيكِ؟...

«قُلْتُ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ لِأصحابِكَ ما قُلْتَ... فمُنِعْتُ العُمْرَةَ...

«قالَ: وما شَأْنُكِ؟...

«قُلْتُ: لَا أُصَلِّي...

«قال: فَلَا يَضُرُّكِ...

«أَنْتِ مِنْ بَنَاتِ آدَمَ...

«كُتِبَ عَلَيْكِ ما كُتِبَ عَلَيْهِنَّ...

«فكُونِي في حَجَّتِكِ عَسَى اللّهُ أَن يَرْزُقَكَهَا...

«قالَتْ: فكُنْتُ حَتَّى نَفَرْنَا مِنْ مِنًى...

«فَنَزَلْنَا المُحَصَّب...

«فَدَعَا عَبْدَ الرحمٰنِ فقالَ: إخْرُجْ بأُخْتِكَ إِلَى الْحَرَمِ... فَلْتُهِلَّ بِعُمْرَةٍ... ثُمَّ افْرُغَا مِن طَوَافِكُمَا... أنتَظِر كما هَهُنا...

«فأتَيْنا فيَ جَوْفِ الليْلِ...

«فقالَ: فَرَغْتُمَا؟...

«قُلْتُ: نَعَمْ...

«فَنادَى بالرَّحِيلِ في أصحابِهِ...

«فارْتَحَلَ الناسُ... ومَنْ طافَ بالبيتِ قَبْلَ صَلَاةِ الصُّبْحِ... ثُمَّ خَرَجَ مُتَوَجِّهًا إلى المدينةِ.».

[أخرجه البخاري]

«وفي حُرُمِ الحجّ» وهي الحالات والأماكن والأوقات التي للحجّ...

«بسَرِفَ» وهو مكان بقرب مكة...

«لا أُصَلّي» كناية عن الحيض... وهي من ألطف الكنايات!!!

«فنزلنا المُحَصَّب» وهو الأبطح...

وفي رواية مسلم «حتى نزلنا مِنى فتطهرت ثم طفت بالبيت فنزل رسول اللّٰه ﷺ المحصَّب»...

«فدعا عبد الرحمٰن» هو ابن أبي بكر... أخو عائشة رضي اللّٰه عنهم...

* * *

أقول... وذهبت أم المؤمنين بعد أن طهرت من الحيض... مع أخيها عبد الرحمٰن بن أبي بكر... وقضت عُمْرتها...

ثم عادت إلى رسول اللّٰه... ﷺ...

وقال لهما: فَرغْتُما؟...

قالت عائشة: نَعَمْ!!!

أنظر إلى جمال السؤال: فَرَغْتُما؟...

كلمة و احدة!!!

غاية الإيجاز وغاية الإعجاز!!!

قالت عائشة: نَعَمْ!!!

لقد كانت سعيدة غاية السعادة!!!.

عائشة تقول:
«يا رسولَ اللّهِ
ألَا نَغْزُو مَعَكُمْ»...؟!

أذِنَ عُمَرُ... رضي اللّه عنه... «لأزواج النبيّ... ﷺ... في آخِرِ حَجَّةٍ حَجَّها...
«فَبَعَثَ مَعَهُنَّ عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ... وعبدَ الرحمٰنِ... رضي اللّه عنهما.».

[أخرجه البخاري]

وفي حديث «عن عائشة رضي اللّه تعالى عنها قالت: منعنا عمر الحج والعمرة حتى إذا كان آخر عام فأذن لنا»...

* * *

أقول... وخرجت أم المؤمنين عائشة... مع أمهات المؤمنين للحج...

روي «أن عمر رضي اللّه تعالى عنه أذن لأزواج النبي ﷺ في الحج... فبعث معهن عثمان وعبد الرحمٰن رضي اللّه تعالى عنهما... فنادى الناس عثمان: ألا لا يدنو منهن أحد... ولا ينظر إليهن إلاّ مدّ البصر... وهن في الهوادج على الإبل... وأنزلهن صدْر الشِّعْب... ونزل عثمان وعبد الرحمٰن بن عوف بذنبه... فلم يقعد إليهن أحد»!!!.

«عَنْ عائِشَةَ... أُمِّ المؤمنينَ... رضِيَ اللّهُ عنها... قالَتْ:

«قُلْتُ: يا رسولَ اللّهِ... ألَا نَغْزُو أوْ نُجاهِدُ مَعَكُمْ؟...

«فقال: لَكُنَّ أحْسَنُ الجِهادِ وأَجْمَلُهُ الحَجُّ حَجٌّ مَبْرُورٌ...

«فقالَتْ عائِشَةُ: فَلَا أَدَعُ الحَجَّ بَعْدَ إذْ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللّهِ... ﷺ.».

[أخرجه البخاري]

«أَلَا نَغْزُو مَعَكُمْ» ألا كلمة تستعمل في مثل هذا الموضع للعرض والتحضيض... ويجوز أن تكون للتمنّي...

«أو نجاهد» شك من الراوي...

وأخرج النسائي هذا الحديث **«ألا نخرج فنجاهد معك»؟...**

وأخرج ابن خزيمة **«فإنا نجد الجهاد أفضل العمل»...**

وأخرجه الإسماعيلي: **«لو جاهدنا معك؟... قال: لا... جهادكنَّ حج مبرور»...**

«لَكُنَّ» عن عائشة بنت طلحة بلفظ «استأذنته نساؤه في الجهاد فقال يكفيكن الحجّ»...

وروى ابن ماجه: **«قلت: يا رسول اللّه على النساء جهاد؟... قال: نعم... جهاد لا قتال فيه... الحجّ والعمرة»...**

«حج مبرور» اختلفوا في المراد بالحج المبرور... فقيل: هو الذي لا يخالطه شيء من مأثم... وقيل: هو المتقبَّل... وقيل: هو الذي لا رياء فيه ولا سمعة ولا رفث ولا فسوق... وقيل: الذي لم تتعقبه معصية...

«فلا أدَعُ» أي فلا أترك...

* * *

أقول... ها هنا إشارتان خطيرتان تشيران إلى عظمة شخصية عائشة...

الأولى... سؤالها: يا رسول اللّه... ألا نغزو معكم؟!

إنها تريد أن تقاتل... وتخرج للقتال...

إنها ترغب في الشهادة لما فيها من مقامات عاليات!!!

فما معنى هذا؟!

معناه أنها سيدة على الغاية من الحيوية والغاية من الإحساس بالقيم العُلْيا من الحياة الدنيا...

فهي ترغب صادقة أن تقاتل في سبيل اللّه... إحقاقًا للحق وإزهاقًا للباطل...

وهذا جانب رائع من شخصية أم المؤمنين عائشة...

إنَّ زوجة أعظم بطل على الإطلاق...
يتحتم أن تكون على أعظم صفات البطولة!!!
والثانية... قولها بعد أن سمعت توجيه رسول اللّه... ﷺ...
«لَكُنَّ... أحسنُ الجهادِ... وأجْمَلُهُ... الحَجُّ... حجٌّ مبرورٌ.».
فقالت عائشةُ: «فَلا أدَعُ الحَجَّ...
«بَعْدَ إذْ سَمِعْتُ هذا...
«مِنْ رسولِ اللّهِ... ﷺ.»!!!.
إنَّها حريصة كل الحرص بعد وفاة النبي... ﷺ... على مداومة الحج...
لقد سمعت في هذا توجيه الحبيب إلى قلبها... ﷺ...
فهي تسعد كلما قامت بأداء الحج بعد وفاته ﷺ...
وتجد في أدائها امتثالاً لتوجيه الرسول ﷺ...
«لَكُنَّ...
«أحْسَنُ الجهادِ وأجْمَلُهُ...
«الحجُّ... حَجٌّ مبرُورٌ.»!!!.
كُلَّما حجَّت مرة... سعدت مرتين...
مرّة... لامتثال أمر رسول اللّه... ﷺ...
ومَرَّةً... وهي تتذكر قول الحبيب ﷺ!!!.

ثُمَّ...

ضَحِكَتْ...؟!

عنْ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها... قالَتْ:
«إنْ كانَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... لَيُقَبِّلُ بَعْضَ أزْوَاجِهِ... وهُوَ صَائِمٌ...
«ثُمَّ ضَحِكَتْ.»».

[أخرجه البخاري]

«ثم ضَحِكَتْ» قيل: كان ضحكها تنبيهًا على أنها صاحبة القضية... ليكون أبلغ في الثقة بحديثها...

وقال القاضي عياض: يحتمل ضحكها التعجب ممن خالفه فيه... أو: من نفسها حيث جاءت بمثل هذا الحديث الذي يستحى من ذكره... لا سيما حديث المرأة عن نفسها للرجال... لكنها اضطرّت إلى ذكره لتبليغ الحديث...

فتعجبت من ضرورة الحال المضطرة لها الى ذلك...

وقيل: ضحكت سرورًا بتذكر مكانها من رسول اللّه... ﷺ... وحالها معه!...

* * *

«عَنْ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها... قالَتْ:
«كانَ النبيُّ... ﷺ... يُقَبِّلُ ويُبَاشِرُ وَهُوَ صَائِمٌ...
«وكانَ أمْلَكَكُمْ لإرْبِهِ.»».

[أخرجه البخاري]

«يُباشِرُ» المباشرة اللمس باليد... وهو من التقاء البشرتين... ولا يُراد به الجماع...

«لإرْبِهِ» ومعنى كلامها أنه ينبغي لكم الاحتراز عن القُبلة... ولا تتوهموا

بأنفسكم مثله في استباحتها... لأنه يملك نفسه... ويأمن الوقوع فيما يتولد منه من الإنزال... وأنتم لا تملكون ذلك... وطريقكم الانفكاك عنه...

* * *

أقول... لا أحد يقوم مقام عائشة... زوج رسول اللّه... ﷺ... في هذا الخصوص... لماذا؟!

لأنها هي الزوجة... التي تطلع من شؤون رسول اللّه... ﷺ... ما لن يتيسر إلا لمِثْلها...

ومن هنا تنفرد رضي اللّه عنها... بهذه الخصوصية... فتتحدث عن أدق شؤون الزوجية... حديث التجربة لا حديث الرواية عن الغير...

وهذا يعطي حديثها أولوية في الرجوع إليه والأخذ عنه قبل روايات غيرها...

«عن حكيم بن عقال أنه قال:

«سألت عائشة: ما يحرم عليّ من امرأتي وأنا صائم؟...

«قالت: فرجها.».

«وعن مسروق قال:

«سألت عائشة أم المؤمنين:

ما يحل للرجل من امرأته صائمًا؟...

«فقالت: كل شيء إلا الجماع.».

وهكذا ذهبت عائشة بهذا الفضل... فضل تبليغ الناس ما تعلم من شؤون رسول اللّه... ﷺ... في بيته... ومع نسائه...

ثم جاء دور الفقهاء والمذاهب... فاصطرعوا في أحكام هذا الباب...

وكان اصطراعهم غاية في الجمال... وغاية في حرية الفكر... التي يتميز بها الفكر الإسلامي...

وإليك قطرات من هذا البحر الموّاج:

«وممن كره القبلة للصائم... عبداللّه بن مسعود... وعبداللّه بن عمر... وعروة بن الزبير...

«وكره مالك القبلة للصائم في رمضان للشيخ والشاب...

«وعن عطاء... عن ابن عباس: أنه أرخص فيها للشيخ وكرهها للشاب...

وقال عياض:

«منهم من أباحها على الإطلاق... وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين... وإليه ذهب أحمد... واسحاق... وداود من الفقهاء...

«ومنهم من كرهها على الإطلاق... وهو مشهور قول مالك...

«ومنهم من كرهها للشاب... وأباحها للشيخ... وهو المروي عن ابن عباس...

«ومذهب أبي حنيفة... والشافعي... والثوري... والأوزاعي... وحكاه الخطابي عن مالك...

«ومنهم من أباحها في النفل... ومنعها في الفرض... وهي رواية ابن وهب عن مالك...

«وقال النووي: إن حركت القبلة الشهوة فهي حرام على الأصح عند أصحابنا... وقيل مكروه كراهة تنزيه... انتهى...

«وقال أصحابنا الحنفية في فروعهم: لا بأس بالقبلة والمعانقة إذا أمن على نفسه... أو كان شيخًا كبيرًا... ويكره له مس فرجها...

«وعن أبي حنيفة: تكره المعانقة والمصافحة والمباشرة الفاحشة بلا ثوب... والتقبيل الفاحش مكروه... وهو أن يمضغ شفتيها...»!!!.

ما هذا؟!

هذه بعض بدائع روائع فقهاء هذه الأمة المباركة...

أقصى الحرية... في الاستنباط... واستخراج الأحكام...

والأُمَّة كلها ترشف من سلسبيلهم... فلا حَرَج على أحَد...

كل ذلك الخير... مؤسس كثير منه على ما روت أم المؤمنين عائشة عن رسول الله... ﷺ...

فأيّ مقام مقامها... رضي الله تعالى عنها؟!!.

عائشة...

تفعل الشيء...
وهُنَّ يُقَلِّدْنها...؟!

عنْ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها... قالَتْ:
«كانَ رسولُ اللّه... ﷺ... يَعْتَكِفُ في كُلِّ رَمَضَانٍ...
«وإِذَا صَلَّى الغَدَاةَ دَخَلَ مَكَانَهُ الَّذِي اعتَكَفَ فِيهِ...
«قال: فاسْتَأْذَنَتْهُ عائِشَةُ أَنْ تَعْتَكِفَ...
«فأَذِنَ لَهَا...
«فَضَرَبَتْ فيهِ قُبَّةً...
«فَسَمِعَتْ بِهَا حَفْصَةُ... فَضَرَبَتْ قُبَّةً...
«وسَمِعَتْ زَيْنَبُ بِهَا... فَضَرَبَتْ قُبَّةً أُخْرَى...
«فلمَّا انصَرَفَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... مِنَ الْغَدِ... أبْصَرَ أرْبَعَ قِبَابٍ...
«فقالَ: مَا هَذَا؟...
«فأُخْبِرَ خَبَرَهُنَّ...
«فقالَ: ما حَمَلَهُنَّ على هَذَا... آلْبِرُّ؟...
«انْزِعُوهَا... فَلَا أَرَاهَا...
«فنُزِعَتْ...
«فَلَمْ يَعْتَكِفْ في رمضانَ حتَّى اعْتَكَفَ في آخِرِ العَشْرِ مِنْ شَوَّالٍ.».

[أخرجه البخاري]

«دَخَلَ مكانَهُ» من الدخول... وفي رواية حل مكانه من الحلول وهو النزول... ومكانه هو موضعه الخاص من المسجد الذي خصصه منه للاعتكاف... وهو موضع خيمته...

«أَرْبَعَ قِبابٍ» واحدة منها لرسول اللّه... ﷺ...
وثلاث لعائشة... وحفصة... وزينب...
«انزِعُوها» أي القباب المذكورة.. من النزع وهو القلع...

* * *

أقول... واضح هنا أن أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها... هي البادئة...
وأنَّ أمهات المؤمنين... قلَّدْنها فيما فعلت... فما معنى هذا؟...
معناه واضح جدًا... أن عائشة سبَّاقة إلى الخير...
وهُنَّ من ورائها... أي لها القيادة...
وفي رواية أخرى للبخاريّ... نلمس ذلك أكثر وضوحًا:
«عن عائشَةَ... رضي اللّه عنها... أنَّ رسولَ اللّهِ... ﷺ... ذَكَرَ أَنْ يَعْتَكِفَ الْعَشْرَ الأواخِرَ مِنْ رَمَضان...
«فاسْتَأْذَنَتْهُ عائِشَةُ... فأَذِنَ لَها...
«وسَأَلَتْ حَفْصَةُ عائِشَةَ أَنْ تَسْتَأْذِنَ لَها... فَفَعَلَتْ...
«فلمَّا رَأَتْ ذَلِكَ زَيْنَبُ ابنةُ جَحْش أَمَرَتْ ببنَاءٍ فبُنِيَ لَها...
«قالَتْ: وكانَ رسولُ اللّهِ ﷺ... إذا صَلَّى انصَرَفَ إلى بِنائِهِ...
«فبَصُر بالأَبْنِيَةِ... فقال: ما هَذَا؟...
«قالُوا: بِنَاءُ عائِشَةَ وحَفْصَةَ وزَيْنَبَ...
«فقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: آلْبِرَّ أَرَدْنَ بهَذَا؟... ما أنَا بِمُعْتَكِفٍ...
«فَرَجَعَ... فلَمَّا أَفْطَرَ اعْتَكَفَ عَشْرًا مِنْ شَوَّالٍ.».
والذي نُركِّز عليه ها هنا هو:
«وسأَلَتْ حَفْصَةُ عائشَةَ أن تستأذنَ لها فَفَعَلَتْ»...
إن حفصة تذهب إلى عائشة لتستأذن لها؟!!
«فلما رأت ذلك زينب ابنة جحش أمرت ببناء فبُنِيَ لها»!!!
وهكذا نجد عائشة هي التي تبدأ الفعل... وأنهنَّ يتبعنها.

* * *

«عن عائشَة... رضي اللّه عنها...
«أنّها كانَتْ تُرَجِّلُ النبيَّ... ﷺ... وهِيَ حَائِضٌ...
«وهُوَ مُعْتَكِفٌ في المسْجِدِ...
«وهِيَ في حُجْرَتِها...
«يُناوِلُهَا رَأْسَهُ.».

[أخرجه البخاري]

«تُرَجِّلُ» أي تمشط شعر رأسه... ﷺ...
«وهو مُعْتَكِفٌ» أي النبي... ﷺ... معتكف...
«يُناوِلُها» أي يميل رأسه إليها لتمشطه...
وكان باب الحجرة إلى المسجد...
وكانت عائشة تقعد في حجرتها... من وراء القبة...
ويقعد رسول اللّه... ﷺ... في المسجد... خارج الحجرة...
فيميل رأسه إليها... واللّه أعلم بحقيقة الحال...

* * *

أقول... إنَّ عائشة... رضي اللّه عنها... كانت تتابعه في اعتكافه...
هو... ﷺ. في المسجد... وهي... في حجرتها... من وراء القبّة...
فيميل رأسه إليه لتُرَجِّله!!!.
كَمْ كانت سعادتها... وهي تمشط شعر رأسه ﷺ؟!!
لقد نالت عائشة... ما لم ينله أحَد!!!.

عائشةُ تقول:
«يا رسولَ اللّهِ...
ماذَا أَذْنَبْتُ»؟..؟!

عَنْ عائِشَةَ... أُمِّ المؤمنينَ... رضي اللّه عنها... أنَّهَا أَخْبَرَتْهُ...
«أنّها اشْتَرَتْ نمْرُقَةً فيهَا تَصَاوِيرُ...
«فَلَمَّا رَآهَا رسولُ اللّهِ... ﷺ... قام عَلَى البَابِ فَلَمْ يَدْخُلْهُ...
«فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةَ...
فقُلْتُ:
«يا رَسُولَ اللّهِ...
«أَتُوبُ إلَى اللّهِ...
«وإلى رسولِهِ... ﷺ...
«ماذَا أَذْنَبْتُ؟...
«فقالَ رسولُ اللّهِ... ﷺ: ما بَالُ هَذِهِ النُّمْرُقَةِ؟...
«قلْتُ: اشْتَرَيْتُها لَكَ... لِتَقْعُدَ عَلَيْها وتَوَسَّدَها...
«فقال رسول اللّه... ﷺ: إنَّ أصحابَ هذه الصُوَرِ يوْمَ القيامَةِ يُعَذَّبُونَ...
فيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا ما خَلَقْتُمْ...
«وقالَ: إنَّ البَيْتَ الَّذي فيهِ الصُّوَرُ لا تَدْخُلُهُ الملائِكَة.

[أخرجه البخاري]

«نُمْرُقَة» هي وسادة صغيرة...
«الصُّوَر» جمع صورة... ترد في كلام العرب على ظاهرها... وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته... وعلى معنى صفته... يقال صورة الفعل كذا...
«أحْيُوا» أمر تعجيز من الإحياء...

«**ما خَلَقْتُم**» أي صوّرتم...

«**لا تَدْخُلُه الملائكة**» أي غير الحفظة...

وقيل ملائكة الوحي...

وقال النووي: أما الملائكة الذين لا يدخلون بيتًا فيه كلب أو صورة فهم ملائكة يطوفون بالرحمة والاستغفار...

* * *

مشهد له أثر عميق في تكوين شخصية أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها!!!.

اشترت عائشة نُمْرُقَة... وسادة صغيرة فيها بعض التصاوير المألوفة في مِثْل هذه الأقمشة...

فماذا حَدَثَ؟!

«فلمَّا رآها رسول اللّه ﷺ... قام على الباب فلم يَدْخُلْهُ»!!!

مقام ليس كمِثْله مقام!!!

إنَّه رسول اللّه... ﷺ...

ثم ماذا؟!!

ثم يأتي دور ذكاء عائشة... وفطنتِها... وسرعة إدراكها...

«فَعَرَفْتُ في وجْهِهِ الكراهِيَة»!!!

هكذا؟!... بدون كلام منها!!!

إنها ابنة أبي بكر!!!

وفزعت أمّ المؤمنين وقالت:

«يا رسولَ اللّهِ...

«أتوبُ إلى اللّهِ...

«وإلى رسولِهِ ﷺ...

«ماذا أَذْنَبْتُ؟»...

تأمَّل... منتهى الخوف... ومنتهى الأدب... ومنتهى الأمل في رفق رسول اللّه... ﷺ!!!

قَدَّمَت أولاً التوبة...

ثم سألت: ماذا أَذْنَبْتُ؟!!

هنالك أدركَتْ عائشة أن رسول اللّه... ﷺ... مقامه أعلى وأعلى وأعلى... من هذه التفاهات التي يهشّ ويَبَشّ لها أهل الدنيا!!!.

مِن بدائع فِقْهها...

في أسباب النزول...؟!

سَمِعْتُ هِشامَ بنَ عُرْوَةَ...

«يُحَدِّثُ عنْ أَبِيهِ...

«أنَّهُ سَمِعَ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها... تقُولُ ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بالْمَعْرُوفِ﴾...

«أُنزِلَتْ فِي وَالي الْيَتِيم الذِي يُقِيمُ عَلَيْهِ... ويُصْلِحُ في مَالِهِ...

«إِنْ كانَ فَقِيْرًا أَكَلَ مِنْهُ بالْمَعْرُوفِ.».

[أخرجه البخاري]

«وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فقيرًا فَلْيَأْكُلْ بالْمَعْرُوفِ» هذا في سورة النساء...

وأول الآية ﴿وابْتَلُوا الْيتامَى حتَّى إذا بَلَغُوا النِّكاحَ فإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوها إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بالْمَعْرُوفِ فإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أمْوَالَهُمْ فَأشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وكفَى باللّهِ حَسِيبًا﴾...

﴿وابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ أي اختبروهم...

﴿حتَّى إذا بَلَغُوا النكاحَ﴾ يعني الحُلُم...

﴿فإِنْ آنستُم منهم رُشْدًا﴾ يعني صلاحًا في دينهم... وحفظًا لأموالهم...

ثم نهى اللّه عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية... إسرافًا ومبادرة قبل بلوغهم...

﴿وَمَنْ كانَ غَنِيّاً﴾ أي من كان في غنية عن مال اليتيم فليستعفف عنه ولا يأكل منه شيئًا...

﴿أُنْزِلَتْ﴾ أي هذه الآية في والي اليتيم وهو الذي يلي أمره ويتولاه...
﴿الذي يُقيمُ عَلَيْهِ﴾ يلازمة ويعتكف عليه... أو يقيم نفسه عليه...
﴿أَكَلَ مِنْهُ بالمعروف﴾ يعني بقدر قيامه عليه...
وقال الفقهاء: له أن يأكل أقل الأمرين أجرة مثله... أو قدر حاجته...
﴿فإذا دَفَعْتُم إلَيْهِم أمْوالَهُم﴾ يعني بعد بلوغهم الحُلُم وإيناس الرشد... فحينئذ سلّموهم أموالهم...
فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم لئلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلّمه...
﴿وكفَى باللّهِ حَسيبًا﴾ أي محاسبًا... وشاهدًا... ورقيبًا... على الأولياء... حال تسلمهم الأموال... هل هي كاملة وفرة... أو ناقصة مبخوسة؟...

* * *

أقول... هذه الأمور... غالبًا بل دائمًا... لا تلتفت إليها النساء... لأنها أمور مادية تتعلق بالولاية على اليتامى... ودفع أموالهم إليهم عند الرشد...
فما للنساء وهذه الأمور؟!
ولكن عائشة مؤهلة... لأن تكون ذات فقه واسع... في كل أمر من أمور هذا الدين!!!.
إنَّ اللّه أهَّلَها لذلك المقام... مقام تعليم الأُمّة ما تيسّر لها من علوم الدين!!!.

عائشة...
تُفَسِّر آيَةً...
مِن كتابِ اللّه...؟!

أخبرنا هشامُ بنُ عُرْوَةَ... عَنْ أبيهِ...
«عنْ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها...
في هذِهِ الآيةِ...
«﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾...
«قالَتِ: الرَّجُلُ يَكُونُ عنْدَهُ المرْأَةُ ليْسَ بمُسْتَكْثِرٍ مِنْها...
«يُرِيدُ أَنْ يُفَارِقَها...
«فقَالَتْ: أَجْعَلُكَ مِنْ شَأْنِي في حِلٍّ...
«فَنَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ في ذلِكَ.».

[أخرجه البخاري]

﴿الرجُلُ تكونُ عندَهُ المرأةُ﴾ إلى آخره... مقول القول...

﴿ليس بمستكْثِرٍ مِنها﴾ ليس بطالب كثرة الصحبة منها...

ويريد مفارقتها... إما لكِبَرها... أو لدمامتها... أو لسُوء خُلُقها... أو لكثرة شرّها... أو غير ذلك...

﴿فقالَتْ﴾ أي تلك المرأة...

﴿أجْعَلُكَ مِنْ شَأْنِي﴾ أي من أجل شأني... في حلّ من مواجب الزوجية وحقوقها...

﴿فنزلت هذه الآية﴾ أي قوله تعالى ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا﴾ الآية...

﴿في ذلِكَ﴾ أي في أمر هذه المرأة...

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ﴾ أي وإن خافت امرأة من بعلها... أي من زوجها...

﴿نُشُوزًا﴾ والنشوز منه أن يُسيء عشرتها ويمنعها النفقة...

﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الإعراض منه كراهته إياها... وإرادته مفارقتها... فإذا كان كذلِك...

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ وهو أن يقبل ما تسقطه من حقها من نفقة أو كسوة أو مبيت عندها... أو غير ذلك من حقوقها عليه... فلا جناح عليها في بذلها له ذلك... ولا عليه في قبوله منها...

ولهذا قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾...

ثم قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي من الفِراق...

ولهذا لما كبرت سَوْدَة بنت زمعة...

وعزم رسول اللّه... ﷺ... على فراقها...

صالحته أن يمسكها...

وتترك يومها لعائشة... رضي اللّه تعالى عنها...

فقبل رسول اللّه... ﷺ... منها... وأبقاها على ذلك...

عن ابن عباس... رضي اللّه تعالى عنهما قال:

«خشيت سودة أن يطلقها رسول اللّه... ﷺ...

«فقالت: يا رسول اللّه... لا تطلّقني... واجعل يومي لعائشة...

«ففعل... فنزلت هذه الآية ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الآية...

«قال ابن عباس: فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز».

وقال سعيد بن منصور...

«عن هشام بن عروة عن أبيه قال:

«أُنزلتِ في سَوْدة وأشباهها ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أو إِعْرَاضًا﴾...

«وذلك أن سودة كانت امرأة قد أسنّت...

«ففرقت أن يفارقها رسول اللّه... ﷺ...

«وضنَّت بمكانها منه...

«وعرفت من حُبّ رسول اللّه... ﷺ... عائشة...
«ومنزلتها منه...
«فوهبت يومها من رسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم... لعائشة...
«فقبل النبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم»...
عن ابن سيرين قال:
«جاء رجل إلى عمر... رضي اللّه تعالى عنه... فسأله عن آية... فكره ذلك وضربه بالدّرة...
«فسأله آخر عن هذه الآية ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَو إِعْرَاضًا﴾...
«فقال: عن مثل هذا فسلوا...
«ثم قال: هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا من سنها... فتزوج المرأة الشابة يلتمس ولدها... فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز.».
وعن خالد بن عروة قال:
«جاء رجل إلى عليّ بن أبي طالب... رضي اللّه تعالى عنه...
«فسأله عن قول اللّه عزّ وجلّ ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فلا جُناحَ عَلَيْهِمَا﴾...
«قال عليّ: يكون الرّجل عنده المرأة (فسوا[1]) عيناه عنها من دمامتها أو كِبَرها أو سُوء خلقها أو قذرها...
«فتكره فراقه...
«فإن وضعت له من مهرها شيئًا حَلّ له...
«وإن جعلت له من أيامها فلا حرج»...
وكذا فسّره ابن عباس... وغير واحد من السلف والأئمّة...
ولا أعلم في ذلك خلافًا في أن المراد بهذه الآية هذا... واللّه أعلم...

* * *

(١) هكذا بالأصل ولعل الصواب كلمة تفيد إعراض عيناه عنها.

أقول... وهكذا فسَّرت أم المؤمنين عائشة هذه الآية...

فكان تفسيرها رائعًا... جامعًا... وتناقله الفقهاء من بعدها وأجمعوا عليه!!!.

عائشة...

تدفعها الغيرَة...

إلى تحطيم القَصْعَة...؟!

عَنْ أَنَسٍ... رضي الله عنه...

«أنَّ النبيَّ... ﷺ...

«كانَ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ...

«فأرْسَلَتْ إحْدى أُمَّهاتِ المؤمنين... مَعَ خَادِمٍ بقَصْعَةٍ فيهَا طعَامٌ...

«فضَرَبَتْ بيدِها...

«فكَسَرَتِ الْقَصْعَةَ...

«فَضَمَّها وَجَعَلَ فيهَا الطعامَ... وقال: كُلُوا...

«وحَبَسَ الرسولَ والقَصْعَةَ حتَّى فرَغُوا...

«فَدَفَعَ الْقَصْعَةَ الصَّحِيحَةَ...

«وَحَبَس المكْسُورَةَ».

[أخرجه البخاري]

وروى الترمذي... عن أنس قال:

«أهدت بعض أزواج النبي... ﷺ... طعامًا في قصعة...

«فضربت عائشة القصعة بيدها... فألقت ما فيها...

«فقال النبي... ﷺ: طعام بطعام... وإناء بإناء»...

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح...

وإنما أبهمت عائشة تفخيمًا لشأنها...

قيل: إنه مما لا يخفى ولا يلتبس أنها هي... لأن الهدايا إنما كانت تهدى إلى النبي... ﷺ... في بيتها...

ولم يقع في رواية أحد من البخاري والترمذي وابن ماجة تسمية زوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم... التي أهدت له الطعام...

وقد ذكر ابن حزم... «عن أنس أن التي أهدته إليه زينب بنت جحش... أهدت إلى رسول الله... ﷺ... وهو في بيت عائشة ويومها... جفنة من حيس... فقامت عائشة فأخذت القصعة... **فضربت بها... فكسرتها...**

«فقام رسول الله... صلى الله تعالى عليه وسلم... إلى قصعة لها... فدفعها إلى رسول زينب...

«فقال: هذه مكان صحفتها.».

وفي الأوسط للطبراني... «عن أنس... أنهم كانوا عند رسول الله... ﷺ... في بيت عائشة... إذ أتي بصحفة خبز ولحم من بيت أم سلمة... فوضعنا أيدينا... **وعائشة تصنع طعامًا عجلة...** فلما فرغنا جاءت به... **ورفعت صحفة أم سلمة... فكسرتها...**».

«**مع خادِمٍ**» يطلق الخادم على الذكر والأنثى... وهنا المراد الأنثى...

«**فيها طعامٌ**» ذكر في حديث زينب أنه حَيْس... وهو الطعام المتخذ من التمر والأقط والسمن... وقد يجعل عوض الأقط الدقيق أو الفتيت... وفي حديث الطبراني خبز ولحم...

«**فضَمَّها**» أي ضم القصعة التي انكسرت رسول الله... ﷺ...

«**وقال كُلُوا**» أي قال صلى الله تعالى عليه وسلم لأصحابه الذين كانوا معه...

«**وَحَبَس الرسول**» أي أوقف الخادم الذي هو رسول إحدى أمهات المؤمنين...

«**والقَصْعَةَ**» أي حبس القصعة المكسورة أيضًا عنده...

«**حتى فرَغوا**» أي حتى فرغت الصحابة الذين كانوا معه من الأكل...

«**فدَفَعَ**» أي أمر بإحضار قصعة صحيحة من عند التي هو في بيتها... فدفعها إلى الرسول...

«**وحَبَسَ المكسُورَةَ**» وحبس القصعة المكسورة عنده...

ما يستفاد منه؟!

فيه بسط عذر المرأة في حالة الغيرة... لأنه لم ينقل أنه ﷺ... عاتب عائشة على ذلك...

فإنما قال: «غارت أُمُكم»...

ويقال إنما لم يؤدبها ولو بالكلام... لأنه فَهِمَ أن المهدية كانت أرادت بإرسالها ذلك إلى بيت عائشة أذاها... والمظاهرة عليها...

فلما كسرتها لم يزد على أن قال: «غارت أُمُكم» وجمع الطعام بيده وقال: «قصعة بقصعة وأما طعام بطعام»...

* * *

أقول... مشهد جميل!!!

إن عائشة هنا تعبِّر عن غيرتها تعبيرًا طبيعيًا...

إنها تحطم الإناء... القصعة!!!.

وإن رسول الله... ﷺ... يعالج الأمر علاجًا جميلًا!!!.

عُمَرُ يقولُ لحَفْصَةَ...
«لا يَغُرَّنَّكِ أَنْ كانَتْ جَارَتُكِ...
هِيَ أَوْضَأَ مِنْكِ...
وَأَحَبَّ إلى رسول اللّه...
صلّى اللّه عليه وسلم»...
يُرِيدُ عائشَةَ...؟!

نحن الآن أمام حديث جامع... رائع... يصلح أن يكون بمفرده موضوع كتاب ضخم...

ولكن نستنبط منه ما يُلقي ضوءًا جديدًا... في هذا المبحث المبارك إن شاء اللّه...

ابن عبّاس... حَبْر الأُمَّة... يسأل عُمَر...

عملاق الحقِّ؟!

«عنْ عَبْدِ اللّهِ بنِ عبّاسٍ... رضي اللّه عنهما... قالَ:

«لَمْ أَزَلْ حَرِيْصًا على أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ... رضي اللّه عنه...

«عنِ المَرْأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النبيِّ... ﷺ...

«اللَّتَيْنِ قالَ اللّهُ لَهُما ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾...

«فحَجَجْتُ مَعَهُ... فَعَدَلَ وَعَدَلْتُ مَعَهُ بالإِدَاوَةِ...

«فَتَبَرَّزَ حتَّى جاءَ... فَسَكَبْتُ على يَدَيْهِ مِنَ الإِدَاوَةِ...

«فَتَوَضَّأَ...

«فقُلْتُ: يا أميرَ المؤمنينَ... مَنِ المرْأَتَانِ مِنْ أزْواجِ النبيِّ... ﷺ... اللَّتانِ قالَ لَهُما ﴿إِنْ تَتُوبَا إلى اللّهِ﴾؟...

«فقال: وَاعَجَبى لَكَ ياابنَ عبَّاسٍ!...

«عائِشَةُ... وحَفْصَةُ!...

[أخرجه البخاري]

«فعَدَلَ» أي عن الطريق...

«بالإداوةِ» وهي إناء صغير من جلد يتخذ للماء - بلُغة اليوم الزمزمية -

«فتبرَّز» خرج إلى الفضاء لقضاء الحاجة...

«واعَجَبَى لَكَ» بالألف في آخره... وهو إما تعجب من جهله بذلك وهو كان مشهورًا بينهم بعلم التفسير... وإمّا من حرصه على سؤاله عمّا ما لا يتنبّه له إلّا الحريص على العلم... من تفسير ما لا حُكم فيه من القرآن...

«عائشةُ وحفصةُ» أي المرأتان اللتان قال اللّه تعالى ﴿إن تتوبَا إلى اللّهِ﴾ الآية... هما عائشةُ وحَفْصَةُ...

عُمَرُ يقولُ لحَفْصَةَ: أتُغاضِبُ إحْدَاكُنَّ... رسولَ اللّه... صلى اللّه عليه وسلم؟!

«ثُمَّ اسْتَقْبَلَ عُمَرُ الحديث يَسُوقُهُ... فقال:

«إِنِّي كُنتُ وجَارٌ لي مِنَ الأنْصارِ في بني أُمَيَّةَ بنِ زَيْدٍ... وهِيَ مِنْ عَوَالي المدينَةِ...

«وكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى النبيِّ... ﷺ...

«فيَنزِلُ هُوَ يَوْمًا... وأَنْزِلُ يَوْمًا...

«فإذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ مِنْ خَبَرِ ذلكَ اليومِ مِنَ الأَمْرِ وغَيْرِهِ... وإذا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَهُ...

«وكُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّساءَ... فلمَّا قَدِمْنا على الأنصارِ إذا هُمْ قوْمٌ تَغْلِبُهُمْ نِساؤُهُمْ...

«فَطفِقَ نِسَاؤُنا يأخُذْنَ مِنْ أَدَبِ نِساء الأَنْصارِ...

«فَصِحْتُ على امْرَأَتِي فرَاجَعَتْنِي...

«فأنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي...

«فقالَتْ: ولِمَ تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ... فوَاللّهِ إنَّ أزواجَ النبيِّ... ﷺ... لَيُرَاجِعْنَهُ... وإِنَّ إِحْدَاهُنَّ لَتَهْجُرُهُ اليَوْمَ حتَّى اللَّيْلِ...

«فأَفْزَعَنِي... فقُلْتُ: خابَتْ مَنْ فَعَلَ مِنْهُنَّ بِعَظِيمٍ...

«ثُمَّ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي... فَدَخلْتُ على حَفْصةَ...

«فقُلْتُ: أيْ حَفْصَةُ... أتُغاضِبُ إحْدَاكُنَّ رسولَ اللّهِ... ﷺ... اليَوْمَ حتَّى اللَّيْلِ؟...

«فقالَتْ: نَعَمْ...

«فقُلْتُ: خابَتْ وخَسِرَتْ...

أفَتأْمَنُ أنْ يَغْضَبَ اللّهُ لِغَضَبِ رسُولِهِ... ﷺ... فتَهْلِكِينَ؟...

«لا تَسْتَكْثِرِي علَى رسولِ اللّهِ... ﷺ... وَلَا تُرَاجِعِيهِ في شَيْءٍ... ولا تَهْجُرِيهِ...

عُمَر يقول أنَّ عائشَة أجمل؟!

«واسْأَلِينِي ما بَدَا لَكِ...

«وَلَا يَغُرَّنَّكِ أنْ كانَتْ جارَتكِ هِيَ أوْضَأَ مِنْكِ...

«وَأَحَبَّ إلى رسول اللّهِ... ﷺ...

«يُرِيدُ عَائشَةَ...».

[أخرجه البخاري]

«وجارٌ لي من الأنصار» هو عتبان بن مالك بن عمرو العجلاني الأنصاري الخزرجي...

«**من عوالي المدينة**» وهي القرى بقرب المدينة...

«**معشر قريش**» أي جمع قريش...

«**بعظيم**» أي بأمر عظيم...

«**ثم جمعتُ عليَّ ثيابي**» أي لبستها...

«**أيْ حَفْصَةُ**» أي يا حفصة...

«**ما بَدَا لَكِ**» أي ما كان لك من الضرورات...

«**أن كانَتْ جارتُكِ**» أي بأن كانت...

ولا يغرَّنَّكِ كون جارتك... أضوأ منكِ... أي أزهر وأحسن...

ويروى أوضأ من الوضاءة... أي من أجمل وأنظف...

والمراد من الجارة الضرَّة...

والمراد بها عائشة... رضي اللّه تعالى عنها...

وفسر ذلك بقوله: «يُرِيدُ عائشةَ»

* * *

أقول: قالوا: فيه فضل عائشة رضي اللّه تعالى عنها....

وأضيف وفيه شهادة عمر... وما أدراك ما عمر!!!

أنَّ أم المؤمنين عائشة... كانت أجمل...

«لا يَغُرَّنَّكِ أنْ كانَتْ جارَتُكِ...

«هيَ أوْضأ مِنْكِ...

«وأحبَّ إلى النبيِّ... ﷺ.»!!!.

قال الراوي: يُرِيدُ عائشةَ!!!

عائشة...

محرِّرَة العبيد...

مِن ذُلِّ الرِّق...؟!

عَنْ عائِشَةَ... قالَتْ:

«جاءَتْني بَريرَةُ... فقالَتْ:

«كاتَبْتُ أهْلِي على تِسْعِ أَوَاقٍ... في كُلِّ عام أوقِيَّةٌ... فأعينِيني...

«فقالَتْ إنْ أحَبُّوا أنْ أَعُدَّها لَهُمْ ويَكُون ولاؤُكِ لِي فَعَلْتُ...

«فَذهَبَتْ بَريرَةُ إلى أهْلِها فقالَتْ لَهُمْ... فأبَوْا عَلَيْهَا...

«فجاءَتْ مِن عِنْدِهِمْ... ورسولُ اللّهِ... ﷺ... جالِسٌ...

«فقالَتْ: إنِّي قَدْ عَرَضْتُ ذلكَ عَلَيْهِمْ فَأَبَوْا إلّا أن يَكُونَ الوَلَاءُ لَهُمْ...

«فسَمِعَ النبيُّ... ﷺ...

«فأخبَرَتْ عائِشَةُ النبيَّ ﷺ...

«فقال: خُذِيهَا واشْتَرِطِي لَهُمُ الوَلاءَ... فإنَّما الولاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ...

«ففَعَلَتْ عائِشَةُ...

«ثُمَّ قامَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... في النَّاسِ...

«فحَمِدَ اللّهَ... وأثْنَى عَلَيْهِ... ثمَّ قالَ:

«ما بالُ رجالٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ في كِتَابِ اللّهِ...

«ما كانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ في كتابِ اللّهِ فهُوَ بَاطِلٌ...

«وَإنْ كانَ مِائَةَ شَرْط...

«قَضَاءُ اللّهِ أحقُّ...

«وشَرْطُ اللّهِ أَوْثَقُ...

«وإنَّما الوَلاءُ لِمَنْ أعْتَقَ.».

[أخرجه البخاري]

وقد مضى هذا في مواضع متعددة[1]... وهذا هو الموضع الرابع عشر الذي يذكر فيه خبر بَريرَة...

«فأعينيني» وفي رواية فأعيتني من الإعياء وهو العجز، والمعنى فأعيتني تسع أواقٍ لعجزي عن تحصيلها... وفي رواية فأعتقيني... من الإعتاق...

«واشْتَرِطِي» المراد التوبيخ لهم... لأنه ﷺ قد بيّن لهم أن هذا الشرط لا يصلح... فلما لَجّوا في اشتراطه قال ذلك... أي لا تبالي به سواء شرطتيه أم لا... والأصح أنه من خصائص عائشة لا عموم له... والحكمة في إذنه ثم إبطاله أن يكون أبلغ في قطع عادتهم وزجرهم عن مثله...

* * *

أقول... واشترت أم المؤمنين عائشة رضي اللّه تعالى عنها... بَرِيرَةَ... ودفعت إليهم الثمن...

وحررتها... وأعتقتها...

كما أمرها رسول اللّه... ﷺ... في إحدى روايات البخاري للحديث:

«خُذِيها... فأعْتِقِيْهَا....»!!!

وفي رواية للبخاري أيضًا:

«اشْتَرِيها... فأعْتِقيها...»!!!

---

(١) أي من صحيح البخاري

عُرْوَةُ بن الزُّبَيْر...
يقول لخالَتِهِ...
«يا خالَةُ...
ما كان يُعِيشُكُمْ»...؟!!

إذا قال التاريخ...

إنَّ عائشة... أم المؤمنين... رضي الله تعالى عنها...

كانت... وكانت... على أعلى مستوى من الفضائل والأخلاق...

سأَلَ الناسُ: أنَّى لها هذا؟!!

الجواب: ما سوف تقرأ!!!

«عنْ عُرْوَةَ...

«عنْ عائِشَةَ... رضي الله عنها... أنَّها قالَتْ لِعُرْوَةَ...

«ابنَ أُخْتِي...

«إنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إلى الهلَالِ... ثُمَّ الْهِلَالِ... ثُمَّ الهِلَالِ... ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ في شَهْرَيْنِ...

«وَمَا أُوقِدَتْ في أبْياتِ رسول اللّهِ... ﷺ... نارٌ...

«فقُلْتُ: يا خَالَةُ ما كانَ يُعِيشُكُمْ؟...

«قالَتْ: الأَسْوَدَانِ... التَّمْرُ والماءُ...

«إلَّا أَنَّهُ قَدْ كانَ لِرسولِ اللّهِ... ﷺ... جِيْرَانٌ مِنَ الأَنْصارِ كانَتْ لَهُم مَنَائِحُ... وكَانوا يَمْنَحُونَ رسولَ اللّه... ﷺ... مِنْ أَلْبَانِهِمْ...

«فَيَسْقِينَا.».

[أخرجه البخاري]

«لعُرْوَةَ» عروة بن الزبير بن العوام...

«ابنَ أختي» يعني يابن أختي...

وفي رواية مسلم «واللّهِ يابن أختي»...

وأُمّ عُرْوَة... أسماء بنت أبي بكر الصدّيق... وهي أخت عائشة... بنت أبي بكر... رضي اللّه تعالى عنهم...

«ثلاثةَ أَهِلَّةٍ» نرى ثلاثة أهلّة... ونكملها في شهرين...

وفي رواية ابن ماجة «كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوته الدخان»...

«وما أُوقِدَتْ» من الإيقاد...

«يا خالةُ» بضم التاء لأنه منادى مفرد...

«ما كان يُعِيشُكُم»؟! من أعاشه اللّه تعالى عيشة...

«الأسودانِ التَّمْرُ والماءُ» وهو من باب التغليب... إذ الماء ليس أسود...

وأطلقت عائشة على التمر أسود لأنه غالب تمر المدينة...

«منائِحُ» هي ناقة أو شاة تعطيها غيرك ليحتلبها ثم يردها عليك...

«يَمْنَحُونَ» من المنح وهو العطاء...

وذلك لأنهم كانوا يهدون إلى رسول اللّه... ﷺ... من ألبان منائحهم...

وفي الحديث... زهد النبي... ﷺ... في الدنيا... والصبر على التقلل... وأخذ البلغة من العيش... وإيثار الآخرة على الدنيا...

وأضيف... وفيه منبع من المنابع العليا التي تربَّت عليها أم المؤمنين عائشة.... رضي اللّه تعالى عنها!!!

ثلاثة أهلّة... في شهرين... وما أوقدت في أبيات رسول اللّه... ﷺ... نار!!!

وبيت عائشة... هو أحد هذه البيوت!!!.

شهران يمُرَّان... على أُمّ المؤمنين عائشة...

وما يوقد في بيتها نار!!!.

ما هذا؟!!
هذه حياة عائشة!!!
هذه عظمة عائشة!!!
هذه أخلاق عائشة!!!
عليها السلام!!!.

فاطمة... بنت رسول اللّه...
صلى اللّه عليه وسلم...
تؤدِّي رسالةً...
من أمَّهاتِ المؤمنين...؟!

عنْ عائِشةَ... رضي اللّه عنها...

«أنَّ نِسَاءَ رسول اللّهِ... ﷺ... كُنَّ حِزْبَيْنِ...

«فَحِزْبٌ فيهِ عائِشةُ... وحَفْصَةُ... وصفيَّةُ... وسَوْدَةُ...

«والحِزْبُ الآخَرُ... أُمُّ سَلَمَةَ... وسائِرُ نساءِ رسولِ اللّه... ﷺ...

«وكانَ المسلمونَ قَدْ عَلِمُوا حُبَّ رسولِ اللّهِ... ﷺ... عائشة...

«فإِذَا كانت عِنْدَ أحدِهِمْ هَدِيَّةٌ يُرِيدُ أَنْ يُهْدِيَها إلى رسول اللّه... ﷺ... أخَّرَها حتَّى إذا كانَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... في بَيْتِ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها... بَعَثَ صاحِبُ الهَدِيَّةِ إلى رسولِ اللّه... ﷺ... في بَيْتِ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها...

«فَكلّم حِزْبُ أُمِّ سَلَمَةَ فقُلْنَ لَها:

كَلِّمِي رسولَ اللّهِ... ﷺ... يُكَلِّمُ الناسَ فيقُولُ مَنْ أرادَ أَنْ يُهْدِيَ إلى رسولِ اللّهِ... ﷺ... هَدِيَّةً فَلْيُهْدِهَا إِلَيْهِ حَيْثُ كانَ مِنْ بُيُوتِ نِسائِهِ...

«فكلَّمَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ بما قُلْنَ...

«فَلَمْ يَقُلْ لها شيْئًا...

«فسأَلْنَها فقالَتْ: ما قالَ لِي شَيْئًا...

«فقُلْنَ لَهَا: فَكَلِّمِيهِ...

«قالَتْ: فَكَلَّمَتْهُ حينَ دَارَ إِلَيْها أَيْضًا...

«فلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا...
«فَسَأَلْنَها... فقالَتْ: ما قالَ لِي شيْئًا...
«فقُلْنَ لها: كَلِّمِيْهِ حتَّى يُكَلِّمَك...
«فدَارَ إِلَيْها... فكلَّمَتْهُ...
«فقالَ لَها: لا تُؤْذِينِي في عائِشَةَ...
«فإِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وأنا في ثوْبِ[1] امْرَأةٍ إلَّا عائِشةَ...
«قالَتْ: فقالَتْ: أتُوبُ إلى اللّهِ مِنْ أذَاكَ يا رسولَ اللّهِ...
«ثُمَّ إِنَّهُنَّ دَعَوْنَ فاطِمَةَ... بنْتَ رسول اللّهِ... ﷺ...
«فأَرْسَلَتْ إلى رسولِ اللّه... ﷺ... تقولُ: إنَّ نساءَكَ يَنْشُدْنَكَ اللّهَ الْعَدْلَ في بِنْتِ أبي بَكْرِ...
«فكَلَّمَتْهُ... فَقالَ: يا بُنَيَّةُ... ألا تُحبِّينَ ما أُحِبُّ؟
«قالَتْ: بَلَى...
«فرَجَعَتْ إِلَيْهِنَّ... فأخْبَرَتْهُنَّ...
«فقُلْنَ: ارْجِعِي إِلَيْهِ...
«فأَبَتْ أَنْ تَرْجِعَ...
«فأَرْسَلْنَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ... فأتَتْهُ فأغْلَظَت وقالَتْ: إنَّ نساءَكَ يَنْشُدْنَكَ اللّهَ العَدْلَ في بنتِ ابنِ أبي قُحافَةَ...
«فَرَفَعَتْ صَوْتَها حتَّى تناوَلتْ عائِشَةَ... وهِيَ قاعِدَةٌ فَسَبَّتْها...
«حتَّى إنَّ رسولَ اللّهِ... ﷺ... لينْظُرَ إلى عائِشةَ: هَلْ تَكَلَّمُ؟...
«قال: فتَكَلَّمَتْ عائِشَةُ... تَرُدُّ على زَيْنَبَ حتَّى أسْكَتَتْها...
«قالَتْ: فَنَظَرَ النبيُّ... ﷺ... إلى عائِشَةَ وقالَ:
«إِنَّها بِنتُ أبي بَكْر».

[أخرجه البخاري]

---

(١) يريد بالثوب البيت في بعض التفسيرات.

«حِزْبَيْنِ» تثنية حزب... وهو الطائفة... ويجمع على أحزاب...
«عائشةُ» هي بنت أبي بكر الصدِّيق...
«وحَفْصَةُ» هي بنت عمر بن الخطاب...
وصفيَّةُ بنت حيي الخيبرية... وسَوْدَة بنت زمعة العامِرية...
«أُمُّ سَلَمَةَ» هي بنت أبي أمية...
«وسائرُ نساءِ رسولِ اللّهِ صلى اللّه تعالى عليه وسلم».
أي وبقية نسائه صلى اللّه تعالى عليه وسلم... وهي الأربع... زينب بنت جحش الأسدية... وميمونة بنت الحارث الهلالية... وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان الأموية... وجويرية بنت الحارث المصطلقية...
«حين دارَ إليْها» أي إلى عائشة... أراد يوم كونه صلى اللّه تعالى عليه وسلم في نوبة عائشة في بيتها...
«فكلَّمَته» أي فكلمت أُمّ سَلَمَة رسولَ اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم... فقال لها رسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم...
«لا تُؤذِيني في عائشة» كلمة في ههنا للتعليل... كما في قوله تعالى ﴿فذلكُنَّ الذي لُمْتُنَّني فيهِ﴾...
«قالَتْ: فقالَتْ» أي قالت عائشة: فقالت أُمّ سَلَمَة: أتوب إلى اللّه...
«ثم إنَّهُنَّ» أي إن نساء النبي اللاتي هن الحزب الآخر...
«دَعَوْنَ» أي طلبن فاطمة رضي اللّه تعالى عنها...
«تقولُ» أي فاطمة تقول لرسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم...
«إنَّ نساءَكَ ينشُدْنَكَ اللّهَ العَدْلَ» أي يسألنك باللّه العدل...
ومعناه التسوية بينهن في كل شيء من المحبّة وغيرها...
ولكن المعنى التسوية بينهن في المحبة المتعلقة بالقلب...
لأنه كان يسوّي بينهن في الأفعال المقدورة...
وأجمعوا على أن محبتهن لا تكليف فيها...
ولا يلزمه التسوية فيها... لأنها لا قدرة عليها...

وإنما يؤمر بالعدل في الأفعال...

حتى اختلفوا في أنه هل يلزمه القَسَم بين الزوجات أم لا؟...

«فأَتَتْه» أي فأتت زينب رسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم....

«فأغلَظَتْ» أي في كلامها...

«وهي قاعدةٌ» أي عائشة قاعدة...

«وقال: إنها بنتُ أبي بكر» أي إنها شريفة... عاقلة... عارفة... كأبيها...

وقيل معناه: هي أجود فهمًا... وأدق نظرًا منها...

وفيه لطيفة أخرى...

وهي أنه صلى اللّه تعالى عليه وسلم نسبها إلى أبيها في معرض المدح...

ونسبت فيما تقدم إلى أبي قحافة... حيث لما أريد النيل منها ليخرج أبو بكر رضي اللّه تعالى عنها من الوسط إذ ذاك... ولئلا يهيج ذكره المحبة.

ما يستفاد منه؟!

فيه فضيلة عظيمة لعائشة... رضي اللّه تعالى عنها...

وفيه أنه لا حرج على الرجل في إيثار بعض نسائه بالتحف... وإنما اللازم العدل في المبيت والنفقة ونحو ذلك من الأمور اللازمة...

واعترض على ذلك بأنه ﷺ لم يفعل ذلك... وإنما فعله الذين أهدوا له... وإنما لم يمنعهم النبي ﷺ لأنه ليس من كمال الأخلاق التعرض لمثل هذا...

على أن حال النبي ﷺ يشعر بأنه كان يشركهن في ذلك...

ولم تقع المنافسة إلا لكون العطية تصل إليهن من بيت عائشة!...

وفيه تحري الناس بالهدايا في أوقات المسرة ومواضعها من المهدى إليه ليزيد بذلك في سروره...

وفيه إشارة إلى التفضيل بالشرف والعز...

وفيه ما كان عليه أزواج النبي ﷺ... من مهابته والحياء منه حتى راسلنه

بأعزّ الناس عنده... فاطمة رضي اللّه تعالى عنها...

* * *

أقول... لست أدري ماذا أقول بعد الذي قال ساداتنا الأقدمون؟!

لا زيادة لمستزيد... وإنما الأمر ساطع قاطع... أن عائشة رضي اللّه تعالى عنها كانت...

أحبّ نسائه صلى اللّه تعالى عليه وسلم إليه...

وأنَّ محاولات بعض أمهات المؤمنين... ليحبهنَّ مثل حُبّه لعائشة رضي اللّه تعالى عنها...

لم تحقق شيئًا!!!.

صلى اللّه تعالى عليه وسلم!!.

عائشة...

تشارك...

في غزوة أُحُد...؟!

عنْ أَنَسٍ... رضي اللّه عنه... قال:
«لمَّا كانَ يَوْمُ أُحُدٍ... انهَزَمَ الناسُ عن النبيِّ... ﷺ... قالَ:
«وَلَقَدْ رأَيْتُ عائِشَةَ بِنْتَ أبي بَكْرٍ... وأُمَّ سُلَيْمٍ...
«وإنَّهُما لمُشَمِّرَتانِ...
«أرَى خَدَمَ سُوقِهِما...
«تَنْقُزَانِ الْقِرَبَ...
«وقالَ غيْرُهُ: تَنْقُلَانِ القِرَبَ...
«على مُتُونِهِما...
«ثُمَّ تُفْرِغانِهِ في أفْوَاهِ القَوْمِ...
«ثُمَّ تَرْجِعَانِ... فَتَمْلآنِها...
«ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتفْرِغانِها في أَفْوَاهِ الْقَوْمِ.».

[أخرجه البخاري]

قيل:
بوَّب البخاري على غزوهن وقتالهن... وليس في الحديث أنهن قاتلن...
فإما أن يريد أن إعانتهن للغزاة غزو...
وإما أن يريد أنهنّ ما ثبتن للمداواة ولسقي الجرحى... إلّا وهن يدافعن عن أنفسهن...
وهو الغالب... فأضاف إليهن القتال لذلك...
قلتُ: كلا الوجهين جيد...

ويؤيد الوجه الأول ما رواه أبو داود في سننه من حديث حشرج بن زياد عن جدته أمّ أبيه... **أنها خرجت مع رسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم... في غزوة خيبر – الحديث – وفيه... فخرجن نغزل الشعر... ونعين في سبيل اللّه... ومعنا دواء الجرح... ونناول السهام... ونسقي السويق... فقال لهن خيرًا... حتى إذا فتح اللّه خيبر أسهم لنا كما أسهم للرجال – الحديث –.**

فهذا فيه تناول السهام يعني للغزاة... والمناول للغازي أجره مثل أجر الغازي... كما للمناول السهم للرامي في غير الغزاة...

وأجر المناول في الغزاة بطريق الأولى...

ويؤيد الوجه الثاني ما رواه مسلم من حديث أنس أن أم سليم اتخذت خنجرًا يوم حنين... فقالت: **اتخذته إن دنى منّي أحد من المشركين بقرت بطنه...**

فهذه أم سليم اتخذت عدة لقتل المشركين... وعزمت على ذلك...

فصار حُكمها حُكم الرجال المقاتلين...

«**وأُمَّ سُلَيْمٍ**» هي أمّ أنس بن مالك...

«**لمشَمِّرَتانِ**» من التشمير... يقال شمّر إزاره إذا رفعه...

«**خَدَم سوقِهِما**» الخَدَم: الخلاخيل... وقد سمى موضعها من الساقين خَدَمة... وقيل: الخدمة: مخرج الرجل من السراويل... والسّوق: جمع ساق...

«**تَنْقُزَانِ**» معناه يسرعان المشي كالهرولة... وقيل معناه الوثوب...

«**الْقِرَبَ**» أي تحركان القرب بشدة عدوهما... فكانت القرب ترتفع وتنخفض مثل الوثب على ظهورهما...

«**وقال غيرُهُ تَنْقُلان**» أي قال البخاري قال غير أبي معمر عن عبد الوارث: تنقلان القِرَب...

«**ثم تُفْرِغانِهِ**» أي تصبانه...

فإن قلتَ: ما وجه قوله أرى خَدَم سوقهما؟...

قلتُ: قال النووي: الرؤية للخَدَم لم يكن فيها نهي... لأن يوم أُحُد كان قبل أمر النساء بالحجاب... أو لأنه لم يقصد النظر إلى بعض الساق... فهو محمول على أن

تلك النظرة وقعت فجأة بغير قصد إليها...

واختلف في المرأة: هل يسهم لها؟...

قال الأوزاعي: يسهم للنساء لأنه ﷺ... أسهم لهن بخيبر... وأخذ المسلمون بذلك...

* * *

أقول... إنَّ عائشة تساهم في معركة أُحُد...

إنها تنقل الماء في القِرَب... تحمله على ظهرها... وتفرغه في أفواه القوم...

ثم ترجع... فتملأ القِرْبة...

ثم تعود... فتفرغها في أفواه القوم...

ومعها أمّ سُلَيم... مشمّرتان!!!.

عَمَل... نشاط... توَجُّه إلى اللّه...

وهكذا إيجابية صاعدة!!!.

إنها مثال رائع لما ينبغي أن تكون عليه كل امرأة في الإسلام!!!.

عائشة تقولُ...

للنبيِّ صلى اللّه عليه وسلم:

«هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ...

كانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ»...؟!

«حدّثني عُرْوَةُ...

«أنَّ عائشةَ... رضي اللّه عنها... زَوْجَ النبيِّ... ﷺ... حَدَّثَتْهُ أنَّها قالَتْ للنبيِّ... ﷺ:

«هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كانَ أَشَدَّ مِن يَوْمِ أُحُدٍ؟...

«قالَ: لَقَدْ لَقِيتُ منْ قَوْمِكِ ما لَقِيتُ...

«وكانَ أشَدُّ ما لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ...

«إِذْ عَرَضْتُ نَفْسي على ابنِ عَبْدِ ياليلَ بنِ عبْدِ كُلَالٍ... فَلَمْ يُجِبْنِي إلى ما أَرَدْتُ...

«فانطَلَقْتُ وأَنَا مَهْمُومٌ على وَجْهِي...

«فَلَمْ أَسْتَفِقْ إلّا وأنا بقَرْنِ الثعالِبِ...

«فَرَفَعْتُ رَأْسِي فإذا أنا بسَحابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي...

«فنظرْتُ... فإذا فيها جِبْرِيلُ...

«فنادَانِي فقال: إِنَّ اللّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ... وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ...

«وقَدْ بَعَثَ إليْكَ مَلَكَ الجِبالِ لِتَأْمُرَهُ بما شِئْتَ فِيهِمْ...

«فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ... فَسَلَّمَ عليَّ... ثُمَّ قالَ:

«يا مُحَمَّدُ...

«فقال: ذلكَ فيما شِئْتَ...

«إِنْ شِئْتَ أنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِم الأَخْشَبَيْنِ...

«فقال النبيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.».

[أخرجه البخاري]

«يوم أُحُد» يوم غزوة أُحُد... كانت في سنة ثلاث من الهجرة...

«يوم العَقَبَةِ» هي التي تنسب إليها جمرة العقبة... وهي بمنى...

«إذ عرضتُ نفسي» أي حين عرضت نفسي... كان ذلك في شوال سنة عشر من المبعث...

وأنه كان بعد موت أبي طالب وخديجة... رضي اللّه تعالى عنهما...

وفي المغازي... أن النبي ﷺ لما مات أبو طالب توجّه إلى الطائف رجاء أن يؤوه... فعمد إلى ثلاثة نفر من ثقيف وهم ساداتهم... **وهم أخوة عبد ياليل... وحبيب ومسعود بنو عمرو... فعرض عليهم نفسه وشكا إليهم ما انتهك منه قومه... فردوا عليه أقبح رد...**

«عَلَى ابنِ عبْدِ ياليلَ» وكان ابن عبد ياليل من أكابر أهل الطائف من ثقيف...

عن مجاهد في قوله تعالى **﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾**. قال: نزلت في عتبة ابن ربيعة... وابن عبد ياليل الثقفي...

«على وَجْهِي» أي على الجهة المواجهة...

«بقرن الثعالب» وهو موضع بقرب مكة... وقال النووي: هو ميقات - أهل نجد..

«مَلَكَ الجبالِ» أي بعث اللّه إليك مَلَك الجبال... وهو المَلَك الذي سخر اللّه له الجبال وجعل أمرها بيده...

«ذلِكَ» أي ذلك كما قال جبريل... أو كما سمعت منه... أو: الأمر ذلك...

«فيما شئتَ»أي إن شئت لفعلت...

«ذلك فيما شئتَ إن شئت» وفي رواية: فقال يا محمد إن اللّه بعثني إليك وأنا مَلَك الجبال لتأمرني بأمرك فما شئت إن شئت...

«أن أُطْبِق» بأن أطبق لفعلت بإطباق الأخشبين عليهم...
والأخشبان هما جبلا مكة... أبو قبيس والذي يقابله قيقعان...
وسمّيا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما...
ويقال رجل أخشب إذا كان صلب العظام...
والمراد من قوله «أن أطبق عليهم» أن يلتقيا على مَن بمكة فيصيران كطبق واحد عليهم...
«**بل أرْجُو**» وفي رواية: أنا أرجو...

* * *

أقول... تأمَّل هنا السؤال الذي سألت عائشة:
هَلْ أَتى عَلَيْكَ يَوْمٌ... كانَ أشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟!!.
إنه سؤال عميق... عن قضية عميقة... لا يلتفت إليها النساء!!!
ما شأن النساء وهذه المقارنات بين مشهد شديد وآخر أشدّ؟!.
ولكن عائشة... التي لم تبلغ ثمان عشرة سنة تسأل هذا السؤال!!.
فما معنى هذا؟!!.
معناه أنَّ تفكيرها تفكير رفيع... وأن أُفُقَها أُفُق أعلى من آفاق كثير من النساء!!!.
لقد شهدت يوم أُحُد... وكانت تنقل فيه على ظهرها قِرَب الماء تفرغه في أفواه القوم...
وشهدت الفظائع التي حدثت فيه حين انهزم المسلمون...
وها هي تسأل رسول اللّه... ﷺ: هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدَّ من يومِ أُحُدٍ؟!!.
فأجابها النبي... ﷺ... «وكانَ أشدُّ ما لقيتُ منهم يومَ العَقَبَةِ»!!!.
ونقلت إلينا أم المؤمنين بعد ذلك تلك الإجابة المقدسة نقلًا أمينًا رائعًا مُحْكمًا... في ألفاظ جامعات...
لتبقى إلى يوم القيامة شاهدًا على صِدْق الصدِّيقة بنت الصدِّيق!!!.

«يا عائشُ...
هٰذَا جبريلُ...
يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلَامَ»...؟!

عَنْ عائِشَةَ... رضي الله عنها...
«أنَّ النبيَّ... ﷺ... قالَ لَها:
«يا عائِشَةُ...
«هٰذَا جِبْرِيلُ...
«يَقْرَؤُ عَلَيْكِ السَّلَامَ...
«فَقَالَتْ: وعَلَيْهِ السَّلَامُ ورَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكاتُهُ...
«تَرَى مَا لَا أَرَى...
«تُرِيدُ النبيَّ ﷺ».

[أخرجه البخاري]

«يا عائشةُ» وروي يا عائشُ بالترخيم...
«يَقْرَأُ» ويروى يُقْرِئك...
وفيه منقبة عظيمة لعائشة رضي اللّه تعالى عنها...
فإن قلت: هلا واجهها جبريل كما واجه مريم عليها السلام؟...
قلتُ: وجه ذلك أنه لما قدر وجود عيسى عليه السلام لا من أب... نصب جبريل ليعلمها بكونه قبل كونه... لتعلم أنه يكون بالقدرة... فتسكن في زمن الحمل... ثم بعث إليها عند الولادة لكونها في وحدة... فقال: لا تحزني قد جَعَلَ رَبُّكِ تحتكِ سَرِيّاً... فكان خطاب المَلَك لها في الحالتين لتسكن ولا تنزعج...
وجواب آخر... أنّ مريم كانت خالية من زوج... فواجهها بالخطاب...
وأمّ المؤمنين احترمت لمكان سيد الأمة... كما احترم الشارع قصر عمَر...

رضي اللّه تعالى عنه... الذي رآه في المنام خوفًا من الغيرة...

وهذا أبلغ في فضل عائشة... لأنها إذا احترمها جبريل عليه الصلاة والسلام الذي لا شهوة له حفظًا لقلب زوجها سيّد الأمة... كان عمّا قيل فيها في الإفك أبعد...

وجواب آخر... أنه خاطب مريم لكونها نبيّة – على قول – وعائشة لم يذكر عنها ذلك...

وفيه أن النبي صلى اللّه تعالى عليه وسلم يرى المَلَك ولا يراه من معه...

وفيه زيادة عائشة في الرد على سلام جبريل عليه الصلاة والسلام... بقولها: ورحمة اللّه وبركاته...

وهي سُنّة... قاله ابن عباس...

وفيه جواز سلام الأجنبي على الأجنبية إذا لم يخشَ ترتب مفسدة...

أقول... كما قالوا: وفيه منقبة عظيمة... لعائشة... رضي اللّه تعالى عنها!!!

* * *

كانَتْ...

لا تُمْسِكُ شَيْئًا...

مِمَّا جَاءَهَا مِنْ رِزْقِ اللّهِ...؟!

عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ... قال:

«كانَ عَبْدُاللّهِ بنُ الزُّبَيْرِ أحَبَّ البَشَرِ إلى عائشَةَ... رضي اللّه عنها...

«بَعْدَ النبيِّ... ﷺ...

«وأبِي بَكر...

«وكانَ أبَرَّ الناسِ بِهَا...

«وكانَتْ لا تُمْسِكُ شَيْئًا مِمَّا جَاءَهَا مِنْ رِزْقِ اللّهِ... تَصَدَّقَتْ...

«فقالَ ابنُ الزُّبَيْرِ: يَنْبَغي أَنْ يُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْها...

«فقالَتْ: أَيُؤْخَذُ عَلَى يَدَيَّ؟!

«عَلَيَّ نَذْرٌ إنْ كَلَّمْتُهُ...

«فاسْتَشْفَعَ إلَيْها برجَالٍ مِنْ قريْش... وبأَخْوَال رسول اللّه... ﷺ... خاصَّةً...

«فامْتَنَعَتْ...

«فقالَ لَهُ الزُّهْريُّونَ أَخْوَالُ النبيِّ ﷺ... مِنهُمْ عبدُ الرحمٰنِ بنُ الأَسْوَدِ بنِ عبْدِ يَغُوثَ... والمِسْوَرُ بنُ مَخْرَمَةَ:

«إذَا اسْتَأْذَنَّا فاقْتَحِم الحِجَابَ...

«فَفَعَلَ... فَأَرْسَلَ إلَيْهَا بِعَشْرِ رِقَابٍ فأَعْتَقَتْهُمْ...

«ثُمَّ لَمْ تَزَلْ تُعْتِقُهُمْ حَتَّى بَلَغَتْ أرْبَعِينَ...

«فقَالَتْ: وَدِدْتُ أنِّي جَعَلْتُ حِينَ حَلَفْتُ عَمَلًا أعْمَلُهُ فَأَفْرُغَ مِنْهُ.».

[أخرجه البخاري]

وتوضيحه أن عبداللّه بن الزبير بن العوام... هو ابن أخت عائشة... رضي اللّه تعالى عنها...

لأن أمّه أسماء بنت أبي بكر الصدِّيق... رضي اللّه تعالى عنهما...

فأسماء أخت عائشة من الأب...

وكانت عائشة تحب عبداللّه بن الزبير غاية المحبة...

وكان أحب الناس إليها... بعد النبي... ﷺ... وبعد أبي بكر... رضي اللّه تعالى عنه...

وكان عبداللّه يبرّ إليها كثيرًا...

وكانت عائشة كريمة جدًا...

لا تمسك شيئًا!!!

وبلغها أن عبداللّه قال: واللّه لتنتهين عائشة... أو لأحجرنَّ عليها!...

فقالت: عَلَيَّ نذر إن كلمته... وبقية الكلام تظهر من تفسير الحديث...

«**ينبغي أن يُؤْخَذَ على يَدَيْها**» أي تمنع من الإعطاء... ويُحجر عليها... وفي رواية للبخاري... «واللّه لتنتهين عائشة أو لأحجرّن عليها...».

«**فقالت: أَيُؤْخَذُ عَلَى يَدَيَّ؟**» ولما بلغ عائشة ما قاله عبداللّه بن الزبير من الحجْر عليها قالت: أيؤخذ على يَدَيَّ... يعني أيحجر عبداللّه عَلَيَّ؟... فغضبت من ذلك فقالت: عليَّ نَذْرٌ إن كلمته...

«**فاستشفع**» أي عبداللّه إليها... أي إلى عائشة... أي لما بلغ عبداللّه بن الزبير غضب عائشة من كلام عبداللّه وبلغه نذرها بترك الكلام له... خاف على نفسه من غضبها فاستشفع إليها لترضى عنه... فامتنعت عائشة ولم ترضَ بذلك...

«**فقال له الزُّهْرِيُّونَ**» أي فلما امتنعت عائشة عن قبول الشفاعة.. قال لعبداللّه الجماعة الزهريون وهم المنسوبون إلى زُهْرَة...

«**أخوالُ النبيِّ ﷺ**» لأن أُمَّه عليه السلام كانت من بني زُهْرة لأنها بنت وهب بن عبد مناف بن زُهْرة...

«**منهُمْ**» أي من الزُّهريين عبد الرحمٰن بن الأسود بن عبد يغوث...

«**والمِسْوَرُ بن مَخْرَمَةَ**» ابن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشي الزُّهري...

«**إذا اسْتَأْذَنَّا**» يعني إذا استأذنا على عائشة في الدخول عليها... فاقتحم الباب... أي أرمِ نفسك فيه من غير استئذان ولا رويّة...

يقال اقتحم الإنسان الأمر العظيم إذا رمى نفسه فيه من غير تثبت ولا رويّة... وأراد بالحجاب الستارة التي تضرب بين عائشة وبين المستأذنين للدخول عليها...

«**فَفَعَلَ**» أي فعل عبدالله بن الزبير ما قاله الزهريون من اقتحام الباب...

«**فأرسلَ إلَيْها بعَشْرِ رقابٍ**» أي لما شفع الزهريون في عبدالله عند عائشة... رضيت عليه... ثم أرسل عبدالله بعشر عبيد وجوارٍ إليها لأجل أن تعتق ما أرادت منهم كفارة ليمينها...

فأعتقت عائشة جميعهم!!!

ثم لم تزل عائشة تعتق... حتى بلغ عتقها أربعين رقبة!!!.

للاحتياط في نَذْرها!!!

«**فقالَتْ: ودِدْتُ**» إلى آخره... معناه أني نذرت مبهمًا... وهو يحتمل أن يطلق على أكثر مما فعلتُ... فلو كنتُ نذرتُ نذرًا معينًا لكنتُ تيقّنت بأني أدّيته وبرئت ذمتي!!!.

وحاصل المعنى أنها تمنّت لو كان بدل قولها «عَلَيَّ نَذْرٌ» على إعتاق رقبة أو صوم شهر ونحوه من الأعمال المعينة حتى تكون كفارتها معلومة معينة... وتفرغ منها بالإتيان به... بخلاف لفظ «عَلَيَّ نَذْرٌ» فإنه مبهم لم يطمئن قلبها بإعتاق رقبة أو رقبتين... وأرادت الزيادة عليه في كفارته!!!.

«**عَمَلًا أعْمَلُهُ فأفرُغَ منهُ**» أي فأنا أفرغ منه...

واختلف العلماء في النذر المبهم المجهول...

فذهب مالك إلى أنه ينعقد ويلزم به كفارة يمين...

* * *

أقول... حيث شرعتُ في كتابة «حياة عائشة»... لم يخطر على قلبي...

أن يبلغ الكتاب ما بلغ من السعة والتشعب...

فلما بدأت أسبح في ذلك البحر... فتح اللّه آفاقًا عُليا... تتزاحم أمامي... فاشتدت حيرتي وقلت: سبحان اللّه!!!

وكان شأني شأن طفل وجد نفسه فجأة أمام جبل من حبّات ألماس... فجعل يلتقط منها لآلىء بمقدار ما تسع يداه...

ولا يدري ماذا يفعل في ذلك الجبل العريض؟!!

وهأنذا وقد اشتدت حيرتي... ماذا آخذ وماذا أدَع؟!

كلّ الآثار جميلة... وكلّ الأحوال رائعة...

فإن أثبتُّ كلّ ما يتعلق بحياة عائشة... طال الأمر على القارىء... وإن التقطتُ بعضًا منها... فهناك الكثير والكثير!!!.

اللهم أهدني لأقرب من هذا رَشَدًا!!!.

أيُّ النَّاسِ أحَبُّ إلَيْكَ؟...
قال: «عائِشَةُ»...؟!

حدّثني عَمْرُو بنُ العاصِ... رضي اللّه عنه...

«أنَّ النبيَّ ﷺ... بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلاسِلِ... فأتَيْتُهُ فقُلْتُ:

«أيُّ النَّاسِ أحَبُّ إلَيْكَ؟...

«قالَ: عائِشَةُ...

«فقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟...

«فقال: أبُوها...

«قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟...

«قال: ثُمَّ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ...

«فَعَدَّ رِجالًا.».

[أخرجه البخاري]

كون أحبّ الناس إلى النبيّ ﷺ... أبا بكر... يدل على أن له فضلًا كثيرًا... وأنه أفضل الناس بعد النبي ﷺ...

«ذاتِ السلاسِل» اسم مكان سمي بذلك لأنهم كانوا مبعوثين إلى أرض بها رمل ينعقد بعضه على بعض كالسلسلة... وكانت غزوة ذات السلاسل سنة سبع...

«أيُّ الناس أحَبُّ إلَيْكَ» هذا السؤال من عمرو، وإنما كان لما وقع في نفسه حين أمَّره على الجيش وفيهم أبو بكر وعمر، أنه مقدم عنده في المنزلة عليهم فسأله لذلك...

«فعَدَّ رجالًا» ويروى فعدَّد رجالًا... يحتمل أن يكون منهم أبو عبيدة بن الجراح... على ما أخرجه الترمذي... قال: قلت لعائشة: أي أصحاب رسول اللّه

ﷺ كان أحب إليه؟... قالت: أبو بكر... قلت: ثم من؟... قالت: عمر... ثم من؟ قالت: أبو عبيدة بن الجراح... قلت: ثم من؟... فسكتت...

* * *

أقول... سُئل ﷺ: «أيُّ الناسِ أحبُّ إليْكَ؟...

«قالَ: عائِشَةُ»!!!

هنيئًا لأُمّنا... أمّ المؤمنين...

زوج رسول اللّه... ﷺ... في الدنيا والآخرة!!!.

لماذا...
خَرَّتْ عائشةُ...
مَغْشِيّاً عَلَيْها...؟!

عنْ مَسْرُوقٍ... قال:
«سألْتُ أُمَّ رُومانَ... وهيَ أُمُّ عائِشَةَ... عَمَّا قِيلَ فيها ما قِيلَ؟...
«قالَتْ: بَيْنَما أنَا مَعَ عائِشَةَ جالِسَتانِ...
«إِذْ وَلِجَتْ علينا امرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ وهِيَ تَقُولُ: فَعَلَ اللّهُ بِفُلَان وَفَعَلَ...
«قالَتْ: فقُلْتُ: لِمَ؟...
«قالَت: إِنَّه نَمَّى ذِكْرَ الحديثِ...
«فقالَت عائِشَةُ: أَيُّ حَدِيْثٍ؟...
«فأَخْبَرَتْها...
«قالَتْ: فَسَمِعَهُ أبو بَكْرٍ... ورسولُ اللّهِ ﷺ؟!...
«قالَتْ: نَعَمْ...
«فَخَرَّتْ مَغْشِيّاً عَلَيْها...
«فمَا أفاقَتْ إِلّا وَعَلَيْها حُمَّى بنافِضٍ...
«فجاءَ النبيُّ ﷺ... فقالَ:
«مَا لِهَذِهِ؟...
«قُلْتُ: حُمَّى أَخَذَتْها مِنْ أَجْلِ حَدِيْثٍ تُحَدِّثُ بِهِ...
«فَقَعَدَتْ فقالَتْ: واللّهِ لَئِنْ حَلَفْتُ لا تُصَدِّقُوني... ولئِن اعْتَذَرْتُ لَا تَعْذِرُوني...
«فمَثَلي ومثَلُكُمْ كمَثَلِ يَعْقُوبَ وبَنِيهِ... فاللّه المستعانُ على ما تصِفُونَ...
«فانْصَرَفَ النبيُّ ﷺ...

«فأَنْزَلَ اللّهُ مَا أَنْزَلَ...
«فأَخْبَرَهَا...
«فقالَتْ: بحَمْدِ اللّهِ... لا بِحَمْدِ أَحَدٍ...».

[أخرجه البخاري]

«عما قِيلَ فيها» أي في عائشة ما قيل من الإفْك...
«إذ وَلِجَتْ» أي دخلت...
«فَعَلَ اللّهُ بفُلانٍ وفَعَلَ» أرادت الأنصارية المذكورة بفلان مِسْطَحًا... وهو مِسْطَح بن أثاثة...
«إنَّهُ نَمَّى» من التنمية وهي رفع الخبر... يقال نمّيت الحديث أنميه إذا بلغته على وجه الإصلاح وطلب الخير... فإذا بلغته على وجه الإفساد والنميمة قلت نَمَّيْته...
«بنافِضٍ» أي ملتبسة بارتعاد... والنافض من الحمى هي ذات الرعدة...
«مِن أجل حديثٍ» هو حديث الإفْك...
«فَمَثَلِي» أي صفتي كصفة يعقوب عليه الصلاة والسلام حيث صبر صبرًا جميلًا وقال (واللّه المستعان)...
«**«ما أَنْزَلَ»** وهو قوله تعالى **﴿إنَّ الذينَ جاؤُا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾** العشر الآيات... فقال لها النبي ﷺ: «يا عائشة أما اللّه فقد برّأك»... فقالت أمها: قومي إليه... فقالت: واللّه لا أقوم إليه... ولا أحمد إلّا اللّه عز وجلّ... وهو معنى قولها (بحمدِ اللّهِ لا بحَمْدِ أَحَدٍ)...

* * *

أقول... قالت عائشة في استغراب:
«فَسَمِعَهُ أبو بَكْرٍ...
«ورسولُ اللّهِ... ﷺ»؟!!!
قالت المرأة: نعم!!!.
هنالك بلغ البلاء ذروته!!!.

«فَخَرَّتْ مَغْشِيّاً علَيْها»!!!.
ثم ماذا بعد الإغْماء الشديد... من هول الصدمة الأليمة؟!!.
«فما أفاقَتْ إلَّا وعَلَيْها حُمَّى بنافِضٍ»؟!!.
إنها ترتعد... وترتعش... وتتلوى من الآلام!!!.
هنالك قامَ برهانٌ أمام العالَم أجمع إلى يوم القيامة...
أنَّ عائشة مُبَرَّأة ممَّا يصفون!!!
عليها السلام!!!.

عائشة...

ترى جِبْريلَ عليه السلام...
وهُوَ يَنفُضُ رأْسَهُ مِنَ الغُبَارِ...؟!

عنْ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها... قالَتْ:

«أُصِيبَ سَعْدٌ يَوْمَ الخَنْدَقِ... رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ حِبَّانُ بنُ العَرِقَةِ... رَمَاهُ في الأَكْحَلِ...

«فَضَرَبَ النبيُّ ﷺ... خيْمَةً في المسجِدِ لِيَعُودَهُ منْ قريبٍ...

«فلمَّا رَجَعَ رسولُ اللّه... ﷺ... مِنَ الخَنْدَقِ... وَضَعَ السِّلاَحَ واغْتَسَلَ...

«فأتاهُ جِبْريلُ عليْهِ السَّلاَمُ... وهُوَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ الغُبَارِ...

«فقالَ: قَدْ وضَعْتَ السِّلاَحَ؟... واللّهِ مَا وَضَعْتُهُ... اخْرُجْ إلَيْهِمْ...

«قال النبيُّ... ﷺ: فأيْنَ؟...

«فأشَارَ إلَى بَني قُرَيْظَةَ...

«فَأتَاهُمْ رسولُ اللّهِ... ﷺ...

– إلى آخر الحديث –

[أخرجه البخاري]

«أُصيبَ سَعْدٌ» وهو سعد بن معاذ...

«في الأَكْحَلِ» وهو عرق في وسط الذراع.

«وهوَ يَنْفُضُ» روى الطبراني والبيهقي «عن عائشة قالت: سَلَّم علينا رجل ونحن في البيت... فقام رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم... فزعًا... فقمت في إثره... فإذا بدحية الكلبي... فقال: هذا جبريل يأمرني أن أذهب إلى بني قريظة... وذلك لما رجع من الخندق... قالت: فكأني برسول اللّه ﷺ يمسح الغبار عن وجه جبريل عليه السلام...

وروى أحمد... عن عائشة: فجاءه جبريل وإن على ثناياه لنقع الغبار...
وعند ابن سعد: فقال له جبريل:
عفا اللّه عنك... وضعت السلاح ولم تضعه ملائكة اللّه...
«أخرُجْ» أمر من الخروج...
«فأتاهم رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم» أي فحاصرهم...

* * *

أقول... وشهدت عائشةُ جبريل عليه السلام...
وقالت: فكأني برسول اللّه... ﷺ... يمسح الغبار عن وجه جبريل عليه السلام!!!
إن عائشة تشهد المشاهد المقدسة... وترويها للأُمَّة رواية صادقة أمينة!!!.

أعظم لحظات...

حياة...

عائشة...؟!

وأخذَتْهُ بُحَّةٌ؟!

«عن عائِشَةَ قالَتْ:
«كُنتُ أسْمَعُ أنَّهُ لا يَموتُ نبيٌّ حتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدنْيَا والآخرةِ...
«فسَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يقولُ في مَرَضِهِ الذي ماتَ فِيهِ...
«وأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ... يَقُولُ:
«مَعَ الَّذِينَ أنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ... الآيةَ...
«فَظَنَنْتُ أنهُ خُيِّرَ.».

[أخرجه البخاري]

«**بُحَّةٌ**» هي شيء يعترض في مجاري النفس فيتغير به الصوت فيغلظ...
«**فظننتُ أنه خُيِّرَ**» أي خيّر بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة...

وروى أحمد من حديث أبي مويهبة قال: قال لي رسول اللّه ﷺ: إني أوتيت مفاتيح خزائن الأرض والخلد ثم الجنة... فخيّرت بين ذلك وبين لقاء ربّي والجنة... فاخترت لقاء ربّي والجنة...

وعند عبد الرزاق من مرسل طاوس رفعه... خيّرت بين أن أبقى حتى أرى ما يفتح على أمّتي وبين التعجيل... فاخترت التعجيل...

* * *

في الرَّفيقِ الأَعْلَى؟!

«عَنْ عائِشةَ... قالَتْ:

«لما مَرِضَ النبيُّ... ﷺ... المَرَضَ الذي ماتَ فيهِ....

«جَعَلَ يقُولُ: في الرَّفِيقِ الأَعْلَى.».

[أخرجه البخاري]

«في الرفيق الأعلى» المراد به الأنبياء عليهم السلام...

* * *

وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عائِشَةَ؟!

«قال عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ...

«إِنَّ عائشةَ قالَتْ:

«كانَ رسولُ الله ﷺ وهُوَ صحيحٌ يقُولُ:

«إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ... ثُمَّ يُحَيَّا أو يُخَيَّرَ...

«فلمَّا اشْتَكَى... وحَضَرَهُ القَبْضُ... وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذ عائِشَةَ... غُشِيَ عَلَيْهِ...

«فلمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ الْبَيْتِ ثُمَّ قال:

«اللَّهُمَّ في الرَّفيقِ الأَعْلَى...

«فقُلْتُ: إذًا لا يجاورُنا...

«فَعَرَفْتُ أنَّهُ حديثُهُ الذي كان يُحَدِّثُنا وهُوَ صَحِيحٌ.».

[أخرجه البخاري]

«ثُمَّ يُحَيَّا» أي ثم يسلم إليه الأمر... أو يُمَلَّك في أمره... أو يسلم عليه تسليم الوداع...

«شَخَصَ بصرُهُ» أي ارتفع... يقال شخص بصره إذا فتح عينه وجعل لا يطرف...

«إذًا لا يُجاوِزُنا» من المجاورة... وروي إذًا لا يختارنا من الاختيار...

* * *

وأنا مُسْنِدَتُهُ إلى صَدْرِي؟!

«عن عائشَةَ... رضي اللّه عنها:
«دَخَلَ عبدُ الرحمٰنِ بنُ أبي بكرٍ... عَلَى النبيِّ ﷺ....
«وأنا مُسْنِدَتُهُ إلى صَدْرِي...
«ومَعَ عبد الرحمٰن سِوَاكٌ رَطْبٌ يَسْتَنُّ بِهِ...
«فَأَبَدَّهُ رسولُ اللّه... ﷺ بَصَرَهُ...
«فأخَذْتُ السواكَ فقَضِمْتُهُ... ونَفَضْتُهُ... وطيَّبْتُهُ... ثُمَّ دَفَعْتُهُ إلَى النبيِّ... ﷺ...
«فاسْتَنَّ بِهِ...
«فما رأيتُ رسولَ اللّهِ ﷺ... اسْتَنَّ اسْتِنانًا قَطُّ أحْسَنَ مِنْهُ...
«فمَا عَدَا أَنْ فَرَغَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... رَفَعَ يَدَهُ – أو إِصْبَعَهُ – ثُمَّ قالَ:
«في الرَّفيقِ الأَعْلَى – ثلاثًا –
«ثُمَّ قَضَى...
«وكانَتْ تقُولُ: ماتَ ورأسُهُ بَيْنَ حاقِنَتي وَذاقِنَتِي.»

[أخرجه البخاري]

«فَأَبَدَّهُ» أي مدَّ بصره إليه...
«فقَضِمْتُهُ» أي مضغته... والقضم الأخذ بأطراف الأسنان...
«وطيَّبْتُهُ» أي بالماء...
«فما عَدَا أَنْ فَرَغَ» أي ما عدا الفراغ من السواك...
«رَفَعَ يَدَهُ أو إِصْبَعَهُ» شك من الراوي...
«حَاقِنَتي» دون الترقوة من الصدر...
«وذاقِنَتِي» وهي طرف الحلقوم... وقيل ما يناله الذقن من الصدر...

والحاصل أنه صلى اللّه تعالى عليه وسلم مات ورأسه بين حنكها وصدرها...

فإن قلتَ: هذا يعارض حديثها الذي قبل هذا أن رأسه كان على فخذها؟...

قلتُ: يحتمل أنها رفعته عن فخذها إلى صدرها...

وأصْغَتْ إلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ؟!

«عنْ عَبَّادِ بنِ عبدِ اللّهِ بنِ الزُّبَيْرِ...
«أَنَّ عائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ...
«أنَّها سَمِعَتِ النبيَّ... ﷺ...
«وأَصْغَتْ إلَيْهِ قَبْلَ أنْ يَمُوتَ...
«وهُوَ مُسْنِدٌ إلَيَّ ظَهْرَهُ... يقولُ:
«اللّهُمَّ اغفِرْ لي وارْحَمْني وأَلْحِقْني بالرَّفِيقِ.».

[أخرجه البخاري]

«وأصْغَتْ إليهِ» من الإصغاء... يقال أصغيت إليه إذا أملت سمعك نحوه...
«بالرفيقِ» ويروى بالرفيق الأعلى...

وإِنَّهُ لَبيْنَ حاقِنَتِي وَذَاقِنَتِي؟!

«عن عائِشَةَ... قالَتْ:
«ماتَ النبيُّ... ﷺ...
«وإِنَّهُ لَبَيْنَ حاقِنَتِي وذَاقِنَتِي...
«فَلَا أَكْرَهُ شِدَّةَ الموْتِ لِأَحَدٍ أبَدًا بَعْدَ النبيِّ ﷺ.».

[أخرجه البخاري]

«فلَا أكرَهُ شِدَّةَ الموْتِ» قد بينت عائشة شدة الموت بقولها... وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «لا إله إلّا اللّه إن للموت سكرات»...

وروى أحمد والترمذي... عن عائشة... رأيته وعنده قدح فيه ماء وهو يموت... فيدخل يده في القدح... ثم يمسح وجهه بالماء... ثم يقول «اللهم أعنّي على سكرات الموت.».

* * *

النظرة الأخيرة كانت من حُجْرتها؟!

«حدَّثني أنسُ بنُ مالِكٍ... رضي اللّه عنه...

«أنَّ المسلمينَ بَيْنَا هُمْ في صلاةِ الفجْرِ مِن يوْمِ الإثْنَينِ... وأبُو بَكْرٍ يُصَلّي لَهُمْ...

«لمْ يَفْجَأْهُمْ إلاّ رسولُ اللّهِ ﷺ... قَدْ كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عائِشَةَ...

«فَنَظَرَ إلَيْهِمْ وهُمْ في صُفوفِ الصَّلاةِ...

«ثُمَّ تَبَسَّمَ... يَضْحَكُ...

«فَنَكَصَ أبُو بَكْرٍ على عَقِبَيْهِ... لِيَصِلَ الصَّفَّ...

«وَظَنَّ أنَّ رسولَ اللّهِ... ﷺ... يُرِيدُ أنْ يَخْرُجَ إلى الصلاةِ...

«فقال أنَسٌ: وهَمَّ المسلمونَ أَنْ يَفْتَتِنُوا في صلاتِهِمْ فَرَحًا برسولِ اللّهِ... ﷺ...

«فأشارَ إلَيْهِمْ بِيَدِهِ رسولُ اللّهِ ﷺ... أنْ أَتِمُّوا صلاتَكُمْ...

«ثُمَّ دَخَلَ الحُجْرَةَ...

«وأَرْخَى السِّتْرَ.».

أخرجه البخاري]

«فَنَكَصَ» أي تأخر إلى ورائه...

«وهَمَّ المسلمون» أي قصدوا إبطال الصلاة بإظهار السرور قولًا أو فعلًا...

«وأَرْخَى السِّتْرَ» أي الستارة...

وزاد أبو اليمان عن شعيب: وتوفي من يومه ذلك...

تُوُفِّيَ في بَيْتِي... وفي يَوْمِي... وبَيْنَ سَحْرِي ونَحْرِي... وأنَّ اللّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ... عِنْدَ مَوْتِهِ؟!

«أنَّ عائشَةَ كانَتْ تقُولُ:

«إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللّهِ عَلَيَّ...

«أنَّ رسول اللّهِ ﷺ...

«تُوُفِّيَ في بَيْتِي...

«وفي يَوْمِي...

«وبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي...

«وأنَّ اللّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي ورِيقِهِ... عِنْدَ مَوْتِهِ...

«دَخَلَ عَلَيَّ عبدُ الرحمٰنِ وبِيَدِهِ السِّوَاكُ...

«وأنَا مُسْنِدَةٌ رسولَ اللّهِ... ﷺ...

«فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ...

«وَعَرَفْتُ أنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ...

«فقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟...

«فأشارَ برَأْسِهِ أنْ نَعَمْ...

«فَتَنَاوَلْتُهُ... فاشْتَدَّ عَلَيْهِ...

وقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ؟...

«فأشَارَ بِرَأْسِهِ أنْ نَعَمْ...

«فلَيَّنْتُهُ... وبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ...

أوْ عُلْبَةٌ - يَشُكُّ عُمَرُ - فيها ماءٌ...

«فجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ في الماءِ... فيَمْسَحُ بِهِما وَجْهَهُ يقولُ:

«لا إلٰه إلَّا اللّهُ... إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ...

«ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ... فَجَعَلَ يقولُ: في الرَّفِيقِ الأعْلى...

«حتَّى قُبِضَ...

«ومَالَتْ يَدُهُ.».

[أخرجه البخاري]

«إنَّ مِنْ نِعَمِ اللّٰهِ» جمع نعمة...

««سَحْرِي» الرئة...

««ونَحْرِي» والنحر موضع القلادة من الصدر...

««رَكْوة أو عُلبة» شك من الراوي.

«يَشُكُّ عُمَر» هو عمر بن سعيد... الراوي...

«فجعل يُدْخِلُ» من الإدخال...

«سَكَرَات» جمع سكرة وهي الشدة...

* * *

فَجَمَعَ اللّٰهُ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ في آخِرِ يَوْمٍ مِنَ الدُّنْيَا؟!

««عن عائِشَةَ... رضي اللّٰه عنها... قالَتْ:

«تُوُفِّيَ النبيُّ ﷺ...

«في بَيْتِي...

«وفي يَوْمِي...

«وبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي...

«وكانَتْ إحدَانا تُعَوِّذُهُ بدُعاءٍ إذا مَرِضَ...

«فَذَهَبْتُ أُعَوِّذُهُ...

«فرَفَعَ رَأْسَهُ إلى السماءِ وقال:

«في الرَّفيقِ الأَعْلَى... في الرَّفِيقِ الأَعْلَى...

«ومَرَّ عَبْدُ الرَّحمٰنِ بنُ أبي بَكْرٍ وفي يَدِهِ جريدَةٌ رَطْبَةٌ...

«فَنَظَرَ إليْهِ النبيُّ ﷺ...

«فظننتُ أَنَّ لَهُ بِها حاجَةً...

«فأخَذْتها فمَضَغْتُ رَأْسَها...

ونَفَضْتُها... فَدَفَعْتُها إلَيْهِ...
«فاسْتَنَّ بِها كَأَحْسَنِ ما كان مُسْتَنّاً...
«ثُمَّ نَاوَلَنِيها...
«فَسَقَطَتْ يَدُهُ...
«أوْ سَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ...
«فَجَمَعَ اللّهُ بَيْنَ رِيقي ورِيقِهِ...
«في آخِرِ يَوْمٍ مِنَ الدُّنْيا... وأَوَّلِ يَوْمٍ مِنَ الْآخِرَةِ.».

[أخرجه البخاري]

«في آخِرِ يَوْمٍ» أي من أيام النبي... صلى اللّه تعالى عليه وسلم...

* * *

أقول: هل هناك مجال للحديث؟!

أعتقد أن مقتضى الأدب يفرض علينا أن نصغي إلى أُمِّنا... أم المؤمنين... وهي تُحَدِّثنا عن مشاهد عاشتها...
ولحظات عظيمة ذاقتْها...
ومشاعر عُليا مقدسة أنعم اللّه تعالى عليها بها...
وخَصَّها بشرَفها...
ورسول اللّه... ﷺ... مسندته إلى صَدْرِها...
«إنَّ مِنْ نِعَمِ اللّهِ عَلَيَّ...
«أنَّ رسولَ اللّه... ﷺ...
«تُوُفِّيَ في بَيْتِي!!!
«وفي يَوْمي!!!
«وبين سَحْرِي ونَحْرِي!!!
«وأنَّ اللّهَ جَمَعَ بَيْنَ ريقِي ورِيقِهِ عندَ موتِهِ»!!!.
إنَّ أحبَّ الناس إليها...
إنَّ الحبيب صلى اللّه تعالى عليه وسلم... يرفع يده الشريفة... ويقول:

«في الرفيق الأعلى...
«في الرفيق الأعلى...
«في الرفيق الأعلى»!!!
حتَّى قُبِضَ!!!.
ومالَتْ يَدُهُ ﷺ!!!.
كيف كانت مشاعر عائشة... رضي اللّه عنها... آنذاك؟!!
لا يعلم ذلك إلَّا علَّام الغيوب... سبحانه!!!.

وَدِدْتُ...

أنِّي كُنْتُ...

نِسْيًا مَنْسِيّاً...؟!

«استأْذَنَ ابنُ عبَّاسٍ... قَبْلَ مَوْتِها... عَلَى عائِشَةَ... وهيَ مَغْلُوبَةٌ...

«قالَتْ: أَخْشى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ...

«فقِيلَ: ابنُ عَمِّ رسولِ اللّهِ... ﷺ... ومِنْ وُجُوهِ المسلمينَ...

«قالَتْ: إِئْذَنُوا لَهُ...

«فقال: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟...

«قالَتْ: بِخَيْرٍ إِنِ اتَّقَيْتُ اللّهَ...

«قال: فأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شاءَ اللّهُ...

وزَوْجَةُ رسولِ اللّهِ... ﷺ... ولَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ... ونَزَلَ عُذْرُكِ مِنَ السَّمَاءِ...

«ودَخَلَ ابنُ الزُّبَيْرِ خِلافَهُ...

«فقالَتْ: دَخَلَ ابنُ عَبَّاسٍ فأَثْنى عَلَيَّ...

«وَوَدِدْتُ أنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيّاً.».

[أخرجه البخاري]

«**وهي مَغْلُوبَةٌ**» أي مغلوبة من كرب الموت...

«**فقيل ابنُ عَمِّ رسول اللّهِ ﷺ**» أي هو ابن عمّ رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم... وإنما قال ذلك لأنه فهم منها أنها تمنعه... فدخل عليها هذا القائل في الإذن له بالدخول وذكرها منزلته... وهذا القائل هو عبداللّه بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصدِّيق رضي اللّه تعالى عنهم... والذي استأذن هو ذكوان مولى عائشة...

«**كيف تجدينَكِ؟**» الخطاب لعائشة... أي كيف تجدين نفسكِ؟...

««إنِ اتَّقَيتُ» أي كنتُ من أهل التقوى...

«ونزل عُذْرُكِ من السماء» أشار به إلى قصة الإفْك...

««خلافَهُ» أي ودخل عبدالله بن الزبير على عائشة بعده متخالفين ذهابًا وإيّابًا... أي وافق رجوعه مجيئه...

«نِسْيًا مَنْسِيّاً» معناه ليتني لم أك شيئًا... وقرىء نَسْيًا منْسِيّاً.

* * *

أقول... في هذا الحديث مدخل عظيم إلى حقائق الشخصية...

وهذا المدخل هو قول عائشة وهي في حالة الموت:

«وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيّاً»!!!

والإنسان عند الموت يكون أقرب ما يكون إلى ربّه... ونُطْقه يكون أقرب ما يكون إلى الصدْق...

فإذا استشهدت عائشة وهي تغالب كُرَب الموت... بمِثْل ما قالتْ مريم... عليها السلام...

دَلَّ ذلك على أن موجتها مثل موجة مريم...

ماذا قالت مريم عليها السلام؟...

«... قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَّنسِيّاً.»

وماذا قالت عائشة رضي الله عنها؟

«فقالَتْ: دَخَلَ ابْنُ عبَّاسٍ فأثْنَى عَلَيَّ...

«وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيّاً»!!!

أنظر... مريم تتمنى أن تكون نَسْيًا منسيّاً!!!

وعائشة تتمنى أن تكون نسْيًا منسِيّاً!!!

وهذا التشابه لا يكون صدفة... كلا وإنما يأتي لتشابه الموجة... لتشابه سر التركيب في الاثنتين!!!

كانت مريم... صِدِّيقة...

وكانت عائشة... صِدِّيقة...

فجاء نُطْق عائشة مِثْل نُطْق مريم!!!

وهذا يُفَسِّر لك لُغْزًا آخر...

لماذا تشابهت قصتهما في البلاء؟!

مريم يقولون عليها إفْكًا وبهتانًا!!!

وعائشة يقولون عليها إفْكًا وبهتانًا!!!

لماذا؟!... لأن تشابه الموجة... يؤدي إلى تشابه البلاء...

فإذا كانت مريم صِدِّيقة... كان بلاؤها أن يقولوا عنها بهتانًا عظيمًا...

وإذا كانت عائشة صِدِّيقة... تحتم كذلك أن تشابه مريم في بلائها...

فيقولوا عنها إفكًا عظيمًا!!!.

سبحان اللّه!!!

كم في النواميس مِنْ عَجَب!!!.

عائشة...

تشير إلى الحِكْمة الإلٰهية...

في ترتيب التنزيل...؟!

«أخبَرَنِي يُوسُفُ بنُ مَاهَكٍ... قال:

«إنّي عِنْدَ عائِشَةَ... أُمِّ المؤمنينَ... رضي اللّه عنها...

«إذْ جاءَها عِرَاقِيٌّ فقال: أَيُّ الكَفَنِ خَيْرٌ؟...

«قالَتْ: وَيْحَكَ... وما يَضُرُّكَ؟...

«قال: يا أُمَّ المؤمنينَ... أريني مُصْحَفَكِ...

«قالَتْ: لِمَ؟

«قالَ: لَعَلِّي أُوَلِّفُ القُرْآنَ عَلَيْهِ... فإنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ...

«قالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ... إنما نَزَلَ أَوَّلَ ما نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ... فيها ذِكْرُ الجنَّةِ والنَّارِ...

«حتَّى إذا ثَابَ النَّاسُ إلى الإسلامِ نَزَلَ الحَلالُ والحَرَامُ...

«ولَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لا تَشْرَبُوا الخَمْرَ... لقالُوا لا نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا...

«ولَوْ نَزَلَ لا تَزْنُوا... لقالُوا لَا نَدَعُ الزِّنَا أبدًا...

«لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ على مُحَمَّدٍ ﷺ... وإنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ...

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ والسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ...

«وما نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ والنِّساءِ إلا وأنا عِنْدَهُ...

«قال: فأَخْرَجَتْ لَهُ المُصْحَفَ...

فأَمْلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّورَةِ.».

[أخرجه البخاري]

«عراقيٌّ» أي رجل من أهل العراق... ولم يدر اسمه...

«أيُّ الكَفَنِ خَيْرٌ» يحتمل أن يكون سؤاله عن الكم يعني لفافة أو أكثر؟ وعن الكيف يعني أبيض أو غيره؟... وناعمًا أو خشنًا؟ وعن النوع أنه قطن أو كتان مثلًا...

«وَيْحَكَ» كلمة ترحم...

«وما يَضُرُّكَ» أي أي شيء يضرك بعد موتك وسقوط التكليف عنك في أي كفن كفّنت لبطلان حسك بالنعومة والخشونة وغير ذلك...

«قالت: لِمَ؟» لِمَ أريك مصحفي...

«قال: لعلّي أُؤَلِّفُ القرآنَ عليه» قيل قصة العراقي كانت قبل أن يرسل عثمان المصاحف إلى الآفاق... والظاهر أن هذا العراقي كان ممّن أخذ بقراءة ابن مسعود... وكان ابن مسعود لما حضر مصحف عثمان إلى الكوفة لم يوافق على الرجوع عن قراءته ولا على إعدام مصحفه... وكان تأليف مصحف العراقي مغايرًا لتأليف مصحف عثمان... فلذلك جاء إلى عائشة وسأل الإملاء من مصحفها...

«أيَّهُ» أي أيّ القرآن قرأت...

«قَبْلُ» أي قبل قراءة السورة الأخرى...

««منهُ» أي من القرآن...

«مِنَ المفَصَّلِ» سُمّي مفصَّلًا لكثرة ما يقع فيها من فصول التسمية بين السور...

وقد اختلف في أول المفصَّل... فقيل هو سورة ق... وقيل سورة مُحَمَّد... ﷺ...

وقال النووي: سمي المفصَّل لقصر سوره وقرب انفصالهن بعضهن من بعض...

«أوَّلَ ما نَزَلَ مِنْهُ» أي من القرآن من المفصَّلِ فيها ذكر الجنّة والنار...

وأول ما نزل إمّا المدَّثر وإمَّا اقرأ... ففي كل منهما ذكر الجنة والنار...

«حتى إذا تابَ» أي رجع...

«نَزَلَ الحَلالُ والحَرامُ» أشارت به إلى الحكمة الإلٰهية في ترتيب التنزيل...

وأنه أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد... والتبشير للمؤمنين والمطيعين بالجنة... والإنذار والتخويف للكافرين بالنار...

فلما اطمأنّت النفوس على ذلك... أنزلت الأحكام...

ولهذا قالت: ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر إلى آخره...

وذلك لانطباع النفوس بالنفرة عن ترك المألوف...

«لقد نَزَلَ بمكّةَ» إلى آخره... إشارة منها إلى تقوية ما ظهر لها من الحكمة المذكورة... وهو تقدم سورة القمر وليس فيها شيء من الأحكام... على نزول سورة البقرة والنساء... مع كثرة اشتمالهما على الأحكام...

«إلّا وأنا عِنْدَهُ» يعني بالمدينة... لأن دخوله عليها إنما كان بعد الهجرة بلا خلاف...

«فأمْلَتْ عليْهِ» أي أملت عائشة على العراقي... من الإملاء...

* * *

أقول... ها هنا يظهر للناس مدى ما كانت عليه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها... من ذكاء خارق... وإدراك واسع لآفاق الإسلام...

أنظر إلى قولها:

«ولو نَزَلَ أوَّلَ شَيْءٍ... لا تشربوا الخمْرَ...

«لقالوا: لا نَدَعُ الخَمْرَ أبَدًا»!!!

عقلية ممتازة غاية الامتياز!!!.

إنها تفكّر في كل أمر من أمور الإسلام... ولا تأخذ الدين استسلامًا بدون فَهْم...

كلا... وإنما تتفكّر... وتتفكّر...

ثم توجِّه مَن جاءها التوجيه الرفيع الصحيح!!!.

عائِشَةُ تقول:
«واللّهِ إنِّي لأظُنُّكَ...
تُحِبُّ مَوْتِي»...؟!

«قالَتْ عائِشَةُ... رضي اللّه عنها: وارَأْسَاهْ...

«فقال رسول اللّه... ﷺ: ذَاكِ لَوْ كانَ وَأَنَا حَيٌّ... فأَسْتَغْفِرُ لَكِ... وأدْعُو لَكِ...

«فقالَتْ عائِشَةُ: وَاثُكْلِياهْ... واللّهِ إنِّي لأَظُنُّكَ تُحِبُّ مَوْتِي...

«ولَوْ كانَ ذَاكَ لَظَلِلْتَ آخِرَ يَوْمِكَ مُعَرِّسًا بِبَعْضِ أزْوَاجِكَ...

«فقال النبيُّ ﷺ: بَلْ أنا وارأْسَاهْ...

«لَقَدْ هَمَمْتُ أوْ أَرَدْتُ أنْ أُرْسِلَ إلَى أبي بَكْر وابْنِهِ وأعْهَدَ أنْ يَقُولَ القائِلُونَ أو يَتَمَنَّى المُتَمَنُّونَ...

«ثُمَّ قُلْتُ: يأْبَى اللّهُ ويَدْفَعُ المؤمنونَ...

«أوْ يَدْفَعُ اللّهُ ويَأْبَى المؤمنونَ.».

[أخرجه البخاري]

«ذَاكِ» إشارة إلى ما يستلزم المرض من الموت... أي لو متّ وأنا حيّ وأنا أستغفر لكِ...

وفي رواية: لو متّ قبلي فكفّنتكِ ثم صليّت عليكِ ودفنتك...

«واثُكْلِياهْ» والثكل فقدان المرأة ولدها...

وهو كلام كان يجري على لسانهم عند إصابة مصيبة أو خوف مكروه...

«إنّي لأَظُنُّكَ تُحِبُّ موتي» كأنها أخذت ذلك من قوله لو متِّ قبلي...

«ولَوْ كان ذَاك» وفي رواية غيره «ذلك» باللام وهو إشارة إلى موتها...

«مُعَرِّسًا» من أعرس بأهله إذا بنى بها... وكذلك إذا غشيها...

«**بل أنا وارأْسَاهْ**» معناه دعي ذكر ما تجدينه من وجع رأسك واشتغلي بي... إذ لا بأس بكِ وأنتِ تعيشين بعدي... عرف صلى اللّه تعالى عليه وسلم ذلك بالوحي...

«**أو أردتُ**» شك من الراوي...

«**وأعْهَدَ**» أي أوصي بالخلافة له.

«**أن يقول القائلون**» أي يقول القائلون الخلافة لفلان...

* * *

أقول... هذه الملاطفة المقدسة تنقلها إلى الأُمَّة نقلًا أمينًا... عائشة رضي اللّه عنها...

فندرك جميعًا أنَّ اللّه تعالى اختار لنبيّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم... عائشة زوجًا...

وخصَّها بصفات عُلْيا من الفَهْم والإدراك والحفظ والأمانة...

لتنقل إلى الأُمَّة الأحوال الشخصية من حياته ﷺ...

فيعمّ نفعها... وتستفيض أخبارها... ويقتبس الفقهاء مما تروي فقههم...

ويعلم المؤمنون والمؤمنات إلى أيّ مدى كانت حياته ﷺ الخاصة من السموّ والجمال والرحمة والحنان؟!!

«مَهْلًا يا عائِشَةُ...
إنَّ اللّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ...
في الأمْرِ كُلِّهِ»...؟!

«عنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ...
«أنَّ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها... زَوج النبيِّ... ﷺ... قالَتْ:
«دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ على رسولِ اللّهِ ﷺ... فقالوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ...
«قالَتْ عائِشَةُ: فَفَهِمْتُها...
«فقُلْتُ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ واللَّعْنَةُ...
«قالَتْ: فقال رسولُ اللّهِ... ﷺ:
«مَهْلًا يا عَائِشَةُ...
«إنَّ اللّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأَمْرِ كُلِّهِ...
«فَقُلْتُ: يا رسُولَ اللّهِ... أَوَلَمْ تَسْمَعْ ما قالوا؟...
«قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ.».

[أخرجه البخاري]

«رَهْطٌ مِنَ اليهودِ» الرهط من الرجال ما دون العشرة...
«السَّامُ عليكُمْ» السام: الموت...
«مَهْلًا» معناه تأنّي وارفقي...
«إنَّ اللّهَ يُحِبُّ الرفق في الأَمْرِ كُلِّهِ» وفي رواية مسلم:
عن عائشة: إن اللّه رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف...
«أَوَلَمْ تسمع؟» بهمزة الاستفهام...
««وَعَلَيْكُمْ» وتقديره وأقول عليكم ما تستحقونه... وإنما اختار هذه الصيغة

ليكون أبعد عن الإيحاش... وأقرب إلى الرفق...

* * *

أقول... في هذا الحديث واضح جدًا صفة سرعة الفَهْم... التي كانت تتميز بها أمّ المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها...

ولقد كانت تعرف ذلك من نفسها...

استمع إليها وهي تقول:

«فَفَهِمْتُها»؟!!

أي فَهِمتها فورًا بمجرد سماعهم...

بل وأعجب من هذا... كان جوابها حاضرًا... فقالت:

«وَعَلَيْكُمُ السَّامُ واللَّعْنَةُ»؟!!

فوْرًا فَهِمَتْ ما قالوا!!!

وفوْرًا رَدَّتْ عليهم!!!

وفوْرًا زادتهم فوق ما قالوا «اللَّعْنَةَ»!!!

ليست فقط كانت سريعة الفَهم... بل وحاضرة البديهة... بل ومناضلة لأعداء الحق كأعنف ما يكون النضال...

غَيْرَةً للّهِ... وغضبًا لرسوله ﷺ!!!.

* * *

وفي رواية أخرى للبخاري:

«عنْ عائِشَةَ رضي اللّه عنها...

«أنَّ يَهُودَ أَتَوْا النبيَّ ﷺ... فقالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ...

«فقالَتْ عائِشَةُ: عَلَيْكُمْ... ولَعَنَكُمُ اللّهُ... وغَضِبَ اللّهُ عَلَيْكُمْ...

«قالَ: مَهْلًا يا عائِشَةُ...

«عَلَيْكِ بالرِّفْق...

«وإِيَّاكِ والعُنْفَ و الْفُحْشَ...

«قالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ ما قالُوا؟...

«قالَ: أَولَمْ تسْمَعِي ما قُلْتُ؟...
«رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ...
«فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ...
«وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ.».
«فيُسْتَجَابُ لي» لأنه بالحق...
«ولا يُسْتجابُ لَهُمْ» لأنه بالباطل والظلم...

* * *

أقول... هكذا كانت سريعة الفَهْم... سريعة الردّ... حاضرة البديهة... إذا انطلقت في غيرتها للّه... أسكتت أعداء اللّه!!!.

ومِن هنا... ومن مِثْلِ هذه الصفات العليا... التي كانت مكنونة في شخصيتها... حتى تفجّرها الأحداث...

كانت الحكمة في اختيار عائشة له زوجًا في الدنيا والآخرة!!!.

«يا عائِشَةُ...
مَتَى عَهِدْتِنِي...
فَحَّاشًا»...؟!

عَنْ عائِشَةَ...

«أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ على النبيِّ... ﷺ...

«فلمَّا رآهُ قالَ: بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ... وبِئْسَ ابنُ العَشِيرَةِ...

«فلمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النبيُّ ﷺ... في وجْهِهِ وانْبَسَطَ إِلَيْهِ...

«فلمَّا انطَلَقَ الرَّجُلُ... قالَتْ لَهُ عائشَةُ:

«يا رسولَ اللّهِ... حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وكَذَا... ثُمَّ تَطَلَّقْتَ في وَجْهِهِ وانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ!...

«فقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ:

«يا عائِشَةُ...

«مَتى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا؟...

«إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عنْدَ اللّهِ مَنْزِلَةً يوْمَ القيامةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ.».

[أخرجه البخاري]

«أنَّ رجُلًا» هو عينية بن حصن... وكان يقاله له الأحمق المطاع... فرح صلى اللّه تعالى عليه وسلم بإقباله عليه قبل أن يسلم قومه... وجاء حين أقبل على الشرك... وترك حديثه مع ابن أم مكتوم فأنزل اللّه عز وجلّ ﴿عَبَسَ وتولَّى * أَن جاءَهُ الْأَعْمَى.﴾...

«بئسَ أخُو العَشيرةِ» المراد بالعشيرة الجماعة والقبيلة... أي بئس هذا الرجل منها... وهذا الكلام مِن أعلام النبوة... لأنه ارتد بعده صلى اللّه تعالى عليه وسلم... وجيء به أسيرًا إلى أبي بكر رضي اللّه تعالى عنه...

«تَطَلَّقَ» من الطلاقة أي انشرح وانبسط منه... ويقال وجه طلق وطليق أي

مسترسل منبسط غير عبوس...

«**مَتَى عَهِدْتِنِي فحَّاشًا**» وفي رواية فاحشًا...

«**اتِّقاءَ شَرِّهِ**» أي لأجل الاتقاء عن شره...

وفيه مداراة من يتّقى فحشه... وجواز غيبة الفاسق المعلن بفسقه... ومن يحتاج الناس إلى التحذير منه...

وهذا الحديث أصل في المداراة... وفي جواز غيبة أهل الكفر والفسق والظلمة وأهل الفساد.

* * *

ما هي الصفة البارزة التي تُستنبط من هذا الحديث... من صفات أم المؤمنين عائشة... رضي اللّه عنها؟!

الجواب... أنَّها إذا لم تفهم شيئًا على وجهه سارعت الى السؤال عنه...

ومَن تسأل؟!!

وممَّن تستفهم؟!!

مِن رسول اللّه... صلى اللّه تعالى عليه وسلم!!!

أصدق مَن خَلَقَ اللّه!!!

وأعظم مَنْ خَلَقَ اللّه!!!

وأعلى من خَلَقَ اللّه!!!

فماذا قالَ سيدي... سيد الخَلْق؟!

«يا عائِشَةُ

«مَتَى عَهِدْتِنِي فحَّاشًا...؟!

هنالك فهِمَتْ عائشة... ما لم تستطع أن تَفْهَم!!!

لتفْهَم الأُمَّة كلها إلى يوم القيامة من ورائها!!!

عائشةُ تسأَلُ فاطمة...
سَيِّدَةَ نِساءِ هذِهِ الأُمَّةِ...
عن سرِّ البكاء ثم الضحك...؟!

«عنْ مَسْرُوقٍ...
«حَدَّثَتْنِي عائِشَةُ... أُمُّ المؤمنينَ... قالَتْ:
«إِنَّا كُنَّا أزواجَ النبيِّ... ﷺ... عِنْدَهُ جَميعًا... لَمْ تُغَادَرْ مِنَّا واحِدَةٌ...
«فأَقْبَلَتْ فاطمةُ علَيْها السَّلَامُ تَمْشِي... لا واللّهِ ما تَخْفَى مِشْيَتُها مِنْ مِشْيَةِ رسولِ اللّهِ ﷺ...
«فلمَّا رَآهَا رَحَّبَ... قالَ: مَرْحَبًا بابْنَتي...
«ثُمَّ أَجْلَسَها عَن يَمِينِهِ... أَوْ: عَنْ شِمَالِهِ...
«ثُمَّ سَارَّهَا...
«فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا...
«فلمَّا رَأَى حُزْنَها سارَّها الثانِيَةَ...
إِذَا هِيَ تَضْحَكُ...
«فقُلْتُ لَهَا أنَا مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ:
خَصَّكِ رسولُ اللّهِ ﷺ...
بالسِّرِّ مِنْ بَيْنِنَا ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ؟!
«فلمَّا قَامَ رسولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم... سأَلْتُها عَمَّا سَارَّكِ؟...
«قالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ علَى رسولِ اللّهِ... ﷺ... سِرَّهُ...
«فلمَّا تُوُفِّيَ قُلْتُ لَها: عَزَمْتُ عَلَيْكِ بما لِي عَلَيْكِ مِنَ الْحَقِّ لَمَّا أَخْبَرْتِني؟...
«قالَتْ: أَمَّا الآنَ فَنَعَمْ...
«فأَخْبَرَتْنِي قالَتْ: أَمَّا حِينَ سَارَّنِي في الأَمْرِ الأَوَّلِ... فإِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّ جِبْرِيلَ

كان يُعَارِضُهُ بالقرآنِ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً... وإِنَّهُ قَدْ عَارَضَنِي بِهِ العامَ مَرَّتَيْنِ ولا أرى الأَجَلَ إِلَّا قَدِ اقْتَرَبَ... فاتَّقِي اللّهَ واصْبِرِي... فإِنِّي نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ...

«قالَتْ: فبَكَيْتُ بُكائِي الَّذي رَأَيْتِ...

«فلمَّا رَأَى جَزَعِي سارَّنِي الثانِيَةَ...

«قال: يا فاطِمَةُ ألا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِساءِ المُؤْمِنِيْنَ... أَوْ سَيِّدَةَ نِساءِ هذِهِ الأُمَّةِ.»).

[أخرجه البخاري]

«لم تُغادَرْ» لم تترك...

«رَحَّبَ» أي قال لها مرحبًا...

«أو عن شماله» شك من الراوي...

«سارَّها» أي تكلم معها سرّاً...

««عَزَمْتُ» أي أقسمتُ...

««جزعي» الجزع قلة الصبر...

* * *

أقول... ماذا نستنبط من هذا الحديث الذي روته عائشة رضي اللّه عنها؟!

نلتقط قولها: «فقُلْتُ لها أنا مِنْ بَيْنِ نِسائِهِ»؟!

في هذه الفقرة ما يكشف لنا صفة من صفات عائشة... وهي الاهتمام بالأمور من حولها... والإلحاح على الاستفسار عن أيّ شيء لم تستطع له تفسيرًا...

قالت لسيدة نساء هذه الأمّة: خَصَّكِ رسولُ اللّه ﷺ بالسِّرِّ مِنْ بَيْنِنا ثمَّ أنْتِ تبكينَ؟!

واضح هنا أَنَّ أم المؤمنين تريد أن تعرف هذا السّرّ!!!

فهل وقفت عند هذا الاستفسار؟!

فلَمَّا قامَ رسولُ اللّهِ... ﷺ... سألْتُها عَمَّا سارَّكِ؟!

إلحاح مرة أخرى... إنها تريد أن تعرف!!!

فهل وقفت عند هذا؟!

كلا... «فلمَّا تُوُفِّيَ قلْتُ لها: عَزَمْتُ عليْكِ بما لي عليْكِ مِنَ الحقِّ... لَمَّا أخْبَرْتِنِي»؟!

إنَّ عائشة لم تنس الموضوع... وإنما هي تتابع السؤال مرة ثالثة... بعد وفاة النبيِّ ﷺ!!!

حتَّى أخبرتها فاطمة عليها السلام بتفاصيل الأمر!!!

فما معنى هذا؟!

معناه أن عائشة مؤهلة بالفطرة للإلمام بكل شيء يتعلق بأمر هذا الدين... وما سوف يكون فيه نفع عام للأُمّةِ...

لاحظ هنا قولها: «فقلتُ لها أنا مِنْ بَيْنِ نسائِهِ»... أي أنها كانت تعلم من شخصيتها أنها هي صاحبة هذا المقام وحدها... مقام الإحاطة بتفاصيل الأمور...

أنا مِنْ بَيْنِ نسائِهِ؟!!

لا واحدة منْهُنَ تلتفت إلى هذه الأمور... وإنما أنا وحدي حفِيَّة بها!!!

واللّه أعلم حيث يجعل رسالته...

فكما اختار واصطفى المصطفى ﷺ...

اختار له عائشة زوجًا... لتبلغ عنه ﷺ... كثيرًا من أمور هذا الدين الحنيف!!!

عائشةُ...

تسمَعُ آخِرَ كلمة...
تكلَّمَ بها رسولُ اللّهِ... ﷺ...؟!

أخبرني سَعِيدُ بنُ المسَيَّبِ... وعُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ... في رجالٍ مِنْ أهْلِ العِلْم...

«أَنَّ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها... قالَتْ:

«كان رسولُ اللّهِ... ﷺ... يقولُ وهُوَ صَحِيْحٌ:

«لَنْ يُقْبَضَ نَبِيٌّ قَطُّ حتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ... ثُمَّ يُخَيَّرُ...

«فلمَّا نَزَلَ بهِ... ورَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي...

«غُشِيَ عَلَيْهِ ساعَةً...

«ثُمَّ أَفَاقَ...

«فأَشْخَصَ بَصَرَهُ إلى السَّقْفِ ثمَّ قالَ:

«اللهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى...

«قُلْتُ: إِذًا لا يَخْتَارنا...

«وَعَلِمْتُ أنَّهُ الحديثُ الَّذِي كانَ يُحَدِّثُنا وهُوَ صَحِيحٌ...

«قالَتْ: فكانَتْ تِلْكَ آخِرَ كَلِمَة تَكَلَّم بِها...

«اللَّهُمَّ الرَّفِقَ الأَعْلَى.».

[أخرجه البخاري]

«في رجالٍ مِنْ أهْلِ الْعِلْمِ» أي في جملة طائفة أخرى أخبروه أيضًا به... أو في حضور طائفة مستمعين له...

«ثم يُخَيَّرُ» أي بين الموت والانتقال إلى ذلك المقعد... وبين البقاء والحياة في الدنيا...

«**فلمَّا نَزَلَ بِهِ**» أي فلما حضره الموت...

«**فأشْخَصَ**» أي رفع بصره وأشخصه...

وشخص بصره إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف...

«**لا يختارنا**» أي حيث اختار الآخرة تعين ذلك... فلا يختارنا بعد ذلك...

«**أنَّهُ الحديثُ الذي كان يُحَدِّثُنا وهو صحيحٌ**» هو قوله لن يُقْبَضَ نبيٌّ قطُّ حتى يرى مَقْعَدَه...

* * *

أقول... حسبها شَرَفًا أنها شرفت بذلك المشهد...

وسمعت آخر كلمة تكلم بها رسول الله... ﷺ!!!

عائشة...

لا تُصَدِّق أحَدًا...

إلّا بعد التثبُّت...؟!

عنْ عائِشَةَ... قالَتْ:

«دَخَلَتْ عَلَيَّ عَجُوزَانِ مِنْ عُجُزِ يَهُودِ المدينة... فقالَتَا لِي:

«إنَّ أهْلَ القُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ...

«فَكَذبْتُهُمَا...

«ولَمْ أَنْعِمْ أنْ أُصدِّقَهُمَا...

«فَخَرَجَتا... ودَخَلَ عَلَيَّ النبيُّ ﷺ... فقُلْتُ له:

«يا رسولَ اللّهِ... إنَّ عَجُوزَيْنِ... وَذَكَرْتُ لَهُ...

«فقالَ: صَدَقَتَا... إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ البَهائِمُ كُلُّها...

«فما رَأَيْتُهُ بَعْدُ في صلاةٍ إلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.».

[أخرجه البخاري]

«عجوزان» العجوز يطلق على الشيخ والشيخة...

«ولم أنْعِمْ» أي لم أحسن في تصديقهما... والحاصل أنها ما صدقتهما...

«تَسْمَعُهُ البهائمُ» صوت الميت يسمعه كل شيء إلا الإنسان...

* * *

أقول... الجديد في هذا الحديث بالنسبة إلى صفات عائشة العُلْيا... أنها كانت لا تصدِّق شيئًا مما تسمع حتى ترجع إلى النبيّ... ﷺ... فتسأله... فإذا أخبرها بالحقّ من الأمر... صدَّقته واستمسكت به...

فلا سبيل للخرافات إلى عقل عائشة... وإنما هي تستعمل عقلها الذكي الرفيع المستوى...

ومن هنا كانت دائمة الاستفسار عما لا تفهم من التصرفات...

كما كانت لا تقبل كلَّ ما يُلقى إليها من الناس... وإنما ترجع إلى رسول اللّه... ﷺ... فيخبرها بالصحيح مما سمعت...

إنَّها ذات استعداد عظيم للإحاطة بالحقائق الصافية!!!.

باقة...

من روائع الحديث...
تُقدِّمها أمّ المؤمنين...
إلى الأُمّة...؟!

دعاء جميل؟!

عن عائشَةَ... أنَّ النبيَّ... ﷺ... كانَ يقولُ:

«اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ والهَرَمِ والمَغْرَمِ والمَأْثَمِ...

«اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ عذابِ النارِ وفِتْنَةِ النارِ وفِتْنَةِ القَبْرِ وعذابِ القَبْرِ...

«وشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى... وشرِّ فِتْنَةِ الفَقْرِ...

«ومِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ...

«اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بماءِ الثَّلْجِ والبَرَدِ...

«ونَقِّ قَلْبِي مِنَ الخطايا كما يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ...

«وباعِدْ بَيْنِي وبَيْنَ خطايايَ كَمَا باعَدْتَ بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِب.»

[أخرجه البخاري]

أيُّ الأَعْمالِ أَحَبُّ إلى اللّهِ؟!

«عَنْ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها... أنَّها قالَتْ:

«سُئِلَ النبيُّ ﷺ:

«أيُّ الأعمال أحَبُّ إلى اللّهِ؟...

«قال: أدْوَمُها وإِنْ قَلَّ...

«وقال: اكْلَفُوا مِنَ الأَعْمالِ ما يُطيقُونَ.».

[أخرجه البخاري]

«اكلَفُوا» التكليف الأمر بما يشق عليك...

«ما تُطيقونَ» في إشارة إلى بذل المجهود وغاية السعي... والمراد ما تطيقون عليه دائمًا ولا تعجزون عنه في المستقبل...

عائشة تسأل سؤالًا جميلًا؟!

«أنَّ عائِشَةَ... رضي الله عنها... قالَتْ:
«قال رسولُ اللّهِ... ﷺ:
«تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا...
«قالَتْ عائِشَةُ: فقُلْتُ:
«يا رسولَ اللّهِ... الرِّجَالُ والنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْض؟!...
«فقال: الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ لِذَلِكَ.».

[أخرجه البخاري]

«أن يُهْتَمَّ» من الاهتمام... وفي رواية مسلم: يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعض إلى بعض...

* * *

أقول... لاحظ هنا طبيعة عائشة الأصيلة... أنَّها لا تسكت على شيء لم تفهمه حتى تسأل عنه!!

إنها تريد أن تتعلم... وأن تفهم... لأنها سوف تُعَلِّم الأجْيال!!!

لا نُورَثُ؟!

«عَنْ عائِشَةَ... رضي الله عنها...
«أنَّ أزواجَ النبيِّ... ﷺ... حِينَ تُوُفِّيَ رسولُ اللّهِ ﷺ...
«أَرَدْنَ أَنْ يَبْعَثْنَ عُثْمانَ إلى أبي بَكْرٍ يَسْأَلْنَهُ مِيراثَهُنَّ...

«فقالَتْ عائِشَةُ:
«ألَيْسَ قَدْ قَالَ رسولُ اللّه ﷺ:
«لا نُورَثُ...
«ما تَرَكْنا صَدَقَةٌ؟.».

[أخرجه البخاري]

أقول... ها هنا تفطن عائشة إلى ما لم تفطن إليه بعض أمهات المؤمنين!!!
إنها عارضت اتجاههن... وأيَّدَت رأيها بحديثه صلى اللّه عليه وسلم!!!

شخصية...
عائشة...
رضي اللّه عنها...؟!

أُرِيتُكِ قَبْلَ أَنْ أَتزَوَّجكِ مَرَّتَيْنِ؟!

في حديثين متتابعين من صحيح البخاريّ نعلم أن اختيار عائشة زوجًا لرسول اللّه... ﷺ... كان اختيارًا إلٰهيًا...

«عَنْ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها... قالَتْ:

«قال رسولُ اللّهِ... ﷺ:

«أُرِيتُكِ في المَنَامِ مَرَّتَيْنِ.

«إذا رَجُلٌ يَحْمِلُكِ في سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ...

«فيقولُ: هذِهِ امرَأَتُكَ...

«فأَكْشِفُها... فإذَا هِيَ أنْتِ...

«فأقولُ: إن يَكُنْ هذا مِنْ عِنْدِ اللّهِ يُمْضِهِ.».

[أخرجه البخاري]

«أُرِيتُكِ» خطاب لعائشة...

«إذا رجلٌ يحملُكِ» والمراد به جبريل عليه السلام...

«في سَرَقَةٍ» أي في قطعة من حرير...

«فإذا هي أنتِ» يريد أنه رآها في النوم كما رآها في اليقظة... فكانت هي المراد بالرؤيا لا غيرها...

«يُمْضِهِ» أي ينفذه ويكمله...

وفي رواية... أتيت بجارية في سرقة من حرير بعد وفاة خديجة فكشفتها

فإذا هي أنتِ...

* * *

«عن عائِشَةَ قالَتْ: قال رسولُ اللّهِ... ﷺ:
«أُريتُكِ قَبْلَ أَنْ أتَزَوَّجكِ مَرَّتَيْنِ...
«رَأَيْتُ الملَكَ يَحْمِلُكِ في سَرَقَةٍ مِنْ حَرير...
«فقُلْتُ لَهُ: اكْشِفْ... فكَشَفَ...
«فإذا هِيَ أَنْتِ...
«فقُلْتُ: إنْ يَكُنْ هَذا مِنْ عِنْدِ اللّهِ يُمْضِهِ...
«ثُمَّ أُريتُكِ يَحْمِلُكِ في سَرَقَةٍ مِنْ حَريرٍ... فقُلْتُ: اكْشِفْ... فكَشَفَ... فإذَا هِيَ أنْتِ... فقُلْتُ: إنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللّهِ يُمْضِهِ.».

[أخرجه البخاري]

زَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ في الدنيا والآخرةِ؟!

«عن أبي وائلٍ...
«قامَ عَمَّارٌ على مِنبَرِ الكُوفَةِ...
«فذَكَرَ عائِشَةَ... وذَكَرَ مسيرَها...
«وقال: إنَّها زَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ... في الدُّنْيا والآخِرَةِ ولكنَّها مِمَّا ابْتُليتُمْ.».

[أخرجه البخاري]

«ممَّا ابتُليتم» أي امتحنتم بها...

* * *

«حدثنا أبُو مَرْيَمَ عبدُ اللّهِ بنُ زياد الأسَدِيُّ قال:
«لَمّا سارَ طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ وعائِشَةُ إلى البَصْرَةِ...
«بَعَثَ عَلِيٌّ عَمَّارَ بنَ ياسِرٍ... وحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ...
«فَقَدِما عَلَيْنا الكُوفَةَ... فَصَعِدَ المِنْبَرِ...
«فكانَ الحَسَنُ بنُ عَليٍّ فوْقَ المنبرِ في أعلاهُ...

«وقَامَ عمَّارٌ أسْفَلَ مِنَ الحَسَنِ...

«فاجتَمَعْنا إليه...

«فسَمِعْتُ عَمَّارًا يقولُ: إنَّ عائِشَةَ قَدْ سارَتْ إلى البصْرَةِ... وواللّهِ إنَّها لَزَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ في الدُّنْيا والآخِرَةِ... ولَكِنَّ اللّهَ تبارَكَ وتعالى ابتلاكُمْ... لِيَعْلَمَ إيَّاهُ تطيعونَ أمْ هِيَ.»؟

[أخرجه البخاري]

«وواللّهِ إنها لزوجةُ نبيّكم ﷺ في الدنيا والآخرة» أراد بذلك عمار رضي اللّه تعالى عنه أنَّ الصواب مع عليّ... وإن صدرت هذه الحركة عن عائشة... فإنها بذلك لم تخرج عن الإسلام... ولا عن كونها زوجة النبي صلى اللّه تعالى عليه وسلم في الجنة...

«ولكنَّ اللّهَ ابتلاَكُمْ لِيَعْلَمَ» أي ليميز...

ووقع في رواية ابن أبي شيبة: قال عمار: إن أُمّنا سارت مسيرها هذا... وإنها واللّه زوج محمد ﷺ في الدنيا والآخرة... ولكن اللّه ابتلانا بها... ليعلم إياه نطيع أو إياها؟

ثم إن وقوع الحرب بين الطائفتين كان في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين...

ولما تواثب الفريقان بعد استقرارهم في البصرة...

وقد كان مع عليّ نحو عشرين ألفًا...

ومع عائشة نحو ثلاثين ألفًا...

وكانت الغلبة لعسكر عليّ...

* * *

أقول... وإذا اختار اللّه تعالى لنبيّه ﷺ... عائشة زوجًا...

دلَّ ذلك على أن هذه الشخصية مكنون فيها امتياز يؤهلها لأداء الدور العظيم... الذي سوف تؤديه في حياة رسول اللّه ﷺ... وبعد وفاته ﷺ!!!

وإليك شيئًا قليلًا من بدائع شخصيتها...

أُمّ المؤمنين في مقام التبليغ؟!

«قالَتْ عائِشَةُ... رضي اللّه عنها:
«صَنَعَ النبيُّ... ﷺ... شيئًا تَرَخَّصَ فِيْهِ...
«وَتَنَزَّهَ عَنْهُ قوْمٌ...
«فَبَلَغَ ذلِكَ النبيَّ... ﷺ...
«فَحَمِدَ اللّهَ ثُمَّ قالَ:
«ما بالُ أقوامٍ يَتَنَزَّهُونَ عنِ الشَّيءِ أصْنَعُهُ...
«فواللّه إنِّي أَعْلَمُهُمْ باللّهِ...
«وأشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً.».

[أخرجه البخاري]

«صَنَعَ النبيُّ ﷺ شيئًا فَرَخَّصَ فيه» أي أسهل فيه... مثل الإفطار في بعض الأيام والصوم في بعضها من غير رمضان... ومثل التزوج... وتنزه قوم عنه أي احترزوا عنه بأن سردوا الصوم واختاروا العزوبة...

وأشار ابن بطال إلى أن الذي تنزهوا عنه القُبلة للصائم...

وقال الداودي: **التنزه عما رخص فيه الشارع من أعظم الذنوب... لأن هذا يرى نفسه أتقى في ذلك من رسوله... وهذا إلحاد...**

وكذا قال ابن التين... ولا شك أنه إلحاد إذا اعتقد ذلك...

«أعلمهم باللّه» إشارة إلى القوة العلمية...

«وأشدهم خشية» إلى القوة العملية...

أي هم يتوهّمون أن رغبتهم عما فعلتُ أفضل لهم عند اللّه... وليس كما توهموا إذ أنا أعلمهم بالأفضل وأولاهم بالعمل...

* * *

أقول... وهكذا نقلت إلينا أم المؤمنين عائشة... رضي اللّه عنها... حديثًا عن النبي... ﷺ...

فنقلت إلينا بنقله أصلًا عامّاً من أصول الإسلام...

وهو أنَّ التنزّه عما رخص فيه الشارع من أعظم الذنوب...

ويُعتبر هذا الحديث ميزانًا يزن به كل مسلم وكل مسلمة عمله بميزان الشريعة السمحاء!!!

عائشة في مقام الشورى؟!

«عنْ عائِشَةَ... أُمِّ المؤمنينَ...

«أنَّ رسولَ اللّهِ... ﷺ قال في مَرَضِهِ:

«مُرُوا أبا بَكْرٍ يُصَلِّي بالنَّاسِ...

«قالَتْ عائِشَةُ: قُلْتُ: إنَّ أَبا بَكْرٍ إذا قامَ في مقامِكَ لم يُسْمِعِ الناسَ مِنَ البُكاءِ... فمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ بالناسِ...

«فقال: مُروا أبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالناسِ...

«فقالَتْ عائِشَةُ: فَقُلْتُ لحَفْصَةَ:

قولي إِنَّ أبا بَكْرٍ إذا قامَ في مَقامِكَ لَمْ يُسْمِعِ الناسَ مِنَ البُكاءِ فمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ بالنّاس...

«فَفَعَلَتْ حَفْصَةُ...

«فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: إنَّكُنَّ لأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ...

«مُرُوا أبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ...

«فقالَتْ حَفْصَةُ لعائِشَةَ: ما كُنْتُ لِأُصِيبَ مِنْكِ خَيْرًا.».

[أخرجه البخاري]

في المراددة والمراجعة في الأمر وهو مذموم... داخل في معنى التعمق... لأن التعمق المبالغة في الأمر والتشديد فيه...

«فَفَعَلَتْ حَفْصَةُ» أي قالت...

«صواحبُ يُوسُفَ» أي أنتن تشوشن الأمر عليَّ كما أنهن شوشن على يوسف عليه السلام...

أقول... في هذا الحديث تتلألأ من شخصية عائشة رضي الله عنها صفة الجرأة في إعلان رأيها...

ثم محاولة تأييد رأيها...

وهذه الصفة دفعتها إلى الإكثار من سؤال النبي ﷺ عمّا لا تفهم...

وكانت تجد عنده ﷺ الجواب الحقّ!!!.

حافظتها نادرة؟!

«عنْ عُرْوَةَ... قال:

«حَجَّ علَيْنا عبدُاللّهِ بنُ عُمْروٍ...

«فسمِعْتُهُ يقولُ: سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يقولُ:

«إِنَّ اللّهَ لا يَنْزِعُ العِلْمَ بَعْدَ أنْ أَعْطاهُمُوهُ انتزاعًا... ولكِنْ يَنْتَزِعهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ العُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ...

«فيَبْقى ناسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتَوْنَ فيُفْتُون برأيهم...

«فيُضلُّونَ ويَضِلُّونَ...

«فحَدَّثْتُ بِهِ عائشَةَ زَوْجَ النبيِّ ﷺ...

«ثمَّ إِنَّ عَبْدَاللّهِ بنَ عَمْروٍ حَجَّ بَعْدُ...

«فقالَتْ: يا ابْنَ أُخْتِي... انْطَلِقْ إلى عبدِاللّهِ... فاسْتَثْبِتْ لي مِنْهُ الَّذِي حَدَّثْتَنِي عَنْهُ...

«فَجِئْتُهُ... فسَأَلْتُهُ... فَحَدَّثَنِي بِهِ كَنَحْو ما حَدَّثَنِي...

«فأَتَيْتُ عائِشَةَ... فأَخْبَرْتُها...

«فَعَجِبَتْ... فقالَتْ: واللّهِ لَقَدْ حَفِظَ عَبْدُاللّهِ بنُ عَمْروٍ».

[أخرجه البخاري]

«حجَّ علَيْنا» أي مارًا علينا...

«عبدُاللّهِ بنُ عَمْروٍ» أي ابن العاص...

«أعطاهموه» وفي رواية أعطاكموه...

«**مع قَبْضِ العلماءِ بعلْمِهِم**» أي يقبض العلماء مع علمهم...

«**فحَدَّثْتُ به عائشةَ**» أي قال عروة حدثت بهذا الحديث عائشة أم المؤمنين...

«**بَعْدُ**» أي بعد تلك السنة والحجّة...

«**فقالت: يا ابنَ أُخْتِي**» أي فقالت عائشة لعروة يا ابن أختي... لأن عُرْوَة ابن أسماء أخت عائشة...

«**فاستثبِتْ لي منهُ**» أي من عبدالله بن عمرو...

«**كنحو ما حَدَّثَني**» أي في مرته الأولى...

«**فعجبَتْ**» أي عائشة من جهة أنه ما غيَّر حرفًا منه!!!.

* * *

أقول... مستحيل أن يكون هذا من عائشة إلّا إذا كانت ذات حافظة وراء التصور...

إنها تراجع الحديث الذي رواه عبدالله بن عمرو...

فلمَّا أخبرها عُرْوَة بما قال...

ووجدته هو هو الحديث بتمام ألفاظه...

عَجِبَتْ... ثم أعطت عبدالله بن عمروٍ... شهادة يشرف بحملها: «لَقَدْ حَفِظَ عبدُالله بن عَمْروٍ»!!!.

إنَّ الله اختارها لصفات عُليا مكنونة في شخصيتها... تظهر منها تباعًا حسب الوقائع!!!

فَعَرَفْتُ الّذي يُرِيدُ... فَجَذَبْتُها... فَعَلَّمْتُها؟!

«عنْ عائِشَةَ... رضي الله عنها...

«أنَّ امْرَأَةً سأَلَتِ النبيَّ ﷺ... عَنِ الْحَيْضِ... كيْفَ تَغْتَسِلُ مِنْهُ؟...

«قالَ: تَأْخُذِينَ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً... فَتَوَضَّئِينَ بِها...

«قالَتْ: كَيْفَ أَتَوَضَّأُ بِها يا رسولَ اللّهِ؟...

«قال النبيُّ ﷺ: تَوَضَّئِي...
«قالَتْ: كَيْفَ أَتَوَضَّأُ بِهَا يَا رَسُولَ اللّهِ؟...
«قالَ النبيُّ ﷺ: تَوَضَّئِينَ بِهَا...
«قالَتْ عائِشةُ: فَعَرَفْتُ الَّذي يُرِيدُ رسولُ اللّهِ... ﷺ...
«فَجَذَبْتُها إِلَيَّ...
«فَعَلَّمْتُها.»).

[أخرجه البخاري]

««أنَّ امرأةً» هي أسماء بنت شَكَلَ.
«فِرْصَة» قطعة من القطن أو الخروق تتمسح بها المرأة من الحيض...
«مُمَسَّكَة» مطيّبة بالمسك...
«فَتَوَضَّئِينَ بِها» أي تتنظفين وتتطهرين... أي أراد معناها اللغوي...

* * *

أقول... ها هنا صفة جديدة من صفات أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها...
صفة سرعة البديهة وسرعة الفَهْم...
إن المرأة لم تستطع أن تفهم عن رسول اللّه... ﷺ...
ولكن عائشة فَهِمَتْ!!!
وأتبعت الفَهْم بالتفهيم...
فجذبت المرأة إليها... وَعَلَّمَتْها!!!
وهذه الزاوية - وهو ما يتعلق بشؤون النساء - من أهم الزوايا في الفقه الإسلامي...
ولقد أسهمت عائشة فيه إسهامًا كبيرًا...
فحدَّثَتْ... وعَلَّمَتْ...
وأفْتَتْ النساء في كثير من أمورهن التي يمنعهن الحياء أن يفضن فيها!!!

دليل عظمة شخصية عائشة؟!

«... عنْ عائِشَةَ... قالَتْ:

«ولكِنْ واللّهِ ما كُنْتُ أظُنُّ أنَّ اللّهَ يُنْزِلَ في بَراءَتِي وَحْيًا يُتْلَى...

«وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كانَ أحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللّهُ فِيَّ بأَمْرٍ يُتْلَى...

«ولكِنِّي كنْتُ أرْجُو أنْ يَرَى رسولُ اللّه ﷺ... في النَّوْمِ رُؤْيا يُبَرِّئُنِي اللّهُ بِها...

«فأنْزَلَ اللّهُ تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بالإِفْكِ﴾ الْعَشْرَ الآياتِ.».

[أخرجه البخاري]

أين دليل عظمة شخصية أم المؤمنين عائشة رضي اللّه تعالى عنها من هذا الحديث الذي هو طرْفًا من قصة الإِفْك... ساقه الإمام البخاري بتمامه في مواضع من صحيحِه؟!

الدليل هو قولها: «ولَشَأنِي في نَفْسِي كانَ أَحْقَرَ من أنْ يتكلَّمَ اللّهُ فيَّ بأَمْرٍ يُتْلَى»؟!

كأنها تريد أن تقول: أنا؟!... أنا الصغيرة ابنة خمس عشرة سنة... غير معقول أن يَنزِل في براءتي وَحْيًا؟!!

وَلَشَأْنِي في نَفْسِي؟!

في هذه الفقرة مفتاح رائع من مفاتيح الشخصية الفذَّة... شخصية عائشة!!

لَشَأْنِي في نَفْسِي؟!

إحساسها في أعماق تركيبها أنها لا شيء يستحق أن يُذكر!!

فكيف تتصوَّر أن يَنزل في أمرها قرآن... أن يتكلَّمَ اللّهُ فيَّ بأمرٍ يُتْلى؟!!

لماذا؟!!

وَلَشَأْنِي في نفسي... في أعماقي... كانَ أَحْقَرَ مِنْ أنْ يتكلَّمَ اللّهُ فِيَّ بأمْرٍ يُتْلَى!!!

إنها لا ترى نفسها شيئًا ذا بال يستحق أن يتكلم اللّه فيه... وأن ينزل فيه قرآنًا!!!

فماذا إذًا كانت ترجو؟!

ولكِنّي كنتُ أرجُو أن يَرى رسول اللّه ﷺ في النوْمِ رُؤْيا يُبَرِّئُني اللّهُ بِها!!!

هَذا أقصى أمانيها!!!

رؤيا؟... أمّا أن ينزل وحيٌ يقرؤه الجميع إلى يوم القيامة... فهذا ما لم يخطر ببالها!!!

والمفتاح الجميل كائن في قولها «وَلَشَأْنِي في نَفْسِي كانَ أَحْقَرَ مِنْ أنْ يَتَكَلَّمَ اللّهُ فِيَّ بأمْرٍ يُتْلَى...»!!!

في نفسها... في أعماق تفكيرها أنها لا شيء!!!

وها هنا العظمة التي رفعت عائشة فوق النساء!!!

بل قد يكون من هنا اختيرت عائشة لتكون زوجًا لأعظم بَشَر على الإطلاق... وأعظم رسول مطلقًا!!!

عَلِمَ اللّهُ حقيقة المكنون في شخصيتها... وهو التواضع المطلق... فاختيرت لتكون زوجة لمن اتَّصف بأعلى مستوى من التواضع للّه...

لتكون له أُنْسًا ولُطْفًا... ﷺ!!!

لقد رُفِعَتْ عائشة إلى أعلى مقام عند ربِّها... لأنَّ اللّه عَلِمَ منها صفة مكنونة فيها... هو وحده يعلمها...

هذه الصفة تحدَّثت عنها عائِشة من حيث لا تدري «وَلَشَأْني في نَفْسِي كان أحْقَرَ»...

إنها لا ترى لنفسها وجودًا...

وتلك آية عظمة العظيم... أنه لا يرى لنفسه وجودًا... بل يرى نفسه لا شيء!!!

وكلما كان الإنسان منعدمًا أمام نفسه... كلما كان رفيع الدرجة عند ربّه...

وأذْكُرُ في هذا السياق أثَرًا جميلًا... مقتضاه أنَّ اللّه نظر إلى قلوب أهل الأرض فوجد أشدها انكسارًا للّهِ قلب موسى فاختاره... - أو كما قال -

والانكسار هنا هو الانكسار للّه... فكان سرّ اختيار موسى... واللّه أعلم حيث يجعل رسالته...

كذلكم أمّ المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها... ربما كان تواضعها الشديد حتى لا ترى نفسها شيئًا مذكورًا... أو يستحق أن يُذكَر... هو سرّ اختيارها زوجًا لأحَبِّ الخَلْقِ إلى اللّه...

والخَلْق أسرار... لا يعلمها إلّا اللّه!!!

بصيرة نَفَّاذة إلى حقائق الأمور؟!

«وصفة عليا أخرى... من صفاتها رضي اللّه عنها...

أنّها كانت تنظر إلى الأمور نظرة نفَّاذة إلى الحقائق...

وكان هذا يجعل فَهْمَها لحقائق الدين فَهْمًا عميقًا محيطًا...

«عنْ عائِشَةَ... رضي اللّه عنها... قالَتْ:

«مَنْ حَدَّثَكَ أنَّ النبيَّ ﷺ... كَتَمَ شَيْئًا مِنَ الوَحْيِ فَلَا تُصَدِّقْهُ...

«إِنَّ اللّهَ تعالى يقُولُ ﴿يا أيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ.﴾.

[أخرجه البخاري]

﴿يا أيها الرسولُ بَلِّغْ﴾ وجه الاستدلال به أن ما أُنزل عام والأمر للوجوب... فيجب عليه تبليغ كل ما أُنزل عليه.

* * *

أنظر إلى الشجاعة النادرة في إعلان حقيقة من كبريات حقائق هذا الدين...

مَنْ حَدَّثَكَ أنَّ النبيَّ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنَ الوَحْيِ فَلَا تُصَدِّقْهُ؟!!

أسلوب بلغ الغاية من الشجاعة... والغاية من الدفاع عن الدين... والغاية من الغيرة على رسول اللّه ﷺ!!!.

وهذه البصيرة النفَّاذة... هي من أعظم صفات شخصيتها رضي اللّه تعالى عنها...

إنها تتحدث عن القضايا الكبرى ولا تشغل نفسها بسفساف الأمور!!.
وإليك أخرى من صفاتها العُلْيا... صفة الشجاعة في إعلان الحقائق...

لو كانَ رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلم...
كاتِمًا شيئًا لَكَتَمَ هَذِهِ؟!

«عَنْ أَنَسٍ... قالَ:
«جاءَ زَيْدُ بنُ حارِثَةَ يَشْكُو...
«فَجَعَلَ النبيُّ ﷺ يقولُ: اتَّقِ اللّهَ وأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ...
«قالَتْ عائِشَةُ: لوْ كانَ رسولُ اللّه ﷺ... كاتِمًا شيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ...
«قالَ: فَكانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النبيِّ ﷺ تقولُ:
«زَوَّجَكُنَّ أهالِيكُنَّ وَزوَّجَنِي اللّهُ تعالى مِنْ فوْقِ سَبْعِ سماواتٍ.
«وعن ثابِتٍ وتُخْفِي في نَفْسِكَ ما اللّهُ مُبْدِيهِ وتَخْشَى الناسَ نَزَلَتْ في شأنِ زينبَ وزيدِ بنِ حارِثَةَ.».

[أخرجه البخاري]

«جاءَ زَيْدُ بنُ حارِثَةَ» مولى رسول اللّه ﷺ...
«يَشْكُو» أي من أخلاق زوجته زينب بنت جحش...
وقال الداودي: الذي شكاه من زينت وأمّها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول اللّه ﷺ... كان من لسانها... فلما أراد طلاقها قال له ﷺ (أمْسِكْ عليْكَ زَوْجَكَ)...
«قالَتْ عائشةُ» موصول بالسند المذكور وليس بتعليق... كذا وقع في الأصول...
«لو كان رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم كاتمًا شيئًا لكَتَمَ هذه» أي الآية وهي **﴿وتُخْفِي في نَفْسِكَ ما اللّهُ مُبْدِيْهِ وتَخْشَى الناسَ واللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾**...
«أهاليكُنَّ» الأهالي جمع أهل... وأهل الرجل امرأته وولده وكل من في عياله

وكذا كل أخ أو أخت أو عمّ أو ابن عمّ...

«**من فوق سبْعِ سماواتٍ**» لما كانت جهة العلو أشرف من غيرها أضيفت إلى فوق سبع سماوات...

«**ما اللّهُ مُبْدِيْهِ**» أي مظهره... والذي كان أخفى في نفسه هو علمه بأن زيْدًا سيطلقها ثم يتزوجها... واللّه أعلمه بذلك...

أمّ المؤمنين... كانت جميلة؟!

من رواية البخاري في حديث الإفْك:

«فقُلْتُ لأُمّي ما يتَحدَّثُ به الناس...

«فقالَتْ: يا بُنَيّةُ... هَوِّني علَى نفْسِكِ الشَّأْنَ...

«فَوَاللّهِ لَقَلَّمَا كانَتِ امرأةٌ قطُّ وضيئَةٌ... عِنْدَ رجُلٍ يُحِبُّها...

«ولها ضَرَائِرُ... إلّا أكثَرْنَ عَلَيْها...[1]».

هذا وصف أم عائشة لابنتها عائشة...

وَضِيئَةٌ؟!

أي: «جميلة... حسنة... من الوضاءة وهو الحُسْن...

وفي رواية للبخاريّ نجد أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يصرِّح بأن عائشة أجمل من حَفْصَة... وقد جاء فيها:

«... فقامَ عُمَرُ... فأخَذَ رِدَاءَهُ مَكانَهُ... حتَّى دَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ فقالَ لَها:

«يا بُنَيَّةُ... إنَّكِ لَتُرَاجِعِينَ رسولَ اللّهِ ﷺ... حتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ؟...

«فقالَتْ حَفْصَةُ: واللّهِ إنَّا لَنُرَاجِعُهُ...

«فقُلْتُ: تَعْلَمِينَ أنّي أحَذِّرُكِ عُقُوبَةَ اللّهِ... وغَضَبَ رَسولِهِ ﷺ...

«يا بُنَيَّة... لا تَغُرَّنَّكِ هذِهِ الَّتي أَعْجَبَهَا حُسْنُها... حُبُّ رسولِ اللّهِ ﷺ إيَّاهَا...

«يُرِيدُ عائِشَةَ...».

---

(١) وفي رواية ابن هشام: «فواللّه لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها».

أي أعجبها حسنها لأجل حُبِّ رسول اللّه ﷺ إياها...
وفي رواية مسلم: وحبِّ رسول اللّه ﷺ إياها...
وقال الكرماني: «وحُبِّ رسول اللّه ﷺ» هو المناسب للروايات الأخر وهي:
(لا تَغُرَّنَّكِ أن كانت جارتكِ أوضأ منكِ... وأحبّ إلى رسول اللّه ﷺ...).

زَوَّجَنِي ابْنَتَهُ؟!

إذا قال ﷺ: «رَحِمَ اللّهُ أبا بَكْرٍ... زَوَّجَنِي ابنَتَهُ...».
علمنا أنَّ عائشة كانت كَنْزًا ثمينًا مكنونًا... أهداه اللّه إلى رسول اللّه... ﷺ!!!.

وَرِثَتْ صفات أبيها العُلْيا؟!

كانت عائشة لا تمسك شيئًا مما جاءها من رزق اللّه إلا تصدّقت به!!!
مِن أين لها تلك الصفة العُلْيا؟!
ورثتها من أبيها... أبي بكر...
«وأتَى أبو بَكْرٍ بكُلِّ ما عِنْدَهُ...
«فقال: يا أبا بَكْرٍ... ما أَبْقَيتَ لِأَهْلِكَ؟...
«قال: أبقَيْتُ لَهُمُ اللّهَ ورسولَهُ»!!!.
ولعل هذا كان من أسباب حُبِّ رسول اللّه... لكليهما...
هذه الزهرة... من تلك الشجرة!!!.
عائشة... فيها من صفات أبيها العليا!!!.

اللّه اختارها فَلَنِعْم الاختيار؟!

«عن عائشة أنَّ جبريلَ جاء بصُورَتِها في خِرْقَةِ حريرٍ خَضْراء...
«إلى النبيِّ ﷺ فقالَ:
«إنَّ هذِهِ زَوْجتك في الدنيا والآخرةِ».

فما ظنك باختيار اختاره اللّه تعالى لحبيبه صلى اللّه تعالى عليه وسلم... وكيف يكون؟!!.

إذا أردتَ أنتَ أن تُهْدِي إلى أحبِّ الناس إليك هديَّة... فكيف تكون هديتك؟!

فكيف بهديته سبحانه إلى أحبِّ الخَلْقِ إليه تعالى؟!!.

وكم تبلغ من الجمال والكمال والخير والبركة؟!!

إلَّا وَجَدْنا عِنْدَها مِنْهُ عِلْمًا؟!

كما كان مكنونًا في أبي بكر من الصفات العليا ما لا يعلمه إلا اللّه... وإنما ظهرت تباعًا عندما فجَّرَتْها الأحداث...

كذلك ورثت عائشة من أبيها صفات عليا... ظلَّت مكنونة حتى أظهرتها الأحداث...

ومن تلك الصفات صفة العِلْم...

«ما أَشْكَلَ عَلَيْنا أصحابَ رسول اللّهِ ﷺ حديثٌ قطُّ... فسَأَلْنا عائِشَةَ...

«إلَّا وَجَدْنا عندَها منهُ عِلْمًا.»!!!.

ولعل هذا كذلك كان من أسباب حُبّ النبي ﷺ لكليهما...

««أيُّ الناسِ أحبُّ إليكَ؟

«قال: عائِشةُ...

«قلتُ: مِنَ الرجالِ؟...

«قال: أبُوها.»!!!.

فلعلك يا عزيزي تفهم!!!.

ما رأيتُ أحَدًا أفْصَحُ مِنْ عائشةَ؟!

السؤال:

إذا اختار اللّه تعالى لنبيّه ﷺ... الذي آتاه جوامع الكَلِم... وكان أفصح العرب... إذا اختار اللّه له زوجة لتنقل عنه إلى الناس كثيرًا مما يحتاجون إليه من

أحكام الشريعة... ما هي الصفة الواجب توافرها في هذه الزوجة؟!

الجواب:

أن تكون أفصح الناس... لتستطيع أن تنقل إلى الناس شرائع الإسلام... وأحاديث الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم... في لُغة جميلة أخّاذة جَذَّابة... سهلة ميسورة...

وكذلكم كانت عائشة...

تَتَبَّعْ أحاديثها... وتأمَّل جمال الأسلوب... الذي يتسلسل في صفاء ونقاء... تزدَدْ عَجَبًا!!!

خُذْ مثالًا واحدًا.

«عن عائشة رضي الله عنها...

«لا يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ باللَّغْوِ...

«قال: قالَتْ:

«أُنزِلَتْ في قَوْلِهِ لا واللّهِ... وَبَلَى واللّه.».

[أخرجه البخاري]

هكذا... كلمات معدودات... فسَّرَت فيها الآية... وذكرت أسباب النزول... فلا ثرثرة... ولا تعمّق... ولا أقاويل ولا تهاويل...

وإنما مطبوعة على الصدْق... والعِلْم... والفَهْم...

كل أولئك يترقرق من حديثها في غاية الفصاحة... وغاية الإيجاز!!!.

ومن الحتم أن تكون كذلك... لأنها مؤهلة لذلك!!!.

قال: عائشَةُ؟!!!

«عن عَمْرِو بنِ العاصِ...

«يا رسولَ اللّهِ... أيُّ الناسِ أحَبُّ إليْكَ؟...

«قالَ: عائِشَةُ...

«قالَ: مِنَ الرِّجالِ؟...

«قالَ: أبُوهَا.»!!!.

هذا الحديث أصل عام في شخصية أم المؤمنين عائشة رضي اللّه تعالى عنها...

وإنما يُقرِّبه إلى أفهامنا أن نضيف إليه المعاني التي وردت في حديث آخر...

«ما فضلكم أبو بكر بصلاة أو صيام وإنما بشيء وَقَرَ في صدره». - أوْ كما قال-

أي بصفاتٍ عُليا مكنونة في قلبه...

كذلك عائشة... التي ورثت عن أبيها تلك الصفات...

ما فضلت النساء بكثرة صلاة أو صيام وإنما بشيء وَقَر في صدرها...

بصفاتٍ عليا مكنونة في قلبها...

فإذا كان أبو بكر أحبَّ إلى رسول اللّه ﷺ... فإنما لهذه الصفات...

وإذا كانت عائشة أحبّ إلى رسول اللّه ﷺ... فإنما لهذه الصفات العُليا...

ولكن كانت مكنونة في قلبها...

كما كانت مكنونة في قلب أبيها...

وكان رسول اللّه... ﷺ... يعلمها من أبي بكر... ويعلمها من ابنته!!!

تجد ذلك مكنونًا في قوله ﷺ:

«فَضْلُ عائشةَ على النساءِ كفَضْلِ الثَّرِيدِ على سائِرِ الطَّعامِ.»

ولعل هذا الفضل الذي تفوّقت عائشة به على النساءِ...

كان شيئًا وَقَر في قلبها... ثم جعل يظهر تباعًا من شخصيتها... تبعًا للدوافع والأحوال!!!

حبيبة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟!

«أنَّ رجُلًا نالَ مِنْ عائشةَ عِنْدَ عمَّارِ بنِ ياسِرٍ...

«فقال: اغْرُبْ مَقْبُوحًا مَنْبُوحًا...

«أتُؤْذِي حَبِيبَةَ رسُولِ اللّهِ ﷺ.»؟!

وذهبت عائشة بهذا الشرف الذي ليس كمثله شرف لأحدٍ من النساء..

لماذا كان يحبّها أكثر؟!

هل لأنها كانت ذات صفاتٍ عُليا أكثر؟!

هل لأنها كانت أجمل؟!

هل لأن اللّه جعل ذلك الحبّ في قلبه... وهو شيء لا يملكه؟!

هل لأنها كانت أقرب زوجاته إلى صفاته العليا... فهي أحبّ إليه... لأنها أقرب إلى اللّه؟!.

كل أولئك قد يكون...

وكل أولئك قد يكون غيره هو الصحيح...

وإنما لا نملك إلّا أن نقول «**اللّهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه**»...

وكذلك اللّه أعلم حيث يجعل حُبَّ الرسول ﷺ... وكيف يكون؟!!.

فَضْل عائشةَ على النِّساءِ؟!

«**وإنَّ فَضْلَ عائشةَ على النِّساءِ... كفَضْلِ الثَّريدِ على سائِرِ الطَّعامِ.**».

قال النووي: المراد بالفضيلة نفعه والشبع منه... وسهولة مساغه... والالتذاذ به... وتيسر تناوله... وتمكن الإنسان من أخذ كفايته منه بسرعة وغير ذلك...

: وفضل عائشة على النساء زائد كزيادة فضل الثريد على غيره من الأطعمة...

أقول... وفي هذا إشارة إلى عموم نفعها بالنسبة إلى سائر الأُمَّة إلى يوم القيامة...

فكما أن الثريد طعام ينتفع به جميع الناس... بدون استثناء...

فكذلك عِلْم وفقه عائشة ينتفع به جميع الناس بلا استثناء إلى ما شاء اللّه...

شديدة الغَيْرة... من شدة حُبِّها؟!

في الحديث:

«فقُلْتُ: وما تَذْكُرُ مِن عجوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ...»!!!.

وقالوا في شرحه: جرى ذلك من عائشة لصغر سنِّها... وأوَّل شبيبتها!!!.

وأقول: شدة الغيرة... نابعة من شدة حُبِّها لرسول اللّه... ﷺ...

إنَّها لا تتصوَّر أن يزاحمها في حبّه أحد من النساء...

حتى ولو كانت خديجة التي انتقلت إلى الآخرة!!!.

وهذه الصفة كانت تلازمها!!!.

فكانت لا تطيق أن يُثني الرسول ﷺ على خديجة!!!.

ما أهْجُرُ إلَّا اسْمَكَ؟!

«قال رسول اللّه ﷺ:

«أمَّا إذا كُنْتِ عنِّي راضيةً فإنَّكِ تقولينَ لا وربِّ مُحَمَّدٍ... وإذا كنتِ غَضْبَى قُلْتِ لا وربِّ إبراهيمَ...

«قالَتْ: قُلْتُ: أَجَلْ واللّهِ يا رسولَ اللّهِ... ما أهْجُرُ إلَّا اسْمَكَ.».

وقالوا في شرحه: «ولهذا قالت: لا أهجر إلَّا اسمك... فدلَّ على أن قلبها... وحبّها كما كان... وإنما الغيرة في النساء لفرط المحبة...».

وأقول: فكيف والحبيب هو رسول اللّه ﷺ؟!!.

فكم تبلغ غيرتها وكيف تكون؟!

عائشة تَلْعَبُ باللُّعَب؟!

وتقول في حديثها:

«أنَّها كانَتْ تَلْعَبُ بالبناتِ...

«عِنْدَ رسول اللّه... ﷺ».

وفي حديث آخر:

«كُنْتُ ألعَبُ بالبناتِ في بَيْتِهِ وهُنَّ اللُّعَبُ.».

أي أنها كانت تلعب بالعرائس... باللُّعَب على هيئة العرائس!!!.

وهذا لصغر سنِّها... ويدل على أنها كانت شخصية ذات حيوية!.

إِنَّهَا ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ؟!

«فقال رسول اللّه... ﷺ... وَتَبَسَّمَ:

«إنّها ابْنَةُ أبي بَكْرٍ.».

وفي هذا دليل على أن عائشة ورثت كثيرًا من صفات أبيها العُلْيا... وهذا هو سرّ امتيازها على سائر الأزواج... رضي اللّه عنهنّ...

قالوا: وكان ﷺ يسوي بينهن في الأفعال والمبيت ونحوه...

«وأما محبة القلب فكان يحب عائشة أكثر منهن...

«وأجمع المسلمون على أن محبتهن لا تكليف فيها...

«ولا يلزمه التسوية فيها...

«لأنه لا قدرة لأحد عليها إلّا اللّه سبحانه وتعالى»!!!.

وقالوا: وأما قوله ﷺ: «إنها ابنة أبي بكر» فمعناه الإشارة إلى كمال فهمها... وحسن نظرها...

وأقول: وفيه إشارة إلى وراثتها لكثير من صفاته العليا... وحسبك «لو وُزِن إيمان أبي بكر وإيمان الأُمَّة لرجح إيمان أبي بكر» - أو كما قال -

فماذا وَرِثَتْ عائشة عن أبيها من كريم الصفات؟!

إنه شيء لا يعلمه إلّا اللّه!!!.

كانت تُصْغِي إلى صوته الشريف؟!

في الحديث:

«أنّها سمعت رسول اللّه ﷺ يقولُ قبْلَ أن يَمُوْتَ...

«وهو مُسْنِدٌ إلى صَدْرِها...
«وأصْغَتْ إليْهِ وهُوَ يقولُ:
«اللهم اغْفِرْ لي وارحمْنِي وألحِقْنِي بالرَّفيقِ.».

المشهد ليس كمثله مشهد!!!.
رسول اللّه ﷺ مُسْنِدٌ إلى صدرها قبل أن يموت...
وهو يقول: اللهم اغفر لي...
وعائشة تُصْغي إليه... وهو يقول كلماته الأخيرة...
كيف كان شعورها آنذاك؟!
هل كانت تبكي؟!!
أكبر ظنّي أنها كانت تتفطّر بكاءً وحُزْنًا...
إنَّ أحبَّ إنسان إليها يوشك أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى...
وها هو ﷺ مسند إلى صدرها... ويقول كلمات...
إنها تُصْغي وتُصْغي إلى ما يقول...
لعلّها كانت تسمع نبض قلبه الشريف... من شدة حُبِّها للحبيب ﷺ!!!

يا عَائِشُ... هذا جِبْرِيْلُ... يَقْرَأُ عليْكِ السَّلامَ؟!

وفي الحديث:
«قال رسول اللّه ﷺ:
«يا عائِشُ... هذا جبريلُ... يَقْرَأُ عليْكِ السَّلَامَ...
«قالَتْ: فقُلْتُ: وَعَلَيْهِ السلامُ ورحمةُ اللّهِ...
«قالتْ: وهُوَ يَرَى ما لا أَرَى.».

ما هذا؟!
هذا هو الجوّ الطاهر الزكيّ الراقي المقدّس الذي تتقلّب فيه عائشة عليها السلام...
هذا رسول اللّه... ﷺ...

وذاك جبريل عليه السلام...
وهي لا ترى جبريل ولكن هو يراها...
ورسول اللّه ﷺ يُبَشِّرها ويخبرها... وهي تردّ سلام جبريل!!!
ما هذا كله؟!!
هذا فضل اللّه يؤتيه من يشاء!!!
إن عائشة عندما أقرأها جبريل السلام... قد ارتقت درجات ودرجات!!!.
عليها السلام!!!.

عاشت بعده قريبًا من خمسين سنة؟!

فما معنى هذا؟!
معناه أنَّ اللّه اختارها لتبلّغ كثيرًا من أحكام هذا الدين... أطول مدة ممكنة... بعد وفاة النبيّ... ﷺ...
باعتبار أنها رضي اللّه عنها... كانت معه نحو تسع سنين منذ بَنَى بها بالمدينة حتى لحق بالرفيق الأعلى...
وكانت ذات استعداد عظيم... دراية ورواية...
فوعت عنه ﷺ كثيرًا...
ورَوَت عنه ﷺ ما وَعَت...
وأضافت إليه شروحًا ممَّا فهِمَت... وما اجتهدت...
فكانت بذلك إمامًا عظيمًا من أئمّة هذا الدين العظيم...
شاركت في تبليغ الكثير من أبواب هذا الدين...
وانفردت من دون الأئمّة الأعلام كأمثال ابن عباس... وابن عُمَر... وأبي هريرة... بأبواب من الدين... لا سبيل لهم إليها...
وإنما هو اختصاصها... وهي الاستاذ الأول فيه...
وذلك ما يختصّ بأحكام النساء... حيث كانت هي الزوجة...
وكانت بحُكْم موقعها ذاك... وحداثة سنِّها... ورجاحة عقلها... وسرعة

فَهْمِها... مؤهّلة لتقوم بهذا الدور الكريم في حياة الأمة الإسلامية العظيمة!!!.

رُبْع الأحكام منقولة عنها؟!

قالوا: «وأكثَرَ الناس الأخذ عنها...

«ونقلوا عنها من الأحكام والآداب شيئًا كثيرًا...

«حتى قيل إن رُبْع الأحكام الشرعية منقولة عنها...

رُوِيَ لها عن رسول اللّه ﷺ...

«ألفا حديث... وعشرة أحاديث[1].»!!!.

فما معنى هذا؟!

معناه أنَّ أمّ المؤمنين عائشة عليها السلام... هي أكثر أمهات المؤمنين... نفعًا لهذه الأمّة...

لأنها قامت بأعظم دور تقوم به امرأة في تاريخ دين من الأديان...

فهي تنفرد بهذه الخاصية... خاصية أداء دَوْر لم تستطع أي زوجة من أزواج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن تقوم به...

وهذا يُفسّر لنا... لماذا كانت أحبَّ إلى رسول اللّه ﷺ؟!

ربما لعلمه بما أطلعه اللّه عليه... أنها سوف تقوم بتبليغ الكثير من أحكام هذا الدين الذي بعثه اللّه به إلى العالَمين...

وأنَّها أهْلٌ لذلك الدور بما فطرها اللّه عليه من الصدْق والصفاء والإخلاص للّه ولرسوله... كما ورثت عن أبيها!!!

ويُفَسِّر لنا كذلك شيئًا من إشارات قوله ﷺ: **«وإنَّ فَضْلَ عائشةَ على النساءِ كفَضْلِ الثريدِ على سائرِ الطَّعامِ.»...**

فإنَّ الَّتي يُنْقل عنها ربع الأحكام الشرعية...

أعظم فَضْلًا من التي يُنقل عنها بضعة أحاديث!!!

---

(١) سبق أن ذكرنا أنه روي لها ألفا حديث ومائتا حديث وعشرة أحاديث (٢٢١٠) ولا تعارض بين الروايتين.

أما ترضين أن تكوني زوجتي في الدنيا والآخرة؟!

في الحديث:

«أن النبي... ﷺ قال لها:

«أما ترضين... أن تكوني زوجتي... في الدنيا والآخرة».

وقالوا: «وفي هذا فضل عظيم لها»...

وأقول... أمَّا فضلها في الدنيا... فقد استبان منذ صارت أحبَّ أزواجه إليه... وأعظم أمهات المؤمنين نفعًا للأمَّة...

وأمَّا فضلها في الآخرة... أنها تكون زوجة النبي ﷺ... وتُلْحق به ﷺ...

فكم تبلغ درجة عائشة يومئذ؟!

لا تعلمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لها من قُرَّةِ أَعْيُن!!!

علَيها السلام!!!

أشهر نسائه

قالوا:

«عائشة بنت أبي بكر الصدِّيق...

الصدِّيقة بنت الصدِّيق...

أم المؤمنين...

زوج النبي... ﷺ...

وأشهر نسائه...».

وها هنا سؤال عميق... لماذا كانت عائشة أشهر نسائه؟!

الجواب... هو قوله ﷺ: **«فَضْلُ عائشةَ على النساءِ كفَضْلِ الثريدِ على الطعامِ.»**...

أي أن عموم نفعها الأُمَّة كلها... جعلِ اسمها على لسان كل فرد في الأُمَّة... كلما ذُكِرت الأحكام الشرعية التي لا غنى لمسلم أو مسلمة عنها!!!.

أكابر الصحابة يسألونها؟!

وقالوا:

«وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض...

«وقال عطاء بن أبي رباح:

«كانت عائشة... من أفقه الناس... وأحسن الناس رأيًا في العامة...».

أقول... وهذا أيضًا يفسر لك لماذا كان ﷺ يحبها أكثر؟!

لما يعلم أنَّ هناك من الخير المكنون في شخصيتها الشيء الكثير... وسوف يظهر مع الأيام!!!

ما رأيتُ أحدًا أعلم من عائشة؟!

وقال عُرْوَة:

«ما رأيتُ أحدًا أعلم بفِقْه... ولا بطبّ... ولا بشِعْر... من عَائشة»!!!

أقول... وهذا ما تلألأ أمام عيني ابن اختها أسماء رضي اللّه عنها... فكيف بالمكنون وما سوف يكون؟!!

كان عِلْمها... بَحْرًا ممدودًا؟!

وقالوا:

«وروت عن النبي ﷺ... كثيرًا...

روى عنها عمر بن الخطاب...

وكثير من الصحابة...

ومن التابعين ما لا يُحصى...».

أقول... كانت علومها رضي اللّه عنها... بَحْرًا ممدودًا...

وكيف لا تكون كذلك... وعندها الاستعداد...

والإمداد على قَدْر الاستعداد؟!

لقد كانت تأخذ رأسًا من رسول اللّه... ﷺ... وبدون واسطة أحدٍ من الرواة...

نقلت الى الأُمَّة أعزَّ ما يعني الناس من أمور دينهم...

نقلت إلى الأمّة حياة النبيّ ﷺ... الخاصة...

وما لم يَطَّلِع عليه أحَد إلا هِيَ... وهي معه ﷺ... في تهجده... في نومه... في فراشه... في بيته!!!

وهي التي نقلت إلى الأُمَّة... تفاصيل اللحظات المقدسة من حياته الشريفة صلى اللّه تعالى عليه وسلم...

لحظات المرض الأخير...

ولحظات سكرات الموت...

وآخر كلامه... صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم!!!.

أيّ ثروة هي أعظم؟!!

وأيّ تراث هو أغلى مما نقلت إلينا أُمُّ المؤمنين عليها السلامَ؟!!

لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النساءِ؟!

إذا قال اللّه تعالى:

﴿يا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ...﴾.

تحتّم أن نعلم... وأن نؤمن... وأن نعتقد عن يقين تام...

أنَّ كل واحدة منهن أفضل من كل واحدة من النساء... لما امتازت بشرف الزوجية لرسول اللّه ﷺ... وأمومة المؤمنين!!!.

فإن قيل: لماذا فضَّلَ اللّه هؤلاء النساء بالذات؟!

جاءه الجواب:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا.﴾!!!.

والمراد بأهل البيت نساؤه... ﷺ... المطهرات... للقرائن الدالّة على ذلك من الآيات السابقة واللاحقة... – على قول –

فكيف يكون فضل عائشة... رضي اللّه عنها... التي هي أحبّ هؤلاء إليه ﷺ؟!

وأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ؟!

إن الآية الكريمة تُحَرِّم كل زوجة للنبي... ﷺ... تحريمًا أبديًا...
لأنَّها أمٌّ لكُلِّ رجل في هذه الأمَّة...
وعائشة رضي اللّه عنها... أشهر هؤلاء المطهرات...
وأحبُهنَّ إلى رسول اللّه... ﷺ...
إنَّ لها منزلة أعظم أُمّ... في اعتقاد كل مسلم!!!.

خُيِّرَتْ فاختارت اللّهَ ورسولَه؟!

«قالَتْ: ثُمَّ قالَ:
«إنَّ اللّهَ قال: يا أيُّها النبيُّ قُلْ لأَزْواجِكَ...
«إلى تَمَامِ الآيَتَيْنِ...
«فقُلْتُ لهُ: فَفِي أيِّ هَذَا أسْتَأْمِرُ أبَوَيَّ؟...
«فإنّي أريدُ اللّه ورسولَهُ والدارَ الآخرةَ...»!!!.

أقول... مَن أراد التفصيل فليرجع إلى تلك الأبواب من الكتاب...
وإنما الذي نلتقطه هنا في باب شخصية عائشة...
أنها نجحت ثلاث مرّات في قصة التخيير...
الأولى... أن نساء النبي ﷺ... طلبت كل واحدة منهن مطلبًا دنيويًا إلا عائشة لم تطلب شيئًا!!!.
الثانية... أنَّ رسول اللّه ﷺ... حين أُمِر بتخيير نسائه بدأ بها أوّلًا...
الثالثة... أنها لم تستأمر أبويها... وإنما سارعت إلى الاختيار!!!.
وكل واحدة من هذه الثلاث دليل واضح... على زهد عائشة... وتفوق الصفات العليا من شخصيتها... وأنها على أعلى مستوى من إيثار اللّه ورسوله والدار

الآخرة على عَرَض الدنيا!!!

ثم كانت الرابعة... وهي مسك الختام... أنَّ جميع أمهات المؤمنين فعلن مثل ما فَعَلَتْ... فاخترن اللّه ورسوله والدار الآخرة!!!.

وهذا دليل آخر على امتياز شخصيتها...

وأنها سبَّاقة إلى كل خير...

وكانت إمامًا... مؤهلة للقيادة!!!

البريئة... المبرَّأة؟!

«وكان مسروق إذا روَى عنها يقول:

«حدّثتني الصدِّيقة بنت الصدِّيق...

«البريئة المبرَّأة...».

وهو يشير إلى قصة الإفْك... وما نزل فيها من آيات...

قال المفسّرون في سياق تفسير آيات قصة الإفْك...

«في هذه الآيات من الدلالة على فضل الصدِّيقة ما فيها...

ولو قَلَّبْت القرآن كله... وفتشت عمّا أوعد به العصاة...

لم ترَ اللّه عزّ وجلّ قد غلظ في شيء تغليظه في الإفْك...

وهو دال على فضلها أيضًا...»!!!

عائشة تتحدَّث عن شخصيتها؟!

«وكانت – رضي اللّه تعالى عنها – تتحدث بنعمة اللّه تعالى عليها... بنزول ذلك في شأنها...

فقد أخرج ابن أبي شيبة عنها أنها قالت:

«خلالٌ فيَّ... لم تكن في أحد من الناس...

«إلا ما آتى اللّه تعالى مريم ابنة عمران...

«واللّه ما أقول هذا... أني أفتخر على صواحباتي...

«قيل: وما هُنّ؟...

«قالت:

«نزل المَلَك بصورتي...

«وتزوجني بكْرًا... لم يشركه فيّ أحد من الناس...

«وأتاه الوحي وأنا وإياه في لحاف واحد...

وكنت من أحبّ الناس إليه...

«ونزل فيّ آيات من القرآن... كادت الأُمَّة تهلك فيهن...

«ورأيت جبريل عليه السلام ولم يره أحد من نسائه غيري...

«وقُبِض في بيتي... لم يله أحد غير المَلَك وأنا»!!!.

وأخرج ابن مردويه عنها أنها قالت:

«لقد نزل عذري من السماء...

«ولقد خُلِقْت طيبة عند طيب...

«ولقد وعدت مغفرة وأجرًا عظيمًا.»!!!.

أقول: وماذا يمكن أن يُقال بعد أن تحدَّثَتْ عليها السلام عن فضائلها؟!

إن التفكّر هنا فيما قالت أعظم أثرًا من القيل والقال!!!.

إلّا أنّ هناك سؤالًا خطيرًا... فما هو؟!

هل من علامات مقام الصِّدِّيقية... اتهام أصحابه إفْكًا... ثمَّ ظهور براءتهم؟!

نأخذ مثالًا في ثلاث شخصيات مشهورات... كانوا صِدِّيقين أو صِدِّيقات... يظهر في حياتهن تلك الظاهرة ظهورًا بيِّنًا...

يوسف... عليه السلام...

قال تعالى:

«يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ...»...

والإشارة أنَّ يوسف عليه السلام... فوق ما كان في مقام النبوة... إنَّما مرَّ

على مقام الصِّدِّيقية... فهو نبيّ صِدِّيق!!!.

ثم مريم عليها السلام...

قال تعالى:

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ...﴾...

ثم عائشة رضي اللّه تعالى عنها... فهي الصِّدِّيقة بنت الصدِّيق!!!

أولئك الثلاث... يوسف... ثم مريم... ثم عائشة...

مَرُّوا على مقام الصدِّيقية...

ويلاحظ أنَّ كلّا منهم ابْتُلِي باتهامِهِ مِن أعدائه بالسُّوء...

ثم بعد ذلك تظهر براءتهم على مَلأٍ مِن العالَم!!!.

أمَّا نبيّ اللّه يوسف عليه السلام... فقصة تلفيق التهمة له من امرأة العزيز مشهورة مستفيضة...

﴿... قَالَتْ ما جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.﴾؟!

وأخيرًا وبعد سنين... أظهر اللّه براءة النبيّ الكريم على مشهد من المَلِكِ والجميع...

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيْزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُّهُ عَنْ نَّفْسِهِ وإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ.﴾.

وهكذا ظهرت براءة النبيّ العظيم... على مَلأٍ من الناس أجمعين...

ثم ماذا؟!... ثم العطاء بعد البلاء... وكان عطاء عظيمًا... لأن البلاء كان عظيمًا...

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوْسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ المحسنِينَ.﴾!!!

مرَّ النبيّ الكريم يوسف عليه السلام على المحنة... محنة أن يُتَّهم

بالسُّوء... ثم تستمر المحنة... وفي النهاية تظهر البراءة... ليعلم العالَم كله طهارته وبراءته... ثم يؤتيه اللّه مُلكًا عظيمًا!!!

وفي هذا من جميل الحِكَم والآيات ما فيه!!!

ثم ماذا؟!

ثم نأتي إلى قصة الصِّدِّيقة التي ليس كمِثْلِها صدِّيقة... مريم عليها السلام...

قَال تعالى:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا.﴾!!!

ماذا قَال المجرمون؟!

﴿... قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيّاً.﴾

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾!!!

ثم ماذا؟!

ثم ظهرت براءة مريم للعالَمين إلى يوم القيامة...

ثم ماذا؟!

ثم جعل اللّه تعالى مريمَ وابنها عليهما السلام آية للعالمين...

ورَفَعَ مريمَ فجعَلَها أفضلَ نساء العالَمين... وأشهر نساء العالمين!!!

ثم ماذا؟!

ثم قصة الصدِّيقة بنت الصدِّيق... عائشة عليها السلام...

قال أهل الإفك ما قالوا....

ثم ظهرت براءتَها بعد أسابيع...

قرآنًا يُتلَى إلى يوم القيامة!!!

ثم ماذا؟!

ثم كان العطاء أن الجميع يتحدثون عن فَضْلِها وطُهْرِها!!!.

وأخيرًا... هل هو محض صدفة أن يُبتلى هؤلاء الثلاث بالسُّوء... باطلًا وإفكًا... ثم تظهر براءة كل واحد منهم... ثم يرفعهم اللّه رَفْعًا

عظيمًا فوق الجميع؟!!.

أَمْ أنَّه ناموس إلهي ثابت... أنَّ كُلَّ مَن كان صدِّيقًا أو كانت صدِّيقة...

كلَّ مَن مَرَّ على مقام الصدِّيقية... من الحَتْم أن يُرْمى بالسُّوء من المنافقين والمجرمين... ثم يُظهر اللّه براءتهم للجميع... ليزيدهم من فضله... ويُظهر للناس المكنون في شخصياتهم من كريم الصفات... وطهارة الأخلاق؟!!.

الإشارة إلى ذلك بالنسبة إلى يوسف عليه السلام... في حديث:

«إن الكريم... ابن الكريم... ابن الكريم... ابن الكريم... يوسف نبيّ اللّه... ابن يعقوب نبيّ اللّه... ابن إسحاق نبيّ اللّه... ابن إبراهيم خليل اللّه.».

وبالنسبة إلى مريم عليها السلام... في قوله:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الملائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ﴾...

وبالنسبة إلى عائشة عليها السلام... في قوله تعالى:

﴿... أُولئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ.﴾.

وقول عائشة رضي اللّه عنها:

«لقَدْ خُلِقْت طيِّبة عند طيِّب...

«ولقد وُعِدْت مغفرة وأجرًا عظيمًا»!!!.

وأخيرًا أقول: هي قضية جميلة... إلَّا أنها خطيرة... جديرة بالتفكير!!.

معه... صلى اللّه عليه وسلم... إلى آخر لحظة؟!

وهذا الباب وحده يكفي عائشة فَخْرًا وفَضْلًا!!!

أقول... إذا أعطاها اللّه تعالى تلك الدرجات العُلَى فكيف تكون؟!

استأذنهنَّ أن يمرض في بيت عائشة فأذِنَّ له...

ومن تلك اللحظة المقدسة وهو ﷺ في بيتها...

تشهده لحظة لحظة...

وتشعر بكل شيء يصدر عنه ﷺ...

ثم كانت لحظة الفِراق... وما أدراك ما لحظة الفِراق؟!!.

«قَبَضَهُ اللّهُ...

«بَيْنَ سَحْرِي ونَحْرِي...

«ودُفِنَ في بَيْتِي»!!!.

ما هذا؟!...

هذه درجات ودرجات ودرجات... تُرْفع إليها عائشة عليها السلام...

كل لحظة مَرّت عليها آنذاك...

كانت درجةً رُفِعَتْ إليها!!!.

كيف لا... وهو رسول اللّه ﷺ؟!...

وهِيَ معه!!!.

وأبواب الآخرة تتفتح إلى أقصاها... للحبيب صلى اللّه تعالى عليه وسلم!!!.

وَدُفِنَ فِي بَيْتِي؟!!

«فَكِّرْ في هذه...

يَقَع اختيارهم بعد تشاور أن يُدْفن حيث قُبِض...

فيُدْفن في حجرة عائشة!!!

فما معنى هذا؟!

معناه أن هذه الحجرة... التي تضم الجسد الشريف... قد صارت من تلك اللحظة البقعة التي تهفو إلى زيارتها القلوب!!!.

فَكِّرْ... مِنْ تلك اللحظة... وملايين المسلمين والمسلمات... إلى يوم القيامة...

يتوافدون... يسوقهم الشوق إلى زيارة الحبيب ﷺ...

ويقفون... وعيونهم دامعة... وقلوبهم خاشعة... يموجون:

السلام عليك ورحمة اللّه وبركاته... يا رسول اللّه!!!.

السلام عليك يا نبيّ اللّه!!!

لحظات يا لها من لحظات... قد ذاقها الذين سعدوا بزيارة الحبيب ﷺ!!!.

كل ذلك... الذي لا ينقطع من ليل أو نهار... يجري أمام حجرة عائشة!!!.

فأيّ فَضْل هذا... وأي عظمة آتاها اللّه تعالى؟!!

لماذا حجرة عائشة بالذات... يختصها اللّه بذاك؟!!

فكِّر في هذا... واللّه يتولَّى هُداك!!!.

لا تَدْفِنِّي مَعَهُمْ؟!!

وأخرى أعلى وأغلى... تؤكد سموّ أخلاقها... ورفعة درجاتها... وكريم صفاتها...

«عن عائشةَ... رضي اللّه عنها...

«أنَّهاأَوْصَتْ عبدَاللّهِ بنَ الزُّبَيْرِ... رضي الله عنهما...

«لا تَدْفِنِّي مَعَهُمْ...

«وادْفِنِّي مَعَ صَوَاحِبي بالبَقِيعِ...

«لَا أُزَكَّى بِهِ أَبَدًا.»!!!.

أنظر إلى جميل الأخلاق!!!

«لا تَدْفِنِّي مَعَهُمْ»؟!!

معَ مَن؟!... مع رسول اللّه ﷺ... ومع صاحبيه أبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما!!!.

لماذا؟!...

وهذه أعجب وأعلى...

«لا أُزَكَّى بِهِ أبَدًا»!!!.

سموّ عجيب... وراء عقولنا...

إنها إنْ دُفِنَتْ مع الرسول ﷺ وصاحبيه رضي اللّه عنهما... اكتسبت شخصيتها عند الناس شهرة... وذكروها بالخير كلما زاروا القبر الشريف... وأثنوا عليها...

وهي لا تريد ذلك... تريد أن تكون نَسْيًا مَنسِيًّا!!!.

لا أُزَكَّى بِهِ أبَدًا!!!!.

لا يُثني عليَّ الناس بسبب دفني إلى جواره ﷺ...

لماذا؟!

لأنها ترى نفسها أقَلَّ من ذلك...

«وادفنّي مع صواحبي بالبقيع»!!!.

هذا هو التواضع الحقّ... الذي يرفع صاحبه عند اللّه رفعًا عظيمًا...

سبحان اللّه... كل أحوالها شريفة... تؤهلها لأن تكون زوجَةُ في الدنيا والآخرة.!!!.

* * *

وأخيرًا... ماذا أريد أن أقول؟...

أقول: كلّ ما ورد بهذا الكتاب هي خطوط في عظمة الشخصية...

وإنما كان هذا الباب إشارة لا عبارة!!!.

ماذا قال العقّاد...

في كتابه الجميل...

«الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق»...؟!

تزهو المكتبة الإسلامية بالسلسلة الخالدة... للعبقريّ عباس العقاد...

وأعني سلسلة العبقريات الإسلامية للكاتب الكبير...

ومنها كتابه الصغير الحجم... الكبير الفائدة «الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق»...

وقد رأيت إتمامًا للفائدة أن اقتبس منه سطورًا رائعات... أثبتها في نهاية هذا الكتاب... ليزداد جمالًا إلى جمال!!!

قال في كتابه «الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق»:

عائشة

ولدت عائشة لأبي بكر الصدِّيق من زوجته «أم رومان».

ولا يعرف على التحقيق في أي سنة ولدت السيدة عائشة رضي اللّه عنها:

ولكن أقرب الأقوال إلى الصدق وأحراها بالقبول أنها ولدت في السنة الحادية عشرة أو الثانية عشرة قبل الهجرة، فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها أو قاربتها يوم بنى بها الرسول عليه السلام.

وجملة ما يفهم من وصفها على التحقيق أنها كانت بيضاء، فكان عليه السلام يلقبها بالحميراء، وكانت أقرب إلى الطول، لأنها كانت تعيب القصر، كما مرّ في كلامها عن السيدة صفية، وكانت في صباها نحيلة أو أقرب إلى النحول، حتى كان الذين يحملون هودجها خاليًا يحسبونها فيه.

ثم مالت بعد سنوات إلى شيء من السمنة كما جاء في كلامها في حديث آخر: «... خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم. فقال ﷺ

للناس: تقدموا. فتقدموا. ثم قال: تعالي حتى أسابقك. فسابقته فسكت. حتى إذا حملت اللحم وكنا في سفرة أخرى قال ﷺ للناس: تقدموا. فتقدموا. ثم قال: تعالي حتى أسابقك فسابقته فسبقني فجعل ﷺ يضحك ويقول: هذه بتلك».

وعلمنا من رواة وقعة الجمل أنها كانت جهورية الصوت، تخطب العسكر من هودجها في ساحة الحرب فيسمع خطابها.

وعلمنا من جملة أوصافها وأخبارها أنها كانت حيّة الطبع موفورة النشاط كدأب العصبيين من النساء والرجال، وكان أبوها رضي اللّه عنه من أصحاب هذا المزاج ولا مراء.

والظاهر أنها ورثت عنه كثيرًا من خُلُقه وخَلْقه على السواء. فقد كان الصدِّيق جميلًا حتى جاء في بعض الروايات أنه لقّب بالعتيق لجماله. وكان نحيلًا دقيق التكوين كما هو مشهور، وكانت فيه حدّة طبع مع حدّة ذكاء، وكان كريمًا سريعًا إلى نجدة المعوزين والضعفاء، وكان صادق المقال لم يؤخذ عليه كذب في الجاهلية ولا في الإسلام. وكان ماضي اللسان قديرًا على إفحام من يجترىء عليه، وتشبهه السيدة عائشة في هذه الخلائق شبهًا كان يوحى إلى النبي عليه السلام كلما سمعها تجيب من يساجلها أن يقول: إنها ابنة أبي بكر! إنها ابنة أبي بكر.

وقد راضت حدّتها زمنًا كما كان أبوها يروض حدّته طوال حياته، ولكنها لم تبلغ من ذلك ما بلغه أبوها لمكان الرجل من القدرة والحاجة إلى سياسة الدنيا. ومكان الفتاة من الضعف ومن الحظوة التي تغنيها عن الصرامة في مغالبة النفس ومراس الخطوب في كفاح الحياة.

والمعهود في أخلاق الناس أن الحدة تلازمها سرعة الغضب، كما تلازمها سرعة الصفح والنسيان في معظم الأحيان.

وليس في أخبار السيدة عائشة ما يناقض هذه المشاهدة التي تعم النساء كما تعمّ الرجال، فليس مما ينقضها أنها رضي اللّه عنها بقيت على موجدة من مسألة الإفك، طوال حياتها، فلم تنسَ مقالة أحد من القائلين أو الساعين فيها. إذ ليس أهول على نفس الفتاة خاصة، ولا أوجع لضميرها، من مطعن يهدم سمعتها ويعصف بهناءتها،

ويفقدها الرجل الذي تحبّه والمكانة التي تبوّأتها. وأهول ما يكون ذلك على البريئة العزيزة التي يهولها الأمر على قدر ظلمها فيه وعلى قدر نكبتها بما تفقده من العزّة والسمعة. فلا يقاس على موجدة السيدة عائشة في مسألة الإفك سائر خلائقها ودوافع ضميرها. فليس في غير هذه المسألة ما ينم على شيء يتجاوز الحدّة العارضة إلى الضغينة الباقية.

أما كرم السيدة عائشة فهي فيه إلى النجدة أقرب منها إلى السخاء، وهي فيه على آسال من أبيها العظيم رضي اللّه عنه، تنقذ من الأسر وتغيث من البلاء، وتعطي من هو في حاجة إلى العون العاجل ما تيسّر لها العطاء، وكانت في كرمها على حال سواء في أيام النبي عليه السلام حين لا مال لديها إلا القليل الذي هي أحوج إليه، أو في أيام الفتوح التي تيسّر لها فيها من المال ما لم يكن قبل بميسور.

كان لعتبة بن أبي المهلب جارية حبشية اسمها بريرة زوّجها على غير رضاها عبدًا من عبيد المغيرة فكرهته وأعرضت عنه، وهي أهل لمن هو أصلح وآدب منه. فرحمتها السيدة عائشة فاشترتها وأعتقتها، وخاطبت فيها النبي عليه السلام فقال لها: ملكت نفسك فاختاري؟.

وكان زوجها يتعلق بها ويتبعها حيث سارت وهي معرضة عنه، فتعجب النبي بين أصحابه يومًا من فرط حبّه لها وزهدها فيه، وقال لها: اتقِ اللّه فإنه زوجك وأبو ولدك! قالت: أتأمرني؟ قال: لا. إنما أنا شافع. فقالت: إذن لا حاجة بي إليه.

وما زالت بعد ذلك في خدمة السيدة عائشة تخلص لها وتذكر لها عطفها عليها ولا تنسى لها جميلها.

وقد أعانها على هذا الخلق السمح أنها رزقت القدوة القريبة بسيد المواسين للضعفاء ومعلم الجابرين لكسر القلوب، فما من شأو بلغته في هذا المعراج الرفيع إلا ارتفع بها رسول اللّه إلى أعلى منه وأجمل.

وحدثت مولاتها أم ذرة – وهي من الثقات – أن ابن الزبير بعث إلى السيدة عائشة بغرارتين فيهما مال يبلغ مائة ألف درهم، وكانت صائمة، فدعت بطبق فجعلت تقسم في الناس. ثم أمست فقالت: يا جارية هاتي فطري. قالت أم ذرة: أما

استطعت فيما أنفقت تشتري بدرهم لحمًا تفطرين عليه؟ فقالت: لا تعنّفيني! لو كنتِ أذكرتني لفعلت.

وقال ابن سعد عن عروة بن الزبير: رأيت عائشة تصّدّق بسبعين ألفًا، وأنها لترقع جانب درعها.

وأيسر ما يستفاد من هذه الروايات على اختلاف مكان رواتها من الثقة أنها رضي اللّه عنها كانت مشهورة بالكرم والإحسان إلى مستحقيه.

وقد كانت بنت أبيها في أكثر من خصلة واحدة من هذه الخصال النادرة بين الرجال والنساء، ولكنها كانت أشبه ما تكون به في خصلة الصدق التي بها اشتهر ومن أجلها نعت بالصدّيق، وغلب هذا النعت عليه حتى أوشك أن ينسى الناس اسمه الذي دعاه به أبواه. وقد امتحن صدقها في مآزق عسيرة البلاء للنفوس فتمحصت عن معدن كريم وعرق سليم ودلت على أصالة هذا الميراث النفيس من أبيها العظيم. ففي الغاشية التي أطبقت على العالم الإسلامي من جراء الخلاف على الخلافة تطايرت الأحاديث الموضوعة من هنا وهناك، وتعمد أناس أن يصوغوا من عندهم حديثًا لكل حزب ينصره ويرضيه، ويكبت خصمة ويخزيه. وافتن الوضّاع في محاكاة الأحاديث النبوية ذلك الافتنان الذي شقي به المحققون للروايات بعد ذلك بسنين، وكانت السيدة عائشة تشترك في خصومات المتخاصمين على الخلافة باختيارها أو تساق إلى المشاركة فيها على كرهٍ منها، وكانت هي أول من يُسمع له إذا روت حديثًا يدمغ خصومها ويعزز أنصارها، ولكنها لم تنقل قط في كل ما ثبتت نسبته إليها حديثًا واحدًا تمسه الشبهات من قريب أو بعيد ولا تؤيده الأسانيد الأخرى، ولم تحرف كلمة واحدة إلى غير موقعها طواعية لإغراء تلك النوازع النفسية التي تطيش بالألسنة أو تضلل العقول، وهو امتحان ليس أعسَر منه امتحان في هذا الباب، ولهذا كانوا يروون عنها الأحاديث فيقولون: حدثتنا الصدّيقة بنت الصدّيق!

ومن الصفات التي شابهت فيها أباها الذكاء المتوقّد والبديهة الواعية ولم تقصر فيها عن شأوه.

بل لا نحسبها قصرت عن شأو واحد من معاصريها بين الرجال والنساء على السواء في سرعة الفهم وقدرة التحصيل والإحاطة بكل ما يقع في متناول ذهنها.

قال أبو الزناد: ما رأيت أحدًا أروى لشعر من عروة بن الزبير. فقيل له: ما أرواك! قال: وما روايتي في رواية عائشة! ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا.

وقد كان عروة بن الزبير أشد الناس حبًّا لخالته السيدة عائشة وإعظامًا لها وتوقيرًا لسيرتها. ولكن الذي روى عنها من الشواهد الشعرية في أخبارها التي نقلت إلينا يدل على صدق ما وصفها به من غزارة الحفظ وحسن الاستشهاد.

على أن الفهم والحفظ ملكتان معروفتان للسيدة عائشة كثرت أو قلت الشواهد الشعرية التي وصلت إلينا من أخبارها.

فحسبها أنها قد روت للنبي عليه السلام أكثر من ألفي حديث في مختلف المسائل التي تدخل فيها الأحكام الشرعية والعظات الخلقية والآداب النفسية والأصول التي يرجع إليها في الدين والعبادة.

بل حسبها أن يثبت لها عشر هذا العدد من الأحاديث النبوية ليثبت لها أنها كانت تفهم وتعي وتحسن الحفظ فيما تنقله بحروفه كما تحسن التعبير فيما تحكيه بكلامها، وأنها تحيط في فهمها وحفظها بكل ما أحاطت به الأحاديث من المعارض والمناسبات.

ومع هذا يروي الثقات أنها كانت تحفظ وتفقه وتفسر، ولا يقتصر علمها على وعي الكلمات والعبارات. قال أبو موسى الأشعري: ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها علمًا فيه. وقال عطاء بن أبي رباح: كانت أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيًا في العامة. وقال مسروق الهمذاني: رأيت مشيخة أصحاب رسول الله الأكابر يسألونها عن الفرائض. وقال عروة بن الزبير: ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة.

ومن الأحاديث التي ترفع إلى النبي أنه قال: خذوا شطر دينكم عن هذي الحميراء، وهو حديث لم يثبت بالسند الصحيح، ولكن الحق الذي لا مراء فيه أن

المسلمين قد عرفوا الكثير من أمر نبيّهم وأمر دينهم من أحاديث عائشة عن زوجها المحبوب عليه السلام.

زوج النبيّ

كانت السيدة خديجة - رضي اللّه عنها - أول زوجات النبي عليه السلام، وأحبهن إليه، عاش معها زهاء خمس وعشرين سنة، ولم يتزوج عليها، ولا فكر في الزواج بغيرها في حياتها. مع أنه بنى بها وهو في نحو الخامسة والعشرين وهي في نحو الأربعين، وبقيت معه إلى أن أوفت على الخامسة والستين.

ثم توفيت حوالي السنة العاشرة بعد الدعوة، فلم يعرف عنه أنه حزن على أحد قط أشد من حزنه عليها، ولا أطال الذكرى لأحد قط بعد وفاته كما أطال ذكراها، وسمى عام وفاتها «عام الحزن»، لأن الحزن لم يفارقه طوال أيامه، ولم يفارقه - في الواقع - بقية حياته كلها، وإن سكنت سَوْرته مع الأيام كما تسكن كل سورة لاعجة مع ذلك العزم الصادق والقلب الصبور.

وتزوّج بالسيدة عائشة بعد وفاة السيدة خديجة بسنوات.

فكان التقابل بين الزوجين من أتم ما تأتي به المصادفة حين تكون المصادفة أحكم من التدبير والتقدير، ولعل هذا التقابل لم يخل كل الخلو من القصد الخفي وإن لم تتجه إليه النية في وضوح.

ويبدو لنا أنَّ النبي عليه السلام كان أحوج إلى هذا التقابل العجيب في حياته الزوجية.

فالفتى اليتيم الذي فجع في حنان الأمومة منذ الطفولة الباكرة لم يكن أنفع له من زوجة كريمة رشيدة كالسيدة خديجة التي أغدقت عليه من حنان الأمومة ما فاته في بواكير الطفولة، وأدركه عطفها وهو يعالج من نوازع الدعوة النبوية ثورة مقيمة مقعدة في سريرة النفس، لا تزال بين الجلاء والغموض وبين الإقدام والإحجام. ولا تزال في هذه الحالة على حاجتها القصوى إلى التثبيت والكلاءة والتشجيع.

أما النبي في الخمسين من عمره فقد كان أنفع له وأبهج لفؤاده أن يغدق حنان

الأبوة على زوجته التي تظفر منه بالحظوة والمودة، وأن يستروح من شبابها وجمالها نعمة تسعده في جهاده وربيعًا يظلله في وحشة عمره.

كانت خديجة أمّاً ترعاه.

ثم كانت عائشة طفلة تنعم بتدليله.

وكانت خديجة تسعده بالعقل والحنكة.

ثم كانت عائشة تسعده بالطرافة والجمال.

وكانت خديجة تصاحبه قبل الدعوة وهو يطلب الأنصار في طوية النفس قبل أن يطلبهم في عالم النضال والبلاء.

ثم كانت عائشة تصاحبه بعد الدعوة وهو صاحب دين جهر وبهر، فكانت هي أول سفرائه بالإصهار إلى رجالات العرب ورؤساء العشائر والبيوت.

كان تقابلًا بين الزوجين الفُضْلَيَيْن من أعجب ما تأتي به المصادفة، بل من أعجب ما يأتي به التدبير، وليس هناك تدبير معروف.

تمت الخطبة في شوال سنة عشر من الدعوة قبل الهجرة بثلاث سنوات، وأصدقها النبي عليه السلام أربعمائة درهم على أشهر الروايات.

وتختلف الأقوال في سن السيدة عائشة يوم زُفَّت إلى النبي عليه السلام في السنة الثانية للهجرة، فيحسبها بعضهم تسعًا ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات.

وهو اختلاف لا غرابة فيه بين قوم لم يتعودوا تسجيل المواليد. إذ قلما يسمع بإنسان – رجلًا كان أو امرأة – في ذلك العصر إلا ذكر له تاريخان أو ثلاثة لميلاده أو زواجه أو وفاته، وقد يبلغ الاختلاف بين تاريخ وتاريخ في تراجم المشهورين فضلًا عن الخاملين عشر سنين.

كانت خطبتها وهي في التاسعة... وكان زفافها بعد خمس سنوات؟!

والأرجح عندنا أن السيدة عائشة كانت لا تقل عند زفافها إلى النبي عليه السلام عن الثانية عشرة ولا تتجاوز الخامسة عشرة بكثير.

فقد جاء في بعض المواثيق من طبقات ابن سعد **أنها خطبت وهي في التاسعة أو السابعة، ولم يتم الزفاف كما هو معلوم إلا بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الأقوال.**

ويؤيد هذا الترجيح أن السيد خولة اقترحتها على النبي وهي في السن المناسبة للزواج على أقرب التقديرات إلى القبول. إذ لا يعقل أنها تشفق من حالة الوحدة التي دعتها إلى اقتراح الزواج على النبي وهي تريد له أن يبقى في تلك الحالة أربع سنوات أو خمس سنوات أخرى.

ويؤيد هذا الترجيح، من غير هذا الجانب، أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل خطبتها إلى النبي، وأن خطبة النبي كانت في نحو السنة العاشرة للدعوة.

فإما أن تكون قد خطبت لجبير بن مطعم لأنها بلغت سن الخطبة، وهي قرابة التاسعة أو العاشرة. وبعيد جدّاً أن تنعقد الخطبة على هذا التقدير مع افتراق الدين بين الأسرتين.

وإما أن تكون قد وعدت لخطيبها وهي وليدة صغيرة كما يتفق أحيانًا بين الأسر المتآلفة، وحينئذ يكون أبو بكر مسلمًا عند ذلك، ويستبعد جدّاً أن يَعِدَ بها فتى على دين الجاهلية قبل أن تتفق الأسرتان على الإسلام.

فإذا كان أبو بكر رضي اللّه عنه قد وعد بها ذلك الموعد قبل إسلامه، فمعنى ذلك أنها ولدت قبيل الدعوة وكانت تناهز العاشرة يوم جرى حديث زواجها، وخطبها النبي عليه السلام.

ولهذا نرجح أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زفّت إليه.

وأنها هي – رضي اللّه عنها – كانت تسمع تقديرات سنها ممن كان حولها لأنها لم تقرأها بداهة في وثيقة مكتوبة. فكان يعجبها على سنة الأنوثة الخالدة أن تأخذ بأصغرها، وكانت هي كثيرًا ما تَدِلُّ بالصغر بين أترابها فلا تنسى إذا اقتضى الحديث ذلك أن تقول: وكنت يومئذ جارية حديثة السن. أو كنت يومئذ صغيرة لا أحفظ شيئًا من القرآن. إلى أشباه ذلك من أحاديثها في هذا المعنى.

ذلك هو التقدير الراجح الذي ينفي ما تقوّله المستشرقون على النبي بصدد زواجه

بعائشة في سن الطفولة الباكرة. وكل تقدير غير ذلك فهو تقدير مرجوح.

* * *

وقد ملكت ربة البيت الصغيرة بيتها الجديد من اللحظة الأولى. لأنها كانت تدلّ فيه بمكانة الزوجة المحبوبة عند زوجها العطوف، وبمكانة النبوّة الناشئة عند الأبوّة الرحيمة، ومكانة ابنة الصديق العزيز التي أضفى عليها المودة والإيثار ما كان بين النبي والصدّيق من مودة هي أوثق وأبقى من مودة الرحم، لأنها مودة الوفاء والإعجاب والإيمان، أو مودة الحياة وما بعد الحياة.

وقد سجلت لنا السيدة عائشة خطرات نفسها خطرة خطرة. ورصفت لنا في بيتها الجديد كل صغيرة وكبيرة ظاهرة وخافية. ولكنها لم تذكر لنا قط كلمة واحدة تنم عن وحشة الانتقال من بيت إلى بيت. ومن معيشة إلى معيشة. ومن ظل أبوين إلى ظل رجل غريب عنها لا تعرف عنه إلا ما تعرفه عن النبي كل صبية مسلمة في سنها الباكرة. لأن عطف محمد ﷺ هو العطف الغامر الذي لا يلجىء إلى عطف سواه. وقد أغنى زيدًا عن أبيه وأمه فآثر حياة الأسر مع سيده على حياة الحرية مع أبيه وأمه. فأَحْرِ بمثل هذا العطف أن يغني الفتاة التي تأوي إليه، فتلوذ منه بعطف زوج وعطف أب وعطف صديق.

وتركها على سجيتها تلعب بالعرائس في بيت زوجها كما كانت تلعب بهن في بيت أمها وأبيها. وربما جاءها صواحبها الصغار «فينقمعن – كما قالت – من رسول اللّه. فكان عليه السلام يسير بهن إليها ليلعبن معها».

وقالت جاريتها بريرة تصفها وهي في السنوات الأولى من زواجها: «ما كنت أعيب عليها شيئًا إلا أنها كانت جارية صغيرة أعجن العجين وآمرها أن تحفظه فتنام فتأتي الشاة فتأكله».

وكان عليه السلام يتعهدها بما يسرّها. وإن عجب الصحابة الذين لا يفهمون وقار الدين كما يفهمه ولا تتسع صدورهم لما يتسع له صدره. ودخل عليها أبوها وعندها قينتان تغنيان في يوم منى والنبي عليه السلام مضطجع مسجى في ثوبه، فصاح بها: أعند رسول اللّه يصنع هذا؟.. فكشف النبي عن وجهه وقال: دعهن

فإنها أيام عيد.

وكان السودان يلعبون في يوم من أيام العيد بالدق والحراب فسألها عليها السلام: تشتهين أن تنظري؟ قالت: نعم: قالت: «فأقامني وراءه خدي على خدّه وهو يقول: دونكم يا بني أرفده - كنية الحبشة - حتى إذا مللت قال: حسبك؟ قلت: نعم! قال: فاذهبي».

وربما مرّ أبوها رضي اللّه عنه بالبيت فيسمع صوتًا عاليًا في حضرة النبي عليه السلام، فيدخل غاضبًا يتناولها ليلطمها وينهرها قائلًا: لا أراك ترفعين صوتك على رسول اللّه. فينهض عليه السلام ليحجزه ويقول لها بعد خروجه: رأيت كيف أنقذتك من الرجل؟.

وفي مرة من هذه المرات خرج أبو بكر مغضبًا ثم عاد فوجدهما قد اصطلحا. فقال لهما: أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما.

فقال النبي: قد فعلنا.

ولم يخفَ هذا العطف الذي لا نظير له بين الأزواج على السيدة عائشة، وهي ما هي في ذكائها وعلمها ببيوت الصحابة وغيرها. وازدادت به علمًا يوم شاركها الزميلات في بيت النبي، وقد شاءت الدواعي السياسية والدينية أن تتعدد زوجاته، وتتعدّد صلات المصاهرات بينه وبين قبائل الجزيرة العربية، فقد عرفت مكانها وهي بين تسع من الزميلات، كما عرفت مكانتها وهي موشكة أن تنفرد في بيت النبوّة، وكان عليه السلام يعدل بينها وبين زميلاتها فيما يملك العدل فيه. أما ميل قلبه فكان يستغفر اللّه فيه قائلًا: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك».

وشكرت له هذا الإيثار، وفخرت به في معارض حديثها كلما بدا لها معرض للشكر أو للتحدث بنعمة اللّه عليها.

وهي القائلة بعد وفاة النبي في مزاياها التي اختصت بها دون أترابها: «فضلت على نساء النبي ﷺ بعشر! لم ينكح بكرًا قط غيري، ولا امرأة أبواها مهاجران غيري، وأنزل اللّه براءتي من السماء، وجاء جبريل بصورتي من السماء في حريرة،

وكنت أغتسل أنا وهو في إناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيري، وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه دون غيري، وكان ينزل عليه الوحي وهو معي ولم ينزل وهو مع غيري، وقبض وهو بين سحْري ونحْري، وفي الليلة التي كان الدور عليّ فيها ودفن في بيتي».

وكان هذا التمييز سرّ البيت النبوي في مبدأ أمره، ثم شاع في الجزيرة العربية حتى كان صاحب الهدية من المسلمين يؤخرها ليبعث بها إلى النبي وهو في بيت عائشة.

فوقع التغاير الذي لا محيص منه بين الزوجات، وأرسلن إليه إحداهن أم سلمة، فأعرض عن حديثها ثلاث مرات، فلما أثقلت عليه قال لها: «لا تؤذيني في عائشة. فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة غير عائشة».. يريد بالثوب البيت في بعض التفسيرات، ومن قولهم ثاب إليه يثوب فهو في الثوب الذي لا يزال يرجع إليه.

وتوسلن بالسيدة فاطمة رضي اللّه عنها لما يعلمن من قبول أبيها لكل شفاعة تأتيه منها، فقالت له: «إنّ نساءَكَ يَنْشُدْنَكَ اللّه العدلَ في بنت أبي بكر. قال لها: يا بُنَيَّة! ألا تُحبِّين ما أحبُّ؟ قالت: بلَى. قال: فأحبي هذه»...

يشير إلى عائشة.

ويسيرٌ على الزميلات المتنافسات أن يدركن حب النبيّ لعائشة، ويلحظن أنها كانت أحبهن جميعًا إليه وأقربهن جميعًا إلى فؤاده.

ولكن الذي لم يكن يسيرًا عليهن أن يدركنه أو يلحظنه أنها هي، رضي اللّه عنها، كانت أشدهن حبّاً له ونفاذًا إلى نفسه واتصالاً بقلبه ولبه.

فكلهن كن يحببنه ويتنافسن على قربه، ولو كان فيه التنافس على الموت وفراق الدنيا ومن فيها. وحدثهن يومًا عمن تلحق به بعد فراقه الدنيا فقال:

«أسْرَعُكُنَّ لِحاقًا بي أَطْوَلُكُنَّ يَدًا»... فجعل يقسن أيديهن، وما منهن إلا من تتمنى أن تكون هي صاحبة اليد الطولى. ثم ظهر لهن أن المراد بالطول هنا طول اليد بالصدقة والعمل الصالح... فغبطن زميلتهن زينب بنت جحش، لأنها استحقت اللحاق به لعملها بيدها وإكثارها من الصدقات على مستحقيها.

إلا أن الحب الذي يبدو من فطنة عائشة لسرائر النبي أعمق وأقوى.

فما منهن من لصقت بنفسه كما لصقت بها، ومن نفذت إلى معانيه كما نفذت إليها، ومن عاشرته في روحه وطويته كما عاشرته بروحها وطويتها وفي كلامها من الشواهد على ذلك ما ليس في كلامهن على تيسر الوسائل لهن أن يعرفن مثل ما عرفت وأن ينقلن عنه مثل ما نقلت. وليس أدل على اقتراب الحب من هذا الاقتراب الذي امتازت به عليهن. فكان إيثار النبي لها ضرابًا من العدل على هذا الاعتبار.

لقد كانت تحبه حب المسلمة لنبيّها.

وكانت تحبه حب الزوجة لزوجها والمرأة لرجلها. وكانت تعجب بجماله كما تعجب بأدبه وعظمة قدره.

وكان يسرّها أن تستمع إلى صوته وتصغي إلى ترتيل حديثه كما يسرّها أن تستوضح معناه لأنه – كما كانت تقول لسائليها – لا يسرد كسردكم هذا ولكنه «يحدث حديثًا لو عدّه العادّ لأحصاه».

وكانت تغار عليه أشد غيرة عرفتها امرأة على زوجها. وربما خرج من عندها في ليلتها. فإذا هي تتبعه إلى حيث ذهب مخافة أن يلم ببيت زميلة من زميلاتها. ووجدته في ليلة من هذه الليالي قد ذهب إلى المقابر يصلي للشهداء، ويستغفر لهم. فعادت إلى بيتها تقول لنفسها: بأبي أنت وأمي! أنت في حاجة ربك. وأنا في حاجة الدنيا! ولكنها لبثت مكروبة الصدر مما خامرها من خاطرها الأول ومن خطأ ظنها. فلما قفل عليه السلام إليها لحظ ما بها فسألها: ما هذا النَّفَس يا عائشة! قال: بأبي أنت وأمي! أتيتني فوضعت ثوبيك ثم لم تستتم أن قمت فلبستهما. فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع.. وخرج مرة أخرى ثم عاد إليها فإذا هي في مثل تلك الحالة: أغرت؟ قالت: وهل مثلي لا يغار على مثلك؟ فقال: لقد جاءك شيطانك!.

ولم تنس قط أن تتحلى بما يروقه من مرآها. فكانت تلبس المعصفر والمضرج. وتتحرّى ما يعجبه من الطيب والحلية، ودخلت عليه امرأة وهي معصفرة فسألتها عن الحناء، فقالت: شجرة طيبة وماء طهور وسألتها عن الحفاف فقالت لها: «إن كان

لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتصنعيهما أحسن مما هما فافعلي».

* * *

ومن الجائز – أو ربما كان الواقع – أن زميلاتها أمهات المؤمنين كن يغرن على النبي مثل غيرتها، ويجهدن في رضائه مثل جهدها. ولكنهن – ولا ريب – لم يبلغن شأوها في حبها إياه حين نفهم من الحب ذلك الاقتراب بين النفسين بالبداهة والشعور. وليس في أحاديثهن عنه مثل ما في أحاديثها عنه من ذلك الإحساس بالقرب، وذلك النفاذ إلى الطوية. وليست المسألة هنا مسألة الكثرة أو القلة في الأحاديث. فربما كان تعليل الكثرة في أحاديث عائشة عن النبي أنه كان عليه السلام أكثر تحدثًا إليها وارتياحًا إلى مجالستها ومسامرتها. ولكنها مسألة الرفق في الأداء والخبرة بالمعنى والقدرة على الاستيحاء والشعور الباطن بقلة حواجز بين النفسين واتصال الحس بينهما واللقانة.

ومن البديه أنها لم تبلغ هذه المنزلة في حب النبي وفهمه طفرة واحدة ولا في سنة واحدة أو سنتين. بل لبثت السنوات الأولى من عشرتها له وهي تقترب من الأنس به إلى المعرفة بنفسه وعقله والترقي إلى عظمته ونبله.. حتى أدركت ما يتاح لها أن تدرك من تلك العظمة التي تعلو على هامتها وهامات الرجال من حولها، ولكنها هي – ببداهة المرأة وبداهة الحب الأنثوي – كانت تستقرب ما يبعد على غيرها، وتستعيض ما يفوتها من الفهم الواضح بما يفوتهم من اللقانة الباطنية والوعي المستتر في الإخلاد.

ومضت السنوات الأولى في عشرة النبي وهي تفقه من أحاديثه ما تيسّر لها أن تفقه ولا تقرأ كثيرًا من القرآن، أو كما قالت في حديث الإفك، كنت «جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن.. والتمست اسم يعقوب فما أذكره فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف فصبر جميل واللّه المستعان على ما تصفون».

وقد أمهلها النبي في هذه السنوات رفقًا بها وإعدادًا لفهمها وعزمها، ولكنه لم يفتأ رويدًا رويدًا يشركها في العبء الذي ينبغي أن تنهض به زوجة النبي وأم المؤمنين وسفيرته الأولى إلى عالم النساء في عصره وفيما يليه من العصور.

فكانت تحضره إذا بايع النساء أو صلى بهن أو جلسن إليه يسألنه في أمور الدين وآداب الزوجية، ويتفق كثيرًا أن يعرض عن الجواب حياء، فيوكلها بالتفسير والإسهاب حيث يعز الفهم على سائلاته اللواتي يستقصين في السؤال.

سألته أسماء بنت شكل من نساء الأنصار: كيف تكون الطهارة من المحيض؟ فقال لها: «خذي فرصة ممسّكة فتوضئي ثلاثًا»، أو قال تطهّري ثلاثًا... فقالت: وكيف أتطهر؟ قال: سبحان اللّه! تطهري بها، وأعرض بوجهه حياء. فاجتذبتها السيدة عائشة وكفتها عن سؤاله.

وما زالت رضي اللّه عنها تعي من سنن النبي في المسائل النسائية وغير النسائية حتى احتاج الرجال أن يسألوها ويرجعوا إليها في كل ما تراجع فيه السنن النبوية من شؤون عامة وخاصة. ومن أعم المسائل التي روجعت فيها أن معاوية كتب إليها لتوصيه وترشده فأرسلت إليه تقول: سلام عليك – أما بعد، فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «مَنِ التَمَسَ رِضَاءَ اللّه بِسَخَطِ النَّاس كَفاهُ اللّهُ مؤْنَةَ النَّاس، ومَن الْتَمَسَ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللّهِ وَكَلَهُ اللّه إلى النَّاس».

فلم يكن أعجب من سؤال معاوية في تعميمه إلا حسن الاختيار في هذا الجواب وهو ألزم ما يزود به الملوك من وصية وإرشاد.

وقد نهضت السيدة عائشة بأمانة التبليغ والتعليم أحسن نهوض وأوفاه. فما تورعت عن كتمان شيء من الأشياء التي تسأل عنها ولها اتصال بقواعد الدين وأصول التطهير وشروط العبادات ونواقض الصلاة والصيام. فأسلوبها في تبليغ هذه الأحكام هو أسلوب التعليم وأسلوب أم المؤمنين في خطاب بناتها وبنيها من المسترشدات والمسترشدين. ولم يكن في مقدورها أن تتوخى أسلوبًا غير هذا الأسلوب، ولو عرضت لأخص الأمور التي تسكت عنها النساء، لأنها المرجع الذي لا يغني عنه مرجع في سنن النبي ومأثوراته وأعماله فمن الإخلال بالأمانة النبوية أن تسكت عن سنة مطلوبة يعرضها السكوت للضياع.

ولقد تكون هذه السيدة الفضلى التي أفصحت عن كل فتوى نسوية سئلت عنها وهي ما تأذن لعمها في الرضاع أن يراها إلا بعد مراجعة النبي عليه السلام. فأسلوبها

في تفصيل السنن النبوية والقواعد الشرعية إنما كان فريضة الأمانة وضريبة الوفاء. ولم يكن شيمة الطبع واللسان.

ودامت هذه الحياة الزوجية النادرة زهاء تسع سنين إلى أن توفي النبي عليه السلام.

ومن الحق أن توصف بأنها حياة زوجية سعيدة لأننا لا نعرف بين أزواج الهداة والعظماء من ظفرت بأسعد منها أو كانت أرضى من السيدة عائشة عن حياتها.

بعد النبي

عاشت السيدة عائشة بعد النبيّ ستّاً وأربعين سنة، وتوفّيت وهي في نحو السبعين من عمرها، سنة ثمان وخمسين للهجرة.

وقد توفي النبي عليه السلام في بيتها وفي يوم زيارتها، ودفن بالمكان الذي كان ينام فيه.

وقد علم كثير من الناس عند اشتداد المرض به أنه مرض الوفاة، ولكنه كان قد صحا بعض الصحو قبيل يوم وفاته حتى استأذنه أبو بكر في الخروج إلى بيته بالسنح، وتفرق المسلمون متفائلين وهم يرجون الخير ويبعدون عن خواطرهم نذير الخوف. فلما قبض عليه السلام بعد ذلك روعت عائشة أيما روع، وتعاظمها الخطب أن تملك صبرها وهو يموت بين سحْرها ونحْرها، فنسيت لهول الساعة ما ينبغي لها أن تستقبل به هذا الوداع الذي لا يتكرر ولا تهونه سابقة وداع مثله: إنها أم المؤمنين التي لبثت السنين بعد السنين تلقنهم ما لقنها من سداد التجمل ووقار الحزن في الملمات... إذا هي تنسى كل ذلك ساعة فقده، وإذا هي امرأة والهة بين النساء تلتدم وتضرب وجهها: قالت: «... وجدت رسول اللّه ﷺ يثقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى من الجنة» قلت: خُيِّرت فاخترت، والذي بعثك بالحق. وقبض بين سحْري ونحْري ودولتي ولم أظلم أحدًا. فمن سفهي وحداثة سنّي أنه ﷺ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي».

ولم تشهد دفنه عليه السلام بعد وفاته بيومين، لأن المسلمين كان قد بلغ من تنافسهم في حبّه أن يتولى كل فريق منهم مراسم دفنه على ما تعوّد في بلده وبين أهله، وكان أهل مكة يسوّون قاع القبر وأهل المدينة يقوّسونه. فبعث العباس بن عبد المطلب رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة بن الجراح، ويدعو الآخر أبا طلحة، وأولهما يضرح كأهل مكة، والآخر يضْرح كأهل المدينة. فعاد صاحب أبي طلحة به، ولم يعد صاحب أبي عبيدة. فحفر اللحد على طريقة أهل المدينة، وتولى القائمون على الجثمان الكريم دفنه بعد انقطاع المودّعين عند هزيع من الليل. قالت عائشة وفاطمة رضي اللّه عنهما: «ما علمنا بدفنه ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل».

وما برحت منذ تلك اللحظة تلازم البقعة الخالدة ولا تفارقها إلا للعمرة أو الحج أو لزيارة قريبة، وقلما كانت تزور.

واتخذت سكنها في الحجرة المجاورة لقبره، وهي لا تحسب أنها قد فارقت منه غير مشهد جثمانه. فقد كانت تزوره زيارة الأحياء. ودفن أبوها إلى جواره بعد سنوات، فكانت تزورهما كذلك زيارة الأحياء. فلما دفن معهما عمر جعلت بعدها تنتقب وتلبس ملابس الحجاب، وهي تزور أولئك الأصدقاء المتجاورين، كأنهم بقيد الحياة.

وكانت في أوائل العقد الثالث على أكبر تقدير عند وفاته عليه السلام، فعاشت في صحبته زهاء عشر سنين، وعاشت في ذكراه خمسين سنة، وحسبنا من شعور الناس بجلال تلك الذكرى في نفسها أن أحدًا لم يخطر له خاطره عن السيدة عائشة تجيز التفكير في حياة زوجية أخرى، كأنه خاطر حرمته قداسة تلك الذكرى وهيبة ذلك الوفاء، فضلًا عن الحكم بتحريمه في سورة الأحزاب على سبيل التشريع.

ولم تكن حياة السيدة عائشة فارغة في خلال تلك السنين الطوال من لدن فارقها زوجها العظيم، وهي تجاوز العشرين، إلى أن فارقت الدنيا وهي تقارب السبعين. لأنها في حدّة نفسها، ورفعة مكانها، لا تقبل الفراغ. فما هو إلا أن هدأت ثائرة الفتنة بعد وفاة النبي عليه السلام، وتوفَّر المسلمون على تحصيل مراجع الدين حتى

كانت هي المرجع الأول فيما حفظ عندها من آي القرآن وما حفظته من السنن والأحاديث، وحتى كان بيتها مثابة الزوار من أبنائها وبناتها، يدعونها يا أُمَّهْ! ومنهم من هي في سن بناته الصغريات، ويا له من دعاء محبب إلى الأسماع!

وكانت إذا فرغت من تلقين الأحاديث وجواب السائلين تأوي إلى الصلاة والتسبيح في جوار الضريح. أو تعمل في مهنة البيت ذلك العمل الذي كان النبي عليه السلام يسرها بمساعدتها فيه.

ومن أهم الأشياء التي ينبغي أن تلاحظ في حياة السيدة عائشة بعد النبي عليه السلام أنها قضت خلافة أبي بكر وعمر وهي لا تشعر بأن مكانها في عهد النبي قد تغيّر، أو بأن أمْرًا من أمور السياسة العامة يدعوها إلى التعرض له راضية أو ساخطة. حتى كانت خلافة عثمان فتغيّرت هذه الحال، وكان لتغييرها دلالة كبيرة وأثر كبير.

ففي عهد أبي بكر كانت أمور السياسة العامة تجري على أحكام الدين، وتركن منه ومن أصحابه إلى سند ركين، وكان الخليفة أباها وهو أول من يدعوها بأمّ المؤمنين.

وفي عهد عمر كانت أمور السياسة العامة تضطرب أو تسكن، ولكنها في كلتا الحالتين لا تنشعب ولا تؤذن بالصداع. وكان عُمَرُ أَهْيَبَ خليفة عرفه الإسلام، وأحب خليفة إلى عائشة رضي اللّه عنها. سرت صداقة الأبوين أبي بكر وعمر إلى بنيهما، فكانت عائشة وحفصة أصدق صديقتين تتفقان وتتكاشفان كلما وقع الخصام في بيت النبي عليه السلام، وحفظت له أجمل الشكر لموقفه من حديث الإفك حين شاوره النبي فقال له: **إن اللّه هو الذي زوجكها، وأنه سبحانه وتعالى لم يدلس بها عليك**. وتم هذا الشكر حين ولي الخلافة فرعى لها المكانة الأولى بين المسلمين، وخصّ بيت النبي بالحصة العليا من الحفاوة والعطاء.

فمضى العهدان – عهد أبي بكر وعمر – وليس في الحياة الخاصة ولا في الحياة العامة ما يشعرها بتغيير أو ينزع بها إلى نوازع السياسة، وما تعرض منها أو جنح إلى التحزيب والتأليب.

ثم تغيرت الأمور في عهد عثمان.

ولولا هذا التغيير لما عرف للسيدة عائشة نصيب من السياسة العامة بعد موت النبي، وهو الموقف الذي تحوّلت بها الأحوال إليه بعد اجتناب السياسة العامة قرابة عشرين سنة، على غير سابقة له في سيرتها الأولى.

مِسْك...

الختام...؟!

ومِن كتاب «عائشة – مُعَلِّمة الرِّجال والأجيال» لمؤلفه محمد علي قطب... نختار هذه السطور...

يا حُمَيْراء؟!

وفي سنن النسائي حديثان يدلان على أن رسول اللّه ﷺ كان يناديها بيا «حُمَيْراء»... والحمراء في لغة أهل الحجاز هي البيضاء الشقراء... وهذا نادر فيهم.

خُطِبَت في سن التاسعة؟!

ويحدِّثُنا المؤرخون أنها – رضي اللّه عنها – كان في طفولتها كثيرة اللعب دائبة الحركة... وقد بلغت سن التاسعة – حين خطبها رسول اللّه ﷺ ولها أتراب وصواحب تلعب معهُنَّ، كما أن لها أرجوحة تلعبُ عليها.

مهبط الوَحْي؟!

ثم أسكنها ﷺ حُجرة ملاصقة لمسجده الشريف، لها مصراع واحد من «عَرْعَر» – أوْ ساج.

وعُرفَت هذه الحجرةُ بـ «مَهْبط الوحْي» لكثر الوحي الذي نزل على النبي ﷺ فيها.

أوّلُ حُبّ كان في الإسلام؟!

وقال أنس بن مالك:

أوّلُ حُبّ كان في الاسلام حبُّ النبي ﷺ لـ «عائشة» – رضي اللّه عنها.

كما عَرَف لها هذه المكانة من قلب رسول اللّه ﷺ كبارُ العلماء، فكان مَسْروق إذا حدَّث عنها قال: (حَدَّثتني الصِّدِّيقةُ بنت الصِّدِّيق، حبيبةُ حبيب اللّه، المُبَرَّأَةُ من السّماء).

السيِّدة «عائشة»... والمرأة؟!

كان للسيِّدة «عائشة» – رضي اللّه عنها – دَوْر كبير في نُصْرةِ حقوق المرأة، ودفاعها عن إنسانيّتها، حتى غدت زعيمة الآخذين بناصِرِ المرأةِ والمدافعين عنها، وإليْها وحْدها تطلّعتْ أبْصار المستضْعفاتِ والمضطهداتِ لما لها من مكانةٍ كُبْرى عند رسُول اللّه « ﷺ»...

وكَمْ نَزَل الوحْي على النَبيّ « ﷺ» في حُجْرتها بسبب شكاياتِهِنّ وقضاياهُنّ!!.

قالت رضي اللّه عنها –:

[كان الناس... والرَّجُلُ يُطلّق امْرأَتهُ ما شاءَ أَنْ يُطَلِّقها، وهي امْرَأَتُه إذا ارتجعها وهي في الْعدَّة، وإنْ طلَّقها مائة مرّة، حتى قال رَجُلٌ لامْرأَتِهِ: واللّه لا أُطَلِّقك فتبينين منّي، ولا آويك أبدًا، قالت: وكيْف ذاك؟ قال: أُطلِّقُك فكُلّما هَمَّتْ عدَّتُكِ أَنْ تُنقضى راجعْتُك؛ فَذَهبتِ المرأةُ حتى دَخَلتْ على «عائشة» فَأَخْبرَتْها، فَسَكَتَتْ «عائشة» حتى جاءَ النبيُّ « ﷺ» فأَخْبَرَتْه، فَسَكَت النبيُّ « ﷺ» حتى نَزَل الْقُرآن:

﴿الطَّلاقُ مَرَّتانِ، فإمْساكٌ بِمَعْروفٍ أَوْ تَسْريحٌ بإحْسانٍ﴾.

قالت «عائشة»:

– فاستقْبل الناسُ الطلاق مُسْتقْبلًا، مَنْ كان طَلَّق ومَنْ لم يَكُنْ طَلَّق].

ومن هذا القبيل أَيْضًا قوْلها رضي اللّه عنها:

– تبارك الذي وسع سمْعُهُ كُلَّ شيء..، إنّي لأَسْمَعُ كلام «خوْلة بنْتِ ثعْلبة»، ويخفى عليَّ بعْضُهُ، وهي تشتكي زوْجها إلى رسُول اللّه « ﷺ» وهي تقول:

يا رسُول اللّه... أكل شبابي ونثرْتُ لهُ بَطْني، حتى إذا كبرتْ سنّي وٱنْقَطَعَ وَلَدي، ظاهَرَ مِنِّي، اللّهم إني أشكُو إليْك.

فما برحَتْ حتى نَزَل «جبرائيل» بهذه الآيات:

﴿قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الّتي تُجادِلُكَ في زَوْجِهَا وتَشْتَكِي إلى اللّهِ﴾.

وهذه زوجة «ثابت بن قيْس» ضربها زوْجُها فَكسَرَ بَعْضَها، فأتَتْ رسُول اللّه « ﷺ» وهو في حُجْرة السيِّدة «عائشة»، فٱشْتَكَتْهُ إليْه، فَدَعا النبيُّ « ﷺ» «ثابتًا» فقال:

- «خُذْ بَعْضَ مالِها وفارِقْها»...

وهذه فتاةٌ تدخُلُ أَيْضًا على السيِّدة «عائشة» قائلةً:

إنْ أبي زَوَّجني من ابْن أخيه لِيرْفَعَ بي خسيسَتَهُ، وأنا كارِهَةٌ، فقالت لها «عائشة»:

- اجْلسي حتى يأْتي النبيُّ « ﷺ»...

فجاء رسُول اللّه « ﷺ» فأخبرَتْهُ، فأَرْسَلَ إلى أَبيها فَدَعاهُ، فَجَعَلَ الأمْرَ إليْها، فقالت:

- يا رسُول اللّه، قد أجزْتُ ما صنَعَ أبي، ولكن أَرَدْتُ أَنْ أَعْلَمَ، ألِلنّساءِ من الأَمْرِ شَيْءٍ؟

وظلّت السيِّدة «عائشة» - رضي اللّه عنها - بَعْد وفاةِ النبيِّ « ﷺ» زعيمة المدافعين عن المرأة، تُنْكر على كُلِّ مَنْ يتكلّم بشَيْءٍ ينال من كرامة المرأة، وتغضب مِنْه.

[دخل عليْها رجُلان فقالا: إن «أبا هُرَيْرة» يحدِّثُ أنَّ النبيَّ « ﷺ» كان يقول:

[إنّما الطِّيَرَةُ في المرأة، والدابّة، والدّار]

فطارت شقّة منها في السّماء، وشقّة منها في الأرض، وقالت:

- والذي أَنْزَلَ الْقُرْآن على «أبي القاسم» ما هكذا كان يَقُول، ولكن كان نبيُّ اللّه « ﷺ» يَقُول:

- [كانَ أَهْلَ الجاهليّة يَقُولون: الطِّيَرَةُ في المرأة والدابّة والدَّار].

ثم قَرَأَتْ: ﴿ما أصابَ من مُصيبةٍ في الأَرْض ولا في أَنْفُسِكُم إلّا في كتابٍ من قَبْلِ أَنْ نبْرأها﴾.

وكما كانَتْ - رضي اللّه عنها - شديدة الدِّفاع عن المرأة، كانت في نفْس الوقْت شديدة الإنكار على اللَّواتي يخالِفْنَ بَعْض أَحكام الشريعة، فقد واجهت نساءَ «حِمْص» عندما دَخَلْنَ عليها قائلةً:

- [لَعلَّكُنَّ من اللَّواتي يدخُلْنَ الحمّامات. سَمِعْتُ رسُول اللّه « ﷺ » يقول: [أَيّما امرأةٍ وَضَعَتْ ثيابها في غَيْرِ بَيْتِ زَوْجها، فَقَدْ هَتَكَتْ ستْر ما بَيْنها وبَيْن اللّه].

وحينما رَأَتْ تَغيُّرًا في ملابس بعض النساء، بعد عَهْد النبيّ « ﷺ » أنكرَتْ ذلك وقالتْ:

- [لو أَنَّ رسُول اللّه « ﷺ » رأى ما أَحْدث النِّساءُ لَمَنَعهُنَّ المسجد كما منعت نساءُ بني إسرائيل].

ولقد كانَتْ - رضي اللّه عنها - شديدة الحرْص على أن تكُون ثيابُ المرأة ساترةً لها عن الرجال الأجانب، فإذا ما رَأَتْ على إحْداهُنَّ ثَوْبًا رقيقًا زَجَرَتْها، وبادَرَتْ إلى تمزيقِهِ،

كما فَعَلَتْ مع «حَفْصة بنت عبد الرحمٰن»...

أخرج «ابن سعْد» في طبقاتِهِ:

- [أن «حَفْصة بنت عبد الرحمن» دخلَتْ على أُمّ المؤمنين، وعلى «حَفْصة» خمار رقيق، فشقَّتْه «عائشة» عليْها، وكسَتْها خمارًا كثيفًا].

ورُوِي عنها:

- [يَرْحم اللّه النساء المهاجرات الأُوَل، لَمّا أَنْزَلَ اللّه ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بخُمُرهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَقْنَ أَكْثَفَ مُرُوطِهِنَّ فاخْتَمَرْنَ بها].

وكانت تقول:

- [إنَّما الْخِمارُ ما وارى الشَّعْر والبَشَرَ].

مناقبها

زُهْدُها:

وصف «أبو نعيم» في «الْحُلية» السيِّدة «عائشة» – رضي اللّه عنها – فقال:

– **(كانت للدُّنيا قالية، وعن سرورها لاهية، وعلى فقْد أليفها باكية).**

ولقد أَحبَّت وعشقت الحياة التي عاشتْها مع رسُول اللّه « ﷺ»، على أَسْمى ما يكونُ من الزُّهْد، وعلى أشد ما يكون الشَّظَف، وأَطاعت بكل أمانةٍ وصِدْقٍ وصيَّة رسُول اللّه « ﷺ»:

– **[إذا أَرَدْت اللحوق بي فيكْفيك من الدُّنْيا كزادِ الراكب، وإيّاك ومجالسة الأْغنياء، ولا تَسْتَخْلقي ثَوْبًا حتى ترقعيه].**

قال «عروة بن الزبير»:

– **فما كانَتْ «عائشة» تسْتَجدُّ ثوْبًا حتى ترْقَعَ ثوبها وتُنكّسه.**

عبادتها:

ولقد تأثّرت السيِّدة – رضي اللّه عنها – بعبادة النبيّ « ﷺ» ومنْهجه فيها، إذ كانت أَلْصق الناس برسُول اللّه « ﷺ»، وأكثرهم اطلاعًا على عبادته، وقد نَقَلَتْ أحاديث كثيرة رُويت عنها صُورة كاملةً لمنهجيته –عليه السلام– في خصوصيَّة عبادته.

وأبرز سمةٍ في تلْك العبادة هي المداومة دون انقطاع، سُئلت – رضي اللّه عنها – عن عبادتِهِ «عليه الصلاة والسلام» فقالت:

– **[كان عَمَله دِيمَةً، وأيُّكم يستطيع ما كان رسُول اللّه « ﷺ» يستطيع، وكان آل محمد – « ﷺ» – إذا عملُوا عملًا أَثْبتُوه].**

وكانت صلاة اللَّيْل أحبَّ النوافل إلى السيِّدة «عائشة» – رضي اللّه عنها –، وكانت لا تَدَعها وتَنْصح بالمداومة عليها.

أَخْرَج الإمام «أحمد» عن «عبداللّه بن قيس» قال:

– **[قالت لي «عائشة»: لا تَدَع قيام اللَّيْل، فإنَّ رسُول اللّه « ﷺ» كان لا يَدَعه، وكان إذا مَرِضَ أَوْ كَسِلَ صلَّى قاعِدًا].**

وكانت تُطيل الصلاة...

فقد أخرج «أحمد» - أيْضًا - عن «عبدالله بن أبي موسى» فقال:

- [**أرْسلني «مدرك» - أو ابن مدرك - إلى «عائشة» أسألها عن أشياء.**

قال: فأتيْتها، فإذا هي تُصَلِّي الضُّحى، فقُلْتُ: أقْعُد حتّى تفرغ، فقالوا: هَيْهات!!].

وكانت كثيرة الدُّعاء والتضرُّع في صلاة النافلة، خاصّة إذا مَرَّت بآية وعيد؛ كقوْله تعالى: ﴿**فَمَنَّ الله علينا ووقانا عذاب السَّموم**﴾.

فقد سُمِعَتْ تكرر وتبكي بَعْد قراءتها لها:

- [**مُنَّ عليَّ وَقِني عذاب السَّمُوم**].

وكانت تَسْرُدُ الصَّوْم،

أخرج «ابن سَعْد» عن «القاسم»: [**أنها كانت تصُوم الدَّهر، وتَتَحمَّل الصَّوْم في أيّام الحرّ الشديد مهما بلغ منها الجهد والتَّعب**].

وأخرج «أحمد» في مُسْنده: [**أن «عبد الرحمٰن بن أبي بكْر» دَخَلَ على «عائشة» يوْم عَرَفة، وهي صائمة، والماء يُرَشّ عليها، فقال لها «عبد الرحمٰن»: أَفْطِري، فقالت: أُفْطِرُ وقد سَمِعْتُ رسُول الله «ﷺ» يقول:**

- **إن صَوْم يَوْم عَرَفةَ يُكفِّر العام الذي قَبْلَهُ**].

وسألت السيّدة «عائشة» - رضي الله عنها - رسُول الله «ﷺ»:

- [**ترى الجهاد أَفْضل العمل... أفلا نُجاهد؟ قال: لا، ولكن أَفْضل الجهاد حجٌّ مَبْرور**].

وعليه، فإن السيِّدة - رضي الله عنها - قد حجَّت واعتمرت أكثر من مرَّة، في حياته «ﷺ» - معه -، وبعد لحوقه بالرفيق الأعلى.

تصدّقها:

لقد قيل: (إن الزُّهْد يَستدْعي خُلُوَّ القَلْب مِمّا خَلتْ منه الْيدُ).

و«عائشة» - رضي الله عنها - كانت خالية القَلْب عمَّا في يدها، فضْلًا عمّا خَلَتْ منه يدها، وقد بلغت بهذا أعلى درجات الجود والسّخاء.

ولم يكن ليسْتَقِرَّ في يَدها دِرْهم ولا دينار!!!

أهدى لها «معاوية» ثيابًا وَوَرِقًا وأشياء تُوضَعُ في اسْطوانها، فلما خرجت «عائشة» نَظَرت إليه فبكتْ، ثم قالت:

- [لكنَّ رسُول اللّه «ﷺ» لم يكن يجد هذا.!!].

ثم فرَّقَتْه ولم يَبْق منه شَيْء.

وكثيرًا ما رُئيت - رضي اللّه عنها - ترْقَعُ ثَوْبها،

قال «عُرْوة»:

- [لقد رأيْتُ «عائشة» - رضي اللّه عنها - تقسم سَبْعين ألْفًا، وإنَّها لَتَرْقَعُ جَيْبَ دِرْعها، فإذا قيل لها: أَلَيْس قد أَوْسَعَ اللّه عَليْك؟! قالت: إنَّهُ لا جديد لِمَنْ لا خلِقَ له].

وكانت - رضي اللّه عنها - تتصدَّق بالمال وهي صائمَة وتنسى نفسها، ولا تُمْسك شيْئًا لإفطارها...

قال «عُرْوة»:

- [بَعَثَ «معاوية» إلى «عائشة» - رضي اللّه عنها - بمائة ألْف، فواللّه ما غابت الشمْس عن ذلك الْيَوْم حتى فَرَّقَتْها، قالت موْلاةٌ لها: لو اشْتَريْتِ لنا من هذه الدراهم بدِرْهمٍ لحمًا، فقالت: لوْ قُلْتِ قَبْلَ أَنْ أُفرِّقَها لَفَعَلْتُ].

شِدَّة وَرَعها:

ما من شك في أن السيِّدة «عائشة» - رضي اللّه عنها - بما هَيَّأَ اللّه لها من البيئة الصالحة والنشأَة الطيبة، كانت على مقام رفيع في المعرفة والخشية والْوَرَع.

ولقد اتَّصَفَتْ - رضي اللّه عنها - بِصِفَةِ الْوَرَع في جميع مراحل حياتها، وها هي في حياة النبي «ﷺ» تَمْنعُ عمَّها من الرضاعة من الدُّخول عليْها حتى يأْتي النبيٌّ «ﷺ»، فيقول لها:

- [فَلْيلجْ عَلَيْك عمُّك]

ومع ذلك تَسْتَفْسِر قائلة: إنَّما أَرْضَعَتْني المرأة ولم يُرْضِعْني الرَّجُل!!! فيعُودُ رسُول اللّه «ﷺ» ليؤَكِّد لها:

- [إنّه عمُّك فَلْيلج عَليْك].

ولما [طلب منها النبيُّ «ﷺ» أن تمدّ يدها من حُجْرتها إلى المسجد لتُناوله الْخُمْرةَ، قالت: إني حائض، فقال «ﷺ»:

- [إنّ حَيْضَتَكِ لَيستْ في يَدِك].

ومن صُوَر وَرَعها - رضي اللّه عنها - أنَّها مَنَعَتْ إدْخال جاريةٍ صغيرة عليها قائلة:

- [لا تُدْخلنّها عليَّ إلا أن تَقْطعُوا جلاجلها (أجْراسها)، سمعتُ رسُول اللّه «ﷺ» يقول:

- (لا تَدْخُل الملائكة بَيْتًا فيه جَرَس)].

ومن وَرَعها - أيضًا - أنّها ما كانَتْ تَنْسى أَن تُوصي النساء قائلةً:

- [مُرْنَ أزواجكُنَّ أَنْ يستطيبُوا بالماء فإني أستحييهم، فإن رسُول اللّه «ﷺ» كان يَفْعله].

ورَأَتْ أخاها «عبد الرحمٰن» يتوضَّأُ، فَكأنَّه أَسْرَع ليُدْرك صلاة الجنازة على «سعْد ابن أبي وقاص» - رضي اللّه عنه -، فقالت له:

- يا «عَبْد الرحمٰن» أسْبغ الوضوء، فإني سَمِعْتُ رسُول اللّه «ﷺ» يَقُول:

- [وَيْل للأعقاب من النّار].

ومن أبْرز صور وَرَعها - رضي اللّه عنها - ما رَوَتْه عن نفسها بقَوْلها:

- [كُنْتُ أَدْخُلُ البَيْتَ الذي دُفِنَ فيه رسُولُ اللّه «ﷺ»، وأبي - رضي اللّه عنه - واضعةً ثَوْبي، وأقولُ، إنّما هُوَ زَوْجي وأبي، فلمّا دُفِنَ «عُمَر» - رضي اللّه عَنْه -، واللّه ما دَخَلْتُ إلّا مشدودة عليَّ ثيابي حياءً من «عُمَر» - رضي اللّه عنه -].

مُعَلِّمة الرِّجال والأجيال!!!

عِلْمُها:

قال «الحاكم» في «المستدرَك»: إن رُبع أحكام الشريعة نُقِلَتْ عنها.

وليس في هذا القول، أو هذه الشهادة، أية مبالغة، على الرّغم من اتساع الحكْم وشموله.

فقد كان العلْم من أبرز صفات السيّدة «عائشة» – رضي اللّه عنها – إذْ بَلَغَ عِلْمها ذروة الإحاطة والنُّضْج في مختلف ما اتَّصل بالدين من قرآنٍ وتفسير وحديث وفقْه.

وكان أكابر الصحابة – رضوان اللّه عليهم – إذا أُشكل عليهم الأمر في قضيّةٍ من القضايا يَسْتَفتونها فيجدون عِلْمه عندها، قال «أبو موسى الأشعري»:

– (**ما أشكل علينا – أصحاب** رسول **اللّه** « ﷺ» – **حديث قط، فسألْنا «عائشة» إلّا وَجَدْنا عندها منْهُ عِلْمًا**).

وقال «مسْروق بن ٱلأجْدع»:

– (**رأيْتُ مَشْيَخة أصحاب «محمد» – « ﷺ» يَسْألونها عن الفرائض**).

وحين يشكل على أهل الأمصار أمر من الأمور، يكتبون إلى أصحاب رسُول اللّه « ﷺ» في الحجاز، ويسألونهم عن حُكْم اللّه فيه، فكان هؤلاء إذ فاتهم علْم شيْء، رجعوا إلى عُلماء بينهم اشتهروا بحمل العلم وفِقْهِه مثل «**عبداللّه بن عمر**» و«**أبي هريرة**» و«**ابن عباس**»، وكان مقام السيدة «**عائشة**» بيْن هؤلاء مقام الأستاذ من تلاميذه، فكان «عمر بن الخطاب» يحيل عليها كل ما يتعلق بأحكام النساء، أو بأحْوال النبيّ « ﷺ» البيتيّة، لا يُضارعها في هذا الاختصاص أحدٌ على الإطلاق.

قال «الزهري»:

– (لو جُمع علْم «عائشة» إلى عِلْم جميع النساء لكان عِلْم «عائشة» أفْضل.).

وقد يصل أحيانًا إلى سَمْع «عائشة» عن بعض علماء الصحابة روايات وأحكام على غَيْر وجْهها، فتصحّح لهم ما أخطأوا فيه، أَوْ تَبيّن لهم ما خفي عليهم، حتى اشتهر ذلك عنها، فصار من شك في روايةٍ أتى «عائشة» سائلًا، وإذا كان بعيدًا كتب إليْها يَسْألها.

أخرج «البيهقي» عن «الزهري» أنه قال:

– [**أوّل من كشف الغُمّى عن الناس وبيّن لهم السُّنَّة في ذلك «عائشة»** –

رضي الله عنها –].

ومن ذلك، رجوع «أبي هريرة» عمّا كان يرويه عن «الفضْل بن عباس»: أن من أدْرَكه الفَجْرُ وهُوَ جُنُب فلا يَصُم؛ فلما سُئِلَتْ «عائشة و«أمّ سَلَمَة» قالت:

– [كان النبيّ « ﷺ» يُصْبِحُ جُنُبًا من غَيْر حلم ثم يَصُوم] ولمّا أخبر «أبو هريرة» قال: هُما أَعْلَم، ثم رَدَّ ما كان يَقُول في ذلك.

ولقد أَلَّف الإمام «بدر الدين الزَّرْكشي» كتابًا ذكر فيه كُلّ المسائل التي قيل إن «عائشة» – رضي الله عنها – اسْتَدْركتها على الصحابة، وسمّاه:

(الإجابة لإيراد ما اسْتَدْركتْه «عائشة» على الصحابة).

كما كتب العلامة «جلال الدين السيُوطي» كتابًا آخر في نَفْس الموضوع وسمّاه: (عَيْن الإصابة في اسْتِدْراك «عائشة» على الصحابة).

وهو مختصر لِـ (الإجابة) وتَصْويب لِبَعْض ما وَرَدَ فيه.

مُعلِّمة العلماء

انْتَشَرَ عِلْم السيّدة «عائشة» – رضي الله عنها – في الأمصار والأقطار، وتناقله الناس في كل مكان، فَيَمَّمَها طلاب العلْم والمعرفة واتَّجهُوا قِبلَ الْحُجْرة المباركة التي أصْبَحَتْ أوَّل مدارس الإسلام – بَعْد مَسْجِدِه «عَلَيْه الصلاة والسلام» في عَهْده – وأعظمها أثرًا في تاريخ الفكْر الإسلامي، ولقد تَخَرَّج من هذه المدرسة (الجامعة) كبار علماء التابعين وساداتهم، فكانت «عائشة» – رضي الله عنها – بحقّ: **[معلّمة العلماء ومؤدّبة الأدباء].**

وكانت السيّدة – رضي الله عنها – تَحْتجب عن تلاميذها غَيْر المحارم، ورُبَّما نَبَّهَتْهُم بِتَصفيقها من وراء الحجاب.

قال «مسروق»: **(سَمِعْتُ تصفيقها بيَدَيْها من وراء الحجاب)**

ولقد اتْبَعَتْ في التعليم والتلقين الأساليب والطرق التربوية الرفيعة، مُقْتدِيةً برسُول الله « ﷺ».

أوَّل تلك المبادىء هي التَأَنّي في الكلام، ليتمكّن المستمع من الاستيعاب، ولقد

كانَتْ تُنْكر على من تَسْمعه يُسْرع في كلامه.

قال «عُرْوة»: قالتْ «عائشة»:

- [ألا يُعْجبك أبو فُلان (تعني أبا هريرة) جاء فجلس إلى جانب حُجْرتي يحدِّث عن رسُول اللّه «ﷺ»، يسمعني ذلك، وكُنْتُ أُسَبّح (أُصَلّي) فقام قَبْل أَنْ أَقضي سبحتي، لو أَدْرَكْتُه لرددْتُ عليه، إن رسول اللّه «ﷺ» لم يكُنْ يَسْرد الحديث كَسَرْدِكُم].

وكانت - رضي اللّه عنها - تلجأ إلى الأسْلُوب الْعِلْمي التَّطْبيقي، فكثيرًا ما كانَتْ تعلِّم تلاميذها وتلميذاتها الأحكام الشرعيّة العملية فتؤديها بنَفْسها أمامهم.

من ذلك تعليمها «سالم سبلان» كيْفيّة الوضوء، قال في وَصْف ذلك:

- [أَرَتْني «عائشة» كيْفَ كان رسُولُ اللّه «ﷺ» يتوضّأ، فتَمَضْمَضَتْ واَسْتَنْثَرَتْ ثلاثًا، وغَسَلَتْ وَجْهها ثلاثًا، ثم غَسَلَتْ يدها الْيُمْنى ثلاثًا والْيُسْرى ثلاثًا، وَوَضَعَتْ يدها في مقدَّم رَأْسها ثم مَسَحَتْ مَسْحَةً واحدةً إلى مُؤَخّرِه، ثم أَمَرَّتْ يَدَيْها بِأُذُنَيْها، ثم مرَّتْ على الخدَّيْن،

قال «سالم»:

- كُنتُ آتيها مُكاتبًا ما تَخْتفي مِنّي، فَتَجْلِس بَيْن يديَّ وتتحدّث معي، حتى جِئْتُها ذات يَوْم فقُلْتُ: ادْعي لي بالْبَركة يا أُمَّ المؤمنين، قالت: وما ذاك؟ قُلْتُ: أَعْتَقَني اللّه، قالَتْ: بارك اللّه لَكَ، وأَرْخَتِ الحجاب دُوني، فَلَمْ أَرَها بعد ذلك اليَوْم].

ولم تكُن - رضي اللّه عنها - لتتحرَّج في إجابة السائلين المستفتين عن أي مسألةٍ من مسائل الدِّين، حتى ولوْ كانَتْ تتَّصل بشؤون الإنسان الخاصة، تقديرًا منها لمسؤوليتها عن بيان مثل هذه الأحكام التي لم يطّلع عليها أحد سوى نساء النبيّ «ﷺ».

وكانت - أحْيانًا - تشجع المستفْتين الذين يَسْتحْيونَ من السؤال عن مثل هذه الأمور والقضايا...

قال «عبد اللّه بن شهاب الخولاني»:

- [كُنْتُ نازلًا على «عائشة» فاْحتَلَمْتُ في ثَوْبي، فَغَمَسْتُهُما في الماء، فرأتْني جارية لِـ «عائشة» فَأَخْبَرَتْها، فَبَعَثَتْ إليّ «عائشة» فقالت:

- ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْتَ بِثَوْبَيْك؟ قُلتُ: رأَيْتُ ما يرى النائم في منامِهِ، قالت: هَلْ رأيْتَ فيهما شيئًا؟ قلتُ: لا، قالت: فَلَوْ رَأَيْتَ شيئًا غسلْته، لقد رَأَيْتِنِي وإني لأحُكُّه من ثَوْبِ رسُول اللّه « ﷺ» يابسًا بِظُفْري].

المفسّرة

لقد تهيّأ للسيدة «عائشة» - رضي اللّه عنها - من الأسباب ما جعلها علمًا شامخًا من أعلام التفسير، فمنذ طفولتها المبكّرة، ونعومة أظافرها كانت تَسْمَعُ تلاوة أبيها «الصِّدِّيق» - رضي اللّه عنه - للقرآن الكريم، وكانت تلاوته مؤثّرة، يَبكي إذا قرأ ويُبْكي سامعه أيْضًا، ولقد ضاق بِهِ القرشيون ذَرْعًا، فلقي منهم أذًى كبيرًا وكثيرًا في هذا السبيل.

قالت - رضي اللّه عنها -:

- [لقد نزل بمكة على «محمد» - ﷺ -، وإني لجارية أَلْعب -: ﴿بَلِ الساعة مَوْعدهم والساعة أَدْهى وَأَمَرّ﴾؛ وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عِنْده].

ثم انتقلت إلى بَيْت النبوّة،

وفيه شهدت كثيرًا من أسباب نزول الوحي، ولقد سُميت حُجْرتها: (مَهْبِط الوَحْي).

لذلك وصفت أَحْواله « ﷺ» حين نزول الوحْي عليه:

- [ولقد رأيْته يَنْزل عليه الوحي في الْيَوْم الشديد الْبَرْد فيفْصم عنه، وإن جبينه لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا].

وكثيرًا ما كانت تَسْأل رسُول اللّه « ﷺ» عن معاني الآيات والمراد منها، فكان «عليه الصلاة والسلام» يُبَيِّن لها ذلك؛ وبهذا تَلَقَّت التَّفْسير من فمِ النبيِّ « ﷺ».

قالت - رضي اللّه عنها -:

- [سألْتُ رسُول اللّه « ﷺ» عن هذه الآية:

﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبُهُم وَجِلة﴾ أَهُم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟

قال: لا يا «بِنْت الصِّدِّيق» ولكنهم الذين يصومون ويُصَلّون ويتصدّقون، وهم يخافون أن لا يُقْبل منهم ﴿أولئك يسارعُون في الخَيْراتِ وهم لها سابقون﴾].

وقالت أيْضًا:

- [سألْتُ رسُول اللّه « ﷺ» عن قوْله - عَزَّ وَجَلَّ -:

﴿يَوْم تُبدَّل الأرْض غير الأَرْض والسماوات﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسُول اللّه؟ فقال: على الصراط].

أَضِف إلى ما تقدم قوتها في اللغة، وفصاحتها وبيانها وبلاغتها، كمادّةٍ أساسيّةٍ للتفسير.

وكانت تحرص على أن يكون التفسير منسجمًا مع أصول الإسلام في كُليّاتِهِ وعقائده.

قال «عروة بن الزبير» يَسْأَل «عائشة» عن قول اللّه تعالى:

﴿حتى إذا ٱستيأس الرُّسُل وظَنّوا أنّهم قد كُذِبوا جاءَهم نَصْرُنا...﴾

قُلْتُ: أَكُذِبوا أَمْ كُذِّبوا؟ قالت «عائشة»: كُذِّبُوا...، قُلت: فقد ٱستَيْقنوا أن قومهم كذّبوهم فما هو بالظَّن، قالت: أَجَلْ، لَعَمْري لقد ٱستَيْقنوا بذلك، فَقُلْتُ لها: وظنّوا أنّهم قد كُذِبُوا؟ قالت: معاذَ اللّه لم تكُن الرُّسُل تظن ذلك بربّها، قلتُ: فما هذه الآية؟ قالت: هُم أتباع الرسل الذين آمنوا بربِّهم وصدّقوهم، فطال عليهم البلاء وٱستأْخر عنهم النّصر، حتى إذا ٱسْتَيْأس الرُّسل مِمَّنْ كذبوهم من قَوْمهم، وظَنَّتْ الرسل أَنَّ أتباعهم قد كذّبوهم جاءَهم نصْر اللّه عِنْد ذلِك].

كما كانت تحرص - رضي اللّه عنها - على إظهار اتفاق آيات القرآن فيما بَيْنها في تساوُقٍ وٱنسجام، إذ تردُّ الآيات إلى آياتٍ أخرى، وتُفَسّر القرآن بالقرآن.

سألها «عروة» - رضي الله عنه - عن قول الله تعالى:

﴿وإن خِفتُم ألّا تُقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورُباع﴾.

فقالت:

- يابنَ أُختِي، هي اليتيمة تكون في حجْرِ وليّها تشاركه في ماله، فيُعجبه مالها وجمالها، فيريد وليّها أن يتزوَّجها بغير أن يُقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنُهُوا أن ينكحوهُن إلّا أن يُقسطوا لهُنَّ وَيَبلُغوا بهنّ أعلى سُنَّتِهِنَّ (عاداتِهن في المهور)، وأُمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهُنّ.

ثم إن الناس استفتوا رسُول الله « ﷺ» بعد هذه الآيات فيهنَّ، وأنزل الله عزَّ وَجلّ:

﴿ويَستفتُونَكَ في النساء قُل الله يُفتيكُم فيهن وما يُتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تُؤتُونهنَّ ما كتب لهُنَّ وتَرغَبونَ أن تنكحوهُنّ...﴾.

قالت: والذي ذكره الله تعالى أنه يُتلى عليكم في الكتاب، الآية الأُولى التي قال الله فيها: **﴿وإنْ خِفتُم أن لا تُقسطوا في اليتامى فانكحُوا ما طاب لكم من النساء﴾**، **قالت «عائشة»: وقول الله في الآية الأخرى: ﴿وترغبون أن تنكحوهُنَّ﴾** رغْبة أحدكم عن اليتيمة التي تكون في حجْرِهِ حين تكون قليلة المال والجمال، فنُهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالْقِسْط من أَجْل رَغْبَتِهم عَنْهُنّ].

المحدِّثة

هذه الصِّفةُ العلميّةُ هي أَبْرَزُ صفات السيِّدة «عائشة» - رضي الله عنها -، وهي تُعَدُّ من كبار حُفاظِ السُّنَّةِ من الصحابة، وَلَقد اعْتبرها المحقّقون في المرتبة الخامسة في حِفْظ الحديث وروايتِهِ بَعْد **«أَبي هُرَيْرة» و«ابن عُمَر» «وأَنَس بن مالك» و«ابْن عبّاس» - رضي الله عنهُم -.**

لكن السيّدة «عائشة» تمتاز عَنْهُم بأنّ مُعْظم الأحاديث التي روتْها، قدْ **تَلَقّتْها مباشرةً من النبيّ** « ﷺ»، أو غيْرها فَقَد روى بَعْضهم عن بَعْض، وقلَّ أنْ رَوَت السيّدة عن غير رسُول اللّه « ﷺ»، فهي تعد بِحَقّ أكثر **الصحابة تَلَقِّيًا عن النبيّ** « ﷺ»...، وبهذا انْفَرَدَتْ بروايةِ أحاديثَ لم يَرْوها غيرها.

هذه الميزة تُبيِّن لنا فَضْلها في نَقْل السنّة النبويّة ونَشْرها بيْن الناس، سابقًا ولاحقًا، ولَوْلاها – رضي اللّه عنها – لضاع قِسْمٌ كبير من سُنَّة النبي « ﷺ»، خصوصًا سُنّته الفعليّة في بيْتِهِ « ﷺ».

ولقد كانَتْ حُجْرتها التي تَضُمُّ قَبْرَهُ الشريف – عليه الصلاة والسلام – مَدْرسة الحديث الأولى، يقصدها طلاب العلْم من كُلِّ مكان، ولا تضِنّ على أَحَدٍ بالرواية والضَّبْط والتوجيه.

وكانت – رضي اللّه عنها – ترى وجوب المحافظة على ألفاظ الحديث، ولا تُجيز روايته بالمعنى، سواء منها أو من غَيْرها، وتتحرّى الدقّة في ذلك.

وعَرَف حُفّاظ السنّة من الصحابة حِرْص السيّدة على ضَبط أَلْفاظ الحديث، لذلك كان بَعْضهم يأْتي إليها ويُسْمِعُها بَعْض الأحاديث ليؤكّد لها قوّة ضَبْطِهِ وحِفْظِهِ.

[ولقد كان «أبو هُرَيْرة» – رضي اللّه عنه –، وهُوَ مَنْ هُوَ أكثر حِفْظًا للسُنّة، يأْتي إلى مكانٍ قريبٍ من حُجْرتها فَيُحَدِّث ويقول: اسْمَعِي يا رَبَّةَ الحجْرة، اسْمَعِي يا ربّة الحجْرة].

وكان الْحُفّاظ الرُّواة إذا اخْتلَفُوا في شيْءٍ احْتَكَمُوا إليْها، وأخذوا رَأْيها، **[قيل لِـ «ابْن عُمَر: إن «أبا هريْرَةَ» يقول:**

سَمِعْتُ رسُول اللّه « ﷺ» يقول: (من تبع الجنازة فَلَهُ قيراطٌ من الأجْر).

فقال «ابن عُمَر»: أَكْثَرَ عَلَيْنا «أبو هُرَيرَة».

فَبَعَثَ إلى «عائشة» فسألها فَصَدَّقَتْ «أبا هريرة»؛ فقال «ابْن عمر»: لقد فَرَّطْنا في قراريط كثيرة].

والشواهد على ذلك كثيرة وعديدة.

الفقيهة... المجتهدة

تُعَدُّ أمّ المؤمنين، السيّدة «عائشة» – رضي الله عنها – من كبار علماء الصحابة المتفقّهين المفْتين، ولقد ذكرنا آنفًا أن كبار الصحابة وشيوخهم كانوا يسألونها فتُجيبهم ويستفتونها فتُفْتيهم.

ولقد ذكر «القاسم بن محمد بن أبي بكر» – ابن أخيها وأحد تلامذتها النُّجباء أنها استقلَّتْ بالفتوى زمن «أبي بكر» و«عمر» و«عثمان» – رضي الله عنهم – إلى أن توفّيت – رحمها الله –.

لم تكتف – رضي الله عنها – بما عَرَفَتْ عن النبي «ﷺ» وأحْواله، بل اجتهدت في آستنْباط الأحكام للوقائع المستجدّة، التي لم تجد لها حُكْمًا في كتاب الله تعالى وسُنَّة نبيّه – عليه السلام –.

قال «أبو سلمة بن عبد الرحمٰن»:

– [**ما رأيْتُ أحدًا أَعْلَم بِسنَنِ رسُول الله «ﷺ»، ولا أَفْقَهَ في رَأْي إن آحتيج إليه، ولا أعلم بآية فيمَ نزلت، ولا فريضة، من «عائشة».**

ولم تكُن – رضي الله عنها – رغم فقهها واجتهادها، لتَسْبق الأحداث، أوْ تَفْترِضها، بل لا تُعْطي رَأْيًا أوْ حُكْمًا إلا فيما هُوَ واقع.

[**دَخَلَ عليها «سعد بن هشام» فقال:**

إني أريد أن أسألك عن التبتُّل، فما ترين؟

قالت: فلا تَفعل!! أما سَمِعْت الله عَزّ وَجَلّ يقول:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رسُلًا من قَبْلك وجَعَلْنا لهم أزواجًا وذُرِّيّة﴾ فلا تتبتَّل].

وقال «ابن أبي مليكة»:

[**كانت «عائشة» إذا سُئِلَتْ عن المُتْعة قالت:**

بَيْني وبَيْنَهُم كتاب الله، قال الله:

﴿والذين هُم لِفُرُوجِهِم حافظون* إلّا على أَزْواجهم أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُم فإنَّهُم غَيْر مَلُومين* فَمَن ٱبْتَغى وراء ذلك فأُولئك هُم العادون﴾].

أَدَب السيِّدة «عائشة»

قال «معاوية بن أبي سُفيان»:

- [**والله ما سَمِعْتُ قَطّ أَبْلَغَ من «عائشة»، ليْس رسُول الله «ﷺ»**]

وقال «الأحنف بن قَيْس»:

- [**سَمِعْتُ خطبة «أبي بكر الصدِّيق» و«عمر بن الخطاب» و«عثمان بن عفّان» و«علي بن أبي طالب» - رضي الله عنهم - والخلفاء هَلُمّ جرّا، إلى يَوْمي هذا، فما سَمِعْتُ الكلام من فمِ مخْلوقٍ أَفْخم ولا أَحْسَنَ مِنْه في فِي «عائشة» - رضي الله عنها -**].

وقال «موسى بن طلْحة»:

- [**ما رَأَيْتُ أَحدًا أَفْصَح من «عائشة»**].

وكان «الشّعبيُّ» يَذْكُرها، فيتعجّب من فِقْهها وعِلْمها، ثم يَقُول:

- **ما ظَنُّكم بِأَدَب النُّبُوّة!!!**

تم

سبحانك اللهم وبحمدك

أشهد أن لا إله إلّا أنت

أستغفرك وأتوب إليك

الفهرس

شخصية عائشة رضي اللّه عنها

ماذا في هذا الكتاب ؟!

«عن عَمْرِو بنِ العاصِ: يا رسولَ اللّهِ... أيُّ الناسِ أحبُّ إليكَ؟... قال: عائشةُ... قالَ: مِنَ الرجالِ؟... قالَ: أبُوها.»!!!

«عن أنَسٍ... أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال:

فَضْلُ عائشةَ على النساءِ كَفَضْلِ الثَّريد على سائرِ الطعام.»!!!

«وقال رسول اللّه ﷺ . يا عَائِشُ... هذَا جِبْرِيْلُ يَقْرأُ عَلَيْكِ السَّلاَمَ... قالَتْ: فقُلْتُ: وعليهِ السَّلامُ ورحمةُ اللّهِ...»!!!

«وعن عائشة... أنَّ النبيَّ ﷺ قال لها: أما ترضين أن تكوني زوجتي في الدنيا والآخرة.»!!!

«وعن عائشةَ رضي اللّه عنها قالَتْ: تُوُفّي النبيُّ ﷺ... في بَيْتي... وفي يَوْمِي... وبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي...»!!!

[السَّحْر: الرئة - والنَّحْر: موضع القلادة من الصدر].

فيه حياة أُمّ المؤمنين... وزوج رسول اللّه ﷺ في الدنيا والآخرة... عائشة... عليها السلام!!!.

